عميرة عليّة الصغيّر

اليوسفيّون وتحرر المغرب العربي

تونس 2011

عميرة عليّة الصغيّر

اليوسفيّون وتحرّر المغرب العربي

الإهداء :

إلى كل شهداء الحرية

في تونس

وفي فلسطين

عميرة عليّة الصغيّر

اليوســفيّون وتحرّر المغــرب العــربي/ عميرة عليّة الصغيّر، 300 ص ؛ 24 سم، الطبعة الثانية 2011.

ر د م ك : ISBN : 978-9973-61-735-4

1. الحركات الوطنية المغاربية. 2. المقاومة 3. التضامن المغاربي

طبع :المغاربيّة للطباعة و النشر و الإشهار MIP .الشرقيّة – تونس

محتوى الكتاب

تقـديـم:

اخترنا لهذا الكتاب عنوان "اليوسفيّون وتحرّر المغرب العربي" لأنّنا نعتقد أنّ اليوسفيّة كمواقف ونضال سياسي قامت على مرجعيّة فكريّة سبقتها، لكن اندرجت هي فيها وهي أنّ قضيّة التّحرر من الاستعمار في تونس والجزائر والمغرب الأقصى هي قضيّة يترابط نضال شعوبها ترابطا عضويّا وجدليّا فلا تحرّر لشعب إلاّ بتحرّر الآخر ولا دوام للحرّيّة ما دام شعب آخر يرزح تحت الاستعمار لذاك كانت المعارضة اليوسفيّة وفيّة لهذا الإدراك وسارت عليه مكافحة في سبيل التّحرير الشامل للمغرب العربي كما سيتبيّنه القارئ لفصول هذا الكتاب.

لكن مبدأ التكافل والتّضامن بين الشعوب المغربيّة لم يكن حكرا على اليوسفيّين في تونس لا من حيث القناعة ولا من حيث الممارسة، وعكس ما دأب عليه اليوسفيّون في دعاياتهم ضد خصومهم من البورقيبيّين، فقد أوفى نظام بورقيبة بواجب الدّعم لقضيّة التّحرير الجزائريّة بقدر ما استطاع كما تبيّنه بعض الفصول هنا.

ويجد القارئ أيضا ضمن النصوص المنشورة أوجه هذا الدّعم من الجانب التّونسي للثورة الجزائريّة وكذا للقضيّة التحريريّة في المغرب الأقصى قبل حتى مرحلة الحسم مع الاستعمار في الخمسينات.

ولقد حاولنا في الفصل الأوّل من هذا المؤلّف أي "اليوسفيّون بين 1954 و 1963" أن نكشف عن جوانب من نشاط هذه "المعارضة الوطنيّة"، وملابسات صراعها مع خصومها وأدوات وأساليب ذاك الصّراع يحدونا واجب البحث عن الحقيقة في نسبيّتها وواجب المؤرّخ تجاه وطنه. ولعلّنا نوفّق ولو جزئيا في تغيير تلك القناعة المنتشرة ليس فقط عند جيلين على الأقل من التونسيّين العاديّين بل حتى عند بعض المؤرّخين من اعتبار اليوسفيّة هي مجرّد "فتنة" و"مؤامرة" وراءها رجل "مهووس بالسّلطة" أي صالح بن يوسف. فإنّ تأمّلنا المتأنّي -مع غيرنا وهم قلّة- في تاريخ تونس من 1954 حتى 1957 أقنعنا بالحجّة التاريخيّة أنّ المعارضة اليوسفيّة كانت ليس فقط تعبيرا على توجّه وطني شعبي عميق بل هي شقّ وطني ذو وزن كان فعله النّضالي المقاوم حاسما في تحوّل البلاد من الاستقلال

الذاتي إلى الاستقلال التّام ثم إكساب البلاد سيادتها الفعليّة بالجلاء العسكري وجلاء المعمّرين عنها.

وأوردنا كذلك في هذا القسم الأول من الكتاب حول اليوسفيّة سيرة علمين من أعلام المقاومة المسلّحة في تونس وهما الطيّب الزّلاق كمقاوم يوسفي والأزهر الشرايطي كمقاوم بورقيبي لكن لقيا المصير ذاته أي الإعدام.

أمّا القسم الثاني المحتوي على خمسة فصول، فهي في رأينا كفيلة بأن تعطي أضواء على ذاك الزّخم الكفاحي والتكافلي بين حركات التّحرّر في المغرب العربي وذاك التّواصل الوجداني بين شعوب المغرب من أجل انعتاقها وحتّى توحّدها. خاصّة وإنّها كتبت في محاولة عامّة من المدرسة التاريخيّة الحديثة في المغرب العربي الطّامحة للخروج من التقوقع على الوطني أو القومي وفتح مجالات للمقارنة والتّوحّد.

مع الملاحظة أنّ كلّ النّصوص المعروضة هنا هي مساهمات في مؤتمرات وندوات علميّة انتظمت بتونس أو بالمغرب أو الجزائر بعضها صدرت في هذين البلدين وبعضها في تونس حتّى وإن كان نصف الكتاب تقريبا تنشر مادّته لأوّل مرّة بعد أن عرضت إشكالياته (حول اليوسفيّة) في ندوات علميّة سابقة (هنا خاصّة الندوة الثالثة عشرة لمعهد تاريخ الحركة الوطنية حول الاستقلال التي ساهمنا فيها بنص إشكالي في الموضوع).

ونحن ننشرها مجتمعة هنا أوّلا لظنّنا أنها تتوحّد في الإشكاليات التاريخيّة التي تطرقها وثانيا تعميما للفائدة بوضعها في متناول العموم خاصّة وإنّ جزءا منها نشر خارج تونس أو في مجلاّت مختصّة وأعمال ندوات وهي ليست مطروحة للقارئ غير المتخصّص. وأملنا أن يلقى فيها المطّلع بعض الأجوبة عن أسئلة يطرحها في تاريخ الخمسينات من القرن الماضي في تونس والمغرب العربي، وحتّى لو اقتصرت نصوص الكتاب على إثارة تساؤلات أو انتقادات، فإنّ ذلك يسرنا، إذ نكون حينئذ قد نجحنا في استقطاب اهتمام القارئ لتاريخ يعنيه.

المؤلّف

القسم الأول:
في اليوسفية

اليوسفيّون (1954-1963) (*)

* "إنّ الإبداعات الحقيقية في علم التاريخ تقع غالبا في مجال التّأويلات للأحداث أو بعبارة أخرى إنّ الثّورات في الإنتاج التاريخي هي ثورات تأويليّة أكثر منها اكتشافات للوقائع".

* "لأنّ المعرفة التاريخيّة بطبيعة بنائها هي غير مباشرة وتقوم على القرائن والتّخمين فإنّها عرضة للتّشويه والتّحريف عن غايتها في الصّدق وستبقى كذلك".

فرانسوا بدريدا في مجلّة "التاريخ" (L'Histoire) عدد جانفي 1996، ص 98.

ها هي خمسون سنة تمرّ على استقلال تونس ولا زال نصف القرن هذا يراوح مكانه تقريبا، لا زال في بدايته، دائما متردّدا، مشبوها فيه، مطبوعا بالعواطف والشك إن لم يكن يسوده الخوف وتشمله الرّقابة والرقابة الذاتيّة. ليس "وقع الحاضر" فقط الذي يفسّر هذا الواقع ولا كذلك قلّة المصادر الأرشيفية (التي لا زالت مغلقة من الجانب التونسي وللأسف) بل هنالك أيضا، حسب اعتقادنا، غياب للنّضج التاريخي في المجتمع وقلّة الشجاعة عند بعض الفاعلين في تاريخ تونس القريب في تحمّل مسؤولية ماض يهمّهم. لذلك نعتقد أنّ التطرّق لهذا الموضوع ونحن على وعي بمعوّقاته هو بداية لرفع هذا الإشكال التاريخي وإقرار للباحث بمسؤولية نحو مجتمعه هي عليه.

إنّ دراستنا هذه حول "اليوسفيّين" لا تدّعي أنّها "عمل فاتح" لأنّ أعمالا أخرى جديّة أو أقل جدّية، ملتزمة أو محايدة حاولت طرق نفس الموضوع[1]. وبدورنا انطلاقا من هذه

(*) دراسة قدمت موجزة في الندوة حول : الاستقلال للمعهد الأعلى لتاريخ الحركة الوطنية (5-6-7 ماي 2006).

(1) نذكر خاصّة:

"الحصيلة التاريخية" واعتمادا على ما يوفره الأرشيف (الفرنسي خاصة) والشهادات العدّة والمراسلات المتوفرة نحاول أن نطرق مجموعة من الأسئلة في صلب المبحث في الحيز الزمني الممتدّ بين 1954 أي منذ خطاب قرطاج لمنداس فرانس إلى بداية 1963 عندما وقعت محاكمة المتورّطين في محاولة الانقلاب على بورقيبة والتي نعتبرها "الوثبة"

- التركي، عروسية، **الحركة اليوسفية في تونس (1955-1956)**، مكتبة علاء الدين، صفاقس، 2011.

- ناصري، محمد المختار:

- **الحركة الوطنية بين البورقيبية واليوسفيّة، 1934-1969**، ش.ك، كلية 9 أفريل، تونس، 1991.

- **المقاومة التونسية المسلّحة وإشكالياتها (1952-1956)**، أطروحة دكتوراه، كلية 9 أفريل، تونس، 2002.

- الزواري، محمد، **الحركة اليوسفيّة بجهة صفاقس (1955-1956)**، ش.د.م، كلية 9 أفريل، تونس، 2003.

- الخميري، محسن، **الحركة اليوسفية: مجالها وحدودها (1955-1956)**، ش د م، كلية الآداب بمنوبة، 2004.

- واردة، منجي، "جذور الحركة اليوسفيّة" **بالمجلّة التاريخيّة المغاربية**، عدد 71-72، ماي، 1993، ص 479 - 563.

- عليّة الصغيّر، عميرة، **المقاومة الشعبية في تونس في الخمسينات. انتفاضة المدن، الفلاقة، اليوسفيّة**، التسفير الفني، صفاقس، 2004.

- المنصف، الشابي، **صالح بن يوسف، حياة كفاح**، دار الأقواس للنشر، تونس، 1990.

- الهلالي، عبد الحميد، **تاريخ جهة جندوبة (1881-1956)**، علاقة الحركة الوطنية بالأرياف، أطروحة دكتوراه، كلّية 9 أفريل، تونس، 2000.

- Coret Alain, **La lutte contre l'opposition politique en Tunisie, 1955-1958**, mémoire, Fac. de Droit, Paris, 1958.

-Bersot Louis, **Le youssefisme**, mémoire dactylographié au CHEAM à Paris, 1958, 7p.

-Faurie Pierre, **Du fellaghisme au youssefisme** , exposé au CHEAM à Paris, 1958, 14 p.

- Bessis Juliette, « la crise de l'autonomie et de l'indépendance tunisienne, classe
Paris, 1978, pp.265-292.
politique et pays réel », in **Le Mouvement Social**, Paris, 1978, pp.265-292.

- Oualdi M'Hamed, **L'orage des indépendances. Salah Ben Youssef et les youssefistes en 1955-1956**, mémoire d'Histoire, Univ. Paris I , 1998-1999.

- El Mechat, Samya , **Tunisie, les chemins vers l'indépendance (1945-1956)**, Paris, l'Harmattan , 1992.

- Sayah Mohamed, **Le nouvel état aux prises avec le complot youssefiste, 1956-1958**, Tunis, Dar El Amal, Tome 1 (1982), Tome 2 (1983), Tome 3 (1983) (série HMNT)

الأخيرة لليوسفيّين وحلفائهم للإطاحة بخصم لم يرحمهم ولم يرحموه منذ 1955 وفصل "الحرب الأهلية" غير المعلنة بين شقي الحركة الوطنية التونسية. وبما أنّ هذا العمل هو محاولة تأليفيّة فإنّنا لن نتقيّد بكرونولجيّة الأحداث بل سنعتمد مقاربة تيميّة (thématique) نطرحها في سبعة محاور:

1- "الاستقلال" في منظور بورقيبة وفي منظور بن يوسف.

2- اتفاقيات 3 جوان 1955: خطوة إلى الأمام أم خطوة إلى الوراء؟

3- ما هي "اليوسفية"؟ تيّار سياسي أو "التقاء عرضي" لقوى معارضة ؟

4- وزن اليوسفية وانغراسها الجغرافي.

5- الصّراع اليوسفي- البورقيبي: الوسائل، التحالفات، النتائج.

6- مؤتمر صفاقس والاستقلال: حدثان يتوجّب إعادة قراءتهما.

7- زمن الاستقلال: اليوسفيّة: معارضة من أجل بديل أم ثأر دائم ؟

I- الاستقلال في منظور بورقيبة ومنظور بن يوسف

من المفروض أن تكون لرئيس الحزب الدستوري الجديد الحبيب بورقيبة وأمينه العام صالح بن يوسف وكل المنضوين لهذا الحزب رؤية موحّدة لمضمون الاستقلال المطالب به مرحليّا على الأقلّ منذ مؤتمر حزبهم الاستثنائي المنعقد في 18 جانفي 1952 لكنّ تتبّعنا للأحداث السياسيّة وخاصّة تطوّر مواقف رأسي الحزب أثبت لنا خلاف ذلك وأقنعنا بحقيقتين في مسار هذا الحزب:

أولاهما إنّ منطق تسيير الحزب الدستوري الجديد وتقاليد الطّاعة والانضباط في صفوفه وما تعنيه من حرّية اتّخاذ القرار لهذه القيادة وهنا القيادة حتى بمفهوم الفرد وهنا "المجاهد الأكبر" (بورقيبة) أو "الزعيم الكبير" (بن يوسف) ([2]) دون الاحتكام دائما إلى هيئات الحزب (مؤتمر مثلا أو مجلس ملّي أو حتّى عقد ديوان سياسي) سمح لكلي

---

[2]- حول صيغ التسيير الكلياني في الحزب الدستوري الجديد يمكن العودة لكتاب مصطفى كريّم: الدولة والمجتمع في تونس البورقيبيّة، الجزء الأوّل، والباب الأوّل ص 67-81.
Mustafa Kraiem, **Etat et Société dans la Tunisie bourguibienne**, MIP, Tunis, 2011, pp. 63-77.

الزّعيمين من فرض رؤاهما وتأويلاتهما وتكتيكهما السياسي ومرّراها على أنّها مواقف الحزب ككل مما كان سببا للاختلاف وحتى التّقاتل كما جدّ منذ أواخر 1955.

وثانيهما أنّ الحزب الدّستوري الجديد كان حركة مقاومة جمعت شرائح اجتماعية مختلفة المصالح فكان أقرب للجبهة منه للحزب وحّدت بين أطرافها إرادة التّحرّر من المستعمر لذلك عندما حانت ساعة "الخلاص" انفجرت تناقضات هذه الجبهة وعبّرت عن آمالها وطموحاتها وتصوّراتها لمجتمع ودولة ما بعد الاستعمار ولو كان ذلك بصورة مبهمة وغير قاطعة وجليّة.

وكان الخلاف بين الزّعيمين تعبيرا على تلك التّناقضات –كما سنشرحه أكثر لاحقا- واختلاف رؤاهما كذلك.

1) منظور بن يوسف للاستقلال قبل إمضاء اتفاقيات 3 جوان 1955: ثبات على الموقف واحترام لمقرّرات حزبه:

كان آخر مؤتمر للحزب الحر الدّستوري الجديد قبل اندلاع "المعركة الحاسمة" في 1952 وحتّى مؤتمر صفاقس في نوفمبر 1955 هو مؤتمره المنعقد سرّيّا في 18 جانفي 1952 برئاسة الهادي شاكر والذي أقرّت لائحته السّياسيّة نصّيا: "**إنّ إعادة السّيادة التّونسية لا يمكن أن تتحقّق عن طريق التّرقيع والإصلاحات الجزئيّة للنّظام الحالي فإنّ مؤتمر الحزب يؤكّد على إلغاء الحماية** وتحوّل تونس إلى دولة مستقلّة ذات سيادة وعقد معاهدة بين تونس وفرنسا تنسّق على أساس المساواة علاقة الدّولتين" (3).

وأكّد المجلس الملّي لهذا الحزب والمنعقد بتونس في 15 أوت 1954 بعد تكوين حكومة التّفاوض التي شارك فيها الحزب وكانت برئاسة الطّاهر بن عمّار وذهب في نفس الاتجاه إذ حدّد مهمّة هذه الحكومة في "إمضاء اتفاقيات مع الحكومة الفرنسية تقوم على تحويل السّلط لأشخاص ومؤسّسات تونسية وتحديد العلاقات القادمة بين تونس وفرنسا" (4).

(3) **تاريخ الحركة الوطنية**، دار العمل، 1979، الجزء XIII، ص 135.

(4) لائحة المجلس الملّي الموسّع المنعقد بتونس يوم 15 أوت 1954 الصّادر ب"**البتي متان**" في 1954/8/17

هذه المقرّرات سوف تكون مرجعيّة صالح بن يوسف في مواقفه قبل وأثناء انطلاق المفاوضات حول الاستقلال الذّاتي في سبتمبر 1954 ويبرز ذلك في مختلف التّصريحات والمواقف التي صدرت عنه. وللخروج من العموميّات نحن مجبرون على إدراج استشهادات مطولة لهذا القيادي الدّستوري. ففي المؤتمر الصّحفي الذي كان عقده في البرلمان السّويدي في ستوكهولم يوم 18 جويلية 1953 أثناء مشاركته في مؤتمر الأمميّة الاشتراكية صرح صالح بن يوسف بـ"أنّ الحوار الفرنسي التّونسي **يجب أن يكون على قاعدة إلغاء معاهدة الحماية** وإقرار فرنسا لتونس بأنّها دولة مستقلة وذات سيادة آنذاك فقط يمكن فتح مفاوضات حرّة بين دولتينا. إنّ غاية تلك المفاوضات هي صياغة اتفاقيّة جديدة فرنسيّة – تونسيّة تحدّد المصالح العليا للطرفين وتفتح عهدا جديدا من الصّداقة والتّعاون المثمر بيه فرنسا وتونس" (5) والموقف ذاته يعبّر عليه بن يوسف لمدير الحزب المنجي سليم في رسالته له بتاريخ 14 فيفري 1954 إذ يؤكّد له إني "جعلت الهدف الذي نكافح من أجله داخل البلاد وخارجها هو الاستقلال والسيّادة الكاملة ولم نكن في ذلك إلاّ منفّذين لقرار المؤتمر التاريخي لحزبنا وهو المؤتمر المنعقد في 18 جانفي 1952 والذّي نادى بوجوب إلغاء الحماية والاعتراف باستقلالنا التّام كأساس وحيد لحلّ المشكل التونسي" (6).

وكان تصريح صالح بن يوسف في جنيف في 31 ديسمبر 1954 وأثناء المفاوضات الدائرة في باريس وتأكّد تصلّب الجانب الفرنسيّ تصريحا فاصلا وجليّا. حيث يقول: "لقد دقت الساعة اليوم لرفع كل التباس لتعلّم فرنسا (تعليقا على خطاب منداس فرانس) وتعلم جميع البلدان التي منحت ثقتها إلى منداس فرانس لينهي بالوسائل السلمية كل المشاكل القائمة بين تونس وفرنسا، إنّ **الشعب التونسي لن يرضى أبدا بحكم ذاتي صوري يحول دون تحقيق الاستقلال التام للوطن التونسي** (...) إنما الحكم الذي نقبله لا يكون إلاّ متجسما في حكم وطني صرف يدير وحدة شؤون البلاد التّونسيّة".

ثم يعدّد مستلزمات الحكم الذاتي في :

(5) نص المقابلة الصّحفية بأرشيف المصلحة التاريخية لجيش البر الفرنسي (SHAT/C.2H134) منشور ب **روافد** 2005/10 /ص 37.

(6) أوردها منصف الشابي في **صالح بن يوسف. حياة كفاح**، تونس، دار الأقواس للنّصر، 1990، ص 213-222، ص 215.

"**أوّلا** : توقيت كل الاتفاقيات التي تحدّ من سيادتنا إذ بدون ذلك التوقيت يصبح الح الذاتي حبرا على ورق ولن يكون مرحلة للاستقلال التام.

"ثانيا : تونسة الحكومة التونسية **مع نقل كل سلطات الأمن إليها** دون قيد ولا شر وبمجرد التوقيع على الاتفاقيات **فلا يبقى الحق لأيّة سلطة فرنسية – مدنية أو عسكرية أن تشارك في تحقيق الأمن والسهر عليه.**

"ولمّا كانت سلطات الأمن المدنية غير كافية **فلا بدّ من أن تعترف لنا فرنسا بح بعث جيشنا الوطني** حتى تكون الحكومة التونسية قادرة مطلقا على تحقيق الأمن الكام وبصفة ناجحة لكلّ القاطنين بالأراضي التونسية (...)

"**ثالثا : إرجاع كل الاختصاصات التي هي بأيدي القضاء الفرنسي اليوم إلى القضا التونسي** بعد أجل معقول حتى يصبح القضاء التونسي مهيمنا وحده على كل من تؤوي البلاد التونسية دون فرق في الجنسية أو الدّين.

"**رابعا : تصرّف الحكومة في شؤون التعليم والثقافة تصرفا مطلقا،** وذلك بأن تصب إدارة التعليم العمومي بما فيها مصالح إدارية وما يتبعها من مدارس ابتدائية وثانوية وع وزارة تونسية يديرها وزير تونسي.

"**خامسا** : الاعتراف للحكومة التونسية **بأن تكون حرّة في اتباع سياسة اقتصادي ونقديّة وقمرقية** متجانسة مع نظام البلاد التي تتعامل بالفرنك الفرنسي (...).

"إن الحكم الذاتي لن يكون إلاّ بتوفر ما سبق من الشروط وهي تعتبر الحد الأدنى ف ما نزلنا نكون مغالطين لأنفسنا ولشعبنا (...).

"**إنّ الشعب التونسي لن يقبل حكما ذاتيا يكون خاليا من كل مستلزمات السيادة الت سبق ذكرها وكل تنازل عنها أو عن بعضها يعد غدرا بالوطن وخيانة لدماء شهدائ الأبرار**" ([7]).

هذه إذا مواقف صالح بن يوسف ورؤيته لمضمون الاستقلال الذي يجب أن تتمخ عليه المفاوضات. في المقابل هل كان بورقيبة بنفس الوضوح ؟

([7]) **الصبّاح**، 1955/1/5.

2) منظور بورقيبة للاستقلال المؤمّل : وفاء للمبدأ وبراغماتية في المواقف:

إنّ تتبع مواقف بورقيبة وتصريحاته يرسينا على حقيقتين :

– إن كان صالح بن يوسف يحيل في تصريحاته على مقرّرات حزبه فإن بورقيبة يعبر عن مواقفه دون الاستنجاد بتلك المقرّرات وهذا دال على رؤية بورقيبة في تسيير الحزب وقيادة العمل الوطني : مركزية الأنا وتضخم الوعي بمكانة الزّعامة ووجوب فروض الطاعة لها وحقّه في حريّة التّصرف والحركة.

– منذ النّقاط السّبع التي طرحها بورقيبة يوم 15 أفريل 1950 بباريس وموقفه هو هو تقريبا من تصوره لمستقبل العلاقات بين تونس وفرنسا ولمكنون الاستقلال المرتقب.

ولنكون هنا أيضا دقيقين سوف نورد شواهد نصيّة مطولة من مواقف بورقيبة هذه. أولها النّقاط السّبع التي أعلنها في باريس والتي تطالب نصّا بـ :

"1) بعث السّلطة التنفيذية التي هي عنوان السيادة التونسية.

2) إنشاء حكومة تونسية مسؤولة على الأمن العام يترأسها وزير أول تونسي يعينه جلالة الملك الذي يتولى رئاسة مجلس الوزراء بصفته رئيس الدولة.

3) إلغاء الكتابة العامة للحكومة التونسية التي تسيطر على جميع الإدارات وبيدها عمليا كل السلطة الإدارية بالبلاد.

4) إلغاء المراقبين المدنيين الذين يقومون بالإدارة المباشرة وهو يتنافى مع السيادة التونسية.

5) إلغاء الجندرمة الفرنسية التي يرجع أمرها إلى وزارة الدّفاع الوطني الفرنسي وهي بذلك تكرّس في نظرنا الاحتلال العسكري للبلاد.

6) إحداث بلديات منتخبة بها ممثلون عن المصالح الفرنسية التي توجد بها أقليات فرنسية.

7) على المستوى التشريعي بعث مجلس قومي منتخب بالاقتراع العام مهمته إعداد دستور ديمقراطي يحدّد العلاقات الفرنسيّة التّونسية على قاعدة احترام المصالح المشروعة لفرنسا في إطار احترام السيادة التونسية " ([8]).

وكل مواقف بورقيبة اللاحقة وتصريحاته تحيل عمليا على تلك النّقاط السبع من ذلك ما صرح به للصحافي الاشتراكي ديران أنقليفيال والصادر بجريدة "البتي متان" (Le Petit Matin) يوم 22 نوفمبر 1954 والذي فيه كما يلاحظ إقرار واضح بالقبول بعدم إلغاء معاهدة الحماية على عكس ما كان ينادي به بن يوسف. يقول نص المقابلة : "وحول الاتفاقيات العسكرية والدبلوماسية؟ (..) **نطالب بالتطبيق الحرفي لاتفاقيات باردو.** إنّ المفاوضين الفرنسيين يختفون وراء الأمر الواقع الذي أنشأه نظام الإدارة المباشرة لمعارضة حقنا المشروع. نطالب ببعث جيش وطني، جيش صغير بستة آلاف رجل على الأكثر تحت قيادة فرنسية (...) أما في ما يخص التمثيل الدبلوماسي نطالب بأن تصدر المبادرات من الباي والحكومة التونسية أو منهما معا (...) والاقتصاد التونسي ؟ يبقى ملحقا بمنطقة الفرنك (...) إنّ تحويل مصالح الأمن للحكومة التونسية ضروري حتى لحل مشكل الفلاّقة".

ولعلّ تصريح بورقيبة للصحافي روجي ستيفان (Roger Stéphane) في صحيفة "فرانس أوبسرفتور" (France -Observateur) في عددها ليوم 5 جانفي 1955 والذي يرد فيه على تصريح صالح بن يوسف ليوم 31 ديسمبر 1954 بجنيف لتأكيد واضح على اختلاف الرؤى بين الرجلين، إذ أعلن بورقيبة "أن حزبنا تكون ليحقق استقلال تونس بدعم من فرنسا (...) إن الأفكار الجريئة في هذا التّوجه كما كنت دائما أعتقد وأقول سوف تنتصر عاجلا أم آجلا على دعاة الوطنيّة المطلقة وعلى أشياع الاستعمار المتصلبين (...) إن التاريخ حركة وإن الصداقة الفرنسية التونسية دائمة" ([9]). إن رد بورقيبة على صالح بن يوسف لا يعلن فقط اختلافا في الرؤى بين رأسي الحزب الدستوري الجديد أو دفع من رئيس الحزب لما يراه تطرّفا وانقطاعا عن الواقع في موقف الأمن العام بل يخفي في الآن ذاته تخوفا من ذاك الخطاب الرّاديكالي لغريمه بن يوسف والذي يوشك أن يضع

([8]) النقاط السبع **بتاريخ الحركة الوطنية**، تونس، المطبعة الرسمية، 1973، **الجزء XI**، ص 127.

([9]) نص المقابلة أعادت نشره " **البيتي متان**" في 6 جانفي 1955.

زعامة بورقيبة في خطر وهذا ما استخلصه أيضا محللو وزارة الخارجية الفرنسية في تتبعهم لمواقف وردود بورقيبة سنة 1955 ([10]).

نستنتج إذا أنه رغم انتماء الرجلين لنفس الحزب ورغم إيمان الاثنين بنفس القيم الليبرالية ولهما نفس التكوين الحقوقي وتبنّيهما أساليب الصّراع السياسي ذاتها ورغم تسايرهما متوافقين تقريبا مدة عشرين سنة (1934- 1954) ([11])، فإنهما كانا يختلفان حول تقدير ما يمكن الحصول عليه من فرنسا بعد خطاب منداس فرانس في جويلية 1954. إذ يرى بورقيبة ضرورة قبول ما أمكن وما تسمح به فرنسا لأن أي اتفاق يمكن تطويره ولأن العلاقة دائمة مع فرنسا ولأن تونس لا مستقبل لها خارج الغرب ولا قدرة لها على العيش مكتفية بذاتها لأنه "لا توجد الآن في العالم (حسب رأيه) دول تتمتع بسيادة مطلقة ومستقلة تمام الاستقلال. فإنّ كافة الدول التي أحرزت على الاستقلال تنازلت من تلقاء نفسها لمستعمرها القديم عن تحديدات هامّة لسيادتها قصد تحقيق أمن بلادها وازدهار شعوبها وتقدمها" ([12]) ولأنه حسب بورقيبة " بلادنا صغيرة ولا يمكننا أن نعيش في عزلة. فنحن نريد البقاء كبلاد مستقلة في مداري فرنسا والعالم الحر" ([13]).

بينما كان بن يوسف يعتقد أنّ استقلال تونس هو ممكن في الخمسينات لأنّ الاستعمار ضعف حسب رأيه ولأنّ حركات التحرّر والدّعم العالمي لها ما فتئ يتعززان (مؤتمر باندونغ، حركة عدم الانحياز) ولأن المقاومة في المغرب وفي الجزائر على أشدها وغير

([10]) راجع الملحق عدد XVI بعنوان "موقف الحبيب بورقيبة" بأرشيف الخارجية الفرنسية. Q.O.650, Tunisie 1944-1955, 2ème partie, D.316. ff 209-215, Annexe à un rapport du 30/03/1955.

([11]) ليس خافيا علينا التنافس بين المجاهد الأكبر والزعيم الكبير قبل حتى مؤتمر حزبهما في أكتوبر 1948 وما تلاه وكذلك تبعات ذلك في مجموعة الوطنيّين في القاهرة. يمكن في هذا الإطار مراجعة :
- منجي واردة، " جذور الحركة اليوسفية" **بالمجلة التاريخية المغاربية**، عدد 71-72/ماي 1993 - ص 479-563.
- خالد عبيد، " الخلاف البورقيبي الثامري بمصر وتداعياته : نحو الرؤية اليوغرطية للتاريخ البورقيبي 1947-1950" **بالمجلة التاريخية المغاربية** عدد 97-98/2000، ص105-152.
- علي المعاوية، **ذكريات وخواطر**، نشر المعهد الأعلى لتاريخ الحركة الوطنية، المطبعة الرسمية، 2007، ص 273-355.

([12]) جريدة " **لا براس** " 1954/8/4.

([13]) جريدة " **باري براس** " 1954/11/19.

ذلك في نظره هو "خيانة لمبادئ الحزب والشهداء" وانّ مستقبل تونس هو في تضامنها مع الشعبين الجزائري والمغربي وفي تكريس انتمائها العربي الإسلامي وموقعها في معسكر الدّول المحايدة لا ضمن الدائرة الفرنسية والغرب.

هذا الخلاف في الرؤى سوف يصبح صراعا علنيّا حول تقييم اتفاقيات الاستقلال الدّاخلي الممضاة بباريس في 3 جوان 1955 وكيفية التعامل معها.

II – اتفاقيات 3 جوان 1955 : خطوة إلى الأمام أم خطوة إلى الوراء ؟

قبل الإجابة عن هذا التّساؤل من المفروض أن نجيب عن تساؤل رئيسي : هل أنّ إمضاء اتفاقيات 3 جوان قد تمّ بعد توافق وتشاور على الأقل بين أعضاء الديوان السياسي للحزب الدستوري الجديد، الطرف الرئيسي في التفاوض، كما كان يقضيه منطق الأمور وكما كان ينادي به صالح بن يوسف؟ أم أنه تمّ فرضه من بورقيبة على الوفد المفاوض؟

على كلّ أنّ صالح بن يوسف في رسالته الموجهة لعضو الديوان السياسي الآخر الباهي الأدغم بتاريخ 2 أفريل 1955 يعطينا صورةً على الخلاف الذي كان قائما في ذاك الشهر بين قيادة حزبه والكيفية التي يقترحها لتخطّيه. حيث يعلمه أنّه اتّفق مع الوفد المفاوض بجنيف واتّفق كذلك مع المنجي سليم على أنّه كبير المفاوضين والمسؤول على إمضاء أي اتفاق أن لا يمضي إلاّ بعد التّداول والاتفاق مع الديوان السياسي أي رئيس الحزب والأمين العام والباهي الأدغم وجلولي فارس وعلالة بلهوان وربّما حتّى يوسف الرويسي ويضيف "أنّ الديوان السياسي هو المسؤول وحده أمام البلاد وأمام التاريخ على تبعات الاتفاقيات على مستقبل الوطن لذاك يجب أن يعطي رأيه بعد الإطّلاع على كلّ الحيثيات" ويضيف صالح بن يوسف "وإن اختلفنا وأراد سي الحبيب أن يميل الكفّة إلى جانبه علينا العودة كلنا إلى تونس وأن نجمع مؤتمرا خارقا للعادة في ظرف 24 ساعة وهو يكون الفيصل وكل يتحمل مسؤوليته" ([14]). لكن الذي حصل هو أنّ بورقيبة دون العودة إلى قيادة حزبه فرض رأيه وخاطب المنجي سليم بالهاتف بحدّة وطالبه بالتّلطيف من تصلّبه ([15]) وكان استقبال بورقيبة من رئيس الحكومة الفرنسية إدغار فور (E. Faure) في 21 أفريل 1955 ليس فقط تخطيا للخلاف العالق بين الطرفين المتفاوضين

([14]) رسالة صالح بن يوسف من مالطة للباهي الأدغم : **الباهي الأدغم مراسلات 1952–1955**، دار سراس للنشر، 1990. ص 285–288.

([15]) Jean La couture, **Cinq Hommes et la France** , Paris, Editions du Seuil, p.163

بل دعم فرنسي رسمي لموقف بورقيبة. وهكذا تم التوقيع بالحروف الأولى على اتفاقيات الاستقلال الداخلي يوم 21 أفريل لتتفادى فرنسا الشجب من مؤتمر عدم الانحياز المنعقد في باندونغ آنذاك (18–24 أفريل) فيحصل غضب بن يوسف ولومه العنيف على الوفد المفاوض وبالخصوص على المنجي سليم فوصم الجميع بـ"الخيانة " الأشنع من خيانة القلاوي" في المغرب و"إن مصطفى بن إسماعيل ومحمد الصّادق باي خير منهم" لأنهما عكسهم هم، رضيا غصبا بنظام الحماية (MAE.Seydoux 21/5/1955, Tu.1950-1955.v315) وهكذا مرّة أخرى يستبد بورقيبة بالرّأي ولا يحترم شروط الاختيار الجماعي والديمقراطي داخل حزبه أو شعبه ولم يستشر لا ديوانه السياسي ولم يجمع المجلس الملّي لذلك ولا مؤتمرا ولم تعرض كذلك الاتفاقيات على استفتاء شعبي شان استفتاء 1 جويلية 1962 بالجزائر مثلا على اتفاقيات إيفيان (Evian).

• الاتفاقيات خطوة إلى الأمام خطوة إلى الوراء حسب بورقيبة وحسب بن يوسف:

• حسب بورقيبة : الاتفاقيات خطوة إلى الأمام نحو استعادة السيادة كاملة وذلك :

– **لأن الاتفاقيات سمحت بإحياء الدولة التونسية من جديد** بإلغاء الفصل الأول من اتفاقية المرسى [الفصل الأوّل : لما كان مراد حضرة الباي المعظم أن يسهل للحكومة الفرنساوية إتمام حمايتها تكفّل بإجراء الإصلاحات الإدارية والعدلية والمالية التي ترى الحكومة المشار إليها فائدة في إجرائها].

كما أبطلت حق المقيم العام الذي أصبح (مندوبا ساميا) في الإشراف على الإدارة وإصدار القوانين.

• لأن التحديدات المتضمنة للاتفاقيات مشروطة زمنيا : 20 سنة بالنسبة للأمن و15 سنة بالنسبة للقضاء.

• لأنّ الإدارة سوف تصبح تونسية رغم محافظة الموظّفين الفرنسيين على مكتسباتهم.

• لأنّ الفرنسيين لا حقّ لهم في التمثيل إلا في البلديات أين يتواجدون بكثرة ويقع تعيينهم وليس انتخابهم.

وهي خطوة إلى الأمام خاصة بما تسمح به من حرية للدولة التونسية وللقوى الوطنية من وضع جديد يمكّنها من العمل بحرية لمزيد التقدم في اتجاه استتمام مقوّمات السيادة

دون خسائر ودون عنف ووضع تونس مع اتفاقيات الاستقلال الذاتي هو أفضل من وضعها قبل ذلك.

• حسب بن يوسف : الاتفاقيات خطوة إلى الوراء وخيانة للشهداء ولمجاهدي الجزائر والمغرب.

صالح بن يوسف (وغيره في تونس) رفض مضمون الاتفاقيات منذ 18 أفريل 1955 منذ هو في باندونغ ثم من القاهرة وحتى عودته إلى تونس وحمّل بورقيبة شخصيا مسؤولية إمضائها وقام بنقد منهجي لمحتواها وهو مافتئ يتردد في تصريحاته وكتاباته من القاهرة حتى رجوعه إلى تونس ([16]) وتتلخص انتقاداته في :

- أن اتفاقيات 3 جوان 1955 اعترفت "رضاء" بما لم تعترف به معاهدة باردو التي فرضت فرضا "لأنها أقرّت بصفة واضحة وصريحة الوضع الاستعماري الجديد".

- اتفاقيات 3 جوان لا تلغي معاهدة باردو 1881 بل تكرّسها.

- الاتفاقيات لا تقرّ لتونس بالسيادة الخارجية ولا تقرّ لها بحق الدّفاع (الجيش) وهما معرّفان أساسيّان للسيادة. والجيش والدبلوماسية هما حسب هذه الاتفاقيات من مشمولات فرنسا بصفة دائمة.

- إنّ التخلي لفرنسا على السيادة الخارجية والدّفاع يعني إقحام تونس في "الإتحاد الفرنسي" " L'Union française " وما يعنيه ذلك من حق فرنسا إقحام الشّعب التونسي في حرب ضد الجزائريين مثلا.

- محافظة الفرنسيين على حق التّقاضي أمام محاكمهم الخاصة يتناقض مع مبدإ السيادة الحرة.

- محافظة فرنسا على حق الإشراف على أمن البلاد لمدد تصل 22 سنة هو إخلال بالسيادة.

([16]) أهم ثلاثة مراجع في تقييم صالح بن يوسف للاتفاقيات هي الوثيقة التي أوردها محمد الوالدي ببحثه : Oualdi Mohamed, **L'orge des indépendances, Salah Ben Youssef et les Youssefistes en Tunisie** en 1955-1956, Mémoire d'Histoire, Paris I, 1998-1999, pp139-144. والتقييم الذي نشرته له جريدة " **الأسبوع**" يوم 25 جويلية 1955. وخطاب 7 أكتوبر 1955 بالزيتونة لبن يوسف بجريدة **الصباح** يوم 8 أكتوبر 1955.

- محافظة فرنسا على حق أمن ومراقبة الحدود حتى بعد مرور آجال الـ22 سنة هو إقرار بدوام الاستعمار.

- الاتفاقيات الاقتصادية تضمن وتؤبّد الحالة الاستعمارية والسيطرة على ثروات البلاد وأراضيها.

- الاتفاقيات تدمج الاقتصاد التونسي في الاقتصاد الفرنسي عن طريق التبعية الماليّة وتقيّد حرّية تونس بضمها لمنطقة التجارة الحرّة مع فرنسا.

- الاتفاقيات تكرّس التبعية الثقافية لتونس لأنّه أوّلا فيهااللّغة الفرنسية حسب النّص لا تعتبر لغة أجنبية بالبلاد وثانيا أنّ فرنسا حافظت على حريّة التعليم في البلاد وعلى مؤسساته.

لكن ما قيمة اتفاقيات 3 جوان في منظور المؤرخ وفي مسار التاريخ؟

• الاتفاقيات في ميزان التاريخ:

بالفعل إنّ اتفاقيات 3 جوان على –رأي اليوسفيين– هي خطوة إلى الوراء عندما تعترف لفرنسا **رضاء** بحقوق أبدية في تونس (التواجد الاقتصادي والبشري والاعتراف بمختلف الامتيازات) وعندما تتنازل لفرنسا بصورة أبدية كذلك على السيادة الخارجية وعلى حق الدفاع والأمن الداخلي لتونس بينما معاهدة باردو (1881) كانت **مفروضة** وبنودها نصيا كانت **مؤقتة** (الفصل الثامن).

لكن لو قيّمنا " **المردوديّة التاريخية** " " le rendement historique " لتلك الاتفاقيات وفعلها في تطوير الواقع الجديد لتونس وتساءلنا هل ساهمت فعلا في التّقدّم بالبلاد نحو تحرّرها لتبيّن لنا أنّها مثّلت كذلك خطوة إلى الأمام كما كان يدافع عنها بورقيبة وذلك :

• لأنّ إلغاء الفصل الأول من اتفاقية المرسى (1883) وهو فعلا خطوة في مسار بعث الدولة التونسية وتحرّرها من سلطة الحكم المباشر ودكتاتورية المقيم العام الذي حوّلته الاتفاقيات إلى مندوب سام مجرد وسيط في تونس بين حكومة فرنسا والحكومة التونسية.

• وخاصة لأنّ الوضع السياسي الجديد أي "الاستقلال الداخلي" وفّر لحكومة الاستقلال ومن ورائها القوى الوطنية المساندة (الدستور الجديد منظمات الجبهة الوطنية...) الفرصة التاريخية لإثبات القدرة على تصريف أمور الدولة ممّا طمأن الجانب الفرنسي على ضمان

مصالحه وأقنعه بضرورة السير أكثر في التعجيل بالتفريط بمقاليد السيادة التي تحافظ عليها خاصة في الميدان الأمني لفائدة التونسيين.

• ومكّن كذلك الوضع التاريخي الجديد الشق الدستوري الذي تسلّم السلطة من التحرك بأكثر حرية في نشاطه السياسي وتعبئة الرأي العام لفائدته وإقناع حلفائه خارج تونس خاصة بضرورة التقدم بالعلاقات التونسية–الفرنسية.

• كما سمح " الوضع الاستقلالي الذاتي " للدولة التونسية المنبعثة وللحزب الدستوري (الديوان السياسي) من التحرك الإيجابي لدعم المقاومة الجزائرية ومن هناك إسكات أصوات المنتقدين متّهمي مسؤولي دولة الاستقلال الذاتي بالخيانة والتورّط مع فرنسا ضد قضية التحرر في المغرب والجزائر بالخصوص.

هذا فيما يخص تقييم الاتفاقيات من الموافقين عليها والرافضين لها لكن من هم هؤلاء وما هي خلفيات ورهانات موقفهم؟

III – ما هي اليوسفية؟ تيار سياسي أو " التقاء عرضي" لقوى معارضة؟

لا تتسنّى الإجابة عن هذا التساؤل إلا عندما نستحضر رهانات الصّراع الذي كان قائما في تونس سنوات 1954–1956 وما بعدها لأنّ الخلاف على الاتفاقيات كان واجهة لصراع قوى وحساسيات سياسية وثقافية واجتماعية وجهوية ودموية مدارها مستقبل تونس السياسي والاجتماعي والثقافي حتى وإن لم يعبر فرقاء الصراع على رؤى متبلورة واضحة وحاسمة.

1) رهانات الصراع اليوسفي – البورقيبي:

حتى وإن لم يفصح فرقاء الصّراع وبصورة قاطعة وجلية على دوافع تحركهم التاريخي وعلى أهدافهم منه فإننا يمكن أن نستشف جملة من الرهانات تحملها الصّراعات التالية :

*** صراع على انتماء تونس الجو – سياسي المستقبلي:**

نحو الشرق : " تونس جزء من المغرب العربي "ومن الأمة العربية الإسلامية" (موقف بن يوسف) يقابله موقف بورقيبة : نحو الغرب : ارتباط وتكافل مع فرنسا ومستقبل تونس في العالم الحرّ (Le monde libre).

*** صراع على مستقبل تونس الحضاري :**

تونس العربية الإسلامية وما تعنيه من تاريخ ومؤسسات (الزيتونة) وتراث وتقاليد مقابل تونس الجديدة العربية الإسلامية بفهم جديد يدير ظهره لموروث ثقافي يعتبره عبئا وعائقا للتّقدم. تونس التعليم العصري على إنقاذ التعليم التقليدي وقيمه ورؤاه للعالم أي تونس الثقافة الحديثة.

*** صراع على النظام السياسي المستقبلي للبلاد:**

تونس ذات النّظام اللائكي الحداثي القائم على السيادة الشعبية والنظام الجمهوري وحتّى الديمقراطي ضدّ تونس المحافظة على نظامها الملكي، المحافظة على تقاليدها وعائلاتها وأعيانها وبلديّتها، المتمسكة بملكيتها حتى وان كانت دستورية. تونس المتخوّفة من الحكم الفردي والنّظام الاستبدادي الذي بدأت تباشير تهل مع الشّق المدافع عن الاتفاقيات بزعامة بورقيبة.

*** صراع على النظام الاجتماعي والاقتصادي المستقبلي:**

تونس الطبقات الوسطى والبرجوازية الصغيرة والموظفين والعملة والمثقفين التحرّريين واللّيبراليين في وجه تونس الملاّكين الكبار والبرجوازية والعائلات الكبرى وأعيان الأرياف وأعيان المخزن والمتورّطين مع الاستعمار والخائفين على مصالحهم وعلى أشخاصهم من النظام القادم حتّىّ وإن كانت شرائح من الملاّكين دعّمت شقّ بورقيبة (منضوي اتّحاد الصناعة والتّجارة مثلا).

*** صراع جهوي وعصبيات عائلية وعروشيّة وانتمائية :**

أهل الجنوب عامة والدواخل الغربية للبلاد والتجار أصيلي جربة. .. مع بن يوسف مقابل أهل الساحل وغيرهم مع بورقيبة حتى وإن كانت الانفلاقات (les clivages) ليست قطعيّة لا جغرافيا ولا عصبيا ([17]).

*** صراع على الزعامة واحتلال المواقع في النظام الجديد:**

صراع رأسين : المجاهد الأكبر (بورقيبة) والزعيم الكبير (بن يوسف) على السلطة والمجد.

([17]) نعود بأكثر دقة لهذا العنصر في الصفحات القادمة.

وصراع زعماء أتباع لضمان الحظوة والموقع (الباهي الأدغم، المنجي سليم، علالة بلهوان، الطيب المهيري، الهادي نويرة، الرشيد إدريس، جلولي فارس، محمد المصمودي، الصادق المقدم، عزوز الرباعي. ..) في صف بورقيبة مقابل أشياع بن يوسف (يوسف الرويسي، علي الزليطني، حسين التريكي، عبد العزيز شوشان، إبراهيم طوبال...)

• صراع قواد مقاومة ليس ولاء فقط لهذا الزعيم أو ذاك أو لغايات وطنية فحسب بل كذلك تضمينا على المستقبل وعلى مصالح مرجوة أو متخيلة. إذ نجد في الصف البورقيبي : الأزهر الشرايطي، الساسي لسود، محجوب بن علي، حسن بن عبد العزيز، العجيمي بن مبروك، مصباح الجربوع... وفي صف بن يوسف قوادا مثل الطاهر لسود والطيب الزلاق والهادي قدورة والطاهر بن لخضر الغريبي ومصباح النيفر وعبد الله البوعمراني وعبد اللطيف زهير وعمار بني...

2) ماهية اليوسفية : من لقاء قوى رافضة أو متوجسة إلى تيار سياسي:

• خطاب الخصوم أو التاريخ المتداول والرسمي عن اليوسفية:

إن تمثل اليوسفية عند نسبة كبيرة من التونسيين هي تلك الصورة التي رسمها لها مناوئوها والواردة أساسا في خطب الرئيس بورقيبة طيلة فترة حكمه وفي ما كانت تكتبه وتقوله وسائل الإعلام المكتوبة والمسموعة والمرئية في عهده وحتى ما كان يدرج في كتب التاريخ المدرسية كذلك ما كان يقدم كتاريخ رسمي لتاريخ الحركة الوطنية في السلسلة المعروفة ([18]) حيث ينعت الخلاف بين الوطنيين حول اتفاقيات الاستقلال الذاتي ب "الفتنة اليوسفية" وتوسم المقاومة اليوسفية ب "التمرد" و"العصيان" ويسمى ذاك التيار المعارض للاتفاقيات "بالتقاء للرجعيات" و"المتعصبين" و"المتخاذلين" وحتى "الخونة" هدفهم التآمر على مصالح الوطن وتعطيل مسيرة التحرر يقودهم شخص صالح بن يوسف الذي يقدم على أنه "مهووس بالسلطة" "يحركه الحسد والطمع" والتآمر الدائم على الزعيم بورقيبة منذ 1935 ! و"باع نفسه " لمصالح خارجية على رأسها نظام جمال عبد

([18]) هذه السلسلة أشرف عليها أحد الأوفياء لبورقيبة وهو السيد محمد الصياح. وقد تناولت قضية اليوسفية في هذه المجموعة الأجزاء التالية :
XIII (1979)، XIV (1980)، XV (1979) وصدرت عن دار العمل كذلك في نفس السلسلة بالفرنسية : **Le Nouvel Etat aux prises avec le complot youssefiste 1956-1958**, textes réunis et commentés par Mohamed Sayah, Dar El Amal, T1 (1982), T2 (1983), T3 (1983).

الناصر ([19]) ويتهمه بورقيبة ذاته في خطابه في مؤتمر صفاقس يوم 15 نوفمبر 1955 بسرقة أموال الحزب وإهدارها ([20]).

لكن كيف يمكن تشخيص اليوسفية كما عرفها التاريخ؟

• اليوسفية كما عرفها التاريخ:

يمكن اعتبارها لقاء لتلك القوى الاجتماعية والسياسية والحساسيات الثقافية التي عارضت اتفاقيات الاستقلال الداخلي لأنها تعتقد أنها لا تلبي آمالها وتصوراتها لاستقلال تونس ولأنها تتوجس من النظام السياسي والاجتماعي الذي سينبثق على تلك الاتفاقيات لكن مع موفى سنة 1958 سوف ينحل هذا "البلوك" (le bloc) التاريخي لتتحول اليوسفية إلى تيار سياسي وثقافي معارض عنوانه السرية والهجرة. لكن ما هي هذه القوى التي التفت حول صالح بن يوسف؟

• القوى التي وقفت وراء بن يوسف:

يجب أن ندقق منذ البداية أن تلك القوى لا تعلن كلها ولاءها لشخص بن يوسف ولا تشهر كذلك كلها يوسفيتها بل لأكثرها صالح بن يوسف هو فقط حامل لواء لطموحاتها أو رفضها ولا ترى فيه زعيما لها ويمكن تفصيلها في القوى والشرائح التالية :

- أتباع بن يوسف في الحزب الحر الدستوري الجديد : أنصار "الأمانة العامة":

كم كانت نسبة أنصار الأمين العام في الحزب الدستوري الجديد؟ يصعب إعطاء نسبة مضبوطة خاصة وإن الولاء لذاك الزعيم أو للآخر ما فتئ يتغير ويتقلب. لكن الثابت أن أغلب أعضاء الديوان السياسي وقفوا مع بورقيبة[21]) ولم يساند صالح بن يوسف من وجوه

([19]) راجع مثلا في "الدولة الجديدة" م م. الجزء الثالث ص 10-39 كذلك في الجزء XV من سلسلة تاريخ الحركة الوطنية ص 382-390 وص 381 - 414.

([20]) راجع نص خطاب بورقيبة في 21 صفحة مترجم عن تسجيل شفوي بأرشيف الخارجية الفرنسية الورقة 195.
(QO.641, Tunisie 1944-1955, 2ème p., V.302, texte intégral du discours de Bourguiba, ff179-199.

([21]) المنجي سليم، الهادي نويرة، جلولي فارس، محمد المصمودي، الصادق المقدم، علي البلهوان، الطيب المهيري، مبروك عبد الصمد، توفيق بن براهم، الشاذلي عبد النبي، أما الباهي الأدغم والرشيد إدريس وعزوز الرباعي الذين أبدوا انحيازا في الأول لصالح بن يوسف سرعان ما تراجعوا ليصطفوا

الحزب إلاّ يوسف الرويسي وحسين التريكي وعلي الزليطني والطاهر عميرة. ثم هؤلاء ذاتهم ليسوا بالضرورة كانوا مقتنعين بكل طروحات صالح بن يوسف أو واثقين في شخصه شأن حسين التريكي مثلا ([22]) بل كان لقاءهم حول رفض الاتفاقيات أساسا.

على كل تقدر الاستعلامات العسكرية الفرنسية أن أنصار " الأمانة العامة" التي دشنت مقرّها في 30 أكتوبر 1955، كانوا في أواخر نوفمبرمن نفس السنة حوالي 40% من الدستوريين الجدد ([23]) وسنعود لانتمائهم الجغرافي لاحقا.

- **قدماء المقاومين والمقاومون الجدد ([24]):**

التف ما بين 1700 و2000 مقاوم تحت قيادة الطاهر لسود الميدانية وتوجيه صالح بن يوسف السياسي لمحاربة نظام الاتفاقيات وإنجاز "استقلال فعلي" لتونس ولكامل المغرب. وقد انخرط في هذه المقاومة عدد هام من مقاومي "الثورة الأولى" (1952-1954) والتحق بهم آخرون عن قناعة بشعارات صالح بن يوسف أو لتفادي "إخلال بالواجب" سابقا أو نقمة عن النظام الجديد الذي لم يرضهم ولم تتغير أحوال بؤسهم معه ([25]).

- **الفلاحون الكبار ؟**

الأكيد أن قيادة الإتحاد العام للفلاحة التونسية (مثل رئيس الإتحاد الحبيب المولهي وأمينه العام إبراهيم عبد الله) تحولت من الحياد في الأول إلى الانحياز إلى صالح بن

مع بورقيبة لا ندري هل على قناعة بطروحات رئيس الحزب أو لحساب سياسي لا يحرمهم من ثمرة الانتصار.

([22]) انظر شهادة حسين التريكي بالمعهد الأعلى لتاريخ الحركة الوطنية.

([23]) مذكرة استخبارية للجيش الفرنسي أدرجها محمد الوالدي في رسالته المذكورة ص 162-172/ص 170.

([24]) راجع في موضوع المقاومة المسلحة في صف اليوسفيين مؤلفنا : **المقاومة الشعبية في تونس،** سبق ذكره وبالتخصيص فصل : "جيش التحرير الوطني التونسي : حقيقته ومصيره"، ص 149-179. وكذلك فصل : "اليوسفيّون ومعارك الجنوب 1955-1957". بهذا الكتاب.

([25]) لا نعرف الكثير عن مقاومي ديسمبر 1955 صائفة 1957 سوى قياداتهم التي صفّيت أو حوكمت فيما بعد كمتمردين لأنه إن جرت عملية ضبط قوائم مقاومي 1952-1954 فان هؤلاء كانوا من مهملي التاريخ الوطني ولا تذكر أسماؤهم لا في قائمة الشهداء ولا حتّى في قوائم القتلى !.

يوسف والأكيد أن قواعد عريضة من هذه المنظمة تبنت هذا الموقف احترازا من حليف بورقيبة القوي أي الإتحاد العام التونسي للشغل أو إيمانا فعليا بطروحات صالح بن يوسف حول الاستقلال وشعارات العروبة والإسلام التي رفعها ([26]) لكن ليس من المؤكد أن كل الإتحاد كان في صف بن يوسف وإلا لما تمكّن أنصار بورقيبة (الصادق خلف الله ومن معه) من بعث اتّحاد منافس أي الإتحاد القومي للمزارعين التونسيين في ديسمبر 1955 ([27]).

- **الوسط الزيتوني : طلبة وأساتذة:**

إن اختيار صالح بن يوسف كقاعدة لمقاومة أنصار الاتفاقيات جامع الزيتونة منذ خطابه فيه يوم 7 أكتوبر 1955 له رمزية خاصة لأنه كان على قناعة أنّ جل الوسط الزيتوني أساتذة وطلبة كانوا في صفة تحركهم شعارات الدفاع عن العروبة والإسلام ومحاربة التغريب واللاّئكية. وكان فعلا من أشد أنصار مواقفه تحمسا من بين طلبة "صوت الطّالب" (محمد البدوي) وإن كانوا ليسوا كلهم مع بن يوسف ([28]) كذلك أساتذة الجامع فعائلة بن عاشور مثلا أبدت ميلها في الأول لبن يوسف بينما عائلة النيفر انحازت إلى بورقيبة. هذا الوسط كان متخوفا على هويّة البلاد وعلى مصيره في دولة تبقى الفرنسية فيها لغة الإدارة والحظوة الاجتماعية.

([26]) انظر في مواقف الإتّحاد العام للفلاحة التونسية :

- محمد الحبيب المولهي، **الوطن والصّمود**، لبنان دار الغرب الإسلامي، 1991، ص223-291 و319.

- شهادة إبراهيم عبد الله بالمعهد الأعلى لتاريخ الحركة الوطنية.

- شهادة عبد الستار الهاني ضمن ملف "الخلاف اليوسفي البورقيبي "، **المجلة التاريخية المغاربية،** عدد 114/ 2004 ص 215-257.

([27]) راجع: الهادي التيمومي، **نقابات الأعراف التّونسيّين (1932-1955)**، صفاقس، دار محمد علي، 1983، ص 123-130.

([28]) انظر في هذا : شهادة السيد عمر شاشية وهو من طلبة الزيتونة البورقيبيّن في : **نهاية حكم بورقيبة والقيادات السياسية العربية بين الصعود والإنحدار**، تونس، نشر فترسي، ص 497-530.

- محمد ضيف الله، **المدرج والكرسي**، صفاقس، مكتبة علاء الدين، ص 89- 91.

- **الصحف العربية أو الصحافيون التونسيون :**

جلّ الصحف التونسية الصادرة باللغة العربية انحازت تقريبا لصالح بن يوسف الصباح، الاستقلال، البلاغ، البلاغ الجديد، الأسبوع، اليقظة، صدى الزيتونة، الزهرة الوطن. أما صحف العمل (جريدة الحزب الدستوري الجديد) وصوت العمل (جريدة الاتحاد العام التونسي للشغل) والأخبار فقد كانت في صف بورقيبة ([29]).

- **شرائح واسعة من الطبقات الوسطى والموظفين :**

إن كانت فئات واسعة من المجتمع التونسي كما تشير مختلف المصادر في "موقف أسف" للصرّاع الدائر بين رئيس الحزب الدستوري وأمينه العام فان فئات أخرى عبرت عن امتعاضها من فصل صالح بن يوسف من الحزب وأبدت مساندتها لطروحاته إما عن طريق الوفود التي كانت تفد على الأمين العام أو عن طريق العرائض الكثيرة التي كانت تنشرها جرائد المعارضة للاتفاقيات وإن كنّا نفتقد لمسح دقيق للولاء لهذا الصف أم ذاك فانّه لنا من الشهادات والمؤشرات التي تثبت أن نسبة كبيرة من التجار وأصحاب الحرف خاصة بالعاصمة ([30]) وكذلك التجار الجراية في مختلف أنحاء البلاد كانوا مع بن يوسف كذلك الموظفون ذوي التكوين العربي فقط وأصحاب المهن الحرة من الأئمة والعدول

([29]) استغلينا بصورة خاصة التلاخيص والعروض الموجزة للصحافة التونسية في فترة الخلاف من طرف "مركز الاستعلامات الإسلامية" التابع للمندوبية السامية بتونس والموثقة بمصلحة جيش البر S. 386 , SHAT ,S/S. Tunisie 2H , V. 2H 151. كذلك كانت بعض الصحف موضوع دراسة خاصة مثل :

- مختار المطوي، **المسألة التونسية من خلال جريدة "الاستقلال"** ش ك ب، كلية 9 أفريل، 1986.

- منيرة المحضي، المسألة التونسية من 31 جويلية 1954 إلى 20 مارس 1956، ش ك ب، كلية 9 أفريل 1985

- محمد صالح بن مصطفى "دور صحفية البلاغ في تغطية الصراع البورقيبي اليوسفي في **القضاء والتشريع في تونس البورقيبية والبلاد العربية**، نشر فترسي، زغوان، 2004، ص 247-281.

([30]) من ذلك أنّه غداة طرد صالح بن يوسف من الحزب الدستوري أضرب 500 حانوت في مدينة تونس على 1300 تعبيرا على رفضهم للقرار. وورد ذلك في برقية روجي سيدو. AE Tunisie 1950-1955, V.309 tg R. Seydoux du 14/10/ 1955, f.318 M

وغيرهم مالوا لبن يوسف لأن الاتفاقيات تكرّس دائما حسب اعتقادهم هيمنة اللغة والثقافة الفرنسيتين ([31]).

- **أهل الشرع أو المراتب الدينية والقضائية العليا :**

يبدو كذلك أن هذه الفئات أبدت ميلها لصالح بن يوسف رافع راية العروبة والإسلام. على كل كان شيخ الإسلام المالكي عبد العزيز جعيط أعلن بين يدي الباي في قصر قرطاج بمناسبة عيد الإضحى عن معارضته للاتفاقيات" لأنها لا تمنح استقلالا فعليا ولأنها تحمل إرادة إدخال مبدإ اللائكية في التنظيم الجديد للبلاد " ([32]) وعبر المفتي يوم 22 أكتوبر 1959 لصالح بن يوسف ذاته عن دعمه الكامل ([33]).

- **جزء من تلاميذ وطلبة التعليم العصري :**

كان لصالح بن يوسف في الوسط الطلابي التونسي بباريس وكذلك بتونس أنصار كثيرون وحتى بين طلبة الجامعة الدستورية بالعاصمة الفرنسية لكن الأغلبية كانت تناصر بورقيبة وهذا أيضا ما أفرزه المؤتمر الثالث لاتحاد الطلبة المنعقد بتونس بين 26 و28 جويلية 1955 ([34]).

- **الحزب الدستوري القديم :**

كان الحزب الحر الدستوري القديم في بداية الخمسينات يعد 100 شعبة وحوالي 7000 منخرط ورغم هامشيته فقد كان له أنصاره وساهم من موقعه في الصراع الوطني

([31]) انظر كذلك شهادة المناضل أحمد الزمني أحد مسؤولي الإتحاد التونسي للصناعة والتجارة ومسؤول على جريدة الحزب الدستوري الجديد مسيون Mission حيث يقول أنّ نسبة هامة من اتحاد الصّناعة والتجارة رغم موقف هيئاته المديرة، كانت مع بن يوسف شهادته يوم 4 سبتمبر 2002 منشورة **بالمجلة التاريخية** المغاربية عدد 2003/110، ص 321 - 346.

([32]) من تقرير للمقيم العام أورده محمد الوالدي في رسالته المذكورة ص 53.

([33]) في المذكرة المخطوطة الوارد ذكرها برسالة الوالدي، ص 169.

([34]) حول موقف الطلبة التونسيين وتطور انحيازهم لصف بورقيبة راجع خاصة :

- عادل بن يوسف، **النخبة العصرية التونسية، طلبة الجامعات الفرنسية : 1880-1956**، نشر كلية الآداب بسوسة، سوسة، دار الميزان للنشر، 2006، ص 594-597.

- حامد الزغل، **جيل الثورة، ذكريات مناضل**، تونس، سيراس، ص 549-553.

- محمد ضيف الله، **المدرج والكرسي**، مم. ص 89-90.

(23 أوت 1946) حيث رفض اتفاقيات 3 جوا
وكان وفيا لمواقفه ومنذ مؤتمر ليلة القدر 1955 مطالبا بالاستقلال التام ووجد نفسه بالتالي حليفا موضوعيّا لعدو الأمس (1950
1951) صالح بن يوسف حيث وقع التقارب بين هذا الحزب والأمانة العامة لمحار الاتفاقيات دون اندماج فعلي بين أتباع صالح بن يوسف وأنصار صالح فرحات رئيس الحزب الدستوري القديم ([35]).

- العائلة المالكة :

إن كل المصادر المتاحة تذهب إلى القول بحياد الباي الظاهر تجاه الخلاف بين بورقيبة وبن يوسف ولم تسجل فعلا مواقف علنية لفائدة هذا الزعيم أو ذاك غير أنّ الباي صادق ذاته على اتفاقيات 3 جوان 1955 محل الخلاف في 27 أوت 1955. لكن عد من المؤشّرات ترجّح ميل الباي وخاصة ابنه الأمير الشاذلي لصالح بن يوسف حيث مثلا قام هذا الأمير يوم 29 نوفمبر 1955 بعد مؤتمر صفاقس بإدخال صالح بن يوسف ورفيق في المعارضة القائد الطاهر لسود على والده ([36]). ثم أن الباي رفض أن يبعث من ينوب في مؤتمر الحزب الدستوري في صفاقس رغم استضافته ([37]). وفي الواقع كان الأمير باي وغيره من العائلة يتوجسون من ميولات بورقيبة الجمهورية ([38]) وهو ما كان يعرف بن يوسف ويستغله في دعايته ضد بورقيبة وكان ذلك ما اعتمده هذا الأخير في خطا

([35]) من ذلك زيارة وفد عن الحزب الدستوري القديم برئاسة صالح فرحات يوم 15 سبتمبر 1955 لصالح بن يوسف ودعمه في رفضه للاتفاقيات جريدة **البلاغ** في 16 سبتمبر 1955. عن موقف الحزب الدستوري القديم من الاتفاقيات فان مؤتمره الوطني المنعقد يوم 16 و17 أفريل 1955 رفضه حتى قبل إمضائها. ويمكن مراجعة اللائحة السياسية للمؤتمر بجريدة البتي متان Le Petit Matin ليوم 21 أفريل 1955. ثم مواقفه اللاحقة بجريدة **الاستقلال** وصحف المعارضة الأخرى.

([36]) المذكرة الاستخبارية للأمن الفرنسي السابق ذكرها بمحمد الوالدي، ص 170 كذلك تفيد المذكرة نفسها أن الباي استقبل يوم 16 نوفمبر 1955 صالح بن يوسف وعضده حسين التريكي يصحبه الأمير الشاذلي وطالبهما الباي بالمصالحة مع بورقيبة.

([37]) البلاغ، 18 نوفمبر 1955.

([38]) شهادة الأمير الشاذلي باي يوم 17 جانفي 2004 منشورة **بالمجلة التاريخية المغاربية** ع 2004/117، ص 119-137

يوم 25 جويلية 1957 كأحد المبرّرات لإلغاء الملكية واتهامه الأمين باي باختيار غريمه ([39]).

هذه إذا القوى الاجتماعية والحساسيات السياسية والثقافية التي التفت وراء بن يوسف لمعارضة اتفاقيات الاستقلال الداخلي لكن ما هو وزن اليوسفية وانغراسها الجغرافي الفعلي؟

IV – وزن اليوسفية وانغراسها الجغرافي.

كم كان أنصار بن يوسف ؟ اليوسفيون يصرّون على أنهم كانوا الأغلبية في الشعب ومن الحزب الدستوري ([40]) لكن المؤرخ لا يمكنه الجزم في معطى تاريخي يفتقد فيه لقرائن وإحصائيات ثابتة ولا مناص من الاقتصار على تقديم فقط التقديرات التي يحصل عليها وذلك لاستحالة توفر زمن الخلاف اليوسفي البورقيبي على مقاييس شفافة وحقيقية لتعيير الوزن الفعلي لهذا الطرف أو ذاك كحدوث انتخابات ديمقراطية مثلا أو إحصاءات موثوقة. ثم أن الرأي العام التونسي حسب تقارير الاستعلامات الفرنسية كان متغيرا حسب الفترة وحسب الظروف. مثلا في 1 جوان 1955 عند عودة بورقيبة من المنفى كان هناك شبه التفاف كلي للرأي العام الوطني ولحزب الدستور حول المجاهد الأكبر لكن في بداية أكتوبر 1955 وخاصة بعد خطاب الزيتونة (7 أكتوبر) لوحظ انقلاب للرأي العام لصالح بن يوسف ([41]). هل دام ذلك التحول ؟ لا نظن ذلك.

على كل إن الاختيار لهذا الشق أو ذاك لم يكن حرا ولم يكن دائما معلنا ولا مبدئيا إذ كان فيه التقلب وفيه النفاق وفيه خاصة الخوف وفيه الطمع والحسابات للتضمين على

([39]) راجع خطاب بورقيبة بالمجلس التأسيسي يوم 25 جويلية 1957 ب **خطب بورقيبة**، الجزء 4، ص 340-358، ص 352.

([40]) كل تصريحات رؤوس المعارضة اليوسفية من بن يوسف إلى رؤساء الجامعات كانوا يعلنون ذلك وحتى بعد مرور نصف قرن على تلك الحقبة من تاريخ الحركة الوطنية لا زال أنصاره يصرون على ذلك الادّعاء ويمكن هنا مراجعة آراء كل من الأزهر القروي الشابي، الصادق الشايبي، الصادق العبيدي، عبد الستار الهاني، محمد الصالح غرس، ضمن ملف الخلاف البورقيبي-اليوسفي في **المجلة التاريخية المغاربية** عدد 2004/114، ص 215-257.

([41]) حكى السيد محمد الصياح في لقاء في مؤسسة التميمي 2003 أن بورقيبة كان حانقا كثيرا على هذا الشعب المتقلب وأقسم في حالة غضب بعدما قلب صحن الطعام أمامه إنه سوف يعرف هذا الشعب كيف سيركعه بورقيبة.

المصالح وعلى المستقبل فالحزب الحر الدستوري مثلا أيام الشدة وقبل الاعتراف بنشاطه القانوني في سبتمبر 1954 كان يعدّ حوالي 100ألف منخرط فقط لكن بعد إمضاء اتفاقيات الاستقلال الداخلي واقتراب جني الثمار تضخم عدد المنخرطين ليقفز إلى حوالي 350 ألف في نوفمبر 1955 ثم ما يقارب 600 ألف بعد مارس 1956 ([42]).

على كل تقدّر المندوبية السامية الفرنسية وزن المعارضة اليوسفية في أواخر سنة 1955 من الشعب الدستورية التي أعلنت ولاءها لبن يوسف أو التي أحدثت جديدا بـ 518 شعبة و41 جامعة مقابل 1000 شعبة بورقيبية و32 جامعة في صف الديوان السياسي ([43]).

لكن الكاتب الخاص لرئيس الأمانة العامة الحبيب بوالأعراس صرح في 7 ديسمبر 1955 أن الأمانة العامة وزعت 140 ألف بطاقة انخراط ([44]) ويدعي صالح بن يوسف في الندوة الصحفية التي عقدها في 11 جانفي 1956 للتنديد برفض الحكومة عقد مؤتمر الأمانة العامة المزمع في 18 جانفي أن الأمانة العامة تتمتع بثقة 747 شعبة موزعة على كامل أنحاء المملكة ([45]).

على كلّ بعد قرار فصل صالح بن يوسف من حزبه في 8 أكتوبر 1955 وإصراره على التمسك بصفته كأمين عام للحزب الدستوري الجديد تم فتح مقر للأمانة العامة في 30 أكتوبر 1955 بنهج الجزيرة بتونس وجمع قيادة حوله تذكر المخابرات الفرنسية أنها متألفة من المناضل الدستوري القديم البحري قيقة والمهدي بن ناصر وعبد العزيز الشابي وعبد السلام المدني وأحمد الكستاني وفي الكتابة الدائمة رضا بن عمّار والحبيب بوالأعراس ومحمد صالح غرس ([46]).

([42]) Rudebeck (L.), **Party and people. A study of political change**, C.Hurstand Company, London, 1969, p.33.

([43]) تقرير المندوب السامي الفرنسي بتاريخ 1956/5/25. (S.HA.T, S/S. Tunisie 2H, C. 2H 136, D.2. f.273)

([44]) مذكرة من الاستعلامات الفرنسية حول نشاط صالح بن يوسف ب (SHAT, S. Tunisie 2H., C. 2H 337)

([45]) الصباح 1956/1/12.

([46]) مذكرة الاستعلامات الفرنسية المذكورة : (SHAT/ 2H 337)

أما الجامعات التابعة للأمانة العامة فهي حسب المصادر المعتمدة 41 جامعة كما أسلفنا لكن مصادرنا لم تمكنّا إلاّ من إثبات الجامعات التالية :

1 – جامعة تونس والأحواز : تكونت في 4 جانفي 1956 ويتألف مكتبها من علي الزليطني : رئيس، حسين التريكي : كاتب عام، عبد الرحمان بن خليفة : كاتب عام مساعد، الحبيب بوالأعراس : كاتب عام مساعد، العروسي المحيرصي : أمين المال، المختار بن خليفة : نائب أمين المال، عبد العزيز بن عمران : مراقب ([47]).

2 – جامعة سوق الخميس : تأسست في 1 جانفي 1956 : من الهيأة التالية : الرئيس : حمادي بن العشي، كاهيته : حسين بن جليل، الكاتب العام : حسونة ابن يوسف، كاهيته : صالح بن أحمد بن صالح، أمين المال : حسن العشي ([48]).

3 – جامعة سوق الأربعاء : تتكون هيئاتها من : الطاهر بن ونّاس، علالة الحامدي، صالح بن الحاج محمد سليمان بن ميمون، عمار كزيط، الهادي بن الهندي، عبد العزيز بن حسين.

4 – جامعة الفراشيش بالقصرين : انعقد اجتماعها التأسيسي في 10 جانفي 1956 وانتخب الهيئة التالية : الرئيس : أحمد السهيلي بن محمود الرابحي، كاهيته الأول : الأزهر بن حراث، كاهيته الثاني : الوصيف بن محمد الوصيف، الكاتب العام : علي بن الحسين البناني، كاهيته : صالح بن العياشي، أمين المال : علي بن بلقاسم زروق القصريني، رئيس لجنة التوجيه : يوسف بن عاشور الزيدي، رئيس لجنة الدعاية : الزبير البناني ([49]).

5– جامعة حامة بني زيد : الرئيس : الحاج علي خذر، كاهيته: حسن بن سعد، الكاتب العام : أحمد بوشلاكة، كاهية الكاتب العام : رشيد بن عبد الله، أمين المال: علي بن المبروك، كاهيته : ضو بن عمارة، مراقب : الشيخ الطاهر دعيب، الأعضاء: عبد الله بن خليفة والناعس بن حسن.

([47]) الصباح 1956/1/7.

([48]) الصباح 1956/1/8.

([49]) الصباح 1956/1/15.

... بن عبد الرحمان، كاهيته : صالح ...

6 – **جامعة تبرسق** : الرئيس : يوسف بن محمد بن الطيب العبيدي، الكاتب العام : رمضان بن يحيى بن موسى.

7 – **جامعة أبة قصور** : الرئيس : العربي بن محمد الأزهر، كاهيته: أحمد الشعنبي ... الكاتب العام : محمد التركي بن قويدر.

8 – **جامعة الكاف** : الرئيس : محمد المقدم، الكاتب العام : عبد المجيد الشاوش.

9 – **جامعة الأعراض** : تكونت يوم 15 جانفي 1955 ومقرها جارة. الرئيس : عمر ... الغنوشي، كاهيته : محمود الحبوشي، الكاتب : حفيظ بن الحاج رحومة، أمين المال : صالح بن العزوزي بن جابر ([50]).

10 – **جامعة الجريد** : الرئيس : موسى الرويسي، الكاتب العام : محمد العجيمي ... كاهيته : الجديدي بن الصادق، أمين المال : محمد بن أحمد الأبيض.

11– **جامعة فرحات حشاد** : مركزها منزل بوزلفة. الرئيس : الهادي المرابط ... الكاتب العام : علي المسعودي، أمين المال : الطيب قربوع، رئيس الدعاية : خميس ... النوادي، رئيس الشبيبة : إبراهيم الوكال، رئيس الدفاع عن مصالح السكان : صالح ... الحصايري.

12 – **جامعة الهمامة** : الرئيس : العربي بن الصامت العكرمي، كاهيته : عبد القادر ... العكرمي، الكاتب العام : الأزهر بن الصادق بن عمر المحمدي، كاهيته : محمد بن ... السبوعي الأرطسي، أمين المال : المنصف بن عبد الله الزيدي.

13 – **جامعة مجاز الباب – زلدو** : الرئيس : عبد السلام بن رمضان الورقي، الكاتب العام : الجديدي بن محمد الصوماوي، أمين المال : محمد بن يوسف الهمامي ([51]).

14 – **جامعة سليانة** : الرئيس : عبد القادر زروق، الكاتب العام : عبد الحميد ... الهاني، كاهيته : الحفناوي بن عطية، أمين المال : جمعة صانصة ([52]).

15 – **جامعة مدنين** : الرئيس : فرج بن الحبيب.

([50]) **الجامعات** التسع هذه مذكورة **بالصباح** عدد 1956/1/22.

([51]) **الصباح** 1956/1/25.

([52]) **الصباح** 1956/1/29.

16 – **جامعة الصخيرة** : أمين المال : الجيلاني بن الحاج علي بوسديرة ([53]).

17 – **جامعة الشمال الشرقي** – بنزرت : رئيس الجامعة : أبوبكر البرناط.

18 – **جامعة الوطن القبلي**: الرئيس: المؤدب بن علي بن علي، الكاتب العام: عمر الناضور([54]).

هذا إضافة **لجامعات تالة وسبيطلة وزغوان ونفزاوة وجربة** ([55]) أين إذا الجامعات المتبقية ؟ في ظننا أن قيادة الأمانة العامة في إطار عملها الدعائي وكسب الأنصار كانت تضخّم من عدد جامعاتها وتسمي أحيانا شعبة بجامعة وكذلك أن بعض التكتلات اليوسفية سرعان ما تكونت وسرعان ما انحلت أمام المد البورقيبي الكاسح خاصة بعد مؤتمر صفاقس في نوفمبر 1955 وحملات التّرهيب ضد المعارضين.

هذه الحقيقة يؤكدها أيضا المسح الذي أجريناه وأجراه غيرنا من الباحثين ([56]) فيما يخص الشعب التي أعلنت ولاءها لصالح بن يوسف وانسلخت عن الديوان السياسي أو التي تكونت حديثا في صفه. لكن هنالك حقائق لا مراء فيها وهي أولا أن أنصار بورقيبة كما أنصار بن يوسف كانوا في كل جهات البلاد وثانيا أن الولاء للديوان السياسي أو للأمانة العامة اختلفت كثافته من جهة إلى أخرى، وثالثا أن غالبية السكان كانوا على حياد، آسفين على اختلاف الإخوة مترقبين زوال الغمة غارقين في بؤسهم اليومي. على كل يمكن أن نوجز جغرافية حضور طرفي النزاع في موفى سنة 1955 وبداية سنة 1956 فيما يلي:

([53]) **الصباح** 1956/3/16.

([54]) **الصباح** 1956/1/15.

([55]) **الصباح والبلاغ** لفترة نوفمبر 1955 – جانفي 1956.

([56]) إضافة لإتلاف أرشيف المعارضة اليوسفية زمن استئصالها وانغلاق أرشيف محاكمات اليوسفيين فإن الدراسات المونغرافية لفترة الخلاف اليوسفي البورقيبي لم تشمل إلى حد الآن جهات الساحل والوطن القبلي وتونس والجنوب –ما عدا قابس بينما درست عروسية التركي، م م جهة الأعراض ومحمد الزواري م م جهة صفاقس بينما بحثي محسن الخميري م م ومحمد الوالدي م م على دقة وثراء المعلومات التي أورداها فإنهما لا يفيان بالغرض لذلك فإن تاريخ تونس سنوات 1954 – 1958 لا زال للبحث.

• **الشمال الغربي :** 29 شعبة تابعة للأمانة العامة (57) منها شعب : سوق الخميس، شعبة سوق الإربعاء، شعبة وادي مليز، شعبة الحوايلية، شعبة الجريف، شعبة المعاريف... (58).

• **الشمال الشرقي :** 76 شعبة أمانية منها 47 بإقليم تونس[59]). مع الملاحظ أن جامعة تونس والأحواز انحازت في غالبيتها – على الأقل حتى مؤتمر صفاقس – لصف بن يوسف[60]). أما في الوطن القبلي فحضور اليوسفيين كان في شعب : سليمان، منزل بوزلفة، قليبية، بني خيار والحمامات وفي بنزرت : شعبة سيدي عامر، شعبة منزل جميل، شعبة هذيل، شعبة ماطر الوسطى، شعبة بوقبرين، شعبة فريفيل، شعبة العالية، شعبة منزل عبد الرحمان، شعبة بني معقل[61]).

الوسط الغربي : يبدو أن الولاء في جهة القيروان كان في غالبيته لصالح الديوان السياسي ولا تذكر المصادر في صف بن يوسف ما عدا شعبتي الوسلاتية والعلا. على عكس جهة القصرين في علاقة مع الحضور الجزائري فإن أتباع بن يوسف كانوا الأكثر حيث أحصى محسن الخميري 52 شعبة منظمة في جامعات تالة وجامعة أولاد وزاز وأولاد تليل وجامعة القصرين وجامعة سبيطلة[62]). إضافة لحضور الثوار اليوسفيين مع الجزائريين بالمنطقة.

• **الوسط الشرقي :** مثل السّاحل "قاعدة" الولاء للحبيب بورقيبة لكن لم يخل الساحل أيضا من معارضة في صف بن يوسف وحتى حمل السلاح في جانبه (شأن عبد اللطيف زهير من زرمدين) وتكونت خلايا يوسفية في كل من جمال وسوسة وزرمدين ومكنين والقلعة الكبرى ووزعت حتّى 17 جانفي 1956 حوالي ألفي بطاقة انخراط يوسفية وفي المنستير ذاتها وزعت حوالي 500 بطاقة (63).

---

(57) م. الخميري م م. ص 27

(58) ع. الهلالي، م م. ص 382 – 385.

(59) م. الخميري م م. ص 27.

(60) سامية المشاط، م م. ص 240.

(61) م. الخميري، م م. و**الصباح** لشهر جانفي 1956.

(62) م. الخميري، م م. ص 32-33.

(63) بطاقة استعلامات من المخابرات العسكرية لشهر جانفي 1956 (SHAT, 2 H 374, Fiche de Renseig ; Oualdi p.68)

كذلك كان الولاء لبورقيبة بجهة صفاقس هو الغالب خاصة في المدينة خلافا لظهير صفاقس حيث كان حضور المعارضة اليوسفية وخاصة المسلحة هاما في جهة جبنيانة والصخيرة. ومن الشعب الموالية لبن يوسف نذكر: مركز معلى، مركز بوعصيدة، شعبة باب الديوان، شعبة سكان الربض، شعبة مليّتة و11 شعبة في عمل الصخيرة (64) لكن الخميري أحصى عدد 22 شعبة يوسفية بجهة صفاقس(65) أما الزواري 15 شعبة فقط. غير أن تقريرا من المندوبية السامية الفرنسية قدر أن نصف مجموع منخرطي جامعة صفاقس الدستورية كانوا أبدوا تأييدهم قبيل مؤتمر صفاقس لصالح بن يوسف[66]) ويبدو أن الأمر تغير بعد عقد المؤتمر والسيطرة على الوضع بعد إزاحة الشيخ محمود كريشان من رئاسة جامعة صفاقس وفصله من الحزب في 30 نوفمبر 1955 (67).

*** الجنوب :**

مثل الجنوب مسرحا عنيفا للصراع اليوسفي البورقيبي وانقسمت الجهة الواحدة بين مساند لهذا الزعيم أو ذاك. ولكن كان الولاء أكثر عند الهمامة في جهة سيدي بوزيد والمكناسي وقفصة لبورقيبة (تأثير قيادات شأن لزهر الشرايطي وحمد الردّاوي أو أحمد التليلي وحسين بوزيان...) (68) فإن جهات الجريد ونفزارة والأعراض والحامة ومطماطة ومدنين كان فيها التّشيع حاضرا للطرفين على عكس جربة وجرجيس وبنقردان وتطاوين وجبال بني خداش أين كان تيار الأمانة العامّة أقوى سياسيا وخاصة عسكريا (69). على كل تفيد المصادر المعتمدة أن اليوسفيين تمكنوا من بعث ست جامعات بالجنوب وهي

---

(64) م. الخميري، م م. ص 36. وم. الزواري. م م. ص 129-132

(65) م. الخميري، م م. ص 36.

(66) الزواري م م. ص. 132.

(67) تقرير من المندوبية السامية بتاريخ 9 نوفمبر 1953. (QO., Tunisie 1950-1955, C.316. f. 175)

(68) غير أن بورقيبة في زيارته لجهة قفصة والمناجم في بداية جانفي 1956 لم يلق الترحاب المترقب حتى أنه صرح في الرديف "أصبحت أكثر شعبية لدى الفرنسيين من التونسيين". انظر تقرير الاستعلامات الفرنسية بقفصة في 17 جانفي 1956 ب الأرشيف الوطني، سلسلة تاريخ الحركة الوطنية، صندوق 68، ملف 1 وثيقة 14.

(69) نعود لهذا الجانب في فصل " اليوسفيون ومعارك الجنوب. 1955-1957"

جامعة الأعراض وجامعة قفصة وجامعة الجريد وجامعة نفزاوة وجامعة مدنين وجامعة جربة ([70]) وقد أحصى الباحث الخميري 80 شعبة موالية للأمانة العامة بالجنوب ([71]).

لكن هذا التسابق لربح الولاء ورص الصفوف والتجنيد حول الديوان السياسي أو الأمانة العامة كان أحد أوجه الوجود فحسب لصراع بدأ باختلاف الآراء لينتهي بسفك الدماء.

V – الصراع اليوسفي – البورقيبي : الوسائل، التّحالفات والنّتائج

إن المجتمعات تحل تناقضاتها وصراعاتها على خلفية ثقافتها وارثها السياسي التاريخي فإن كان ارثها ديمقراطيا عادة ما تكون صيغ فك التناقضات تجنح إلى الطرق السلمية وان كانت على عكس ذلك مجتمعات ما قبل حداثية شأن المجتمع التونسي في منتصف الخمسينات من القرن الماضي حيث تسود ثقافة الغلبة والقهر والعصبيّات وغياب الثقافة الديمقراطية فإنه عادة ما يكون حلّ التّناقضات بالعنف لا سيما إذا كان الرّهان حريّة الوطن والسلطة والثروة والهوية.

ويندرج صراع اليوسفيين والبورقيبين في هذا السياق التاريخي.

*** صالح بن يوسف : من الطرق السلمية إلى اعتماد العنف للتحرير**

يوضح صالح بن يوسف إستراتيجيته في محاربة الاتفاقيات حتى 16 أكتوبر 1955 وبعد نشر قرار طرده من الحزب (أكتوبر) في خطاب نشرته الصحف الموالية يقول فيه مثل ما أتى في جريدة "البلاغ" يوم 17 أكتوبر 1955 : " رجعت لأقول لكم ما يجب أن أقوله بصراحة فكان ما كان ولقد أردت بهذا أن أغلق الباب في وجه فرنسا لكي لا تقول أن هذا الشعب قد رضي ما رضي به الاستعمار الفرنسي وأن هذه الاتفاقيات هي خطوة إلى الوراء وهو ما أردت أن أوضحه داخل حزبنا لأننا حزب ديمقراطي منظم ولنا منظمات قومية منظمة والشعب مازال له الحق بأن يقول كلمة في هذه الاتفاقيات. وإذا ما نودي بالمؤتمر يجب أن لا يكون هذا المؤتمر بالرؤوس فقط وإنما لجميع الطبقات ولا بالديوان السياسي فقط أو رؤساء الجامعات فقط، حتى إذا ما كان هذا المؤتمر قوميا صرفا وأصدر حكمه في مسألة هاته المفاوضات وهذا أنبهكم إليه لأن المؤتمر أصبح على

([70]) الصباح من ديسمبر 1955 إلى فيفري 1956.

([71]) م. الخميري، م م، ص. 38.

الأبواب. وهذا هو الذي سيجبر الحكومة التونسية الحالية بأن تطلب فتح مفاوضات جديدة مع فرنسا إن رضيت فرنسا وأن تكون هذه المفاوضات على قاعدة جديدة تضمن لنا حقوقنا بدون أن نلتزم فيها بالتفريط أو التسليم. فإذا أبت فعند ذلك سيكون لنا معها حساب، هذا أقوله لكم لأنهم يشوهون لكم الحقائق ويفترون على هذا الشعب ويدعون أنني أدعو إلى حمل السلاح مرة ثانية وهو عكس ما أنا أوضحته لكم منذ 13 سبتمبر 1955 (تاريخ عودته من القاهرة)". هذا المنهج المنادي بالاحتكام لمؤتمر الحزب وضرورة فتح مفاوضات جديدة مع فرنسا وعدم الاعتراف باتفاقيات 3 جوان التي يعتبرها بن يوسف "خيانة للوطن" واعتماد الطرق السلمية في الدفاع عن الموقف ونشر الآراء يثبته تتبع أحداث الصراع اليوسفي البورقيبية إذ كان صالح بن يوسف وأتباعه حتى موفى سنة 1955–أي مدة أربعة أشهر منذ عودة بن يوسف في سبتمبر– كانوا يعتمدون طرقا سلمية للتعبير عن معارضتهم للاتفاقيات ولم يصدر عنهم عنف إلا في حدثين فقط ([72]) وعلى العكس كانوا عرضة لعنف ممنهج نعود إليه لاحقا.

حيث اعتمد اليوسفيون في معارضتهم على الخطب (بن يوسف، علي الزليطني، حسين التريكي، الطاهر لسود...) والتصاريح والمقالات في الصحف وتنظيم الاجتماعات والتجمعات ([73]) والتظاهر ([74]) واستقبال الوفود ([75]) والجولات التعبوية ([76]) وتجنيد الأنصار داخل تونس ومن خارجها.

([72]) الأول جد في 2 نوفمبر 1955 عندما حاول بعض اليوسفيين إفساد اجتماع يرأسه علي البلهوان وكان العنف من طرف قوات الأمن الحاضرة والحدث الثاني وقع في 2 ديسمبر 1955 عندما أطلق يوسفيون النار على أنصار بورقيبة في اجتماع في قربة وقتل فيه شخصان.

([73]) أهمها اجتماع الزيتونة في 7 أكتوبر 1955 وتجمع ملعب جيو أندري (الشاذلي زويتن) بالعاصمة يوم 18 نوفمبر 1955.

([74]) أهم المظاهرات بالعاصمة مظاهرة 18 أكتوبر 1955 (عشرات الآلاف) نادت بسقوط حكومة بن عمار وإلغاء الاتفاقيات ومظاهرة 8 جانفي 1956 أمام قصر الباي بالمرسى (بعض الآلاف) طالبت بإقالة الحكومة "التي لم تضع حدًا للإرهاب" و"لتحيّزها" حسب المنظمين (**الصباح** 1956/01/10).

([75]) كانت دار صالح بن يوسف ثم مقر الأمانة العامة محج وفود يومية تأتيه من مختلف جهات البلاد ومن مختلف الفئات (تجار، فلاحين، طلبة الزيتونة، ممثلي الشعب...) تناصره راجع مثلا جريدتي الصباح والبلاغ مثلا لتلك الفترة.

([76]) زار صالح بن يوسف : في 10/24 : المعمورة في 10/28، القيروان، في 11/2 : مجاز الباب وبوسالم، وبين 6 و10 نوفمبر زار في الجنوب كل من قابس ومدنين وبنقردان وجربة.

داخل تونس كما ذكرنا سابقا كان هنالك التقاء موضوعي بين المعارضة اليوسفية والحزب الدستوري القديم حول رفض الاتفاقيات وحول التوجه العروبي والإسلامي لبن يوسف لكن لم يرق الالتقاء إلى درجة التنسيق أو لصيغ نضالية مشتركة ([77]) أما الحزب الشيوعي الذي هو أيضا عارض اتفاقيات 3 جوان سرعان ما تراجع ليساند الشق البورقيبي تحاشيا للخطاب العروبي والإسلامي لبن يوسف (لعله تأثير العناصر اليهودية في قيادته) ولتحالف هذا الأخير مع اتحاد الفلاحة. ولئن خسر صالح بن يوسف دعم العناصر النقابية واتحاد الشغل وكذلك المنظمات الشبابية وخاصة الشبيبة الدستورية والشبيبة الكشفية التي هي شرائح أكثر من غيرها جرأة على خوض الصراعات والإلتحامات العنيفة فإن جانبا كبيرا – كما اسلفنا– من طلبة الزيتونة وحتى الشباب العاطل اندفع لجانب بن يوسف.

لكن أهم دعم لقيه بن يوسف كان في صف من رفعوا السلاح في ما سمّاه المقاومون "بالثورة الثانية" ([78]) إن كانوا من قدماء المقاومين (مرحلة جانفي 1952 – ديسمبر 1954) أو المقاومون الجدد وكان أبرز القادة في "عصابات" المجاهدين اليوسفيين هم : الطاهر لسود، الطيب الزّلاق، محمد قرفة، عبد اللطيف زهير، الطاهر بالحاج البوعمراني، الهادي الأسود، علي درغال، العجمي المدور، إبراهيم الأريل، عمار بني، الطاهر بن لخضر الغريبي، البشير بن منصور، علي بن أحمد المحضاوي، أحمد لزرق، ناصر بن مسعود العاشق (باك الناصر)، محمد بن ضو العبيدي، محمد بن مصباح النيفر...([79]) هؤلاء الذين قادوا مئات المقاومين في كتائب منفردة أو ضمن وحدات قتالية مشتركة مع الثوار الجزائريين شمل نشاطها كامل الشريط الحدودي مع الجزائر وجل جبال الجنوب التونسي من أواخر 1955 إلى ما بعد 20 مارس 1956 وشارك فيها ما

([77]) راجع مذكرة محمد الوالدي، م.م.ص.53.

([78]) ليس غايتنا التعرض إلى المقاومة اليوسفية هنا خاصة وإننا تناولناها في فصل سابق بعنوان "جيش التحرير الوطني التونسي : حقيقته ومصيره" ضمن مؤلفنا " **المقاومة الشعبية في تونس** الذي سبق ذكره وتعرض غيرنا من الباحثين لنفس المسألة خاصة في بحوث عروسية التركي ومحمد مختار الناصري ومحسن الخميري الآنفة الذكر.

([79]) للتعرف على هؤلاء القادة يمكن العودة لكتاب : عميرة علية الصغير وعدنان المنصر : **المقاومة المسلحة في تونس**، ج 2 (1939–1956) نشر المعهد الأعلى لتاريخ الحركة الوطنية، تونس، 2005.

يزيد على ألفي مجاهد من الطرفين في 51 مجموعة مقاومة ([80]) دخلت مع الجيش الفرنسي وحلفائه من النظام التونسي الناشئ في معارك حقيقية شاركت فيها الطائرات والدبابات وأدخلت الاضطراب فعليا على التواجد الفرنسي في تونس وعلى خططه الأمنية في شمال إفريقيا وخاصة في الجزائر وكانت هذه الهبة الجهادية تحت راية تحرير المغرب ووحدة المصير في التحرر حاسمة في التحول بتونس من اتفاقيات الاستقلال الداخلي إلى الاعتراف باستقلالها التام باعتراف مسؤولي السياسة الاستعمارية الفرنسية كما سوف نعود لتبيانه لاحقا.

أما في الخارج فقد مثلت مصر هيئات وحكومة دعما دائما لقضية التحرر في المغرب العربي خاصة منذ أن أصبحت القاهرة مع نهاية الحرب العالمية الثانية قبلة الوطنيين المغاربة القارين من البطش الاستعماري والراغبين في التعريف بقضية شعوبهم والطامحين في دعم جامعة الدول العربية المتأسسة سنة 1945. ورغم الخيبة أحيانا في الفعل الحقيقي لهذه الجامعة لفائدة تحرر شعوب شمال إفريقيا لدى القيادات الوطنية لأن الأنظمة العربية المكونة للجامعة كانت محدودة في قدرتها على الفعل ([81]) فان الوطنيين المغاربة لقوا الدعم المعنوي والمادي من الجامعة العربية ومن المصريين حكومة وهيئات (الشبان المسلمين، الأحزاب الوطنية، الصحافة...) وخاصة بعد وصول الضباط الأحرار للحكم في مصر في يوليو 1952 وتسلم جمال عبد الناصر مقاليد السلطة في مارس 1954 ورفع لواء مقاومة الاستعمار وشعار الوحدة العربية والتضامن القومي العربي والذي لقي صداه لدى صالح بن يوسف الذي كان لجأ للقاهرة منذ مارس 1952 ولدى

([80]) انظر تفاصيل هذه المجموعات برسالة محسن الخميري، م م. ص 48-52. وكذلك فصلنا "جيش التحرير الوطني الجزائري بتونس" ضمن هذا الكتاب والذي كان نشر ضمن: أعمال الملتقى الدولي حول : **نشأة وتطور جيش التحرير الوطني**، عن وزارة المجاهدين، الجزائر،2005، ص 177-200.

([81]) انظر في الموضوع : – الرشيد إدريس: **ذكريات عن مكتب المغرب العربي في القاهرة**، الدار العربية للكتاب، تونس، 1981.

– خالد عبيد، **مكتب المغرب العربي بالقاهرة 1947-1949**، ش ك ب، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية بتونس، 1989 (مرقونة)

– شهادات محفوظة بالمعهد الأعلى لتاريخ الحركة الوطنية : حسين التريكي، محمد الصالح كعفار، عبد الله العبعاب، حمادي غرس، أحمد صوة. وبصورة أشمل للدعم المصري للقضية التونسية يمكن مراجعة رسالة السويح علي، م م.

أنصاره في معارضة اتفاقيات 3 جوان من مناضلي الحزب الدستوري الجديد بالشرق وخاصة يوسف الرويسي بدمشق وحسين التريكي وإبراهيم طوبال وعبد العزيز شوشان بالقاهرة(82).

على كل منذ مؤتمر باندونغ في أفريل 1955 سوف يتحرك صالح بن يوسف منتقدا الاتفاقيات متخذا القاهرة قاعدة لحملته عليها وعلى ممضيها من التونسيين محملا بورقيبة مسؤولية القبول بها وقد أرسل في 17 ماي 1955 مذكرة تفصيلية تنتقد مشروع اتفاقيات 3 جوان لكل من الأمانة العامة للجامعة العربية والحكومة المصرية وسفراء البلدان العربية بالقاهرة(83) وهكذا سوف يتمكن صالح بن يوسف من تأليب الجامعة العربية والنظام المصري والوطنيين الجزائريين والمراكشيين ضد اتفاقيات الاستقلال الداخلي وضد رئيس الحزب الحر الدستوري الجديد الحبيب بورقيبة. حيث أرسلت الجامعة العربية في 12 جويلية 1955 برقية لبورقيبة "تحمله عظيم المسؤولية في التأثير على الرأي العام التونسي وتعتبر عمله انحرافا هدفه إخراج الشعب التونسي من الأمة العربية والإسلامية وإدماجه في اتحاد فرنسي-تونسي" (84).

أما السلط المصرية حتى وإن بعث جمال عبد الناصر ببرقية يهنئ فيها بورقيبة بإمضاء الاتفاقيات (85) من باب المجاملات الدبلوماسية فإنها سرعان ما تلافت الأمر وانتقدت ممضي الاتفاقيات وعابت عليهم " القبول بتنازلات كبيرة في الوقت الذي لا يخفت التوتر بالمغرب وتتدهور الحالة بالجزائر" (86) وفتحت الصحف الرسمية كالأهرام وغير الرسمية وخاصة إذاعة "صوت العرب" مجالا واسعا للدعاية اليوسفية ضد

---

(82) حول موقف هؤلاء من اتفاقيات الاستقلال الداخلي يمكن السماع لشهادة حسين التريكي بالمعهد الأعلى لتاريخ الحركة الوطنية والرجوع لكتاب : الرشيد ادريس، **في طريق الجمهورية، مذكرات**، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 2001.

(83) السويح علي، **الوطنيون التونسيون ومصر. 1952-1956**، ش ب م، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية بتونس، 1996، ص.122. انظر نص هذه المذكرة بالفرنسية ضمن رسالة م.الولدي م.م. ص 139-142. وفي جريدة "**الأسبوع**" يوم 25 جويلية 1955.

(84) أوردتها سامية المشاط، م م. ص 235.

(85) من رسالة الطيب سليم (1955/6/16) إلى الرشيد إدريس، ضمن الرشيد إدريس، **في طريق الجمهورية**، ص 414.

(86) جريدة 1955/7/14 **Le Monde**.

الاتفاقيات وضد المسؤولين عنها وتطور الموقف الرسمي المصري في إطار مساندة تحرر شعوب شمال إفريقيا الشامل واعتماد المقاومة المسلحة إلى انخراط مباشر في دعم المعارضة اليوسفية واستقبال رموزها خاصة صالح بن يوسف والطاهر لسود معية رفاقهما من قيادة جيوش التحرير في تونس والمغرب والجزائر (عبد الكريم الخطيب، أحمد بن بلة...) وغيرهم (87).

ومن القاهرة دائما سيلقى صالح بن يوسف دعم "لجنة تحرير المغرب العربي" التي أصدرت يوم 14 أكتوبر 1955 بلاغا قررت فيه فصل الديوان السياسي للحزب الحر الدستوري الجديد ورئيسه الحبيب بورقيبة من عضوية اللجنة وتنقل تلك السلطات إلى الأمين العام صالح بن يوسف "لأنه هو الذي يبقى محافظا على المبادئ الاستقلالية التي انظمّ الحزب على أساسها إلى لجنة تحرير المغرب العربي، وأمضى البلاغ عن الوفد المراكشي علال الفاسي وعن الوفد الجزائري محمد خيضر وعن الوفد التونسي إبراهيم طوبال(88). كما لقي بورقيبة الشجب من عبد الكريم الخطابي وأنصاره من التونسيين شأن عز الدين عزوز(89).

وهكذا رفع اليوسفيون ومعارضو الاتفاقيات راية المقاومة من أجل "استقلال فعلي وناجز" ومن أجل "وحدة حركات التحرر في المغرب" والتضامن العربي مستنصرين بدعم النظام المصري خاصة وتطورت معارضتهم من السياسة إلى امتشاق السلاح واعتماد

---

(87) يمكن العودة هنا إلى كتاب فتحي الذيب ضابط المخابرات المصري الذي كان مكلفا بالتنسيق مع حركات التحرر في المغرب العربي. بعنوان : **عبد الناصر والثورة الجزائرية**، القاهرة، 1980. كذلك مذكرات الضابط وأحد قيادي جيش التحرير المغربي محمد حمادي العزيز الموسوم ب : **جيوش تحرير المغرب العربي**، نشر المندوبية السامية لقدماء المقاومين وأعضاء جيش التحرير، الرباط، 2004. وأعمال الملتقى الذي نظمته مؤسسة محمد بوضياف حول "**جيش التحرير المغاربي 1948-1955**"، نشر المؤسسة، الجزائر، 2004 والذي يتضمن شهادات فاعلين في تلك "المغامرة" التحريرية من الدرجة الأولى (الهاشمي الطود، عبد الحميد المهري، محمد بن سعيد، بشير بالقاضي، عبد الكريم الخطيب...) إضافة لدراسات المختصين. وفي الجانب التونسي يمكن مراجعة خاصة شهادة قائد المقاومة المسلحة اليوسفية الطاهر لسود بمعهد الحركة الوطنية.

(88) انظر النص الكامل للبلاغ ب : الطاهر عبد الله، **الحركة الوطنية التونسية، رؤية شعبية قومية جديدة**، سوسة، دار المعارف للطباعة والنشر، 1980، ص 123-124. وحول ملابسات اتخاذ هذا القرار، الرشيد ادريس، **في طريق الجمهورية**، ص 432-433.

(89) راجع مقالنا " عبد الكريم الخطابي في عيون التونسيين".

العنف ضد الحضور الفرنسي وحتى ضد خصومهم من البورقيبيين بعدما كانوا ضحيته... لكن كيف تعامل البورقيبيون مع معارضيهم في الاتفاقيات؟ [90].

• الحبيب بورقيبة : من اختيار الفصل بالطرق غير القانونية إلى العنف الممنهج:

قبل عودة صالح بن يوسف إلى تونس في 13 سبتمبر 1955 كان بورقيبة يعول دائما على "تعقل" الأمين العام وعلى أن الوضع الجديد سيقنع ذاك المنقطع عن البلاد منذ جانفي 1952 وأوفد العديد من رموز الحزب والمنظمات القومية للتوسط وإقناع الأمين العام بصواب رأي رئيس الحزب إن كان في القاهرة أو في تونس وراهن على قدرته وقدرة مناصريه في الديوان السياسي على الإقناع بصواب الممضين على الاتفاقيات "وليس في الإمكان الحصول على أحسن مما كان" ويبدو أن بورقيبة ومناصريه جرّبوا الإغراء مع المعارضين فنجحوا مع البعض [91] وفشلوا معه حتى أنه في اجتماع شعبي له بالعاصمة أمام أتباعه يوم 16 أكتوبر 1955 بعد ثلاثة أيام من صدور قرار فصله من الحزب أعلن "نعم لقد عدت إلى هذه البلاد لأكسّر الأغلال التي قيد بها هذا الشعب، وعيد المقاومة وتهديد الرفت، وقد وقع إغرائي على أن أتراجع عن موقفي الذي أعلنته من مصر ومن جنيف ومن رومة ومن هذا البيت (يقصد بيته) ومن جامع الزيتونة هذا الموقف الذي يتمثل في معارضتي للاتفاقيات التي فرضت على الشعب فرضا وهي التي لازلت مصرا على رأي بأنها خطوة إلى الوراء تقيد تطور هذا الشعب، ومن أجل ذلك فقد عرضوا علي أن أقبل وأن أكون أنا المشكل للوزارة الجديدة فرفضت هذه المساومة في حق الشعب لأن هذا الحق قد سلم المتفاوضون في تسعين بالمائة منه إلى الأعداء" [92].

لم تفشل فقط إذا محاولات التوفيق والترغيب لجر الأمين العام للحزب الدستوري الجديد للقبول بالاتفاقيات " وضمان وحدة الحزب" بل أن "الشرك اتسع" وبدأ يحدث انقلاب في الرأي العام الذي حاول بورقيبة ومناصروه منذ أفريل 1955 إقناعه بجدوى ما اتفق عليه مع فرنسا[93] خاصة وإن جل الصحف العربية- كما أسلفنا -[94] انحازت تقريبا لبن يوسف كما لم تفلح الدعاية ضد المعارضين ونعتهم "بممزّقي وحدة الأمة" و"معرقلي مسيرة التحرر" وتحركهم أغراض خاصة " ويقودهم الحسد والحقد" [95]. وكانت العاصمة بمثابة البارومتر في الولاء إذ عبرت جامعة تونس والأحواز للحزب الدستوري الجديد عن عدم تحمس لبورقيبة إن لم يكن ميلا لموقف بن يوسف حتى أن بورقيبة منذ 5 جويلية 1955 حقّر ممّا تدّعيه الجامعة من نضال وثمّن الدور الحاسم للمقاومين بالسلاح في إخضاع فرنسا وتفّه " فرقعات علب السردينة" التي كانت تحدث في العاصمة [96] ووصل

---

[90] حول عنف اليوسفيين ضد المدنيين انظر اللاحق من الصفحات.

[91] حسب شهادة حسين التريكي الذي كان موجودا بالقاهرة " كان الرشيد ادريس يقول اعطوني مسدسا لأذهب لأقتل بورقيبة ويكفي أن بورقيبة منحه 500 ألف فرنك وإدارة "العمل" فغير رأيه. كذلك الباهي الأدغم كان من أكبر المعارضين للاتفاقيات وعندما عرض عليه بورقيبة الكتابة العامة للحزب تراجع" (شهادته بالمعهد الأعلى لتاريخ الحركة الوطنية). وفي ما يخص موقف الرشيد إدريس نعتقد أن التريكي لا يبالغ إذ أمضى إدريس في 23 أفريل بيان لجنة تحرير المغرب العربي المندد بالاتفاقيات كما أتى في مذكرة (QO 646.T.1950-1955, v.309. f 194) وهو الموقف ذاته الذي عبر عنه ادريس في مذكراته الصادرة في 2001 حتى وإن اختلف مع بن يوسف في كيفية مجابهة الوضع وذلك في رسالته للطيب سليم بتاريخ 9 جوان 1955 في كتابه "في طريق الجمهورية..." ص 406-407. وكذا الأمر بالنسبة للباهي الأدغم الذي وصل طرابلس من نيويورك في منتصف جوان 1955 وأخطر بورقيبة "أنه لا يجب أن يعول عليه مستقبلا" ضمن رسالة بعث بها مراد بوخريص من طرابلس في 1 جويلية 1955 إلى علي البلهوان حول موقف المهاجرين بطرابلس وهي مترجمة بأرشيف الخارجية الفرنسية. (QO 650.Tunisie1944 -1955, v.317. ff 337-343) وموقف الأدغم هنا بعد إمضاء الاتفاقيات هو ذاته الذي عبر عليه منذ 7 جانفي 1955 في رسالته لصالح بن يوسف انظر نص الرسالة في : الباهي، الأدغم، **مراسلات**، م م. ص 275-280.

[92] نص الخطاب بجريدة " **البلاغ**" يوم 1955/10/17.

[93] إضافة لنشاط أعضاء الديوان السياسي خطب بورقيبة حتى عودة بن يوسف في مقرات الهيئات والمدن التي زارها : الإتحاد العام للفلاحة التونسية (4 جوان)، الإتحاد العام التونسي للشغل (12 جوان)، سوسة والمنستير (17 جوان)، الجامعة العامة للموظفين (1 جويلية)، قصر هلال (3 جويلية) طبلبة (4 جويلية)، الإتحاد التونسي للصناعة والتجارة (6 جويلية)، مؤتمر الجامعة العامة للتعليم (7 جويلية).

[94] وأهمها : الصباح والبلاغ والبلاغ الجديد والأسبوع والاستقلال (جريدة الحزب الدستوري القديم) واليقظة وصوت الزيتونة والزهرة والوطن والفرززو ولم يناصر بورقيبة إلا جرائد "كل شيء بالمكشوف" و"صوت العمل" (جريدة الإتحاد العام التونسي للشغل) وجريدة العمل التي أسسها بورقيبة في 23 أكتوبر 1955.

[95] انظر مثلا خطاب مدير الحزب بالنيابة الطيب المهيري وكذلك الوزير المفاوض محمد المصمودي في اجتماع الشعبة الدستورية بالمهدية في 28 أفريل 1955 ونقلته **الصباح** في يوم 2 ماي 1955 أو خطاب المنجي سليم في رحبة الغنم في **الصباح** 3 ماي 1955.

[96] انظر تقرير المقيم العام حول هذا الاجتماع الذي ترأسه علالة بلهوان (R.du Boyer de la Tour, in QO.v.315, Tunisie 1944-1955, f.190)

الأمر أنّ عضو الديوان السياسي علالة بلهوان هدّد في 3 نوفمبر 1955 جامعة تونس بحلّها إن لم تعلن معارضتها لبن يوسف ([97]).

لهذه الاعتبارات تقرر فصل الأمين العام للحزب الحر الدستوري في 8 أكتوبر 1955.

• هل طرد صالح بن يوسف من الأمانة العامة ومن الحزب كان مشروعا؟

أولا في ملابسات الطرد يبدو أن بورقيبة كان عازما على فصل بن يوسف إذا أصرّ على معارضته منذ أفريل 1955 ([98]) وقبل حتى إمضاء الاتفاقيات ولم يزده تطور الأحداث بعد عودة بن يوسف وإحساسه بأن زعامته أصبحت مهدّدة وصار التزامه مع فرنسا مطلوبا للمراجعة سرّع باتخاذ قرار الطرد خاصة بعد خطاب صالح بن يوسف في جامع الزيتونة في 7 أكتوبر1955 وما أحدثه من رجّة فعليّة خاصّة وإنّ المفوضية السامية الفرنسية بتونس طالبت في حينه بعد الخطاب اتّخاذ إجراءات حاسمة ضدّ بن يوسف "لأنّ مستقبل الاتفاقيات الممضاة سوف يكون حالكا إذا لم تتخذ قرارات في ذلك" ([99]). ويبدو أنّ بورقيبة أمر مباشرة الأمين العام للحزب أن يستقيل فكان ردّ بن يوسف الرّفض القاطع و"أن لا محاسب له إلاّ مؤتمر وطني" فكان قرار الفصل في 8 أكتوبر والذي لم يصدر إلاّ في 12 من الشهر باسم الديوان السياسي. هل غُصب أعضاء الديوان على ذلك؟ هل أجبروا على اتّخاذ مثل هذا القرار؟ على كل تأخر إعلانه أربعة أيام يشير بأن هنالك على الأقل تلكؤ من الديوان السياسي ولعلّ قرار الطّرد تمّ من بورقيبة وجميع الديوان السياسي فقط حفاظا على الشّكل كما ذهب روجي سيدو في برقيّة لوزارة الخارجية الفرنسية بتاريخ 13 أكتوبر ([100]).

([97]) البلاغ 4 نوفمبر 1955.

([98]) هذا ما ورد في مذكرة استخباراتية من الإقامة العامة في ماي 1955 ضمن مكالمة هاتفية لبورقية مع حسّان بلخوجة يعلمه أنّه في حالة تعنّت بن يوسف سوف يجمع مؤتمرا ويفصل. (QO. 646, Tunisie 1950-1955, V.309, ff 194-199)

([99]) انظر برقيّة روجي سيدو المفوّض السامي بتاريخ 7 أكتوبر 1955 على الساعة 21 و45 دق أرشيف الخارجية الفرنسية (QO. 646, Tunisie 1950-1955, V.309, f308)

([100]) برقية روجي سيدو (QO. 646, Tunisie 1950-1955, V. 309, f311)

وينصّ القرار الذي نشرته الصّحافة في 13 أكتوبر على : "بناء على أنّ الأستاذ صالح بن يوسف يتبع اتجاها مخالفا لاتجاه الحزب الذي صادقت عليه الهيئات المسؤولة للحزب من ديوان سياسي ومجلس ملّي وجامعات وشعب في مؤتمراتها الجامعية. وبناء على أنّه جاهر بصورة واضحة لا شبهة فيها بمقاومته تلك السياسة التي أقرّها الحزب.

وبناء على أنّه انفرد عن مجموع الديوان السياسي بمقاومة تلك السياسة في الداخل بواسطة المناشير التي كان يقوم بإرسالها من الخارج لإحداث الاضطراب والشّغب على الحزب.

وبناء على أنّه أصرّ على موقفه رغم المحاولات التي قام بها الديوان السياسي والمنظمات القومية وكافة قادة المجاهدين وقسم كبير من مسؤولي الحزب لإقناعه بضرورة المحافظة على وحدة الأمّة في نطاق اتّجاه الحزب.

وبناء على استعماله صفة الكاتب العام لمقاومة سياسة الحزب، وبعد دراسة جميع الظروف المحيطة بموقفه وعملا بالفصل الثالث والأربعين من القانون الداخلي للحزب، فقد قرّر الديوان السياسي للحزب الدستوري التونسي تجريد الأستاذ صالح بن يوسف من الكتابة العامة للحزب ومن عضوية الحزب. الإمضاء : الرئيس : الحبيب بورقيبة" ([101]).

وكان ردّ صالح بن يوسف سريعا صدر يوم 14 أكتوبر يقول :"أنّ القرار المذكور لم يكن صادرا عن ذي أهليّة أو صلاحية حسب قوانين حزبنا ولذا فإنّي أعلن بطلانه من أساسه. مؤكّدا استمراري على مباشرة مسؤولياتي الحزبية" ([102]) ليرتقي بردّه ويصدر في 30 أكتوبر قرارا أشدّ هذا نصّه :"حيث أنّ الديوان السياسي اقترف معتمدا جريمة الاعتداء الصّريح على حرمة المبادئ والمواثيق الوطنيّة المقدّسة التي تتجسّم في ميثاق ليلة القدر والميثاق الذي أعلنه مؤتمر حزبنا التاريخي المنعقد في تونس في 18 جانفي 1952 تحت رئاسة الشهيد العظيم الهادي شاكر.

([101]) جريدة الصباح 1955/10/13. في النصّ الفرنسي الذي ضمّته المفوض السامي بتاريخ 13 أكتوبر الإمضاء : عن الديوان السياسي، الحبيب بورقيبة (Q.O 650 V. 316. Tunisie 1944-1955, f.32)

([102]) جريدة البلاغ 1955/10/14.

- وحيث أن هذه المبادئ الهامة والمواثيق تؤكّد كلها ضرورة تحقيق استقلال البلا
التونسية استقلالا كاملا ليمكن للشعب التونسي أن ينعم بحياة العزّة والكرامة والرفاهية
والعدالة الاجتماعية.

- وحيث أن الديوان السياسي بقبوله الاتفاقيات الفرنسية التونسية المبرمة بين الحكومتين بباريس وبتاريخ 3 جوان (يونيو) 1955 قد تنكر للعقيدة الوطنية وأهدر المبادئ والمواثيق المقدسة.

- وحيث أنه مصر على فرض هاته الاتفاقيات على الشعب وذلك باقتلاع مصادقة الحزب عليها اقتلاعا يجعله لا يتردّد في استعمال كل الوسائل للوصول إلى هاته الغاية الأثيمة غير مبال بالالتجاء للعنف ونشر الفساد وشراء الضمائر وتشجيع المطامع الشخصيّة.

لهذا فإنّني أعلن باسم الحزب الحر الدستوري التونسي قاطبة بأنّ الديوان السياسي لم يبق له أهلية قيادة الحزب والأمّة. وأدعو جميع التشكيلات الحزبيّة للانفصال عن الديوان السياسي والتبرّئ منه والالتحاق فورا بالأمانة العامة للحزب. تحريرا بتونس في 13 ربيع الأنوار سنة 1375 الموافق 30 أكتوبر 1955. الإمضاء : صالح بن يوسف الأمين العام للحزب الحر الدستوري التونسي" ([103]).

وللإجابة عن السؤال الذي طرحناه حول مشروعيّة قرار فصل بن يوسف من الحزب الدستوري الجديد. نلاحظ وهذا ما ردّ به بن يوسف وأنصاره أن لا مسوّغ في القانون الأساسي لهذا الحزب لفصل أمينه العام ولا محيد عن قرار من مؤتمر الحزب لطرد أحد أعضائه وفي أسوإ الحالات يمكن للمجلس الملّي تعليق العضويّة حتى انعقاد المؤتمر القادم للبت (الفصل 45) ([104]). ثمّ أنّ بيان الدّيوان السياسي يحتوي مغالطات عندما يدّعي أنّ بن يوسف يذهب ضد ما وافقت عليه هيئات الشعب والجامعات والمجلس الملّي لأنّ هذه الهيئات في أغلبها لم تجتمع لا قبل إمضاء الاتفاقيات في 3 جوان ولا بعدها على الأقل حتّى قبيل عقد مؤتمر الحزب في نوفمبر 1955. فقرار طرد صالح بن يوسف غير شرعي استنادا لقانون الحزب كما قرار صالح بن يوسف بنزع الأهلية عن الديوان

([103]) **الصباح** 1955/11/01.

([104]) انظر المحاججة القانونية لعملية الرّفت في جريدة **البلاغ** يوم 17 أكتوبر 1955.

السياسي والمطالبة بعدم الاعتراف به غير شرعي أيضا، لكن مسوّغ قرار الطّرفين سياسيّ وقدرته على الفعليّة والتّطبيق مرتبط بالقدرة على الغلبة وفرض السّطوة.

على كل كان ردّ الفعل على طرد صالح بن يوسف سريعا خاصّة في تونس العاصمة حيث أغلقت 500 دكان أبوابها على 1300 بمدينة تونس كذلك في عديد جهات البلاد تمّ الاحتجاج ذاته ولوحظ استياء لدى السكّان خاصّة بالحاضرة ([105]) وتوالت لوائح وبرقيات الاحتجاج والتأييد والتي كانت تنشرها الصّحف الموالية لبن يوسف يوميّا من كل الجهات ومن كلّ الفئات وخاصّة ذات الميول اليوسفيّة. ويبدو أنّ الشقّ البورقيبي ومن ورائه السّلط الفرنسية – كما سنبيّنه لاحقا – اختار الحسم مع الشقّ اليوسفي باعتماد العنف خاصّة بعد إصرار بن يوسف على التمسّك بصفته ورفضه تكوين حزب آخر ([106]) وبعثه لهيأة مسيّرة تنشط تحت مسمّى "الأمانة العامة" منذ 30 أكتوبر 1955 ثم وخاصة بعد بروز "عصابات" المقاومة المسلّحة اليوسفيّة أواخر 1955.

*** اعتماد العنف لإسكات المعارضة**

قبل التّعرض لبعض أوجه هذا العنف الذي سلّط على اليوسفيّين نتساءل : أيّ منطق كان يحدو القيادة البورقيبية لفعل ذلك؟ لا شكّ أنّ بورقيبة وأغلبيّة الديوان السياسي ([107]) كانوا يرون أنّ القضاء على المعارضين أو على الأقل إسكاتهم يدخل في منطق خدمة

([105]) برقيّة روجي سيدو بتاريخ 14 أكتوبر 1955 (QO. 646, Tunisie 1950-1955, V309, f.318)

([106]) يبرّر صالح بن يوسف ذلك في جوابه عن سؤال عمر فضّة رئيس تحرير "البلاغ" يقول " لقد عرض عليّ فعلا السيّد الحبيب بورقيبة أن أسّس حزبا جديدا، فرفضت ذلك رفضا باتّا لسببين أوّلهما : أنّي كأحد المؤسّسين للحزب الدستوري الجديد رأيت أنّ الدّيوان السياسي قد تنكر لمبادئ حزبنا ولمواثيقه وذلك بقبوله الاتفاقيات التونسية – الفرنسية، فيستحيل عليّ أن أترك جهاز الحزب بما فيه من دستوريّين هم الآن في الجيل الثالث من تأسيس هذا الحزب ينحرفون عن العقيدة الوطنية السّليمة، تلك العقيدة التي لقناهم إيّاها أكثر من 20 سنة والتي استشهد في سبيل الدفاع عنها الكثير من إخواني. ولذا كان ردّي على عرض السيّد الحبيب بورقيبة أن يؤسّس هو وجماعته حزبا آخر ليكون حزبا إصلاحيا مبدؤه التعاون الدائم مع الاستعمار الفرنسي" بجريدة **البلاغ** عدد 6 نوفمبر 1955.

([107]) كان الحبيب بورقيبة وعلالة بلهوان وعبد الله فرحات وربّما غيرهم من الديوان السياسي الأكثر تمسكا بمنطق "القضاء على المعارضة" عكس مثلا المصمودي الذي كان اقترح السماح للمعارضين للتعبير عن آرائهم في برلمان منتخب. راجع الوالدي محمّد م.م. ص. 84. وكذلك : A. Coret, La Lutte contre l'opposition politique en Tunisie, op. cit. p.9

القضيّة الوطنيّة وعدم النكوص به والبروز بمظهر السياسي المسؤول الذي يعي أنّه من أوكد واجبات الدّولة هي حفظ الأمن لكل متساكني البلاد وهذا في الواقع ما كان بورقيبة يردّده في كل خطبه خاصّة في السنوات الأولى من حكمه معتبرا أنّ الشدّة والحزم و"مسك البلاد بقبضة من حديد" هي التي "أنقضت تونس من الكارثة" و"ضمنت تحقيق الاستقلال" و"قضت على الفتنة" ([108]).

وفي الواقع هنالك حقيقة أخرى وهي أنّ الحزب الحرّ الدستوري التونسي ومنذ ثلاثينات القرن الماضي ولضمان سطوته ونفوذه وهيمنته كان لا يتورّع على استعمال العنف حتّى ضدّ خصومه من الوطنيّين ودأب على ذلك في فترة الخمسينات هذه. فها هو عزّوز الرّباعي أحد العناصر القياديّة في الحزب والمسؤول عن الدّعاية فيه في ماي 1955 يتوجّه للمناضلين يوم 11 ماي 1955 يحثّهم على إسكات منتقدي الحزب حسب أوامر الديوان السياسي المقرّر في اجتماعه يوم 10 ماي قائلا : "يجب على كل المناضلين اقتفاء أثر مقرات اجتماعات خصومنا من الدستور القديم أو "صوت الطّالب" وكلّما علمت الشعبة باجتماع، إن كانت قادرة، وإلاّ استنفرت السند من الشّعب القريبة وأفسدت ذلك الاجتماع وشتّت شمل الخصوم بالعصي وبكل الوسائل. يجب أن يكون حزبنا صاحب الكلمة العليا والسيّد. إنّنا لن نتسامح بالسكوت عن الشتائم أو النّقد المجاني. نحن الأقوى ويجب أن نظهر ذلك" ([109]).

ولعلّ حدّة مجابهة الخصوم كانت أكبر في النّصف الثاني هذا من الخمسينات لأنّ الرّهان كان مصيريّا – السّلطة والثروة – ولأنّ الخصوم كانوا من داخل البيت ذاته لذلك وظّف البورقيبيون جهاز الحزب ضدّ معارضيهم وخاصّة جهاز الدّولة واستعملوا طرقا قانونية وأخرى دونها وكان بعث مليشيات ([110]) تتبّع اليوسفيين وتعزيز جهاز البوليس وتسخير القضاء السياسي والإدارة أهم سمات الحرب على ما كانوا ينعتون "بدعاة الفتنة"

---

[108]– راجع مثلا خطاب بورقيبة في مؤتمر الحزب الحر الدستوري التونسي بسوسة يوم 2 مارس 1959 بـــ : **خطب الحبيب بورقيبة** الجزء الثامن، نشر كتابة الدولة للإعلام، تونس، 1977، ص .209-208

([109]) أورده المفوّض السامي روجي سيدو في برقيّته للخارجية الفرنسيّة بتاريخ 19 ماي 1955 (QO. 649. Tu, 1955-1955, V. 315, f. 52)/

[110]– نحن لا نخترع تعبيرا من عندنا فكل التقارير الرّسمية تنعت "لجان الرّعاية" "بالمليشيات الحزبية" أو "الكمندوس البورقيبيين" (Milices du Parti ou commandos bourguibistes)

ولعلّ "لجان الرّعاية" في ترسانة القمع هذه كانت الأسوأ ذكرا عند التّونسيّين زمن نشاطها وبعده.

– "لجان الرّعاية" في تتبّع المعارضين:

رغم أنّ وزارة الدّاخلية في فترة الاستقلال الداخلي كانت بيد أحد قادة الحزب الحر الدستوري الجديد ومن مناصري رئيس الحزب الحبيب بورقيبة([111]) أي المنجي سليم فإنّ النّظام الناشئ كان لا يمتلك "جهاز البوليس" وليس في مقدوره توظيفه كما شاء ضدّ خصومه لأنّه لا زال بيد الفرنسيين لذاك كان منذ عودة بورقيبة في 1 جوان 1955 الاستنجاد بعناصر من قدماء المقاومين "الفلاّقة" ومن الحزب والتشكيلات الشبابيّة لضبط الأمن عند الاجتماعات والتّظاهرات ولحماية القادة والزّعماء ([112]) لكن بعث هيئات خاصّة تنشط تحت "لجان الرّعاية" يبدو أنّه تمّ بعد مؤتمر صفاقس ليتكثّف نشاطها خاصّة بعد منح الأمانة العامة في 28 جانفي 1956. ورغم أنّ هذه اللّجان كانت تأتمر بأوامر وزير الداخليّة و"الدّيوان السياسي" فإنّها لم تعط الصّبغة القانونية إلاّ لاحقا بقرار من الوزير الأكبر الطاهر بن عمار والممضى في 31 مارس 1956 ([113]) والذي منح هذه اللّجان مهمّة "المساهمة في حفظ الأمن والبحث عن مقترفي الجرائم والجنح" ولم يوضع حدّ لنشاط هذه الوحدات إلاّ في 6 جويلية 1956 ([114]) بعد انتهاء خطر المعارضة اليوسفية واستلام النظام الجديد سلط الأمن في 18 أفريل وبعث الجيش الوطني في 24 جوان 1956.

ولجان الرّعاية هي عبارة على مجموعات من المدنيين مسلّحين (أسلحة ناريّة أو بيضاء) ينشطون بالزّي المدني (القشابية، الجبّة...) ([115]) تحت قيادة عناصر من قدماء

([111]) كان المنجي سليم وزير الدّاخلية منذ تكوين أوّل حكومة في عهد الاستقلال الداخلي برئاسة الطاهر بن عمّار في 17 سبتمبر 1955.

([112]) كان من الحرّاس الشخصيين لبورقيبة أو المسؤولين عن أمنه ثلاثة من قوّاد المقاومة حسن بن عبد العزيز الورداني ومحجوب بن علي الجميلي والبشير زرق لعيون الجربي أمّا عندما تنقل للجنوب كان في جهة قفصة تحت حماية الأزهر الشرايطي وفي جهة قابس والحامة الساسي لسود وفي جهة مدنين وبنقردان مصباح الجربوع ومن معهم من العناصر الموالية وخاصة من قدماء "الفلاّقة".

([113]) صدر **بالرائد الرّسمي** في 1956/04/27.

([114]) قرار الوزير الأكبر الصادر **بالرائد الرّسمي** في 1956/07/10.

([115]) يقول عبد الستار الهاني أحد اليوسفيين الذين تعرّضوا لعنف هذه اللّجان في وصفهم :

المقاومين "الفلاّقة" وبأوامر من سياسيّين في قيادة الحزب. وإن كان جلّ أفراد هذه اللّجان من قدماء المقاومين فإنّ شهادات عدّة تفيد إنّه وقع الالتجاء أيضا إلى أفراد مشبوه فيهم من قدماء المخبرين والمتعاملين مع الاستعمار وحتّى المجرمين لتنفيذ "المهمّات الوسخة" كالتّعذيب" والقتل (116).

ويعزى هذا الانضواء إلى هذه "المليشيات" عند قدماء المقاومين و"قواد الفلاّقة" في تقديرنا وهذا ما صرّح به الكثير من المستجوبين (117) إلى واعز وطني إذ رأوا في انخراطهم في صف بورقيبة وملاحقة المعارضين للاتفاقيات مواصلة لجهادهم قبل أن يضعوا السّلاح في ديسمبر 1954 وتتمّة لرسالة وطنيّة لكن لعلّ ما لم يذكره هؤلاء المقاومين الذين جنّدوا لتتبّع رفاق الأمس هو دافع الحاجة المادية وواقع البؤس والبطالة الذي كان عليه أغلبهم ولعلّه أيضا البحث عن الحظوة لدى من كان يمسك بزمام السّلطة وتضمينا على المستقبل وأملا في الإدماج في سلك الأمن أو الجيش القادمين لكن الكثير من رجال الرّعاية ينطبق عليهم ما يعرف في كلّ الفترات التاريخية المفصليّة للمجتمعات عندما تكون على أبواب فرز اجتماعي وإعادة ترتيب طبقي وسياسي حيث تبرز فئات من البروليتاريا الرثّة والمهمّشين وروّاد السّجون والمتعاملين مع عدوّ الأمس لتتدرج مع الصّاعد وتقدّم خدماتها للغالب في حماسة مبالغ فيها.

على كلّ يبدو أنّ عدد هذه اللّجان ونشاطها ما فتئ يزدادان ويتعزّزان منذ جانفي 1956 مع تشديد الخناق على المعارضة والإصرار على اجتثاث المقاومة المسلّحة التي كانت تنشط تحت راية الأمانة العامّة حيث كانت هذه المليشيات سنة 1956 تتواجد في كلّ

وبعضهم القائد كســوا نقاء ***وبات البعض يكفر بالنّقاء
دعا حسن اللّــواء إلى لقاء *** بنهج جزيرة وسط الفناء
وجدت جماعة لبسوا جباب*** وكل سلاحهم تحت الخفاء".
ورد في شهادته في ملف :"الخلاف البورقيبي-اليوسفي" **بالمجلّة التاريخية المغاربية** عدد 2004/114، ص. 241.

(116) راجع شهادات اليوسفيّين في ملف "الخلاف البورقيبي – اليوسفي" م. م.

(117) انظر شهادات مثلا: الساسي لسود والساسي بويحيى وعبد الوهاب السّندي والبشير بن نصر الزيدي بالمعهد الأعلى لتاريخ الحركة الوطنية.

المناطق حيث "الخطر" اليوسفي (118) في المدن مثل تونس وصفاقس وبنزرت وقليبية وسليمان وسوق الأربعاء وقفصة وقابس وصفاقس... وخاصّة في الأرياف حيث الخطر اليوسفي في جهات قفصة والرّديف وأم العرائس والمكناسي والرقاب وقابس وصفاقس والمحرس وجبنيانة وتطاوين والشمال الغربي...

وقد تراوح عدد أعضاء المجموعة الواحد من خمسة أفراد إلى المائة وإن كانت مصادرنا لا تفصح – حاليا – بدقة على تنظيم لجان الرّعاية وأنشطتها فإنّنا نمتلك كثيرا من المعلومات حول البعض منها.

ففي أواخر شهر مارس 1956 كانت لجان الرّعاية في قطاع صفاقس تنشط تحت إمرة القائد حسن بن عبد العزيز الورداني خاصة بجهات جبنيانة والصخيرة(119) وتتكوّن كلّ مجموعة من حوالي عشرة أفراد أمّا في قطاع قابس في جهة الحامّة – مركز من مراكز المعارضة اليوسفيّة الهامّة – كان المسؤول على لجان الرّعاية القائد الساسي لسود وتحته حوالي 100 رجل وفي جهة سيدي بوزيد كان القائد أحمد الرّداوي يشرف على المجموعات التي كانت تنشط بالمكناسي (عشرة) والرقاب (خمسة) وسيدي علي بن عون (خمسة) (120) وفي جهة قفصة كانت ملاحقة اليوسفيّين من لجان عديدة على رأسها مقاومون قدماء شأن الساسي بويحيى وعبد الوهاب السّندي(121) ومحمد الطّيب

---

(118) راجع مثلا تقرير الجنرال قيبون قائد الجيش الفرنسي في الجنوب بتاريخ 12 ماي 1956 (SHAT. 505, T.2H, 2H312, C.2,D2, f.438)

(119) مع الملاحظ أنّ القائد حسن بن عبد العزيز برز بصفة خاصة في هذه المرحلة من تاريخ تونس في مقاومة اليوسفيّين من تونس إلى بنقردان متنقلا مع فرقة من البورقيبيّين المتحمّسين. والغريب أنّ هذا المقاوم الذي كان أهمّ قائد في الساحل في حركة "الفلاّقة" سنوات 1952-1954 وما عرف عليه من شجاعة لا يذكر شيئا عن نشاطه ضد اليوسفيين في شهادته التي أدلى بها للسيّد عبد الحميد العلاّني سنة 1992 وكذلك الامر بالنسبة لعلم آخر من المقاومين المتحمّسين لبورقيبة والذي لمع اسمه في تونس العاصمة خاصة في ملاحقة اليوسفيّين وحتى في اغتيال صالح بن يوسف أي البشير زرق العيون، إذ كان الاثنان أخرسين حول نشاطهما هذا أهو من المخجلات؟ أو من جروح الماضي؟ انظر شهادة الورداني وزرق العيون بـ : عبد الحميد العلاني، **لم يناموا على الذلّ**، تونس، شركة فنون الرسم والنشر والصحافة، 2006، ص. 231-234 و100-106.

(120) حول نشاط لجان الرّعاية في مارس 1956 راجع تقرير الجنرال قيبون في 28 مارس 1956 (SHAT, S. 505, 2H, C. 2 H 312, D1, f.387).

(121) انظر شهاداتهما مسجّلة بالمعهد الأعلى لتاريخ الحركة الوطنية.

البوعمراني[122]) والقائد العربي بن أحمد العكرمي[123]) وخاصة القائد الأزهر الشرايطي[124]) ويبدو أنّ لجان قفصة والرّديف وأم العرائس وقع حلّها بأمر من القائد في أوّل مارس 1956 ليقع دمج عناصرها في سلك المخزن المتجوّل وتم بعث حراس ليليّين مسلّحين يراقبون حركة السكّان من السابعة مساء إلى الخامسة صباحا ([125]). وفي جهة جلاص كانت اللّجان تعمل تحت أوامر القائد العجيمي أمّا في المنطقة العسكريّة بالجنوب فكان القائد مصباح الجربوع ومعه حوالي 40 رجل مسلّح (20 بمدنين) و(20 بتطاوين) يلاحقون اليوسفيين ([126]) أمّا في مطماطة فكانت لجنة الرّعاية التي تكوّنت في 16 ماي 1956 (20 رجل) وضع على رأسها زايد بن علي، قائد سابق ([127]) بينما تعذّر بعث لجنة رعاية بقبلي[128]).

ما هي علاقة هذه اللّجان مع السّلط؟ كانت لجان الرّعاية تنشط في تنسيق مع السّلط السياسيّة خاصّة قيادة الحزب من الدّيوان السياسي ومسؤولي الجامعات ومع القيّاد لكن لنا تقارير عديدة من السّلط الفرنسية تفيد أنّ هذه اللّجان وخاصّة قياداتها كانت تعمل وكأنّها مستقلّة وكثيرا ما تحدث حتى تشكيات من الإدارة المحليّة من تعديّات لجان الرّعاية على صلاحياتها شأن نشاط القائد محجوب بن علي الجميلي في تتبع اليوسفيّين في جهة جندوبة وجبال خمير[129]) كذلك في جهة قفصة وجهة بنزرت حتى أنّ تقريرا من القائد الأعلى للقوات الفرنسية الجنرال بيّيف (Baillif) مؤرّخ في 8 جوان 1956 يتحدّث عن لجان الرّعاية هذه والمخزن الإضافي في هذا المنحى : "المجموعات المسلّحة التي فاق وزنها

([122]) انظر تقريره المرفوع لمدير الحزب بتاريخ 17 ماي 1984 (28 صفحة) والذي أمدّنا به زميلنا لطفي الشايبي، مشكورا.

([123]) العربي بن أحمد العكرمي، **من ذاكرة مجاهد**، تونس، دار الأقواس للنشر، 1997، ص. 45.

([124]) انظر فصلنا "في سيرة مقاوم : الأزهر الشرايطي (1920-1963)".

([125]) تقرير ڤيبون 28 مارس 1956 السابق الذكر.

([126]) ن. م.

([127]) مذكّرة استعلاماتيّة مؤرّخة في 16 ماي 1956 من معتمد المفوّض السامي بمطماطة (SHAT / T. 2H. C-2H314, S.507)

([128]) تقرير الجنرال ڤيبون بتاريخ 28 مارس 1956 م. م.

[129]- انظر مثلا الملخّص النّصف الشهري للتقارير الاستعلاميّة العسكريّة لفترة 26 مارس - 10 أفريل 1956 حيث يذكر أنّ محجوب بن علي « fait toujours cavalier seul » طليق العنان : (S. 504, SHAT, S. 2 H, C 2H 311, D1, ff74-79).

العدد المتوقّع والمجهّزة برشاشات قد أزاحت في عديد المناطق سلطة القيّاد وتصرّفت مكانهم. إنّ السّلط الرّسميّة التونسية ليس فقط هي عاجزة على مراقبتها بل أصبحت هي ذاتها تحت رقابتها وذلك خاصّة بالسّاحل والوطن القبلي حيث مئات من الأشخاص يتجوّلون مكشوفين وبأسلحتهم الخاصّة" ([130]) حتى أنّ رئيس الديوان السياسي لما بلغه من تعدّيات عن لجنة الرّعاية ببنزرت أمر بحلّها في ماي 1956 ([131]) أمّا مع السّلط الفرنسيّة فإنّ التقارير تفيد أنّ لجان الرّعاية كانت تتعاون في مقدورها مع القوات الفرنسية في ملاحقة "عصابات" اليوسفيّة ويحدث أن تشارك حتّى في العمليات المسلحة ضدّهم إذ يفيد تقرير الجنرال قمبياز قائد فرقة الشمال بالجيش الفرنسي في تقريره بتاريخ 14 فيفري 1956 "لإنّ تصفية العصابات المسلّحة تقع بالتعاون مع سلط القيّاد وبإعانة كمندوس تونسيين يرأسهم قادة فلاقة قدماء اختارهم وزير الداخلية في الحكومة التونسية وهم يتدخّلون حسب الظروف إمّا بأوامر مباشرة من القياد أو في اتّصال مع القوات الفرنسية عندما يقتضي الأمر" ([132]). كذا الأمر في الجنوب التونسي يفيد الجنرال ڤيبون في تقرير له من قابس بتاريخ 12 ماي 1956 "أنّه في قطاع قابس لا زالت لجنة الرّعاية بالحامة على استعدادها في إعانة الجيش" ([133]).

*** ما هي المهام التي أنيطت بهذه اللّجان وكيف أتمّتها؟**

كانت المهمّة الرّئيسية للجان الرّعاية هي تتبّع اليوسفيين ومحاولة اجتثاث المعارضة للدّيوان السياسي وبما أنّه يبدو أنّه تركت للناشطين فيها حريّة التّصرف في التعامل مع

([130]) S. 505, SHAT 2H, C2H312, D1 ff.469-473

([131]) ن. م.

([132]) (SHAT, S.504, S.2H311, D1, ff.22-24)

([133]) (Synthèse de Renseignements du 25/4 au 5/5/1956, in S.505,SHAT, 2H, C.2H312, D1, f.438)

مع الملاحظ أنّ قائد لجنة الرّعاية بهذه الجهة كان القائد الساسي لسود وحدث أنّ تعرّض هو ولجنته مع ا لجيش الفرنسي لقوافل تحمل السلاح للجيش الجزائري في اتّجاه الغرب مرورا بجهة الحامة وشط الفجيج.

المعارضين فتراوحت أساليبهم من محاولة الإقناع ([134]) إلى التّرهيب لإعلان الانسلاخ من "الأمانة العامة" والاستخبار واستعمال العنف ضد المعارضين – ونعود لنماذج من ذلك لاحقا – والبحث عن السّلاح وجمعه ومنع الأنشطة المعارضة. وبما أنّ نوعا من "الضوء الأخضر" أعطي لهذه اللّجان للقضاء على من يعتبرونهم "أعداء لبورقيبة" و"أعداء الوطن" فإنّ بعض العناصر النشيطة في هذه المليشيات ارتكبت محرّمات كثيرة لا زال من تعرضوا لها يذكرونها بالدّموع ([135]).

تكثفت إذا حملة اضطهاد اليوسفيين بصورة خاصة بعد مؤتمر صفاقس في نوفمبر 1955 عندما تبيّن للبورقيبيين أن المؤتمر لم ينه قضيّة التّمثيليّة وإنّ جماعة الأمانة العامة لم يستسلموا للأمر الواقع ورغم الاعتداءات والتّرهيب ليس فقط واصلوا نشاطهم السياسي بل ازداد عدد المنخرطين لصفهم بأنه كان كل يوم تقريبا تأتي الصّحف الموالية بأخبار تأسيس شعب جديدة من مختلف الجهات أو انسلاخات من الانتماء إلى الدّيوان السياسي وعدم الاعتراف بمؤتمر صفاقس ([136]).

إنّ هذه الحملة في الواقع لم تكن من فعل لجان الرّعاية فحسب بل شاركت فيها الشعب البورقيبيّة والبوليس وأعوان الإدارة إذ كانت الاعتداءات تتمّ تحت أنظار السّلط المحليّة وأعوان الأمن (المخازنية والصبايحيّة وأعوان البوليس) وأحيانا بتدخّل مباشر من السّلط الإدارية وخاصّة شيوخ التّراب ومصحوبين بأعوان المخزن أو عناصر الجيش ([137]) ويبدو أنّ أعوان الإدارة القديمة من قياد وخلفاوات ومشائخ كانوا في فعلهم هذا ليس

([134]) يقول الساسي بويحيى قائد لجنة رعاية بالجنوب "بدأنا في توعيّة السكّان بعد التفاهم مع الطيب المهيري وبورقيبة" ويحدّد القائد الآخر الساسي لسود مهام لجان الرّعاية بـ"تهفيت الجو" و"ستحباب الناس" و"حفظ الأمن". انظر شهادتهما مسجلتين بالمعهد الأعلى لتاريخ الحركة الوطنية.

([135]) راجع مثلا شهادات أحمد صوّة والأزهر القروي الشابي وعبد السّتار الهاني بملف "الخلاف البورقيبي–اليوسفي" م. م.

([136]) في الحقيقة ليس في إمكان المؤرّخ أن يتحقّق دائما من صحّة هذا الخبر أو ذاك خاصة وإنّ ما تعلنه "الصّباح" أو "البلاغ" أو "الزهرة" من ولاءات لصفّ بن يوسف تكذّبه أحيانا بلاغات مضادّة في "العمل" البورقيبي والعكس بالعكس.

([137]) انظر مثلا شكاية "الهيئة الدستورية لشعبة الخرجة في بني زيد الحامة" من تصرّفات الشيخ المسلّط عليهم في رسالة موجّهة للباي بتاريخ 19 ديسمبر 1955 بالأرشيف الوطني : السلسلة (F)، صندوق 1، ملف 1، الملف الفرعي 35، عدد 117.

فقط يطبقون أوامر وزير الداخليّة البورقيبي بل كانوا في حماس أكبر (avec excès de zèle) ضد اليوسفيّين تداركا للزّمن الفائت ومحاولة لطمس ماض مخجل في خدمة الاستعمار.

على كلّ أنّ المصادر المتنوّعة – وليس فقط الموالية لبن يوسف وحتى من السّلط الاستعمارية كما سنأتي على نماذج منها – تتفق على شدّة ذاك الاضطهاد. فهذه رسائل الاحتجاجات للصّحافة المعارضة وخاصة جريدتي "الصّباح" و"البلاغ" وكذلك الشكاوي الموجّهة "لجلالة الملك" ([138]) لنصرة حقّ رعاياه في التّنظم والتعبير عن الرأي واحتجاجا على "الانتهاكات" ممّن ينعتونهم بـ"عصابات الدّيوان السياسي".وممّا يعطي لهذه الاعتداءات مصداقيّة هو أنّ هذه "الشكاوي" و"التنديدات" القادمة من مختلف جهات البلاد وخاصة منها ذات الحضور الكبير للشعب اليوسفيّة (تونس العاصمة وأحوازها، جهة بنزرت، وجهات تالة وسليانة والقصرين وحامة قابس وقفصة ومطماطة وقليبية والجنوب الشرقي...) حيث كانت تأتي بحقائق وتفاصيل تلك الاعتداءات بالتّواريخ والسّاعة والمكان وتورد أسماء المقترفين لها وصفاتهم وهي دائما تقريبا أسماء مسؤولي الشعب البورقيبيّة والعناصر النشطة تحت أوامر لجان الرّعاية أو عناصر في الخدمة.

يشهد عون الأمن و. نمان (W. Naman) في مذكّرة له سنة 1958 عن حملة ملاحقات اليوسفيّة يقول : "إنّ إيقافات عدّة قام بها مواطنون دستوريون عاديون وهو ذاتهم الذين يحقّقون مع سجنائهم في مقرّات الشعب التي حوّلوها إلى قاعات بوليس حتى أنّ الكثيرين ماتوا تحت الضّرب ولم يسمع بهم أحد. هنا أيضا جدّت تصفيات حسابات خاصّة ليس تحت غطاء المقاومة بل الاعتداء على الأمن الداخلي للدّولة التونسية" ([139]).

ولعلّ أشهر هذه المواقع التي كان يوقف فيها "المشبوهون" و"اليوسفيّون" في سنوات الخلاف الوطني هذه هي في تونس المكان المعروف بـ "صبّاط الظلام" ([140]) والذي

([138]) بالأرشيف الوطني بالسلسلة (F) تحت عنوان : مطالب إعانة تقدّمت بها الرّعيّة إلى الأمين باي وشكاوي إلى الباي لحسم الخلاف اليوسفي البورقيبي، الصندوق 1 سلسلة (F).

([139]) الشهادة أوردها محمد الوالدي في مذكّرته، م.م.ص.88. S. W. Naman, Origines et caractères du mouvement de rébellion en Tunisie, CHEAM (Paris), 1958, pp. 10-11, in Waldi,op.cit. p.88.

([140]) وهو عبارة عن قبو مظلم في المدينة يتفرّع عن نهج باب بنات حاليّا بالعاصمة كان مقرّا لأحد الشعب وتحوّل إلى مقر إيقاف.

يحكى أنّ فظاعات عديدة ارتكبت فيه من إيقاف وتعذيب وحتّى قتل (141) ولعلّق الشيخ حسن العيادي كان أحد رموز تلك "الصّفحات السّوداء" من تاريخ العمل الوطني (142). وفي الوطن القبلي نجد زاوية سيدي بن عيسى في بني خلاّد التي تحوّلت إلى معتقل للإيقاف والتّعذيب حتّى أنّ تقريرا من الاستعلامات العسكرية حول نشاط لجان الرّعاية تحدّث عن هذا المركز على أنّه "محتشد فعلي" « un véritable camp de concentration » (143) ولقد اعترف السيّد عمر شاشية في معرض شهادته بمؤسّسة التميمي في 13 ديسمبر 2003 بوجود هذا المركز دون الإقرار بالتّعديّات التي تنسب إليه على أنّ الأوامر كانت تأتيه من بورقيبة والطيب المهيري(144). كم ذهب ضحيّة هذه الإيقافات أو التّصفيات "خارج القانون"؟ عشرات، مئات، لا ندري؟ على كل حسب بلاغ

(141) هذه الشهادات ليس فقط من اليوسفيّين (راجع مثلا الملف "الخلاف البورقيبي-اليوسفي"م م) بل حتّى من غيرهم.

(142) هو حسن بن الحاج العيادي بن الحاج علي بن حميدة، معروف بالشيخ حسن العيادي، من أولاد بوسمير قيادة جبنيانة شارك في مرحلة المقاومة المسلحة الأولى وتحصّل على بطاقة أمان عدد 1952 شارك خاصة في أعمال المقاومة في مدينة تونس إذ كان يشرف على "مجموعة" تترصّد "الخونة" ومن تقرّر اغتيالهم من الفرنسيين. تنسب له عدّة "جرائم" و"اعتداءات" وقد تمّت محاكمته مع أربعة آخرين في 9 ماي 1963 وحكم عليه بالإعدام بتهمة "تحطيم معنويات الأمة والجيش والمشاركة في الاغتيال بإضمار الاعتداءات على أمن الدّولة الداخلي وابتزاز أموال الناس بالعنف ومسك مستودع أسلحة وذخيرة". هل كان الشيخ العيادي يعمل لحسابه أم بأوامر غيره؟ لا تمكّننا مصادرنا بالبت في ذلك. لكن حول تعقّد شخصيّة هذا الشخص وعنفه فالاتفاق قائم تقريبا. انظر مثلا شهادة أحد الذين عملوا معه في المقاومة الحاج علي قعيب شهر الكبران، عليّة بكتاب : عبد الحميد العلاني، **لم يناموا**...م م. ص. 337-350، ونفس الفكرة أفادنا بها المناضل الطّيب الشواري والذي يتّهم في ورقة أمدّنا بها في ماي 2006، العيادي باغتيال المختار عطيّة.

(143) الاستشهاد أورده الوالدي م.م. ص.89. والتّقرير ورد بـ (SHAT, Paris, 2H337)

(144) الشهادة منشورة بـ أعمال المؤتمر حول : **نهاية حكم بورقيبة والقيادات السياسيّة العربيّة بين الصعود والانحدار**، عن مؤسسة التميمي، تونس، 2005، ص 497-530، ص. 506. مع الملاحظ أن السيّد عمر شاشيّة كان كاتبا عاما للشّعبة الدّستورية في بني خلاّد ثم الكاتب العام للجامعة الدستورية بسليمان منذ سنة 1950.

أصدرته المعارضة اليوسفية أنّه تمّ في شهري مارس وأفريل 1956 لوحدهما اختطاف أو قتل ما لا يقلّ عن 35 معارضا(145) إضافة للأسماء المعروفة التي سنعود إليها.

ويبدو أنّ العنف الذي جدّ في تونس العاصمة وفي بني خلاّد شمل الجهات ذات الحضور اليوسفي الهام فها هو معتمد المفوّض السامي الفرنسي بقفصة في تقريره المؤرّخ في 3 ماي 1956 يتحدّث عن القمع الذي استهدف اليوسفيّين يقول : "إنّ التّحقيق مع المقبوض عليهم بمقرّ الشّعبة الدستورية يقع بفظاظة متناهية. فعلى 204 سجين سياسي يوجدون حاليّا بسجن قفصة، 80 منهم لا يستطيعون لا الوقوف ولا التّحول للتّحقيق معهم من العدالة التونسيّة وفي مرّتين قام الدستوريون الجدد بقفصة بدفن عديد الذين ماتوا جرّاء العنف الذي سلّط عليهم. أخيرا فقط 3 وفيات جديدة وقعت نتيجة العنف المسلّط عند التّحقيق حيث أن بعض المشبوهين الذين كانوا معلّقين من أرجلهم عذّبوا حتّى الإغماء. (هذه التّفاصيل رآها عضو المخابرات بأمّ عينه)" (146).

وهذه صورة أخرى من ذاك القمع بجهة سليانة يرويها ضحاياها في رسالة شكوى للباي بتاريخ 14 مارس 1956 يقولون :"(...) أنّنا سنعرض على جنابكم شكوانا مما أحل بيننا من إهانات ونكبات من ثلّة ضالة لا خلاق لهم ولا إنسانية وهي الفئة الذي (كذا) على رأسها ويتولى أمورها ومتصيتر عليها الشيخ الوقور حسن العيادي، سيدي كان يوم خمس عشر فيفري كان يوم بكاء ونحيب القت الصلتة القبض على المسمى سي عمر بن الحاج اليحياوي من ربع أولاد يحيى ومن مشيخات أولاد فرج من عمل أولاد عون مع عدّة إخوان بإذن من الحكومة التونسية وأودعهم سجن الجندارمة فخلى الجو في وجه الشيخ المذكور أعلاه. جمع عصابة المشار إليها واقتحموا المنازل وفتشوها وأتلفو ما فيها ونهبو الأموال وعاثو فيها فسادا واعتدو على الحريم بل فاحشو من الذين رجالهم في غياهب السّجون ومن الجملة وقع جلب ثلاثة أنفار من المشبوه فيهم تابع إلى الأمنة العامة هذه

(145) الرقم أورده، محمد الوالدي م.م. ص. 88 عن تقرير من المفوّض السامي الفرنسي بتونس يوم 01 ماي 1956. مع الملاحظ أنّه في المغرب الأقصى جدّت أعمال مشابهة بعيد استقلاله اقترفها خاصة "الاستقلاليون" ضدّ منافسيهم من "الشوريين" بالخصوص تعرف بـ "حوادث سوق أربعاء الغرب". انظر في ذلك : المهدي المومني التّجكاني، **دار بريشة أو قصة مختطف**، الدار البيضاء، 1987، 166ص.

(146) Note de Renseignement signé le capitaine Guignes, officier de défense en surface auprès de la délégation du Haut Commissariat à Gafsa, in SHAT, S507, 2H Tunisie, C/2H 314, n.f.

الجريمة الكبرى وأوثقهم كتافا وانهالو عليهم بالضرب المبرح والبعض منهم شاكي السلاح أمام النُسط البليسي الذي تحت أمر الشيخ المذكور فتخابروا مع العامل ثم خلافة الربع ربّما يتداخل في الموضوع فامتنع من ذلك (...) وبقو تحت النار والحديد ثلاثة أيام بلياليها وبعد ذلك جلبهم إلى الحاضرة للمداوات والمعالجة ستة عشر يوما يقتنونه نهج الظلام الذي يقتنه الشيخ ومجمع العصابة. مولانا لو اتعلمتم على ما وقع في هاتك الربوع لا بكيتم على مملكتكم بكاء شديدا (...)" ([147]).

ومن رسالة شكوى كذلك للباي من شعبة سليمان التابعة للأمانة العامّة مؤرّخة في 20 نوفمبر 1955 نقتطف هذه الشهادة : "إننا أهالي سليمان نرفع على كاهل الإجلال والاحترام لسددكم العليه ما حل ببلدنا يوم الأربعاء أمس التاريخ. كان ذلك موعد تاريخ مجيء الزعيم الكبير الأستاذ صالح بن يوسف الأمين العام للحزب الحر الدستوري التونسي فأردنا الاحتفال به و"قبوله" قبولا يليق بزعيم أمّة ضحّ (كذا) من أجلها بالنفس والنفيس وقاس من أجلها (...) فلم يرق هذا لقياصرة بني خلاد عمر شاشية و.ط.م. من سليمان وإذنابهم الذين استجلبهم جماعة ممّن لا أخلاق لهم بالعصي والهراوي والأسلحة معترضين طريق الزعيم وكل من مرّ بالطّريق إلاّ وهجموا عليه بالضرب بهراوتهم وأسلحتهم وكان من جرّاء ذلك أن سقطوا خمسة أنفار اثنين منهم جروحهم بليغة (...) وعند رجوعهم إلى بني خلاد مارين ببلدة سليمان اعترضهم عمر شاشيّة وط. م. وأمروهم بالهجوم على نادي الشعبة الدستورية للأمانة العامة وفعلا وقع الهجوم على النادي وكسّروه بما فيه حتى العلم التونسي أنزلوه إلى الأرض ثمّ صبّوا الإصانص على جميع الأثاث بعد تكسيره وأضرموا به النار كل هذا يقع والحكومة لا تحرك ساكنا كأنها هي التي أوعزت لهم بهاته الأعمال (...)" ([148]).

ودون أن نستفيض في الاستشهادات نورد أخيرا مقتطفات من لائحة الشكوى التي تقدّم بها وفد أهالي الجنوب الشرقي أواخر 1956 إلى الباي تظلّما من أفعال البورقيبيين ولجان الرّعاية : "(...) وعوض أن يتفادو الخطيئة (بورقيبيو الجهة) تعمّدوا الوقوع فيها فهاجوا وماجوا (...) فاستباحوا القانون وركبوا رؤوسهم وصاروا يعتقدون أن كل شيء

([147]) الرّسالة ممضاة من : أولاد يحيى ببرقو وأولاد فرج وأولاد سيدي عبيد وأولاد بلقاسم من على أولاد عون بالأرشيف الوطني، السلسلة (F)، صندوق1، ملف1، الملف الفرعي 35، وثيقة 162.

([148]) نفس المصدر، الوثيقة عدد 83.

مباح لهم ماداموا ينتسبون إلى شق معروف وماداموا تحت حماية رجال معلومين والتأم جمعهم بحضور جناب السيّد العامل زائد العماري وإذن وإذنه مطاع بأن يبدأ الدّرس فتقلد مصباح الجربوع رشاشة حربيّة وبجانبه الحاج م.ص. يشهر سلاحه وعزز جانبهما بعض صبايحيّة الوجق وصوّبوا نيران أسلحتهم صوب من وجد من الأهالي هناك وهم عزل إلاّ من الإيمان والعقيدة الرّاسخة في صحة مباديهم (كذا) نعم عزل لأنّ السلاح ممنوع (...) أسقطوا من هؤلاء الأبرياء المساكين إحدى عشر شخصا يئنون ودمائهم تسيل لو تجمعت وانحنى عليها هؤلاء المجرمون لعكست عليهم كالمرآة صورة قتلة فرحات حشاد والهادي شاكر ومن بين هؤلاء المصابين اثنان على حالة تنذر بالخطر (...) وإذا كان الاستعداد لبناء منصة بلغ هذا الحد من التحدي والتّقتيل فإنّ العدة لحماية الاجتماع ستكون نصب مشانق (...)" ([149]).

هذا وقد كانت عمليّات الاعتداء على مقرّات الأمانة العامّة والإتّحاد العام للفلاحة وعلى مناضليهما شبه يوميّة حيث أحصينا لمدّة شهر ونصف فقط من أول جانفي إلى منتصف فيفري أكثر من 29 اعتداء خطيرا نوردها كنماذج من تلك "الحرب" المفضوحة على المعارضة ([150]) :

- 56/1/1 : صفاقس : الاعتداء على مختار الشابي من شعبة الربض وجرح 10 من أنصار الأمانة العامة.

- 56/1/7 : بني خيار : تفجير قنبلة عند باب مقر الأمانة العامة.

: مطماطة : الصبايحيّة يهاجمون ويحطّمون ناديي شعبتي الفصيل والطائشة.

: قليبية : مهاجمة يوم 1955/12/14 اليوسفي محمد بن علي القبجي وجرحه في فخذه.

([149]) راجع شكاية وفد الجنوب التونسي بنفس المصدر، الوثيقة عدد 176 وللاستفاضة من هذه الشهادات يمكن مراجعة رسالة مقاومي الهمامّة (رقم 175) واحتجاج مقاومي جهة المهاذبة والغرائرة ونفات (رقم 177) واستنجاد واحتجاج جامعة الأمانة العامة بآبّة قصور (رقم 155) وغيرها بالملف المذكور في الأرشيف الوطني.

([150]) المصدر هو "الصّباح" والتاريخ العدد المعتمد منها.

- 56/1/8 : تخريب شعبة الأمانة بالختمين (55/12/28)

: بنقردان : الاعتداء على شعبة نقة.

- 56/1/10 : سليانة : إطلاق النار على نادي الأمانة العامة بسيدي سعيد.

- 56/1/14 : سليمان : 13 جانفي : مهاجمة الاتحاد الجهوي للفلاحة وخلع المحل والسّطو على ما فيه من أوراق وأموال...

- 56/1/15 : مطماطة : هجوم مخازنية الوجق ومشائخ التراب ونائب الديوان السياسي على مقر الشعبة.

- 56/1/19 : تونس : اعتداء على شعبة سيدي داود ليلا والتعرّض بالضّرب لأحد مناضليها.

: سليانة : الساسي لسود ومعه مسلّحون يهاجمون شعبة سليانة ويحتلّونها.

- 56/1/22 : تونس : 21 جانفي : تفجير قنبلة عند المقر المركزي للأمانة العامة بنهج الجزيرة مما أحدث أضرارا كبيرة.

: نعسان : 20 جانفي : الاعتداء على شعبة الأمانة العامة.

: السّرس : الاعتداء على عبد الوهاب العامري عضو شعبة الأمانة العامة بالضرب وحرق سيارته.

: القصرين : الاعتداء على أعضاء شعبة بنانة.

: سليمان : اعتداء على محمود بن محمد الونيسي عضو شعبة الشريفات.

: أبة قصور : تعرّض شعبة الأمانة العامة لاعتداء.

- 56/1/27 : جمال : اغتيال رئيس شعبة الأمانة العامة علي بن عبد السلام بن خليفة (56/1/25).

- 56/1/28 : أحواز سوسة : محاولة اغتيال محمد بن أحمد بن خليفة بأحواز سوسة (56/1/25).

: أريانة : مهاجمة اجتماع شعبة الأمانة العامة بأريانة والاعتداء بالهراوات على المحتجين وجرح العديد وحصول أضرار بالنادي وبمحتوياته (56/1/26).

: قليبية : محاولة اغتيال حميد بن أحمد الغربي رئيس شعبة قليبية بإطلاق النار عليه (56/1/26).

: تونس : تهديد محرّر جريدة "الزهرة".

- 56/2/8 : تونس : اعتداء على عضوي اتحاد الفلاحة الهادي عبروق وأحمد الفيتوحي بالضرب ومطالبتهما بالاستقالة من ا لاتحاد.

: المهدية : إحراق جانب من زياتين مزرعة إسماعيل عمران الكاتب العام للاتحاد المحلي للفلاحة بخنيس (56/2/25).

- 56/2/9 : باجة : الاعتداء على عبد العزيز البحري الكاتب العام الجهوي لاتحاد الفلاحة مما استوجب نقله للمستشفى.

: تونس : الاعتداء على الشيخ بوعثمان القيطوني صاحب جريدة "البلاغ" ومدير المدرسة القرآنية الحرة بالحلفاوين.

- 56/2/15 : بنزرت : الاعتداء بالقنابل على دكان حلاق ينتمي للأمانة العامة بالمتلين.

- 56/2/16 : سليانة : مهاجمة دار رئيس جامعة سليانة عبد القادر زروق وتحطيم وبعثرة ما فيها.

- 56/2/30 : محاولة اغتيال الكاتب العام لجامعة فريانة وتلابت التابعة للأمانة العامة وجرحه بالرّصاص جروحا خطيرة.

كذلك استهدفت صحف المعارضة للتّرهيب والمنع من ذلك أن جريدة "الصّباح" تعرّضت في 16 نوفمبر 1955 إلى هجوم من مجموعة مسلّحة اعتدت على الصّحفيين بمقرّها وحطّمت آلات الكتابة بها ([151]) وتلقى مدير "البلاغ" بوعثمان القيطوني تهديدا بالقتل في 16 نوفمبر ([152]) وفي 1 ديسمبر 1955 هدّد كذلك بالاغتيال مدير جريدة

([151]) البلاغ 1955/11/17 ومذكرة الاستعلامات الفرنسية المخطوطة التي سبق ذكرها.

([152]) ن.م.

"الوطن" كما منعت وعلّقت هذه الصّحف عديد المرات شأن "البلاغ" و"البلاغ الجديد" و"صدى الزيتونة" و"اليقظة" و"الأسبوع" وترد أخبار شبه يوميّة فيها من الاعتداءات على موزّعي وباعة وقرّاء هذه الصحف وكان إفساد اجتماعات المعارضة وبث الفوضى واعتماد العنف لمنعها من الالتئام منهجا رسميًا اعتمده الديوان السياسي – على ما يبدو – كما المحنا لذلك سابقا فقبل حتّى انفجار الخلاف بين بورقيبة وبن يوسف تعرّض في 14 ماي 1955 اجتماع مرخّص به للحزب الدستوري القديم بسوسة إلى هجوم من حوالي 400 شخص فأفسدوا التظاهرة وحطّموا محتوى مقرّها (معصرة) وقتلوا طالبا في الهجوم ([153]) وكثيرا ما تنتهي الاجتماعات خاصة التي يحضرها زعيم المعارضة صالح بن يوسف بالجرحى إن لم يكن قتلى حيث كانت تتحوّل مجموعات مسلّحة لمقر الاجتماع لإفساده مثلما جدّ في ماطر وسوق الخميس (2 نوفمبر 1955) ([154]) وقابس (11 ديسمبر 1955) ([155]) والقيروان في 28 أكتوبر 1958 ونورد هنا شهادة المسؤول عن لجنة الرّعاية بالقيروان كأنموذج على كيفيّة تصدّي أنصار الديوان السياسي لخصومهم :"ثمّ جاءت الأمانة العامة (...) وقتها أنا المسؤول عن لجنة الرّعاية في القيروان، رأينا باتّفاق تخرج سيّارتان للوردانين وسيارتان تنادي لجماعتنا في جهة القيروان من مقاومين ودستوريّين، وفي الصّباح عقدنا اجتماعا بين جامعتي جلاص والقيروان وحضر من جماعة جلاص العجمي وحميدة الباهي وعمر الكناني ومن جامعة القيروان : سي الطاهر العلاني وعمر الهمّامي وإبراهيم بالحاج وأنا شخصيّا ومحمد خليف والحبيب الكيلاني... في الصّباح أصبح لنا مائتي شخص مسلّحون تابعون لنا اتّفقنا أن لا يشارك أحد من الدساترة في اجتماع بن يوسف ولا يحضر أي مسؤول من الجامعة ولا من الشعب الدستورية(...) اعتنيت بمن أتى من الوردانين ومن السّاحل... وبعثت جماعة الشبيبة ليروا الجو الذي سيجده صالح بن يوسف ومنهم الصادق الغربي ومصطفى المجراية وافتك الصادق الغربي – علي القلعي – اليوسفي وأتاني به، جاء بن يوسف بدأ خطابه في الجامع الكبير... حرّش كلامه، كلمته نائلة بن عمار قالت له تسفه وتكذب يا سفيه خطفها بعض الموالين له، وتأزّم الجوّ، جاءني الخبر، بعثت أربعة من أولاد نهار (...) فأفسدوا

([153]) Mustapha Kraiem, **Etat et Société dans la Tunisie bourguibienne**, **op. cit,** p. 78

([154]) انظر أطروحة عبد الحميد الهلالي، ص. 380-381

([155]) انظر أطروحة عروسية التركي، **الحركة اليوسفية بالجنوب التونسي**، م.م. ص. 480.

الاجتماع ودخلوا بالعصا على من ضربوا نائلة وهرب بن يوسف. من هناك بتنا كامل الليل نفتش عنه ولم نجده وفي الصباح أصبح الجو مشوّشا ضد بن يوسف والناس هاجمون عليه فهو سيلقي خطابا في نادي الفلاحين، كان واقفا، وعلي القلعي وعبد العزيز السقا (القايد) يبعدان الناس الهاجمين على سيارة بن يوسف (...) هاجم الناس السيّارة فنزل منها وصعد إلى النادي وأطبق الناس على السيّارة وحطّموها تحطيما... كان لنا رجال مسلّحون فوق السّطوح... اضطر القايد فبعث لسي الطاهر العلاّني رئيس الجامعة فجاء ومعه عمر الهمامي فأنزلنا صالح بن يوسف من مقرّ الاجتماع وأركبناه سيارة وذهب في سبيله (...)" ([156]).

ولعلّ هذه الشهادة تشي بنيّة أنصار الديوان السياسي ليس فقط في منع معارضيهم من التعبير عن أرائهم بل بتخطيطهم في استهداف رأس المعارضة ذاته بالقتل، على كل هذا ما يدّعيه صالح بن يوسف ذاته والصّحافة الموالية له. إذ ينشرون أنه تعرّض لمحاولة اغتيال مرّة في 20 نوفمبر 1955 عندما كان ينوي عقد اجتماع له بمنزل بوزلفة إذ نصب له كمين في منطقة الخرّوبة بين المنزل وسليمان[157]) ومرّة أخرى قبل ذلك في مدخل سوق الخميس يوم 2 نوفمبر 1955 عندما كان متوجّها لعقد اجتماع بسوق الأربعاء ([158]).

لئن نجا صالح بن يوسف من القتل حتّى سنة 1961 فإنّ موالين لموقفه أو مناصرين له كانوا أقل حظّا حيث تمّ منذ ماي 1955 قتل ثلاثة من الحزب الدستوري القديم أحدهم المدرّس وعضو قيادة اللّجنة التنفيذية عبد الكريم قمحة بمساكن في 25 ماي وقتل طالب من نفس التّنظيم في اجتماع سوسة المذكور في 14 ماي وقتل في العاصمة تلميذ قمحة خميس الوسلاتي في 22 ماي ووصلت بعد 1 جوان 1955 رسائل تهديد بالقتل لقيادة الحزب الدستوري القديم ممّا جعل البعض من قيادته يستقيل شأن مدير الحزب الحبيب شلبي وعبد الكريم قريسة وأحمد الرحموني عضو القيادة ليلتزموا الصّمت ([159]). أمّا في صفّ بن يوسف فإنّ الذين وقع اغتيالهم بصورة فردية وليس في حوادث واشتباكات كانوا

([156]) شهادة المقاوم الحاج عمر بن محمّد بن عمر النابلي بكتاب عبد الحميد العلاني، **لم يناموا على الذّل**، م.م.ص. 54-55.

([157]) **البلاغ**، 1955/11/21.

([158]) **البلاغ**، 1955/11/6.

([159]) مصطفى كريّم، **الدّولة والمجتمع**...م.م.، ص. 82-85.

على الأقل سبعة بين 20 نوفمبر 1955 و20 جانفي 1956 حيث أطلق الرّصاص على المصوّر المصاحب لتحركات ونشاطات زعيم المعارضة محمّد بن عمار يوم 20 نوفمبر 1955 ليموت يوم 24 نوفمبر ([160]) وتعرّض للإغتيال المناضل والمتطوّع السابق لفلسطين علي بن إسماعيل العيوني سائق صالح بن يوسف، دائما بالحاضرة، يوم 22 نوفمبر ([161]) وفي 23 ديسمبر قتل المناضل المختار عطيّة داخل دكانه بتونس العاصمة ([162]) وفي تجمّع نظّمه أنصار صالح بن يوسف حول منزله بمنفلوري في 20 ديسمبر قتل عمر عريفات أحد أنصاره من الشباب ([163]) وفي قربة قتل يوم 2 ديسمبر مناضلان أحدهما يوسفي (محمد نواورة) والآخر بورقيبي (حبيب الدقي) أمّا في 20 جانفي 1956 قتل رميًا بالرّصاص بحامة قابس المناضل الحاج علي بن خضر رئيس شعبة حامة بن زيد للأمانة العامة والكاتب العام للإتّحاد الجهوي للفلاحة ([164]) وفي 25 من نفس الشهر اغتيل علي بن عبد السّلام بن خليفة رئيس شعبة الأمانة العامة بجمّال[165]).

---

(160) **البلاغ**، 1955/11/24.

(161) جريدة "**البلاغ**" تذكر تفاصيل الجريمة وكذلك مقترفيها بعددها ليوم 23 نوفمبر 1955، ويشير اليوسفيّون الذين أدلوا بشهادتهم المنشورة في **المجلة التاريخية عدد 114**، السابق ذكرها، أنّ قتله لأنّه رغم إغرائه بالمال لم يخن صاحبه. ولمزيد التفاصيل حول هذا المقاوم انظر مقالنا "علي بن إسماعيل الهلالي لم يكن سائقا لصالح بن يوسف فحسب" بجريدة **الصباح** ليوم الأحد 28 ماي 2006.

(162) المختار بن عطيّة ولد في 12 ديسمبر 1917 بحومة السوق بجربة. درس بالزّيتونة بالعاصمة وامتهن التّجارة ناضل في صلب الحزب الحرّ الدّستوري الجديد منذ 1937 وكان من العناصر التي أسّست اتّحاد الصّناعة والتّجارة شارك في المقاومة السّرية وحكم عليه بعد أحداث 39 من المحكمة العسكريّة بعشرين عاما أشغالا شاقة وأطلق سراحه بع الحرب لينخرط كعنصر فاعل في المقاومة المسلّحة في الخمسينات. لازم الحياد في الخلاف اليوسفي البورقيبي ولأنّ أصابع عدّة تشير إلى حسن العيادي في قتله، كما صرّح الطيّب المهيري لاحقا لزوجة القتيل – والشيّخ كان أحد رموز لجان الرعاية بالحاضرة فإن المختار عطيّة يحسب في صف اليوسفيّين. انظر تعريفا به بـ : حمادي اللّواتي، **أبناء جزيرة جربة في الحركة الوطنية (1881-1961)**، تونس، الشركة التونسية للنشر وتنمية فنون الرّسم، 2005، ص. 266-271.

(163) "**البتي ماتان**" 1955/12/21.

(164) هو مناضل دستوري قديم وكان قبل أن يترأس جامعة الأمانة العامة بالحامة كان كاهية رئيس جامعة الحامة الدستورية ومن أوّل المنضوين للاتحاد الجهوي للفلاحة والكاتب العام الجهوي. أطلق عليه الرّصاص وهو أمام دكان أخيه مساء. ودفن بالحامة. جريدة **الصباح** علّقت يوم 22 جانفي 1956 على قتله تقول أنّه كان "أحد دعامات الحركة الوطنية في الجنوب" وصديق جميع أعضاء الدّيوان السياسي وشيوخ الحركة الوطنية.

لكن الغريب في الأمر – ظاهريًا على الأقل- إنّه لم يقع إيقاف أي أحد في هذه الجرائم ولم يحاكم أي شخص في ذلك ممّا يرجّح الاعتقاد بصحّة ما كانت تروّجه الدّعاية اليوسفيّة بأن هذه الجرائم كانت تقترفها "عصابة الديوان السياسي" وأن "وزير الدّاخلية المنجي سليم هو المسؤول على ذلك".

لكن ما هو ردّ فعل اليوسفيين على هذا العنف الذي استهدفوا له؟

اقترح صالح بن يوسف في استجواب أجرته له جريدة "اليقظة" صدر بعددها في 2 جانفي 1956 للحدّ من العنف أن يقع تفتيش كل موكب سياسي يخرج من العاصمة وأن يصحبه ملاحظون ليتأكّدوا ممن يقترف العنف ومن له شعبيّة أكبر وحسب تصريحه يقول أنّ ذلك المقترح رفض من الباهي الأدغم ثم من الحبيب بورقيبة الذي يحمّله هو ذاته مسؤوليّة العنف ([166]) ويصف في مقابلة صحفية أخرى ما تعرّض له أنصاره بـ"تصرّفات تجاوزت الأساليب الفاشستية التي كانت تتبع خصوصا في فجر الفاشستيّة بإيطاليا وفي فجر النازية بألمانيا للتّخلّص من الخصم السياسي. ولذا أعتبر أنّ هذا الديوان السياسي المجرم قد فقد رشده وأصبح لا يفكّر إلاّ في اقتراف الجرائم وأعضاؤه في الحكومة وعلى رأسهم وزير الداخلية يسهلون بما لديهم من السّلطة والنفوذ الحكومي ارتكاب تلك الجرائم" ([167]).

لكن هل اكتفى اليوسفيّون بالتّنديد بالعنف والتّظلم للباي والمطالبة بإقالة "الحكومة الموالية للدّيوان السياسي"؟ ألم يستعملوا أساليب خصومهم من البورقيبيّين؟

للحقيقة التاريخيّة أنّ تتبعنا لمسلسل الخلاف والصّراع بين الطرفين أقنعنا أنّ المعارضة للاتفاقيات كانت في البداية سلميّة وأن اليوسفيّين كانوا في الأوّل ضحيّة عنف خصومهم ولعلّ دوّامة العنف التي استهدفتهم والتقاء فرنسا وجهاز الحزب والدّولة عليهم ([168]) أقنعهم بضرورة معاملة خصومهم بالمثل خاصّة وأنّ الثقافة السياسيّة للبورقيبيّين

---

(165) **الصباح**، 1956/1/27.

(166) **اليقظة** 1956/1/2.

(167) **البلاغ** 1956/11/6

(168) انظر العنصر القادم.

وللبوسفيّين هي واحدة، ثمّ أنّ تتطوّر الأحداث وتحوّل المعارضة للاتفاقيات من المستوى السياسي إلى مستوى العنف المقاوم لقناعة أصحابها أن لا خيار آخر ترك لهم إلاّ مجابهة القوّة بالقوّة لذاك ومنذ جانفي 1956 وخاصة بعد منع الأمانة العامة (28 جانفي) واعتقال منضويها سوف يقترف اليوسفيّون ذاتهم جرائم قتل في حقّ من يعتبرونهم "خونة" و"أعداء" لكن مصادرنا الحالية لا تمكّننا من الجزم في من نفّذ تلك الأعمال فعلا اليوسفيّين أم حلفائهم من الجزائريين الذين كانوا ينشطون معهم في "عصابات" مقاومة مشتركة من شمال تونس إلى جنوبها. ثمّ إنّه إن كان جهاز الدّولة أحصى ضحايا الصفّ البورقيبي واعتبرهم في مصاف الشهداء وحاكم مقترفي العدوان عليهم فإنّ صفّ المهزومين في تلك "الحرب الأهليّة" غير المعلنة لم يقع إحصاؤهم ولا الاعتراف بصفتهم كشهداء ولم يحاكم الباغون عليهم ولا حتّى إيقافهم.

على كلّ لقد تمكّنا من مصادر أرشيفيّة وصحفيّة مختلفة وكذلك من ملف المحاكمات الذي نشرته كتابة الدّولة للشؤون الخارجية ([169]) من إحصاء 26 عمليّة قتل من أنصار الديوان السياسي منها 10 تمّت بذبح الضّحية وهي :

- 1955/12/2 : قتل حبيب الدقي بقربة في التحضير لاجتماع بورقيبة.
- 1955/12/10 : قتل أحد أتباع بورقيبة في تطاوين في اجتماع.
- 1956/1/17 : عبد القادر القرقني يغتاله الطاهر الجملي بالقرجومة.
- 1956/1/25 : حرس في القوّة الإضافية يذبح في غار الدماء.
- 1956/1/27 : مقتل الهادي بن عبد السلام بنّو بجمّال.
- 1956/2/10 : مقتل عضو شعبة ديوانية في جهة القصرين.
- 1956/2/24 : ذبح ثلاثة أشخاص في صف بورقيبة في وشتاتة.

([169]) بـ : كتاب أبيض، أصدرته كتابة الدّولة للشؤون الخارجية بعنوان : **كتاب أبيض في الخلاف بين الجمهورية التونسية والجمهورية العربية المتّحدة**، 1958. نلاحظ أنّ السيد محمد الصياح في الجزء الثالث من كتاب "**الدولة الجديدة الفتنة اليوسفية أو التآمر المستمر**" م.م. في باب "كرونولوجيا التخريب اليوسفي" صفحات 261-288 لئن تعرّض بالتفصيل للعمليات التي استهدفت البورقيبيّين تغاضى عن الكثير من الاعتداءات التي كان ضحيتها اليوسفيون أو نسبها لمجهولين أو وقع خلطها مع الأعمال التي اقترفتها المنظّمة "الإرهابية" الفرنسية اليد الحمراء.

- 1956/2/28 : ذبح فلاح متّهم بالتّعامل مع الفرنسيين في جهة سوق الأربعاء.
- 1956/3/3 : في الرديف مقتل أب وابنيه معا.
- 1956/3/3 : مقتل فلاح ذبحا في جهة خمير.
- 1956/3/24 : قرب سيدي بوزيد ذبح مناضل دستوري.
- 1956/3/26 : اغتيال الحسين بوزيان بقفصة ([170]).
- 1956/3/27 : في تالة (الحركاتة) ذبح أخ رئيس الشعبة.
- 1956/4/10 : مقتل زوجة ابن رئيس شعبة أم العرائس.
- 1956/4/17 : مقتل حارس بالسيّدة المنوبية (تونس).
- 1956/4/29 : مقتل رئيس شعبة أولاد جلال بسيدي بوزيد.
- 1956/5/3 : ذبح عاملين بالمتلوي.
- 1956/6/13 : مقتل مقاوم سابق في جهة المهديّة.

ومهما كان الأمر فإنّ دوّامة العنف التي دخلتها البلاد منذ أواخر 1955 والتي لا يعني المؤرّخ فيها من المسؤول عنها بقدر ما يعنيه استعادة الوقائع La restitution des faits- ومحاولة فهمها سوف تنتهي "بهزيمة" اليوسفيّين لأنّ خصومهم من البورقيبيّين كانوا الأقوى بيدهم جهاز الحزب وجهاز الدولة وتناصرهم فرنسا. وهنا نتوقّف عند هذه النقطة الأخيرة من هذا المحور.

*** فرنسا وبورقيبة وجهاز الدّولة ضدّ اليوسفيّين.**

نعتقد أنّ انتصار البورقيبيّين في صراع الخمسينات على منافسيهم اليوسفيّين في دائرة الأمانة العامة أو من خارجها لم يكن لقوّة حجّة الشق البورقيبي ولا لصواب منهجه في التحرير ولا كذلك فقط لتحالفه مع الاتّحاد العام التونسي للشغل أو اتّحاد التّجارة والصّناعة بل أساسا لوقوف فرنسا مع بورقيبة. وهنا سؤال يطرح نفسه من اختار الآخر بين بورقيبة وفرنسا؟

([170]) ولد حسين بوزيان بقفصة يوم 18 ماي 1925. كان عند قتله الكاتب العام للجامعة الدستورية بقفصة وانتخب عضوا في المجلس التأسيسي يوم 25 مارس 1956. وقع اغتياله يوم 26 مارس قرب قيادة قفصة وحضر جنازته الحبيب بورقيبة والباهي الأدغم وأحمد المستيري والطيب المهيري. حكم على قاتله بالإعدام في سبتمبر 1956.

يصرّ اليوسفيّون على القول أن بورقيبة كان رجل فرنسا وأنّه حتّى "خان قضية الوطن وقضية المغرب العربي" من أجل وصوله إلى السّلطة ([171]). والحقيقة في تقديرنا غير ذلك. إنّ فرنسا اختارت حماية مصالحها عندما وقفت في صف بورقيبة أي في صفّ المدافعين على اتفاقيات الاستقلال الداخلي التي فرضتها هي على المفاوضين التونسيّين في جوان 1955 وتعاملت مع بورقيبة بعدما كانت ترى فيه "الشيطان" و"الوطني المتعصّب" ([172]) وأخرجته من النّفي وقرّبته لأنّها أدركت "أن لا تفاوض دون بورقيبة" كما قال السياسي والوزير الفرنسي آلان سفاري (Alain Savary) ([173]) لأنّه رئيس أهم حزب وطني في تونس ولأنّه وحده –ربّما – القادر على إقناع جماهير حزبه وقيادته على القبول بالقرارات الحاسمة وبرهن على ذلك عندما أقنع قادة المقاومة (الفلاّقة) بتسليم سلاحهم في أواخر نوفمبر 1954 ولأنّ فرنسا في الواقع كانت تعرف كل التفاصيل عن الزّعامات الوطنيّة وبناء شخصياتهم وأفكارهم السياسيّة وحتى حياتهم الخاصة ([174]) فكان ليس أمامها إلاّ أن تختار بورقيبة هذا الذي قال عنه الدبلوماسي الأمريكي روبار مرفي (R. Murphy): "لم ألتقِ خارج فرنسا برجل أكثر فرنسيّة من بورقيبة في العالم العربي ولم أجد أحدا عربيّا أقلّ عروبة منه" ([175]) والذي هو ذاته ما فتئ حتّى من منفاه يبعث بإشارات الصّداقة لفرنسا ويقدّم نفسه ورفاقه على "أنهم أوّل من يعترف بحسان الحضور

([171]) انظر مثلا كتاب أحد أنصار بن يوسف المقرّبين بالقاهرة إبراهيم طوبال : **البديل الثوري في تونس**، بيروت دار الكلمة، 1979. أو كتاب : الطاهر عبد الله : **الحركة الوطنية التونسية، رؤية شعبيّة قوميّة جديدة**، سوسة، دار المعارف والطباعة والنشر، 1990.

[172]– انظر مقال لورونس دوكوك : "فرنسا وبورقيبة 1945–1956" Laurence De Cock : « La France et Bourguiba : 1945-1956 » in Actes du VIIIe colloque sur : **Histoire orale et relations tuniso-françaises de 1945 à 1962, la parole aux témoins**, pub. De l'ISHMN, 1998, pp. 75-85.

([173]) أورده الوالدي **م.م.ص.** 38.

([174]) يندهش الباحث لضخامة الوثائق والمذكّرات والنوتيسات المختلفة التي كانت تنتجها مختلف المصالح الأمنية والسياسيّة حول الناشطين الوطنيّين في مختلف مراحل النضال الوطني والمحفوظة بمختلف الأرشيفات لوزارة الخارجية ولوزارة الدّفاع وغيرها.

([175]) Jean Lacouture, **Cinq hommes et la France**, Editions du Seuil, Paris, 1961, p. 175.

الفرنسي. ألست أنا أحد أبنائكم الرّوحيّين؟ ألم أتكوّن معكم جنبا لجنب" ([176]) وفي مقابلة أخرى مع الصّحفي ألبار مارتال نشرتها صحيفة "لوموند" في 10 جويلية 1954 يقول الحبيب بورقيبة "أن من مصلحة فرنسا أن تقبل التّخاطب مع حزب ومع رجال عصريّين لائكيّين كوّنتهم بنفسها، يستلهمون آراءهم من عبقريّتها ومن ثقافتها ومن المبادئ التي علمتهم إيّاها" ([177]) وهو الذي يؤكّد على ضمان حضور الثّقافة واللّغة الفرنسية في دولة الاستقلال منذ 2 أوت 1954 عندما صرّح لصحيفة "فرانس سوار" يقول : "وستحدث مدارس إدارية أخرى ولا نمس التّراث الفرنسي بسوء ولا نعطّل نموّه وسترى أنّ للانفراج السياسي عدوى. وستبقى اللّغة الفرنسية في طليعة اللّغات الأجنبية بالطّبع. فهي اللّغة التي أتكلّم ولغة ولدي وليس في ذلك تضحية كبيرة نقدّمها لكم" ([178]). إضافة لهذه الضّمانات كان بورقيبة عكس غريمه بن يوسف يتمتّع بصداقات متنفّذة في الإعلام ومن رجال السياسة من الفرنسيّين في تونس وفي فرنسا شأن الإداري الكبير بتونس والكاتب العام الشرفي للحكومة شارل صوماني (Charles Saumagne) وفي فرنسا الصّحافي اليساري جون روس (Jean Rous) والمحامي والصّحفي قسطون برجري (Gaston Bergery) والمؤرّخ شارل أندري جيليان (Ch.A. Julien) ورجلي السياسة والدّولة آلان سفاري (Alain Savary) ومنداس فرانس (Mendès France) وغيرهم.

أمّا صالح بن يوسف ليس فقط لم يسجّل عليه تصريحات تودّد تجاه فرنسا أو تغنّي بالثقافة الفرنسية ولا التزامات كبرى لفائدة الدّولة المستعمرة رغم أنّه شأن الحبيب بورقيبة كان تكوّن في معهد كارنو الفرنسي ودرس القانون في الجامعة بباريس. والأخطر من ذلك أنّه أصبح مكروها أكثر فأكثر عند الفرنسيّين وساستهم خاصّة منذ رفعه لشكوى الحكومة التونسية ضد فرنسا أمام الأمم المتّحدة في جانفي 1952 ثم انتقاله للقاهرة وتناغم صوته مع صوت جمال عبد الناصر وحركة عدم الانحياز و"لجنة تحرير المغرب العربي" فأصبح يرمز للتآمر ضدّ فرنسا والالتقاء مع أعدائها لإخراجها من شمال إفريقيا خاصّة بعد عقد التحالف اليوسفي مع جبهة التّحرير الجزائريّة واندلاع الثورة في الجزائر في 1 نوفمبر 1954. فخطاب القومية والإسلام والعروبة والشرق والتشدّد في المطالب التونسية

([176]) في لقاء جمعه مع آلان سفاري منشور بجريدة "**لوموند**" في 5 مارس 1952 وصادر في : **الحبيب بورقيبة، تصريحات وأحاديث صحفيّة**، تونس، نشر وزارة الإعلام، 1963، ص. 19.

([177]) المصدر السابق ص. 51.

([178]) م.س.ص. 76.

كلّها أسباب كافية أن تحكم على بن يوسف بالإبعاد وهذا ما اشترطه على الباي رئيس الحكومة الفرنسية منداس فرانس بعد خطاب قرطاج في 31 جويلية 1954 بأن لا يكون ضمن حكومة التفاوض أيّ شخص له علاقة براديو القاهرة أو اشتكى للأمم المتحدة ([179]) وهذا ما جدّ فعلا إذ قرّب بورقيبة وأبعد صالح بن يوسف رغم محاولات ربط الصلة لاحقا من طرفه دون التّخلي عن الأهداف وجوهر الخلاف ([180]).

لهذه الاعتبارات كانت فرنسا ضد العاملين لنقذ الاتفاقيات ووقفت إلى جانب المدافعين عنها بل دعّمتهم وقدّمت لهم عديد التنازلات ثم انخرطت مباشرة في محاربة معارضي الاتفاقيات بتتبع فلول مقاومي "الثورة الثانية" والقضاء على بؤرهم ([181]) غير أنّه في الأشهر الأولى من انفجار الصّراع بين بورقيبة وبن يوسف عملت السّلط الاستعمارية في تونس بمن فيهم المندوب السامي على البروز ظاهريّا بمظهر المحايد لكن عمليّا كانت تدعم الشق البورقيبي "بتبادل المعلومات والتشاور المكتوم" ([182]) وتفعل ما بوسعها لإضعاف خصوم بورقيبة من ذلك معارضة المندوب السامي مطالبة صالح بن يوسف إطلاق سراح المساجين السياسيّين والعفو العام على غيرهم من اللاّجئين بالخارج تخوفا من أن يعزّزوا صفّ بن يوسف ([183]) وخاصّة وضع جهاز الأمن في خدمة الشق اليوسفي بتتبّع نشاط المعارضين وحتّى إيقافهم وتعزيز قوات الأمن لملاحقة المعارضين أساسا حيث وقع منذ ديسمبر 1955 الترفيع في عدد الصبايحيّة من 500 إلى 1500 ووضع قوّة من المخزن المتجوّل، وظّف فيها "قدماء الفلاّقة"، تحت تصرّف الحكومة التونسية وتمّ بعث قوّة تونسية من البوليس المتجوّل بالعاصمة ووضع 250 من أعوان المخزن

([179]) Pierre Rouanet, **Mendès France au pouvoir, 1954-1955**, Paris, Laffont, 1966, p.213.

([180]) انظر المقابلة الصّحفية التي أجراها شارل صوماني مع صالح بن يوسف يوم 23 جانفي 1956 والمنشورة بـ "**Les Temps Modernes**" وأعاد نشرها محمّد الصيّاح في سلسلة "**تاريخ الحركة الوطنية التونسيّة" الجزء VX** ص. 430 – 441. مع الملاحظ أنّ محمّد الصيّاح يعتمد تصريحات بن يوسف لصوماني ليخلص أنّ الأمر لا يعدو أن يكون بين بورقيبة وبن يوسف سوى خيبة هذا الأخير وغيرته لأنّ فرنسا أسقطته من حسابها وفي رأينا أنّ هذا الاستنتاج مغرض.

([181]) لمزيد التفاصيل في هذه النقطة انظر فصل: "اليوسفيون ومعارك الجنوب. 1955–1957".

([182]) برقية المندوب السامي روجي سيدو بتاريخ 12 نوفمبر 1956: (QO., Tunisie 1950-1955, V. 309, f. 199)

([183]) الوالدي محمد، م.م. ص. 38.

بالجنوب تحت تصرّف الحكومة التونسية ([184]) ليقع تعزيز هذه القوّة في شهر أفريل 1956 بـ 400 عنصر جديد منهم خصّصوا للتراب العسكري بالجنوب ([185]). إضافة للدّعم الذي يقدّمه الجيش الفرنسي للجان الرّعاية وللمخزن من حيث التسليح.

ثم أنّ جهاز الدّولة كان مجنّدا ضدّ المعارضة فالأمر منطقي فحكومة الطاهر بن عمّار الأولى وكذلك الثانية التي تكوّنت بعد دخول اتفاقيات الاستقلال الداخلي حيّز التنفيذ (17 سبتمبر 1955) كانت تعمل على تنفيذها وفي إطارها ثمّ أنّ وزير الداخلية في حكومة الاستقلال الداخلي كان المنجي سليم مدير الحزب الحر الدّستوري الجديد وكبير المفاوضين التونسيّين الذين أقرّوا الاتفاقيات ورغم مطالبة المعارضة اليوسفيّة وشكاويها للباي بإقالة وزير الداخلية "لإخلاله بواجبه في حفظ الأمن أو إيقاف المعتدين" فإنّ جهاز الدّولة وظف ضدّها إن كان من الإداريّين كالقياد والكاهوات والمشائخ كما أشرنا لذلك سابقا أو خاصّة جهاز البوليس والمحاكم وسنّت حكومة بن عمّار مراسيم جديدة زجريّة قاسية تشدّد من القوانين الموروثة عن الجهاز الاستعماري منها مرسوم 8 ديسمبر 1955 الذي يحكم بالنّفي المؤبّد أو السّجن لمدّة 5 سنوات على كلّ المحرّضين على التآمر على أمن الدّولة وكذلك الحكم بالإعدام على أيّ شخص يجمع عصابات أو يسلّحها هدفها تغيير نظام الحكم وكذلك على الأشخاص الذين يحرّضون النّاس ضدّ بعضهم بعض وكذلك على مقترفي القتل والنهب على الأراضي التونسيّة.

ورغم أنّ صالح بن يوسف تقدّم بطلب رسمي إلى رئيس الحكومة الطّاهر بن عمّار يتعلّق بإعلام شيخ المدينة بعزم الأمانة العامة (التي بدأت تنشط تحت هذا الاسم منذ 30 أكتوبر 1955) عقد مؤتمرها يوم 18 جانفي 1956 ([186]) فإنّ الحكومة رفضت الطّلب يوم 11 جانفي وكان ردّ بن يوسف في ندوة صحفيّة اليوم ذاته بيّن فيها مغزى ذاك الرّفض في نظره يقول: "أبلغتني الحكومة قرارها في منع المؤتمر الذي دعوت لانعقاده يوم 18 جانفي بالمعرض الدّولي بتونس ولم نكن ننتظر من الحكومة غير هذا الموقف حيث أنّه يعبّر عن سياستها سياسة العسف والإبادة (...) لقد قيل لي أنّ هذا المؤتمر هو مؤتمر حزب عقد بعد مؤتمره وأنّ التّصريح بعقد المؤتمر المطلوب حسب رأي السيّد

([184]) **العمل**، 1956/1/4.

([185]) تقرير القائد العام للجيش الفرنسي بالجنوب الجنرال قيبون بتاريخ 1956/5/12 (SHAT, S.505, 2 H 312, D1 ff 438-444)

([186]) **الصّباح**. 1956/1/10.

وزير الدّاخليّة المشرف على شؤون الأمن "مجلبة للتشويش" ولكن هذه الأعذار واهية (...) ولكن العذر الذي استند إليه كان مجرّد عذر أريد به تغطية الدّوافع الحقيقيّة التي تتمثل في الخوف من سيطرة هذا الحزب على الموقف بشكل يجعل المدافعين عن الوضع الحاضر مجرّدين من كلّ تأييد شعبي بصفة علنية واضحة خصوصا وأنّنا اليوم نتمتّع بثقة 747 شعبة موزعة على كامل أنحاء المملكة" ([187]).

لكن يبدو أنّ لا العنف الذي سلّط على اليوسفيّين ولا الاعتداء على مناضليهم ولا حرق مقرّاتهم ([188]) ولا مؤتمر صفاقس الذي عقده البورقيبيّون في نوفمبر 55 منع المعارضة أو حدّ من انتشارها فقرّر الشق البورقيبي الآمر في الحكومة من شنّ حملة اعتقالات لقيادات المعارضة اليوسفية ولمناضليها بدأت صبيحة 28 جانفي 1956 وتواصلت أشهرا أخرى.

وقد برّر وزير الداخليّة المنجي سليم حملة الاعتقالات تلك في بيان أصدره يوم السبت 28 جانفي مساء بأنّها تمّت "ضمانا للأمن نظرا لاستشراء اختلال الأمن وتفاقم حالة الاضطراب والإرهاب" وحمّل المسؤوليّة "لفئة ضالّة اغتنمت تلك الحريّة وعمدت للعبث بمصير الأمّة وعرقلة سيرها سالكة في سبيل تحقيق أغراض شخصيّة ممتهنة جميع وسائل التآمر والمغالطة والعنف" ([189]) وحمّل المنجي سليم مسؤولية ذاك "التآمر والإرهاب" لصالح بن يوسف ولتبرير حكمه ذكر وزير الداخليّة أنّه "أثبتت الأبحاث والوثائق التي وقع العثور عليها أنّ هناك برنامجا عامّا يقضي بتشكيل عصابات إجراميّة مسلّحة في كامل البلاد لإيجاد جو من الاضطراب والإرهاب وقد وقع العثور على كمّيات من الأسلحة والذخيرة الحربية كما أثبت البحث الذي أدّى إلى إيقاف عدد كبير من الأشخاص بأنّ مبالغ ذات بال من المال وزعت على تشكيلات متنوّعة" ([190]) وليقنع

([187]) **الصّباح**. 1956/1/12.

([188]) إضافة للاعتداءات على مقرّات الأمانة العامة بالحرق والغلق استهدفت العناصر البورقيبية مناضلي ومقرّات الإتّحاد العام للفلاحة بصورة خاصة وأحرقت محتوياته حيث سجّلنا اعتداءات على الإتّحاد الجهوي بسليمان (56/1/13)، الإتّحاد الجهوي بصفاقس (56/12/14) ومرّة ثانية يوم 56/2/1، الإتّحاد المركزي بالعاصمة (56/3/4)، الإتّحاد الجهوي بنابل (56/3/17) وفي مناطق أخرى من البلاد.

([189]) بيان المنجي سليم بجريدة **الصّباح**. 1956/1/29.

([190]) ن.م.

بحملة الإيقافات تلك ختم المنجي سليم بـ"لو كانت المعارضة التي يقوم بها الأستاذ صالح بن يوسف معارضة سياسيّة ترمي إلى تحقيق الاستقلال التام لما كنّا ضيّقنا عليه غير أنّه يرمي من وراء حركته إسقاط هذه الحكومة بجميع الوسائل وهنا يقتضي الواجب أن نصمد في وجهه" ([191]) هذه إذن مبرّرات الحكومة وهي ليست على ما يبدو لإقناع الرأي العام المحلّي بقدر ما هي موجّهة للرأي العام الخارجي وخاصّة العربي منه.

ولئن تمكّن رئيس الأمانة العامّة من الإفلات ليلة 28 جانفي والفرار نحو ليبيا[192]) فإنّ كثيرا من رفاقه وقع إيقافهم تباعا في كامل أنحاء البلاد وأسفرت حملة الإعتقالات حتى أوّل فيفري 1956 رسميّا على إيقاف 115 نفرا من بينهم 32 من العاصمة وضواحيها حسب الناطق باسم المندوبيّة السامية ([193]) وكان أبرز المعتقلين علي الزليطني رئيس جامعة تونس والأحواز للأمانة العامّة وكاتبها العام عبد الرحمان بن خليفة والمحامي محمّد المهدي بن ناصر وعمر بن يوسف ورئيس تحرير "البلاغ الجديد" عمر فضّة وصاحب جريدة "الأسبوع" نور الدّين بن محمود ورئيس جامعة فرحات حشّاد بمنزل بوزلفة الهادي المرابط وفرح بن حبيب رئيس جامعة مدنين ومحمّد الصغيّر بن الناصر رئيس جامعة قفصة والمهندس الطاهر عميرة (أوقف لمدّة يومين) وعبد القادر زرّوق رئيس جامعة سليانة ويوسف القادري رئيس جامعة جلاص وأحمد الرّحموني مدير الفرع الزيتوني بتالة والتاجر العروسي المحيرصي، وعدد من قيادي الاتحاد العام للفلاحة التونسية شأن أمين صندوقه عمر الغنّوشي ورئيس جامعة الأعراض للأمانة العامّة.

هذا ورغم أنّ محلاّت ومكاتب الأمانة العامة وقع غلقها أو تحطيمها قبل حتّى قرار 28 جانفي في اعتقال اليوسفيّين فإنّ مجلس الوزراء أصدر قرارا يوم 1 فيفري بحل

([191]) م س

([192]) يبدو أنّ فكرة التخلّص من بن يوسف ودفعه للهروب من تونس كانت "طبخت" بين بورقيبة وروجي سيدو المفوّض السّامي الفرنسي لذاك سرّب له خبر نيّة إيقافه فتمكّن من عبور كامل البلاد حتّى الحدود مع ليبيا دون أن يقع القبض عليه رغم أنّ مجموعة من أنصاره حوكموا بتهمة تهريبه لاحقا (الخليفة عبد الله بن نصر، عبد الحميد القاضي الموظّف بوزارة الداخليّة، الشاذلي البديري، صالح بن تنفوس وعبد الله ثابت). حول التفاهم بين بورقيبة والمفوّض السامي راجع مذكّرة الوالدي م. م. ص 87 وحول تسريب قرار إيقافه شهادة رئيس ديوان وزير الداخليّة آنذاك أحمد المستيري مسجّلة بالمعهد الأعلى لتاريخ الحركة الوطنية.

([193]) **الصّباح**، 1956/382.

"المنظّمة الفعليّة المسماة الأمانة العامّة للحزب الدستوري" ولعلّ ذلك القرار أتى لغلق المنافذ القانونية لمن تسوّل له نفسه من اليوسفيّين لمواصلة نشاطه تحت تلك اليافطة لأنّ "الصباح" مثلا واصلت نشر أخبار بعث شعب يوسفية لكن الأخطر بالنسبة للمعارضة كان توظيف القضاء السياسي والاستثنائي لاجتثاثها أو على الأقلّ تلجيمها لمدّة سنوات طويلة ([194]) حيث تمّ بأمر عليّ مؤرّخ في 28 جانفي 1956 إحداث "المحكمة الجنائيّة الخاصّة" وبأمر آخر في 19 أفريل 1956 أحدثت "محكمة القضاء العليا" أو "المحكمة الجنائية العليا" والمعروفة بالمحكمة الشعبية لتنظر في القضايا "ذات الصبغة السياسيّة" مثل "التحريض بأي وسيلة على جنايات القتل (...) وإضرام النار عمدا والنّهب وهدم المباني عندما يكتسي هذا التحريض صبغة سياسيّة" وفي كلّ "الاعتداءات الواقعة على مصالح الوطن العليا" ([195]) وأحكام هذه المحكمة "لا يمكن الطّعن فيها لا بالاستئناء ولا بالتّعقيب وتنفيذها يقع في الحين" ([196]).

وهي محكمة وضعت على المقاس لتصفية المعارضة اليوسفيّة ([197]) وهي استثنائية من حيث سرعة البث في الأحكام والتّعامل مع إجراءات التّقاضي وسياسيّة ([198]) للقضايا

([194]) حول توظيف القضاء ضدّ اليوسفيّين وضد المعارضة عامّة يمكن مراجعة:

- عدنان المنصر، **دولة بورقيبة**، منشورات كلّية الآداب والعلوم الانسانية بسوسة، مطبعة التسفير الفني بصفاقس، 2004، وبالخصوص ضمن هذا الكتاب الفصل الرابع: "رجل السياسة ورجل القضاء: السلطة الفردية والقضاء الاستثنائي في تونس المستقلّة".

- محمّد ضيف الله، "المحاكمات السياسية في تونس في عهد بورقيبة (1956-1987)" ضمن **القضاء والتشريع في تونس البورقيبيّة والبلاد العربيّة**، مؤسّسة التميمي، زغوان، 2004، ص 159 - 178.

- عميرة عليّة الصغيّر، "صورة المعارض في الخطاب البورقيبي: الوجه والقفا" في: **حول السّلطة وآليات الحكم في عصر بورقيبة بتونس والبلاد العربيّة**، مؤسّسة التميمي، زغوان، 2003، ص 151-161 و**الصّباح** عدد 3 فيفري 1956.

([195]) **الرّائد الرّسمي التونسي**، 27 أفريل 1956، أمر علي مؤرّخ في 19 أفريل 1956.

([196]) لمزيد التّفاصيل حول استغلال هذه المحكمة راجع خاصّة مقال ضيف الله، "المحاكمات السياسيّة..." م.م.

([197]) مع الملاحظ أنّ الإعلان عن بعث المحكمة تمّ من وزير الداخلية في ندوة 28 جانفي 1956 في نفس الندوة التي برّر فيها حملة الاعتقالات على اليوسفيّين. انظر **الصّباح** 1956/1/29.

التي تنظر فيها ولتركيبة هيئاتها إذ أعضاؤها كانوا معروفين بولائهم للشق البورقيبي وحتّى عناصر فاعلة في تتبّع اليوسفيّين فمثلا كانت الهيأة الأولى لمحكمة القضاء العليا (أفريل 1956) تتركّب من محمّد فرحات كرئيس والسادة الحبيب بن محمّد والناصر المرزوقي ومحمود زهيوة وصالح عياش ومحمّد الرّي وبلحسين جراد كحكّام شعبيّين والسيّدان محمّد بن للونة وعمر شاشية وكيلا الدّولة ولجنة التحقيق متألّفة من السادة الطاهر دبية كرئيس وعضوية محمّد الشريف وعلي الزلاوي ومحمّد بن رمضان ومفتاح السميري ([199]).

هذه المحكمة استمرّت تعمل لمدّة ثلاث سنوات ولم يقع حلّها إلاّ في أكتوبر 1959 وشملت أحكامها في بداية الاستقلال مئات من اليوسفيّين وغيرهم حيث حكمت في مدّة خمسة أشهر من ماي إلى سبتمبر 1956 على 212 منهم وصدر في حق اليوسفيّين حتى أكتوبر 1959: 53 حكما بالإعدام (نفّذت أغلبها) وكثير من الأحكام بالأشغال الشاقة لمدد مختلفة وصل عدد منها مدى الحياة ([200]). وطبعا حكم على زعيم المعارضة صالح بن يوسف غيابيّا بالإعدام مرّتين في جانفي 1957 وفي ديسمبر 1958.

وهكذا كان المشهد التاريخي لتونس من سبتمبر 1955 حتى صائفة 1959 هو مشهد عنف وتقاتل ومحاكمات وسجون وإعدامات واغتيالات وتعذيب وخوف واتهامات ووشايات وترهيب وإرهاب بعبارة أخرى كان مشهد حرب أهلية أو ما شابهها. في هذا الظّرف التاريخي سيلتئم مؤتمر الحزب الحر الدستوري الجديد في نوفمبر 1955 بصفاقس وتتحصّل البلاد على استقلالها التام في 20 مارس 1956. هذان الحدثان يتطلّبان لأهميّتهما في تاريخ تونس المعاصر إعادة النّظر بعين محايدة.

6- مؤتمر صفاقس والاستقلال: حدثان يتوجّب إعادة قراءتها:

*** مؤتمر صفاقس: مؤتمر الحزب الدستوري الجديد أم مؤتمر البورقيبيّين؟**

([198]) يبدو أنّ صاحب "الفتوى" القضائية لأحداث هذه المحكمة السياسية كان القاضي محمّد الوصيف الرئيس الأوّل لمحكمة التّعقيب حسب شهادة السيّد محمّد الصيّاح بـ: **القضاء والتشريع في تونس البورقيبية والبلاد العربيّة**، م.م. ص.

([199]) م. ضيف الله، م.م. ص. 170

([200]) انظر تفاصيل هذه الأحكام في المصدر السابق، ص. 172-178.

انعقد إذن المؤتمر الخامس للحزب الحر الدستوري الجديد ([201]) بصفاقس بين 15 و19 نوفمبر 1955 بصورة علنيّة وشرعيّة بعد إلغاء قرار حلّه الصّادر في 12 أفريل 1938 بقرار المقيم العام المؤرّخ في 30 سبتمبر 1954 وبعد إمضاء اتفاقيات الاستقلال الداخلي ودخولها حيّز التّنفيذ في 17 سبتمبر 1955 لكن الأهمّ أنّ التئام هذا المؤتمر تمّ في ظروف خاصّة جدّا ميزتها الأساسيّة هي انقسام الحركة الوطنية والحزب الحر الدستوري الجديد بالذّات بين موافق ومعارض لتلك الاتفاقيات وما انجرّ عن ذلك من عنف وتبادل التّهم وسيادة جو من التّشاحن والتّضييق على الحرّيات وكذلك سعي عديد الفئات والأشخاص المشبوهة مواقفهم تجاه الاستعمار من ركوب هذا التيّار أو ذاك بحثا عن احتلال المواقع وتظمين المصالح. ونحن في العودة لهذا المؤتمر هدفنا ليس دراسة وقائع أو مقرّراته بل التّساؤل عن مدى تمثيليّة هذا المؤتمر لقاعدة هذا الحزب وموقع الشق اليوسفي فيه ومنه.

كنّا بيّنا سابقا في العنصر الرّابع أنّ أنصار بن يوسف كانوا على أقلّ تقدير 40 % من مجموع أعضاء الحزب الدستوري الجديد ([202]) ولا نظنّ أنّ هؤلاء سوف يعصون أوامر زعيمهم الذي أصدر قرارا منذ 30 أكتوبر 1955 يعلن فيه عدم شرعيّة هذا المؤتمر ويقرّر انعقاده في النصف الأوّل من عام 1956 ويطالب فيه "جميع شعب الحزب وجامعاته جميعها مقاطعة المؤتمر الموهوم" ([203]) ثمّ أنّ تطوّر المعارضة اليوسفيّة وإصرارها على التنظيم في جامعات والتعبير على اختلافها مع "جماعة" الديوان السياسي حتّى بعد انعقاد مؤتمر صفاقس يثبت أنّ اليوسفيّين في أغلبهم قاطعوا مؤتمر صفاقس.

كذلك بالنسبة لإسناد النّيابات للمؤتمر وإن كنّا لا نملك صورة وافية على ذلك لنجزم في مدى تمثيليّة النّواب لآراء القواعد الحزبيّة وللجهات فإنّ مؤشّرات عدّة تجعلنا نظنّ أنّ اختيار النّواب تمّ على قاعدة الولاء لصف بورقيبة أو على الأقلّ عدم التشيّع المفضوح

([201]) الأوّل في 2 مارس 1934 والثاني 31 أكتوبر 1937 والثالث في 17 أكتوبر 1948 والرابع في 18 جانفي 1952.

([202]) ثلاثة أيّام قبل انعقاد هذا المؤتمر كتب روجي سيدو المندوب السّامي في برقية لوزير الخارجية "أنّ أراضي الجنوب التّونسي سابقا وبكاملها سقطت تقريبا على الأقلّ مؤقّتا تحت سيطرة صالح بن يوسف" بأرشيف الخارجية الفرنسيّة:
(QO. Tunisie 1950-1955, V. 229, Dépêche du 12/11/1955, f. 118).

([203]) نص قرار صالح بن يوسف بجريدة **الصّباح** في 1 نوفمبر 1955.

لخصمه بن يوسف وإنّ الجامعات لم تترك لها حرّيّة الاختيار في تمثيلها وحتّى في التعبير الحرّ عن أراء منضويها. في مؤتمر جامعة السّاحل الجنوبيّة مثلا الذي انعقد في 4 نوفمبر 1955 كان حضور القائد حسن بن عبد العزيز فاعلا "لإقناع" الحاضرين بضرورة الاصطفاف وراء بورقيبة والتصويت بالموافقة على قرار فصل صالح بن يوسف من الحزب ([204]). كذلك الضغوطات التي سلّطت على جامعة تونس والأحواز وهي أكبر جامعة للحزب وتهديد المسؤولين عنها بحلّها إذا لم تحسم رأيها وتقف مع الزعيم بورقيبة ([205]) ثم الالتجاء للإغراء بمنح مناصب عالية كولاّة أو وزراء لقيادييها ([206]) ولا نظنّ أنّ الأمر أختلف بالنّسبة للجامعات الأخرى التي على الأقلّ أبدت ترددا في ولائها للطّرح البورقيبي أو لكيفيّة حسم الخلاف بين الزعيمين. ونعتقد أنّ جريدة "اليقظة" رغم أنّها من صفّ المعارضة لا تجانب الحقيقة كثيرا عندما كتبت يوم 14 نوفمبر، أي يوم قبل انعقاد المؤتمر: "(...) أقيمت السّدود في وجه الأحرار الذين يودّون حضور مؤتمر صفاقس لإبداء رأيهم بصراحة وفرضت الشروط والقيود على الذين سيحضرون المؤتمر من نواب الجامعات والشعب بحيث لا يشارك في المؤتمر إلاّ من تأكّد لدى منظميه إخلاصه المطلق وخضوعه الأعمى للديوان السياسي بحيث تتألّف من المؤتمر صورة جديدة من بني "وي وي" الذي اشتهروا في المجلس الكبير السابق في البلاد التّونسية". ولعلّ شهادة الحبيب المولهي، رئيس الاتحاد العام للفلاحة التّونسيّة، هي الأخرى تدعّم ما ذهبت إليه جريدة "اليقظة" حيث يذكر "عشية انعقاد المؤتمر (مؤتمر صفاقس) دعانا علاّلة البلهوان لحضور المؤتمر أنا وإبراهيم عبد الله. حضرنا واتصلنا بالباهي الأدغم وأعلمناه أنّنا نريد إلقاء كلمة أمام المؤتمرين، أجابنا: "إذا تأخذوا (كذا)موقف من الحزب وتوافقوا على الاتفاقيّات فيها وإذا كنتم ترغبون في معارضة الاتفاقيات فلا حقّ فكم في الكلام" ([207]).

([204]) مذكّرة مخابراتيّة للمفوّض السامي الفرنسي أوردتها سامية المشّاط، م م. ص 243.

([205]) جريدة **البلاغ** 4 نوفمبر 1955.

([206]) شهادة السيّد عبد الحميد الفقيه أحد قيادة جامعة تونس مسجّلة بالمعهد الأعلى لتاريخ الحركة الوطنيّة حيث يذكر أنّ الدّيوان السّياسي (المهيري، البلهوان، سليم. ..) "اتّصلوا بنا واحدا، واحدا" لإغرائنا. فمنّا من قبل بذلك.

([207]) محمّد الحبيب المولهي، **الوطن والصّمود**، لبنان، دار الغرب الإسلامي، 1991، ص. 273.

على كلّ حضر مؤتمر صفاقس 1242 نائبا على 1314 وقعت دعوتهم له ([208]) لكن لم يحضروا هم فقط فعلاوة على الضيوف جنّد الدّيوان السياسي أكثر من ألفين آخرين من أنصاره منهم 2000 وضعهم المناضل الدستوري والقائد النقابي الحبيب عاشور في خدمة أمن المؤتمر ([209]) والآخرين هم من قدماء "الفلاّقة" الموالين لبورقيبة شأن القادة حسن بن عبد العزيز ومحجوب بن علي والعجيمي وأتباعهم وكان حضورهم المسلّح ليس فقط خارج الحي الزيتوني بل داخل قاعة المؤتمر وحتّى في المبيت له التّأثير الكبير على حرّية المؤتمرين في التّجرؤ على أخذ الكلمة أو المعارضة إضافة لجرّ الحضور للتصفيق للقيادة أو الهتاف بحياتهم ([210]).

ولعلّ هذا الضّغط والرّقابة اللّذين سلّطا على المؤتمرين وخاصّة على النوّاب "المشكوك" في ولائهم يبرزان في المعاملة التي خصّ بها المنظّمون نوّاب جامعة تونس والأحواز ولنا تقرير أمني تفصيلي حول هذا الموضوع وكذلك حول جوّ المؤتمر عامّة، حيث نقرأ فيه أنّ نوّاب هذه الجامعة وكذلك جامعة الكاف أحسّوا بالعداء تجاههم من بقيّة المؤتمرين منذ وصولهم صفاقس وتعرّض نوّاب تونس إلى سوء المعاملة في السكن والغذاء (أسكنوا الطابق الثاني في الحي الزيتوني دون ماء) وأسكن معهم في الحجرات الثلاث المخصّصة لهم نوّاب آخرون خاصّة من قدماء الفلاّقة من السّاحل المتحمّسين لبورقيبة يراقبونهم ويتجسّسون على أحاديثهم ممّا ألجأهم للعدول عن النقاش بينهم أو التحدّث خفية ثمّ أنّ لجنة التّنظيم أفسدت على نوّاب تونس ما كانوا تفاهموا عليه قبل وصولهم لصفاقس من الجلوس في الصفوف الأماميّة مجتمعين والتزام موقف موحّد حيث

([208]) الحزب الحر الدستوري التونسي، **المؤتمر الوطني بصفاقس من 15 إلى 19 نوفمبر 1955**، تونس، د.ت.، ص 50. مع الملاحظ أنّ المؤتمر حضره نوّاب 31 جامعة من كلّ جهات البلاد وكانت أهمّها من حيث عدد نوّابها: تونس والأحواز (140 نائب)، قفصة والهمامة (94)، صفاقس (89)، السّاحل الشمالي (77)، الشمال الغربي (73)، الكاف (65)، ماطر (56)، جلاص (55)... وتغيّب 54 مدعوّا للمؤتمر **بنفس المصدر** ص 49-50.

([209]) في مذكّرات الحبيب عاشور. بالفرنسية: Habib Achour, **Ma vie politique et syndicale. Enthousiasme et déceptions**, Editions Alif, Tunis, 1989, p51.

([210]) المشّاط سامية، م م. ص. 246 وتقرير أمني حول سير المؤتمر بتاريخ 22 نوفمبر 1955 بأرشيف الخارجية الفرنسية.

(QO. 650, Tunisie 1944-1955, V. 316, ff 107-112).

وقع تفريقهم داخل القاعة بين بقيّة المؤتمرين وأفسد عليهم مخطّطهم ([211]) حتى أنّهم هدّدوا بالانسحاب من المؤتمر تنديدا "بالتّسيير غير الديمقراطي" لأعماله من أعضاء الديوان السياسي وتنادوا لاجتماع عن إنفراد ([212]) حتّى أنّ الطّاهر عميرة أفصح لرفاقه "أنّ هذا المؤتمر هو تصفيق لبورقيبة يجب أن ننسحب إنّ الأمر أصبح "لعب". لا يجب أن ننسوا إنّنا مسؤولون وعلينا واجب المحاسبة ممّن نوّبنا" ([213]). وقد أفشل على نوّاب جامعة تونس ما عزموا عليه رئيس الحزب الحبيب بورقيبة عندما علم بهذا "التمرّد" فأوفد لهم رؤوسا من المؤتمر وهم علاّلة بلهوان وأحمد التليلي وأحمد المستيري وعبد الرّحمان عبد النبي والباهي الأدغم للعدول عن قرارهم وترضيتهم بالوعد بالأخذ بمقترحاتهم لاحقا ([214]).

لكن الحدث الذي أغضب نوّاب جامعة تونس -وربّما غيرهم- في تسيير المؤتمر واستبداد الديوان السياسي وبالخصوص رئيسه الحبيب بورقيبة بالرّأي هو خاصة عندما وقع إلغاء اللاّئحة التّي تقدّمت بها "لجنة المساجين" والتّي شارك في تحريرها من جامعة تونس عمّار النفطي والطّاهر عميرة مدفوعين من رفاقهم في الجامعة والرّشيد إدريس الذي انضم إليهم ([215]) وتتضمّن اللاّئحة ثلاثة مواقف:

([211]) التقرير الأمني حول سير المؤتمر بتاريخ 22 نوفمبر 1955 السالف الذكر.

([212]) لبّى النداء لهذا الاجتماع الانفرادي يوم 17 نوفمبر بأحد قاعات الحي الزيتوني 80 من نوّاب جامعة تونس على رأسهم العناصر "الأكثر تطرّف" - كما يصفهم التقرير وهم الطاهر عميرة، عامر المكني، الطيب السّحباني، الناصر بن جعفر، عزّوز الرباعي، حسيب بن عمّار، محمود اللاّقي، حسونة القروي، البشير بلاّغة، أحمد قرّاط (عضو فدرالية باريس). م.س.

([213]) ن.م. يقول المناضل الشاذلي النيقاوي نائب شعبة باب الأقواس (تونس) عن هذا الاجتماع الذي شارك فيه: "كنّا نتحدّث وننتقد ونعجب للمسار الذي كان عليه المؤتمر ونستغرب من تصرّف المسؤولين عنه وأخذهم النّقاش باللاّمبالاة وعد الاكتراث وكأنّ المؤتمر لم ينعقد إلاّ للتّصفيق والهتاف" ضمن كتاب الحبيب قرار، **لتحيي تونس**، مطبعة بوسلامة، 1996، ص. 182.

214- التقرير الأمني بتاريخ 1955/11/22، م.م. وهذه الترضيات هي عدم تمرير أي لائحة للتصويت إلاّ بعد موافقة اللّجنة المكلّفة، الموافقة على سحب أسماء من قائمة المرشحين للديوان السياسي، التزام رئيس المؤتمر بعرض احتجاج جامعة تونس الرّسمي على كيفية التصويت على اللاّئحة السياسيّة. ن.م.

([215]) الرّشيد ادريس يعترف في مذكّراته أنّه ساند الطّاهر عميرة في ذلك، انظر في **طريق الجمهورية...** م.م. ص. 476.

- اعتبار الاتفاقيات أنّها لم تأت بتغيير يذكر في السّياسة الفرنسيّة.
- المطالبة بإطلاق سراح المساجين التونسيّين فورا ودون شروط.
- مطالبة الوزراء التونسيّين بالاستقالة حالاً إذ لم يلبّ مطالب إطلاق سراح المسجونين ([216]).

ممّا أحدث بلبلة في المؤتمر وعجز رئيس الجلسة المنجي سليم على الخروج من الورطة فرفعت الجلسة حتى حضر بورقيبة ليلغي لائحة اللّجنة ويقدّم لائحة بديلة أكثر اعتدالا.

وكان إن احتجّ الطّاهر عميرة يوم الجمعة 18 عن تلك الممارسات "غير الدّيمقراطيّة" للدّيوان السياسي وانسحب قبله من حضور المؤتمر وعادا إلى العاصمة رئيس إتّحاد الفلاحة وكاتبه العام الحبيب المولهي وإبراهيم عبد الله[217].

ولعلّ التعسّف على اللّجان وخاصّة التّصويت على قرارات المؤتمر بالهتاف والجلوس أو القيام دون اللّجوء إلى اعتماد الاقتراع السّرّي هو الذي أثار استغراب الملاحظين في المؤتمر والمدعوّين المتعوّدين على المؤتمرات السياسية أو النّقابيّة وحتى استغراب مؤتمري صفاقس ذاتهم وهو ما لاحظه القائد الاشتراكي الفرنسي كوهان حضريّة وكتبه في مقاله بجريدة "لابراس" ([218]).

إنّه من المنطقي إذن أن يتبنّى المؤتمر طروحات الدّيوان السّياسي لكن ليس ذلك فقط.

وفعلا ثمنت اللائحة السّياسية الصّادرة عنه سياسة الديوان السياسي واعتبرت الاتفاقيات "برغم نقصانها لا تعرقل تحرير البلاد وأنّها مرحلة هامّة في طريق الاستقلال

([216]) التقرير الأمني حول سير المؤتمر، م.م.

([217]) المولهي، **الوطن والصمود**، م.م ص. 273.

([218]) ضمن برقيّة المفوّض السّامي الفرنسي بتاريخ 18 نوفمبر 1955. (QO. 650, Tunisie 1944-1955, V. 316, ff. 91 -94)

يعلّق أحد نوّاب جامعة تونس المهندس عبد الحميد الفقيه بعد انتهاء أشغال المؤتمر يقول: "خرجنا مهزومين، جماعة تونس، وغادرنا. "روّحت نبكي وقلت اليوم مات الحزب. شخص يدوّر فكرة مجموعة كاملة من الناس لا أقبله. والرأي المخالف لا يقبل" راجع تسجيل شهادته بمعهد تاريخ الحركة الوطنيّة.

وتحمل للأمّة مزيدا من الإمكانيات لتحقيق غايتها" ([219]) وهو رد صريح على طروحات صالح بن يوسف ومعارضي الاتفاقيات عامّة. كذلك وافق المؤتمرون على قرار فصل صالح بن يوسف خاصّة وأنّه دعي للمؤتمر ورفض الحضور ([220]).

لكن لوائح المؤتمر– دون أن تعلن ذلك طبعا – استجابت لانتقادات معارضي الاتفاقيات ولمطالبهم. ولعلّ ذلك لسحب البساط من تحت أقدام معارضي الدّيوان السياسي – كما لاحظ ذلك عديد الباحثين – وتفاعلا مع الضغط السياسي الكبير الذي كانت تمارسه المعارضة وصدى ذلك لدى التّونسيّين ولا نظنّ أنّ بورقيبة ومن معه من الديوان السّياسي كانوا غافلين عن ذلك الأمر.

لذلك صوّت المؤتمرون في جلستهم السّادسة على "لائحة سياسيّة عامّة" تطالب الحكومة "باستغلال إمكانيات التوسّع (في الاتفاقيات) نحو الاستقلال التّام" و"من المتحتّم إجراء انتخابات ديموقراطيّة عامّة للبلديات ولمجلس تأسيسي" وكذلك طالب المؤتمرون بإنشاء جيش وطني ([221]) وهو دفع صريح لمراجعة الاتفاقيات الممضاة في 3 جوان 1955 وتعدّيها نحو مطالبة فرنسا منح تونس استقلالها التّام وتكريس سيادتها الفعليّة بمنحها حق الدّفاع ببعث جيش تونسي وضمان أمنها بتحويل جهاز الأمن كاملا للحكومة التّونسيّة. وتماهيا دائما مع خطاب المعارضة صوّت المؤتمر على لائحتين تساندان نضال الشعبين المغربي والجزائري إضافة لما ردّ به رئيس الحزب في خطابه، منذ افتتاح المؤتمر على بن يوسف من أنّه هو أيضا يعتبر تونس "دولة عربيّة إسلاميّة" لكنّ "عروبتنا وكوننا أمّة إسلاميّة لا يمنعنا ولا يفرض علينا أن ننعزل عن الدّنيا" ([222]).

ولم يكن هذا التحوّل في الموقف من الاتفاقيات في مؤتمر صفاقس خافيا عن اليوسفيّين وقد أفصحوا عن ذلك في صحفهم معتبرين ذاك التحوّل عربون سداد لموقفهم

([219]) نصّ اللائحة السياسيّة الصّادرة عن المؤتمر بـــ **المؤتمر الوطني** بصفاقس، م م. ص 55-56، ص. 56.

([220]) وجّهت الدّعوة لصالح بن يوسف بقرار من المؤتمر في اليوم الأوّل من انعقاده دون تحديد صفته فقط "الأستاذ صالح بن يوسف" وكان ردّ بن يوسف شكر المؤتمرين ومطالبتهم بتأجيل "اجتماعهم" لمدة أسبوع حتى يتسنى له دعوة "كل الشعب الدستورية المنضوية تحت لواء الأمانة العامّة للحزب". (انظر نصّ الدّعوة والرّد عليها في المصدر السابق ص 48).

([221]) اللائحة السياسية العامة، المصدر السابق، ص 61-62.

([222]) نص خطاب بورقيبة في افتتاح المؤتمر، م س. ص.11.

[223] ورأى زعيمهم صالح بن يوسف في اللائحة السياسيّة للمؤتمر "تخلّيا واضحا على الاتفاقيات" و"أن لا بورقيبيّ واحد يجرأ الآن على الإحالة على فاتحة تلك الاتفاقيات" [224].

هل كان إذا المؤتمر بورقيبيا من حيث التشيّع ويوسفيّا من حيث القرارات؟ الأمر ليس من الوضوح للحسم في الإجابة. لكن الثابت تاريخيّا أنّ وراء قرارات المؤتمر كان هناك ظلّ اليوسفيّين إمّا كقوّة دفع وتجذّر للمطالب الوطنيّة أو كفصيل دستوري يتوجّب إرضاؤه وربحه لصفّ البورقيبيّين.

ومهما كان الأمر فإنّ مؤتمر صفاقس مع عوامل أخرى أهمّ سرّعت بالانتقال بالبلاد من وضع الاستقلال الذاتي إلى الاستقلال التّام. وهذا يوصلنا لتناول النقطة الثانية من هذا المحور.

• **20 مارس 1956: مرحلة مبرمجة في سياسة عبقري أم ثمرة مقاومة يوسفيّة مغموطة.**

درجت الكتابات الرّسميّة وشبه الرّسميّة [225] وحتى كتابات كثير من الجامعيّين حتى فترة قريبة على تنزيل المعارضة اليوسفيّة في باب "السّلبي" في تاريخ الحركة الوطنيّة التّونسيّة بما أنّها معتبرة "فتنة" و"انشقاقا" و"تفتيتا لوحدة الأمّة والحزب" وفي أحسن الحالات تذكر كحدث عرضي ينعت "بالخلاف اليوسفي البورقيبي" أو "انشقاق الحزب" دون بحث جدّي في الفعل التاريخي للمعارضة اليوسفيّة في وجهيها السياسي والعسكري وإن كان هذا التّمشي في معالجة تلك الظاهرة التاريخيّة "معقول" في منطق الشّق البورقيبي المنتصر لشرعنة سلطته واستمراريّة بقائها فإنّه هو يصبح سقيما عندما يصدر

[223] انظر مثلا جريدة "**اليقظة**" ليوم 12 ديسمبر 1955.

[224] في مقابلة صالح بن يوسف مع شارل صومانيي، م م. ص 439. فاتحة اتفاقيات 3 جوان تتحدّث عن "التعاون" و"الصّداقة الدائمة مع فرنسا" وعن "المجموعة الفرنسي- التونسيّة" - "la communauté franco-tunisienne"

[225] لئن تنوّعت الأدبيات التاريخية التي تناولت فترة الانشقاق في الحركة الوطنية إثر اتفاقيات 3 جوان فإنّها تلتقي في إدراكها العام لأحداث تلك الفترة وهنا يمكن أن نذكر خاصّة في سلسلة تاريخ الحركة الوطنيّة الأجزاء XV وكتاب "الدولة الجديدة" (Le Nouvel Etat) في أجزائه الثلاثة إضافة للكم الهائل من خطب بورقيبة ما أنتج في عهده من نشريات وبرامج ذات طابع دعائي كذلك ما دلت علي ببسطه كتب التاريخ المدرسيّة حتى فترة قريبة.

عمّن يفترض التزامهم الموضوعيّة وضوابط البحث التاريخي العلمي ولعلّ ذلك "الاعوجاج" يفسّر بذاك الرأسمال الاعتباري من التّعاطف الذي حظي به بورقيبة عند المثقفين الفرنكفونيّين بخاصة لما دأبوا من اعتبار هذا الزّعيم رمزا للحداثة واللائكيّة والعقلانيّة بعكس ما التصق بصورة غريمه بن يوسف من أنّه رجل المحافظة الدّينيّة والاجتماعية وحتّى الرّجعيّة فنفخوا في دور الأوّل وتفّهوا دور الثاني. ويلتقي هؤلاء في تهميش دور اليوسفيّين في إحراز الاستقلال معتبرين إمضاء بورتوكول 20 مارس 1956 هو ثمرة سياسة عبقري وترجمة تاريخيّة ناجحة لسياسة المراحل والبراغماتية التي اعتمدها بورقيبة.

لكن الأسئلة التي يجب أن تطرح: كيف لفرنسا التي لم تقبل إلاّ بحدود اتفاقيات 3 جوان 1955 وتمنح لتونس ما منحت أن تقبل بعد أقلّ من عشرة أشهر فقط بمنحها استقلالها التّام؟ هل فقط لأنّ مؤتمر صفاقس طالب بمراجعة الاتفاقيات والوصول بها نحو الاستقلال؟ هل لأنّ المجلس الملّي للحزب الحر الدستوري الجديد طالب في 23 جانفي 1956 بالإيجاز في مراحل تحويل السّلط للحكومة التّونسية ومنح البلاد استقلالها؟ هل لتحول بورقيبة في 2 فيفري 1956 لفرنسا للتباحث مع الحكومة الفرنسية في هذه المطالب؟ هل هذه المواقف والتحرّكات الدبلوماسية هي التي كانت محدّدة في الانتقال بالبلاد من الاستقلال الذاتي إلى الاستقلال التّام؟

أكيد إنّ هذه التحرّكات والمواقف كان لها دورها لكننا نعتقد مع غيرنا من أصحاب المقاربات الموضوعيّة للمسألة إنّ استقلال تونس التّام تضافرت لحصوله عوامل مختلفة منها وضعيّة فرنسا في مستعمراتها وتحوّل الرّأي العام فيها والضغط العالمي المناهض للاستعمار والمناصر لحركات التّحرّر وخاصّة الدور الفاعل للمعارضة والمقاومة اليوسفيّة في تحقيقه.

إنّ المعارضة اليوسفيّة في مستواها السّياسي والدّعائي وخاصّة في مستواها المسلّح المقاوم كان لها دور رئيسي في "إقناع" الدولة الفرنسية بضرورة منح التّونسيّين استقلالهم التّام. أوّلا لأنّها تيقّنت بأنّ مصالحها ومصالح رعيّتها من الفرنسيّين بتونس أصبحت مهدّدة فعلا خاصّة مع استشراء حالة انعدام الأمن والفوضى والاعتداءات على المعمّرين وانزعاجهم [226]. خاصّة وإنّ هذه المقاومة وضعت في إستراتيجيتها محاربة الفرنسيّين

[226] في هذا الموضوع يمكن مراجعة:

واستهدافهم وشمل نشاطها منذ أواخر 1955 حتّى بعد صائفة 1956 كامل الشريط الحدودي مع الجزائر وكامل جبال الجنوب التّونسي تقريبا وشارك فيها ما يزيد عن 1500 مقاتل وكانت وقائعها حربا حقيقيّة تدخّل فيها الجيش الفرنسي كما لم يتدخّل في السابق بآلياته الثقيلة وبطائراته وفاق عدد شهداء هذه المرحلة من المقاومة المسلّحة عدد شهداء سنوات 1952 -1954 ولعلّه كان ضعفه ([227]). وثانيا رأت فرنسا في المقاومة اليوسفيّة خطرا رئيسيّا على وجودها في الجزائر خاصّة وأنّه كان في استراتيجيّة "جيش التّحرير الوطني التّونسي" التّلاحم مع "جيش التّحرير الوطني الجزائري" وكان الثوّار التونسيّون من الحدود مع ليبيا إلى الحدود مع الجزائر في الجنوب يمثّلون همزة وصل حيويّة لإمداد الثّورة التحريريّة في الجزائر بالسّلاح الآتي من الشرق وهذا البعد الإستراتيجي كان ليس خافيا عن الدولة الفرنسيّة وعن جيشها وتشير وثائقها صراحة لهذا الخطر وتجتهد لوضع حدّ له. لذا كان القرار السياسي الفرنسي في تحويل الدولة التونسيّة النّاشئة إلى دولة "قادرة" إذا دولة "مستقلّة" تخدم الاستراتيجية الفرنسيّة أوّلا في المحافظة على مصالحها في تونس وثانيا بضرب خطر التّلاحم الثوري في المغرب العربي ([228]) المهدّد لوجودها خاصّة في الجزائر وثالثا تحجيم المعارضة اليوسفيّة وسحب الغطاء من تحت أقدامها وإبطال مفعول خطابها الذي كان يلقى صدى قوى التّحرّر في العالم العربي ويلقى خاصّة الدّعم السّياسي وحتّى المادّي ممّن تعتبره فرنسا آنذاك عدوّا رئيسيّا لها أي نظام الثورة في مصر وجمال عبد النّاصر حتّى أنّ مقاومي جبهة التّحرير الجزائريّة كانت تنعتهم الدّعاية الفرنسيّة آنذاك بـــ "مرتزقة القاهرة".

- Juliette Bessis, « La crise de l'autonomie et de l'indépendance tunisienne, classe politique et pays réel », in **Cahier du Mouvement Social**, n°3, Paris, les Editions ouvrières, 1978, pp. 265-292.
- Amira Aleya Sghaier, « Les groupement politiques français de droite et la décolonisation (1954-1956) », in **Processus et enjeux de la décolonisation en Tunisie (1952-1964)**, pub. de l'ISHMN, Tunis, 1999, pp. 205-231

([227]) حول هذه المقاومة يمكن العودة للبحوث التي ذكرناها سابقا في مطلع هذا البحث وكذلك ضمن مؤلّفنا "المقاومة الشعبية في تونس" م.م مقال "جيش التّحرير الوطني التّونسي..." وفي هذا الكتاب فصل: "اليوسفيّون ومعارك الجنوب. 1955-1957".

([228]) ولا يعني ذلك إنّ فرنسا نجحت في مبتغاها. انظر مقالنا: "بورقيبة ومحمّد الخامس والقضيّة الجزائريّة" ضمن هذا الكتاب.

ويأتي الإقرار بالدور الحاسم للمقاومة اليوسفيّة في منح تونس استقلالها في خطب رجال الدولة الفرنسيّة آنذاك عند تبرير سياساتهم. فهاهو آلان سفاري (Alain Savary) وزير الشؤون المغربية والتّونسيّة في الحكومة الفرنسية عند نقاش السياسة الخارجية لفرنسا في شمال إفريقيا في جوان 1956 يوضّح بجلاء ووضوح في البرلمان الفرنسي "إن لم يكن هنالك حلّ آخر إلاّ الاستقلال إذا ما أردنا أن نتفادى توسّع النّزاع ليصير مأساة فعليّة" وأضاف زميله كلوسترمان Clostermann حجّة أخرى عندما ذكّر بعدد القوّات العسكريّة الضّخم الذي عبّأته فرنسا لمحاربة المقاومة في الريف شمال المغرب سنة 1956 مضيفا لدعاة استعمال القوّة في المغرب وتونس إنّ ذاك يستوجب على الأقلّ تجنيد بين 400 و500 ألف رجل ([229]).

ثمّ أنّ تدهور الوضع في الجزائر منذ اندلاع حرب التّحرير في 1 نوفمبر 1954 أرغم فرنسا على توجيه كلّ قواها للمحافظة على مستعمرتها هذه لمركزيّة الجزائر في الإمبراطوريّة الفرنسيّة وفي الوجدان السياسي للفرنسيّين.

كذلك منح المغرب الأقصى استقلاله التّام في 2 مارس 1956 كان مثّل حرجا سياسيّا حقيقيّا لفرنسا ولحكومة بورقيبة باعتراف الجميع ضمنيّا أنّ تونس أنضج تاريخيّا (تكوّن نخبة عصريّة قادرة على تصريف شؤون الدّولة أوسع من المغرب لإدارة أمورها) فما منح للمغرب أقلّه يجب أن يمنح لتونس.

هذا إضافة للتحوّلات العالميّة لما بعد الحرب وتراجع صيغ الهيمنة الإمبرياليّة عن طريق الاستعمار المباشر ومعارضة الولايات المتّحدة الأمريكيّة لذاك الشّكل من الاستعمار في إطار الحرب الباردة التي كانت تتزعّمها ضدّ المعسكر الاشتراكي الذي يقدّم نفسه مناصرا لحركات التّحرّر في العالم وتسنده قوى عدم الانحياز برموزها الكبرى مثل الصّين والهند ويوغسلافيا ومصر.

كل هذه العوامل والمعطيات تفنّد – في ظنّنا- أسطورة سياسة المراحل وتكذّب ادّعاء أنّ الاستقلال المحرز في 20 مارس 1956 كان حصيلة خطّة ناجحة برمجها الزّعيم وهو لعمري تفسير ما بعدي للتّاريخ ويدخل في باب تزييف حقائقه والسّطو عليه.

([229]) ذكره المؤرّخ شارل أندري جيليان في مؤلّفه "وأصبحت تونس مستقلّة" ص 206.
Charles-André Julien, **Et la Tunisie devint indépendante (1951-1957)**, Paris, Les Editions J.A. / S.T.D., 1985, p. 206.

لكن تحصل البلاد على استقلالها التّام في 20 مارس 1956 لم ينه وجود المعارضة اليوسفيّة لأنّها رأت في ذلك الاستقلال استقلالا منقوصا ثمّ إنّ عداءها للنّظام البورقيبي سوف يتحول بها إلى معارضة سرّية تترصّد نظام بورقيبة لإسقاطه ويترصّدها هو لاجتثاثها وهذا ما سنتناوله في هذا المحور الأخير.

VIII- اليوسفيّة زمن الاستقلال : معارضة من أجل سياسة بديلة أم ثأر دائم (1963-1956).

لم تنه حملة الاعتقالات والمحاكمات التي استهدفت اليوسفيّين خاصّة منذ أواخر جانفي 1956 ولا كذلك حصول البلاد على استقلالها في 20 مارس 1956 نشاط المعارضة اليوسفيّة حتى وإن عبّر فريق منها عن ولائه لبورقيبة والتزم آخرون الصّمت والانسحاب فإنّ الأكثر إصرارا بتوجيه من زعيمهم صالح بن يوسف سوف يواصلون مقاومتهم إمّا لإتمام السيادة الفعليّة للبلاد أو للإطاحة ببورقيبة.

وقع إمضاء بروتوكول 20 مارس 1956 والمقاومة اليوسفيّة المسلّحة على أشدّها من جبال قفصة في الغرب إلى جبال بني خداش ومطماطة في الشرق من الجنوب التونسي وكانت معاركها مع الجيش الفرنسي في شهري مارس وأفريل فقط سقط فيها أكثر من 200 شهيد ([230]) وكان طبعا كما أكّدنا في العنصر السّابق لهذه المقاومة الدّور الفاعل ولعلّه المحدّد ليس فقط في خضوع فرنسا ومنح تونس استقلالها بل كذلك حصول حكومة الاستقلال لاحقا على "انتصارات" في مطالبها لتكريس سيادتها الفعلية من تونسة الأمن (18 أفريل 1956) والقضاء (5 ماي 1956) وبعث الجيش الوطني التونسي (24 جوان 1956)، ثم الانسحاب التّدريجي للجيوش الفرنسية من البلاد...

ولئن كان إعلان استقلال تونس التّام في 20 مارس 1956 إيذانا لبعض "عصابات" المقاومة المنضويّة تحت جناح اليوسفيّة لوضع حدّ لثورتها واستسلامها للسّلط بداية من

([230]) بما أنّنا سوف نعود في فصل مخصوص لهذه المقاومة لن نطيل هنا نذكّر فقط إنّه في شهر مارس فقط وقعت المعارك الكبيرة التالية: معركة جبل طرّيش (3/14) ومعركة أم الكرم (3/20) ومعركة جبل مقر (3/21) ومعركة أم العظم (3/21) ومعارك جبال قفصة (3/21)، معركة أم علي (3/28) ومعركة جبل المرّة الأولى (3/31).

شهر ماي 1956 خاصّة ([231]) فإنّ صالح بن يوسف سوف يصدر بيانا من منفاه في 22 مارس من طرابلس يثمّن فيه البرتوكول الممضى لكن يبدي تحفّظاته عليه. وقد أوردت جريدة "الصباح" هذا البيان يوم 23 مارس يقول فيه: "اعترف رسميّا يوم الثلاثاء 20 مارس 1956 بحق تونس في السيادة والاستقلال في نطاق التكافل الفرنسي التونسي بعد أن أسقطت المعارضة بقيادة الأمانة العامّة للحزب الحرّ الدستوري إسقاطا نهائيّا معاهدة باردو واتفاقيات 3 جوان 1955 وبقدر ما نقدّر هذا الحدث الجديد الهام بقدر ما نبدي التّحفّظات العميقة بخصوص شروط هذا التكافل وحدود مداه سيما وأنّ أولئك الذين تسبّبوا في كارثة الاتفاقيات وفي خلق جوّ من الإرهاب والتقتيل (...) وفي إقامة انتخابات على أساس اتفاقيات ملغاة واقعيّا وقانونيّا الآن، وعلى قاعدة تقصي الأغلبية السّاحقة للشعب التونسي المكافح، لتصبح تلك الانتخابات مجرّد توزيع مناصب المجلس التّأسيسي على الأنصار والتّابعين هم أنفسهم الذين سيعدون مع فرنسا رغم إرادة الشعب الحقيقيّة طريقة التّكافل الجديدة.

ففي هذا الظرف التاريخي الحاسم أدعو شعبنا العربي الأبي إلى الحذر واليقظة ومضاعفة الجهود ومواصلة الكفاح الشريف لتقويض صرح الاحتلال الأجنبي لأنّ لا معنى لاستقلال ما دامت جيوش العدوان الاستعماري ترابط بأرض الوطن فتكون خطرا دائما يهدد كل آن وحين مصير الشعب ومقوّمات السيادة ومقدّرات البلاد.

وإني بهذه المناسبة لأنحني خشوعا وإجلالا أمام شهداء وأرواح شهداء وضحايا تونس والجزائر ومراكش وأحيّي في فخر واعتزاز المجاهدين الأبرار في سائر أقطار المغرب العربي الذين استطاعوا بتضحياتهم وتفانيهم وتجردهم أن يعبدوا سبيل التحرير الحقيقية في وجه شعوب المغرب العربي وأن يقربوا أليها موعد بزوغ فجر النصر والكرامة ضمن وحدة عربية إسلامية وفي دائرة تضامن أفريقي آسيوي متين وفي كنف صداقة الشعوب الديمقراطية المسالمة في مختلف أنحاء العالم ([232]).

وبعد شهر تقريبا، أي في 28 أفريل، 1956، هذه المرّة من القاهرة أصدر بن يوسف بيانا يعود فيه لنفس الموقف من الاستقلال الذي عبر عنه في بيان 22 مارس لكن بأكثر

([231]) لمزيد من التّفاصيل في هذه النّقطة يمكن العودة لفصلنا المذكور: "جيش التحرير الوطني التّونسي...".

([232]) الصباح 23 / 3 / 1956، ص 1 و4.

وضوح وشدّة حيث أشهر "إنّ معارضتنا سوف تتواصل ما لم يصبح استقلال تونس واقعا مكتسبا وما لم تقر فرنسا بسحب قوّاتها العسكرية من البلاد في أجال معقولة" ([233]) واتّهم فيه أيضا بورقيبة بالعمالة للغرب وإنه يريد إدخال تونس أحلافا عسكرية كالحلف الأطلسي واصفا إياه بالمتحمس لضمان بقاء الإمبريالية بشمال إفريقيا لذاك يخلص بن يوسف للتأكيد بأن ضمان استقلال تونس مشروط باستقلال الجزائر لذا فان مواصلة الكفاح إلى جانب الثورة الجزائرية هو الضمان الفعلي لاستقلال ([234]).

هذه الرّؤى وهذه المواقف هي التي سوف تحكم تصرّفات وتحرّكات صالح بن يوسف وأتباعه تقريبا حتى اغتياله سنة 1961 إذ تتردد دائما في تصريحاتهم وكتاباتهم أحكام من قبل اتهام نظام بورقيبة "بنشر الفجور والفساد وإرساء الاستبداد واللائكية والارتماء في أحضان الغرب" والاعتداء على الدين الإسلامي وضرب وخيانة الثورة الجزائرية وقضية المغرب العربي وقضايا العروبة والإسلام مدّعين في الآن ذاته أن غالبية الشعب التونسي يشاركهم رؤاهم وتصوّراتهم ولا شادّ لهم إلاّ القمع البورقيبي ([235]).

أمّا عمليا فإنّ موجة القمع التي استهدفت اليوسفيين طيلة هذه الفترة حوّلت قيادتهم إلى المنفى أي طرابلس حتى أواخر 1956 ثم القاهرة وأخيرا الجزائر، شأن صالح بن يوسف وإبراهيم طوبال وعبد العزيز شوشان وحجّمت أتباعهم في تونس حيث تحوّلت معارضتهم منذ صائفة 1956 تقريبا إلى "تحت الأرض" تتحيّن الفرصة للتنظم مثل ما جدّ أواخر 1957 وبداية 1958 من محاولة بعث تنظيم أطلق عليه اسم "الحزب القومي الاشتراكي" ([236]) أو السعي للقضاء على النظام القائم بمحاولة اغتيال رأسه الحبيب بورقيبة في

([233]) بيان صالح بن يوسف في مؤتمر صحفي عقده بالقاهرة في 28 أفريل 1956 موجود بوثائق الخارجية الفرنسية :.(QO., Tunisie 1956-1969, V. 247)

([234]) ن. م.

([235]) انظر مثلا كتاب إبراهيم طوبال الشخصية الثانية تقريبا بعد بن يوسف في المعارضة اليوسفية في الخارج : **البديل الثوري في تونس**، بيروت، دار الكلمة، 1979، 341 ص. وكذلك رسائل صالح بن يوسف لأتباعه المنشورة في **الكتاب الأبيض في الخلاف بين الجمهورية التونسية والجمهورية العربية المتحدة**، م م. ص. 49-114.

([236]) انظر مقال خالد عبيد : "مكاشفات أحمد صوة (الشرقيون... اليوسفية) 1953-1958" **بالمجلة التاريخية المغاربية**، عدد 2001/104، ص 409-442. ص 431.

محاولات عدّة ([237]) آخرها في ديسمبر 1962 ولعلّ عدد المحاكمات التي استهدف لها اليوسفيون وعدد محكوميهم أو ما ينسبون لهم ما بين 1956 و1963 تدلّ بجلاء أنّ هذه الحساسية المعارضة في تونس كانت فعلا نشطة وربّما مثّلت خطورة على النظام القائم آنذاك.

محاكمات اليوسفيين (1956-1963) ([238])

السنة	عدد المحاكمات	عدد المحكومين
1956	12	212
1957	7	102
1958	1	55
1959	5	166
1960	2	21
1963	1	4 ؟
المجموع	28	560

ومهما كان الأمر فإنّ حملات القمع هذه ضد اليوسفيين وتمكّن نظام بورقيبة بإعانة المعارضة اليوسفية في اللمحة التاريخية من تكريس السيادة الفعلية على البلاد وتحول الاستقلال من نص قانوني إلى حقيقة تاريخية خاصة بعد إتمام الجلاء العسكري على البلاد واسترجاع أراضي المعمّرين وتأميم جلّ الشركات الاستعمارية التي بقيت قائمة بعد 20 مارس 1956 ووقوف النظام عمليا وفعليا مع القضية الجزائرية، كلّها عوامل سوف تنزع من اليوسفيين كثيرا من مآخذهم على نظام بورقيبة ومبرّرات قيامهم ضدّه.

وكانت محاولة الانقلاب الفاشلة التي افتضحت في ديسمبر 1962 وحوكم المتورطون فيها في جانفي 1963 آخر بروز واضح -في ظنّنا- على الساحة السياسية في تونس([239])

([237]) قبل محاولة قلب النظام في ديسمبر 1962 يذكر التاريخ الرسمي أنّ بورقيبة تعرّض على الأقل في مرّتين لمحاولة اغتيال سنة 1957 وسنة 1958 (على رأسها صالح النجار أحد أتباع بورقيبة).

([238]) معطيات الجدول مأخوذة من مقال محمد ضيف الله م.م. ص. 172-178 وكتاب أبيض...م.م. ص. 116-238.

([239]) حوكم المتورّطون في هذه المحاولة بين 12-17 جانفي 1963 وهم 26 رجلا من بينهم 7 ضبّاط بتهمة الاعتداء على أمن الدولة ومحاولة قلب نظام الحكم من طرف المحكمة العسكرية بتونس

لليوسفيين رغم أنّ العناصر البارزة فيها لم يعرفوا بانتمائهم لليوسفية علاوة على العسكريين غير أننا نظنّ أنّ طروحات "المجموعة الانقلابية" وانتقاداتها ومآخذها على نظام بورقيبة كانت تلتقي في جانب منها مع طروحات اليوسفيين في انتقاد "استبداد بورقيبة" واستخفافه بالدين الإسلامي (خطابه المنادي بإفطار رمضان في 1961) وتدهور الوضع المعيشي وإهماله للمقاومين وعدم تقدير تضحياتهم ([240]) والإدارة السيئة لحرب بنزرت (جويلية 1961) إضافة لما يعيبونه على بورقيبة من "تغريب" و"عداوة للحضارة والقومية العربية" ونعتقد أنّ بورقيبة لا يبالغ عندما يتحدّث عن الانقلابيين بأنهم خليط من قدماء الفلاقة والعسكريين واليوسفيين ([241]) خاصة عندما يتّهم نظام أحمد بن بلّة بتقديم الدّعم للانقلابيين واستقبال رموزهم في الجزائر شأن إبراهيم طوبال وعبد العزيز شوشان أو تسهيل هروب أحد الضّالعين في "المؤامرة" والمحكوم عليه بالإعدام غيابيا المسطاري بن سعيد كما يذكر محمد الصياح أن عبد العزيز شوشان كان على اتصال "بالانقلابيين" بتونس[242].

على كلّ كان من بين المحكوم عليهم المناضل محمد صالح البراطلي الوحيد تقريبا المعروف بانتمائه الصريح لليوسفية حتى أنه حكم عليه في جانفي 1957 بخمسة أعوام أشغال شاقة لذلك ([243]) كذلك يمكن أن نذكر من أنصار بن يوسف والذين أبدوا تحمّسهم

حيث حكمت على 7 عسكريين بالإعدام (وهم عبد الصادق بن سعيد، وكبيّر المحرزي وعمر البنبلي وصالح لحشاني ومحمد بركية ومحمد قيزة ومنصف الماطري، هذين الأخيرين عفي عليهما وحوّل حكم الإعدام إلى سجن مؤبّد) وكذلك حكم بالإعدام على 6 مدنيين وهم الأزهر الشرايطي وعبد العزيز العكرمي والهادي القفصي والحبيب الحنيني وأحمد الرحموني والمصطاري بن بوبكر (غيابيا) وحكم على محمد صالح البراطلي والساسي بويحيى بالأشغال الشاقة المؤبدة وحكم على البقية بأحكام ثقيلة أيضا. مع الملاحظ أن المحكوم عليهم بالسجن وقع العفو عليهم تباعا بداية من 1973. انظر في شأن هذه المحاكمة صحف زمن وقوع المتورّطين الأحياء. كذلك ضمن سلسلة تاريخ الحركة الوطنية عن دار العمل، سنة 1984 مؤلف مقدّم من محمد الصياح :
La République délivrée, tome 1, 1959-1964, pp. 1959-1964, pp. 535-573 et 581-614.

([240]) العربي العكرمي م.م. ص 56- 65.

([241]) خطاب بورقيبة يوم 18 جانفي 1963 بتونس بكتاب **La République délivrée** ص 624.

([242]) ن. م. ص 550.

[243] – في كتاب أبيض...." م م ص 154-167 وهو ما أكده لنا في مقابلة معه في بنزرت بتاريخ 15 ماي 2006.

لمواقفه وناصروه منذ بداية الخلاف مع بورقيبة الأستاذ والرأس المفكّر لمحاولة الانقلاب عبد العزيز العكرمي أحد قيادي "صوت الطالب الزيتوني" وفي نفس الخانة المدرس أحمد الرحموني والمعلم عز الدين الشريف وكذلك المسطاري بن سعيد. إضافة لعناصر أخرى ذكرها التحقيق في محاكمة محاولة انقلاب ديسمبر 1962 شأن اليوسفي المحكوم عليه غيابيا محمد عبد الكافي.

ومهما كان الأمر كان اغتيال صالح بن يوسف في 12 أوت 1961 بفرنكفورت ([244]) بألمانيا ضربة "قاسية لمعارضة أضحت فاقدة لمغزى وجودها منذ استكمال البلاد استقلالها ففقدت قاعدتها الشعبية و"ذاب" أنصارها تدريجيا من كاتم لميوله إلى ملتحق بركب المنتصرين ([245]) التائبين إلى منخرط في تيار العروبيين القوميين.

خـــاتمة :

حاول هذا البحث أن يصحّح "صورة تاريخية" مغلوطة عن اليوسفية روّج لها الخطاب الرسمي البورقيبي وسارت على خطاه عديد الكتابات التاريخية، جعلت من صالح بن يوسف "زعيم فتنة" مهووس بالسلطة وصوّرت مناصريه على أنهم كلّهم من الطبقات المالكة والرجعية وبقايا النظام الاستعماري وأخرجت المعارضة اليوسفية ومقاوميها من الصفّ الوطني وألصقت بهم تهم "الخيانة" و"التخريب" و"التآمر" بينما يثبت البحث المتأني والمحايد أنّ اليوسفية كانت تمثّل جانبا هامّا من الحركة الوطنية حتى وإن لحقت بها فئات

([244]) اعترف الرئيس الراحل الحبيب بورقيبة بضلوعه في اغتيال غريمه صالح بن يوسف في خطابه في معهد الصحافة في الصحافة في ديسمبر 1973، انظر : الحبيب بورقيبة، **محاضرات في تاريخ الحركة الوطنية**، نشر كتابة الدولة للأخبار، 1974، ص ولمزيد التفاصيل حول اغتياله يمكن مراجعة شهادة وزير الداخلية السابق الطاهر بالخوجة **بالمجلة التاريخية المغاربية** "106. ص 238 وكذلك مؤلف إبراهيم طوبال م.م. ص 53-73. وكذلك:
Omar Khlifi, **L'assassinat de Salah Ben Youssef,** Tunis, M.C. Editions, 2005.

([245]) من هؤلاء المهندس الطاهر عميرة الذي لم تطل معارضته ووظّف منذ شهر فيفري 1956 لو القيادي وأحد مؤسّسي الحزب الحرّ الدستوري الجديد ومناصر لبن يوسف الأستاذ يوسف الرويسي الذي عفا عنه بورقيبة وأصبح نائبا لمجلس الأمة وكذلك الشأن لعبد العزيز شوشان الذي عاد في أواخر عهد بورقيبة بعد عفو وأصبح هو كذلك من نواب مجلس الأمّة كما عفا على علي الزليطني ومنح بيتا وضيعة وتوفي متصالحا مع النظام. ولم يمت في الغربة من أنصار صالح بن يوسف إلا إبراهيم طوبال.

وشرائح اجتماعية مشدودة إلى الوراء أو مشكوك في وطنيتها ولا تختلف اليوسفية هنا عن
الشقّ البورقيبي ذاته الذي انضمّ إليه أيضا أصناف مماثلة ووظّف الجهاز الاستعماري
الإداري والبشري الذي كان يحارب الوطنيين في خدمته وللقضاء على خصومه. وإن كان
ليس للمؤرّخ أن يعيد الاعتبار أو أن ينزعه عن أيّ فاعل تاريخي فمن حقّه كمواطن أن
يناشد المجتمع بإعادة الاعتبار لهؤلاء الشهداء والأحياء الذين طعنوا "وقتا ما" في وطنيتهم
ولم تسلم حتّى ذكراهم من التشويه لأن البورقيبيين كما اليوسفيين كانوا جميعهم وطنيين
كل حسب اجتهاده وحسب مصالحه.

اليوسفيون ومعارك الجنوب
(1957-1955)

هذا النص أردناه مواصلة تعميق أعمال سابقة أنجزناها في مبحث الخمسينات وفي اليوسفية بأكثر دقّة ([1]) ونقصر اهتماماتنا فيه على الجوانب الحربية بالذات لما احتلته صيغ المقاومة هذه من مكانة في التصادم مع الاستعمار الفرنسي بالجنوب لاعتبارات عامّة تهمّ الحركة الوطنية التونسية في مجملها ولاعتبارات خاصة تتعلّق بالجنوب على أنه كان تاريخيا مجالا خصبا لتمرّدات وانتفاضات العروش والقبائل ولخروج "الأبطال" الفرادى ثائرين على الظلم والاستعمار ([2]) ولأنه في الجنوب بالذات خاضت المعارضة اليوسفية مع حلفائها من الثوار الجزائريين أهمّ معاركها مع الجيش الفرنسي وحلفائه وقدّمت فيه أكبر عدد من "شهدائها" طيلة أكثر من سنة ونصف تقريبا بين أكتوبر 1955 وجوان 1957.

ونعني بالجنوب هنا ذاك المجال الممتدّ من جبال قفصة إلى الصخيرة في الشرق وكامل ذاك المثلّث الجنوبي للبلاد حتّى الحدود الليبية في الشرق والجزائرية في الغرب.

([1]) نقصد هنا خاصة فصولنا "جيش التحرير الوطني التونسي : حقيقته ومصيره" ضمن مؤلّفنا "**المقاومة الشعبية في تونس في الخمسينات**" والدراسة الموسومة بـــ : "اليوسفيون (1954-1963)" ضمن هذا الكتاب ومقال : "التونسيون والثورة الجزائرية (1954-1958)" الصادر في أعمال المؤتمر حول : **منهجية كتابة تاريخ الحركات الوطنية بالمغرب**، عن مؤسسة التميمي، زغوان، 1998، ص 109-141 (بالفرنسية).

([2]) يمكن مراجعة في هذا المنحى الفصول التالية :

- Hamza (H. R.) « Espace séditieux et insurrections armées dans la Tunisie coloniale », in **Rawafid**, n° 2, 1996, pp. 27-59.
- Chaïbi (M. L.), « Préliminaires à l'étude de la résistance armée nationaliste dans la région de l'Aradh (1952-1954), in **Rawafid**, n°2, 1996, pp. 85-150.
- ليسير (فتحي)، **من الصعلكة الشريفة إلى البطولة الوطنية**، صفاقس، ميدياكوم، 1999.

ونحن هنا نجتزئ هذا المجال لاعتبارات بحثية فحسب لأننا نعلم إنه في الآن ذاته الذي كانت تنشط فيه "عصابات" ([3]) اليوسفيين في هذا الجزء الجنوبي كانت فرق أخرى وفي اتصال معها وبالاشتراك مع كتائب المقاومين الجزائريين تتصادم مع الجيش الفرنسي في جبال سيدي بوزيد والقصرين ومكثر والكاف وخمير...([4]).

I– الجنوب مركز المقاومة اليوسفية : أسباب الانغراس وهدف المقاومة

إنّ "تراث التمرّد" عند أهل الجنوب لا يفسّر لوحده تمركز المقاومة اليوسفية فيه فعلينا أن نبحث عن أسباب إضافية أخرى تشرح هذا التفرّد ونظنها كانت في تظافر عدّة عوامل مختلفة منها :

– اتّساع الولاء لطروحات صالح بن يوسف بين أهالي الجنوب المحكوم مدنيّا أو عسكريا (مطماطة، قبلي، مدنين، جرجيس، بنقردان، تطاوين) خاصة وإن اتفاقيات 3 جوان 1955 لم تغيّر من الحالة القانونية للتراب العسكري ولا تفتح آفاقا مستقبلية لذلك ثم أنّ البروتوكول المكمّل للاتفاقيات بين تونس وفرنسا حول "الأمن العمومي" ينصّ على أنّ الشريط الحدودي مع الجزائر أو ليبيا تبقى مراقبته من صلاحيات الجيش الفرنسي إن كان للتنقّل أو للتجارة ([5]). حتى وإن تبدّلت أسماء رؤساء مكاتب الشؤون الأهلية بمعتمدي المفوضية السامية بالمناطق التي يحكمونها فإنّ الجيش الفرنسي (56 ألف سنة 1956 بكامل البلاد) بقي مسيطرا له حرية الحركة وتتبّع السكان في الجنوب وظلّت

([3]) نستعمل هنا عبارة "عصابة" بمعناها الأوّلي أي "مجموعة من الرجال تحارب تحت راية واحدة وقائد واحد" لا بالمعنى المحقّر المتداول.

([4]) نشطت بجبال الظهرية التونسية حتى جبال خمير مجموعات متعدّدة منتمية للمعارضة اليوسفية نذكر منها بجهة القصرين عصابات القادة محمد العربي بن ناصر، المكي الفرشيشي (سبيطلة) أحمد بن الناصر بن صالح (فوسانة)، الحاج النوري البعصوصي (عين بودرياس وفريانة)، الأزهر بن عثمان بن علي (سبيطلة والقصرين) والهادي لسود (مكثر والقصرين)، حسين بن عبد الحفيظ (مكثر –القصرين)، محمود بن حسونة الزيدي (الكاف– تالة)، عبد الله الزايس (الكاف)، علي درغال (سيدي بوزيد)، علي بن أحمد بن علي (سيدي بوزيد)، الطيب الزلاق (جهة خمير)، عبد اللطيف زهير (جنوب الساحل)، محمد بن مصباح النيفر (جهة المزونة)... وبالنسبة للفرق الجزائرية يمكن مراجعة فصل : "جيش التحرير الوطني الجزائري بتونس" بهذا الكتاب.

([5]) بروتوكول إضافي حول "الأمن" بـ (SHAT. S. 437, V. 2H 237. D1, n.f.).

ثكناته جاثية في كامل أنحائه حتى صائفة 1958 عندما بدأت وحدات هذا الجيش تنسحب تطبيقا لاتفاق 17 جوان 1958.

– عمق الشعور بالانتماء العربي الاسلامي لدى سكّان الجنوب والوعي بواجب التضامن مع الإخوة في الدين وفي العرق (الجزائريين) وهو ما كانت تعتمد عليه الدعاية اليوسفية ويجد صداه الكبير لدى سكان لم يفعل في وعيهم الحضور الاستعماري ما فعل في مناطق الشمال ذات التواجد الكثيف للعنصر الأوربي من تذويب للّحم القديمة ومن "تغريب" نسبيين.

– تأثير القيادات اليوسفية في منطقة الجنوب وفعلها في كسب الولاء الجهوي والعروشي للاصطفاف وراء راية الاستقلال التام والتحرير الشامل للمغرب العربي شأن زعيم المعارضة ذاته صالح بن يوسف أصيل الجنوب (من جربة) –رغم أنه لم يعرف عنه إعلان ولاء جهوي ودام حريصا على زعامته لكلّ التونسيين– والقائد الميداني للمقاومة المسلحة الطاهر الأسود الجنوبي أيضا من بني زيد الحامة وموسى الرويسي أحد أقطاب الحزب بالجريد وأخ القائد الآخر والمؤسّس للحزب الدستوري الجديد يوسف الرويسي الذي عارض هو أيضا اتفاقيات الاستقلال الداخلي وكذا الشأن لقوّاد الدرجة الثانية في المقاومة اليوسفية شأن الهادي قدورة وعلي الصيد من مرازيق دوز وحسين الحاجي وعبد الله البوعمراني من الهمامة والبشير قرفال ومحمّد بن ضو البوبكري ومحمّد قرفة من الجنوب الشرقي وغيرهم والذين جرّوا وراءهم –بداهة– ليس فقط من كانوا على موقفهم السياسي بل كذلك من شايعوهم من أبناء عمومتهم وعروشهم.

– نقمة عناصر عديدة من قدماء "الفلاّقة" (مقاومي سنوات 1952–1954) ومن الذين التحقوا ببن يوسف، على نظام الاستقلال لأنه "لم يقدّرهم حقّ قدرهم" ويضمن لهم موارد الرّزق المرجوّة أو لأنه ميّز بعضهم على بعض في التشغيل والامتيازات (رخص نقل، ضيعات، أراضي...) أو لأنهم ضاقوا ذرعا من حالة الرّيبة والتتبّع التي كانوا عليها من قبل الإدارة وخاصة المخابرات العسكرية التي كانت تحصي عليهم تحركاتهم وسكناتهم.

– دور الجغرافيا : الجنوب التونسي هو مجال واصل بين بؤر المقاومة الجزائرية بوادي سوف والأوراس وبالشريط الحدودي مع تونس وبين مصادر تموينها وتدريبها (على الأقل في السنوات الأولى من حرب التحرير) بطرابلس، فهو لذلك لم يكن حيويا

فقط للمعارضة اليوسفية لكي لا تقطع عن حليفها بل وهو كذلك أيضا بالنسبة لمجاهدي الجزائر لكي يضمنوا وصول الأسلحة لوحداتهم ([6]). وهو كذلك مجال صحراوي شاسع بجباله وفيافيه عصيّ السيطرة عليه وتمام مراقبته وموات للتمرّد.

لهذه الاعتبارات مثّل الجنوب مركز الثّقل في المعارضة اليوسفية وفي وجهها المسلّح بالذات.

لكن ماهي دوافع هذه المقاومة وغايتها ؟

كما كنّا بيّناه في دراستنا السابقة بعنوان "اليوسفيون 1954-1963"، كانت غاية المعارضة اليوسفية في وجهها السياسي إبطال اتفاقيات 3 جوان 1956 وفرض اتفاقيات جديدة تحقّق الاستقلال التام للبلاد وكذا كانت في وجهها المسلّح. لكن تتبّع وقائع المقاومة اليوسفية طيلة العام والنصف تقريبا الذي استغرقته من شتاء 1956 حتى صائفة 1957 أقنعنا أن ليس هنالك دائما توافق كلّي في الغايات بين قيادة الحركة ومقاوميها. ولنبدأ بالنظر في غاية بن يوسف من المقاومة.

يبدو أنّ صالح بن يوسف منذ عودته لتونس في 13 سبتمبر 1955 كان واضعا في برنامجه خيار اللّجوء إلى المقاومة المسلّحة لكن في صورة فشل العمل السياسي وضغط أتباعه وتعبئة الرأي العام التونسي ضدّ الاتفاقيات ولعلّه كان على قناعة بأنّ خصومه من التونسيين والفرنسيين لن يرضخوا لمطالب المعارضة سلميّا. هذا التقدير يدعمه ما أورده -دون دقّة- ضابط المخابرات المصري فتحي الذّيب في كتابه "عبد الناصر والثورة الجزائرية" إذ يذكر أنّ بن يوسف كان اتّفق منذ كان في القاهرة مع أحمد بن بلّة على إعادة تنشيط الجبهة التونسية بدعم من مصر ([7]). والخبر الثاني السّاند لذاك التقدير هو ما أورده رئيس الممثلية الفرنسية بطرابلس في برقيته لوزارة الخارجية بتاريخ 8 سبتمبر 1955 ومفاده أنّ مصطفى بن حليم رئيس الحكومة الليبية أسرّ إليه إنه احتراما لاتفاقية الصّداقة بين دولته ودولة فرنسا إنه رفض أخيرا طلب مبعوث صالح بن يوسف، عبد

([6]) انظر في هذا الموضوع مقالينا :

« Trafic d'armes en Tunisie 1942-1962 », **IBLA**, 2003-2, n° 192.

« La Tunisie : base arrière de la révolution algérienne 1954-1962 » in **RHM**, n° 118, 2005.

([7]) Fathi Al Dib, **Abdel Nasser et la révolution algérienne**, Paris, L'Harmattan, 1985, p. 89.

العزيز شوشان، في تسهيل الحكومة الليبية تسريب 500 قطعة سلاح أوتوماتيكي عبر ليبيا نحو تونس والتي يرغب بن يوسف في خزنها في بلده قبل عودته وتأكيدا على حسن نيّة السّلط الليبية تجاه فرنسا أفاد بن حليم إنه كلّف البوليس الفدرالي بحجز كمّية أولى من الأسلحة سرّبها بن يوسف من مصر وصل حجمها 180 قطعة سلاح من أنواع مختلفة([8]).

ومهما كان الأمر، منذ نوفمبر 1955، يبدو أنّ مسألة الحسم بالعنف والعودة لرفع السّلاح تأكّدت لدى بن يوسف وتحدّدت الغاية من المقاومة ويعبّر صالح بن يوسف عن أهدافه منها في مراسلاته مع أعوانه في الداخل إذ نقرأ في رسالة له بتاريخ 10 جويلية 1956 إلى مصطفى كامل المرزوقي الذي كان بمثابة الكوميسار السياسي "لجيش التحرير الوطني التونسي" يقول، : "ذكّروا دائما من حولكم بأنّنا نكافح أوّلا وبالذات من أجل انجاز استقلال حقيقي لبلادنا لا من أجل صورة مزيّفة من هذا الاستقلال كما نشاهده اليوم وكما رضي به الحبيب بورقيبة. لا يتصوّر أن يكون لنا استقلال حقيقي ما دامت الجيوش الفرنسية تغدو وتروح في بلادنا. إنّ المجاهدين بجيش التحرير الوطني التونسي لم نأمرهم بمواصلة الكفاح من أجل مساعدة الجزائر فقط بل مساعدة الجزائر تأتي كهدف ثاني بعد كفاحنا في الداخل ضد العدوين فرنسا وأذنا بها يعني حكومة بورقيبة وأعوانها من إضافيين وحرس متجوّل وولاة إلخ" ([9]).

وفي نفس الاتجاه في مراسلة إلى قيادته بالداخل بتاريخ 17 سبتمبر 1956 يعلن بن يوسف أنّ "الثورة" التي يقودها هي "من أجل الاستقلال وجلاء الجيوش الفرنسية وفصل البلاد التونسية عن حضيرة فرنسا وتحطيم النظام البورقيبي القائم لأنه نظام ثبتت عداوته للدين والوطن والشعب" ([10]).

([8]) البرقية ضمن أرشيف وزارة الخارجية الفرنسية (Q.O. 646, Tunisie 1950-1955, V. 309, f. 288).

([9]) نص رسالة صالح بن يوسف منشور بـ: كتابة الدولة للشؤون الخارجية، **كتاب أبيض في الخلاف بين الجمهورية التونسية والجمهورية العربية المتحدة**، تونس، 1958، ص 83-88، ص 81.

([10]) ن.م.ص 69.

فغاية بن يوسف من المقاومة المسلّحة ليست فقط الاعتراف باستقلال البلاد التام وخروج الجيوش الفرنسية منها أو دعم الثورة الجزائرية بل كذلك القضاء على النظام البورقيبي الذي يصفه بالإستبداد والعداء للدين والوطن.

لكن هل كان كلّ مقاومي "الثورة الثانية" على فكرة صالح بن يوسف وفي كلّ أبعادها وفي أهدافها المعلنة والخفية ؟ يصعب أن نعطي إجابة قاطعة في ذلك. لكن ما نرجّحه بعد تتبّع أحداث "المقاومة اليوسفية" وسماع شهادات عديد اليوسفيين المسجّلة بمعهد تاريخ الحركة الوطنية أو الذين تمّ استنطاقهم من الجيش الفرنسي -وسوف نعود لنماذج منها لاحقا- أنّ "ثوّار" اليوسفية كانوا فعلا رفعوا السلاح من أجل استقلال البلاد التام وجلاء الجيش الفرنسي عنها وحجّة ذلك إنه بعد إمضاء بروتوكول الاستقلال في 20 مارس سلّم غالب المقاومين اليوسفيين أسلحتهم لكن ليس مباشرة بل في أواخر ربيع 1956 وصائفته ممّا يدلّ على أنه كان هنالك تردّد بين البقاء على الولاء لبن يوسف وتلبية نداء الحكومة التونسية بتسليم السلاح والوعد بالأمان.

ولعلّ هذا التردّد يبرز في موقف القائد الميداني للمقاومة اليوسفية الطاهر الأسود. فلماذا هذا المقاوم المطّلع -على عكس ربّما بقيّة مقاومي جيش التحرير العاديين- على تطوّر الوضع السياسي وعلى حدث إمضاء بروتوكول 20 مارس ترقّب مدّة ثلاثة أشهر ليعلن استسلامه في 3 جويلية 1956 وسلّم نفسه للسلط التونسية ؟ هل لأنه كان صالح بن يوسف قد سجنه في طرابلس كما ادّعى في تصريحه لمحمّد الصيّاح ؟ ([11]) أو استغرق مدّة لتسوية وضعه مع الحكومة التونسية ؟ أو أنه اختلف مع طريقة التسيير للمعارضة وخاصة الحظوة التي كانت لعبد العزيز شوشان لدى صالح بن يوسف وتشكيك الطاهر الأسود في أحقيّته بها ؟

وكذا كان الأمر بالنسبة للشخصية الثانية في المعارضة اليوسفية أي المناضل حسين التريكي الذي كان مع بن يوسف في طرابلس، ويبدو أنه اختلف معه حول الموقف من الاستقلال وخاصة من بورقيبة بعد إمضاء بروتوكول 20 مارس حتى أنّ بن يوسف قرّر

([11]) كتاب "الدولة الجديدة" « **Le Nouvel Etat** » الجزء الثالث، نشر دار العمل، 1983، ص 182. لكن خبر السجن هذا لم يفد به الطاهر لسود في شهادته المسجّلة بالمعهد الأعلى لتاريخ الحركة الوطنية بتاريخ 27 جانفي 1993.

اغتيال عضده الأيمن هذا حسب ادّعاء التريكي لولا تدخّل الطاهر الأسود وأحمد بن بلّة ([12]). وكان الجفاء بين الرّجلين.

ومهما يكن الأمر فإنّ الذين سايروا صالح بن يوسف في "مغالاته" ومعارضة "نظام الاستقلال" كما سبق وإن كتبنا كانوا القلّة شأن عبد العزيز شوشان وإبراهيم طوبال في الخارج من السياسيين وبعض المئات من المقاومين في الداخل.

II- الوزن والتنظيم : من "العصابة" إلى "جيش التحرير"

رصدت الاستعلامات العسكرية الفرنسية قبل حتى عودة صالح بن يوسف إلى تونس في 13 سبتمبر 1955 تحرّكات لقدماء المقاومين لتجنيد المتطوّعين وجمع السّلاح للعودة للمقاومة شأن القائد السابق محمّد بن مصباح النيفر (المنشو) الذي كوّن عصابة من 18 من رفاقه القدماء بجهة المزّونة "استعدادا للثورة" ([13]) وفي أول أكتوبر 1955 إلتحق 6 مقاومين من صابرية نفزاوة (قبلي) بالمقاومين المرابطين بجبال شطّ الجريد ([14]). وخرج كذلك في أكتوبر القائد الطاهر بن لخضر الغريبي من نفطة في مجموعتين ([15]) ثم توالت وتكثّفت عملية الالتحاق بالجبل في إطار المقاومة اليوسفية خاصة منذ أواخر نوفمبر 1955 وبعد انعقاد مؤتمر صفاقس.

([12]) في شهادته المسجّلة بالمعهد الأعلى لتاريخ الحركة الوطنية في فيفري 1993. ويقول فيها حسين التريكي أنه بعد إمضاء بروتوكول الاستقلال اجتمع اليوسفيون بنزل "ودّان" بطرابلس وطلب هذا الأخير من بن يوسف أن تعلن المعارضة عن ابتهاجها بالاستقلال وتشكر بورقيبة على "أنه حطّم اتفاقيات 3 جوان" وأن هذا الاستقلال أتى لدور المعارضة فردّ بن يوسف على رفيقه "غلبتك المستيرية امتاعك" إماءة إلى أنّ التريكي وبورقيبة من المنستير الاثنين. مع الملاحظ أنّ هذا الموقف لم يشفع لحسين التريكي لدى بورقيبة حيث كان حكم عليه مع بن يوسف في محاكمة جانفي 1957 بالاعدام غيابيا.

([13]) مذكّرة استعلاماتية ممضاة من قائد قطاع سيدي بوزيد للجيش الفرنسي بتاريخ 8 سبتمبر 1955. (SHAT. S. 507, 2H Tunisie, C- 2H 314, n. f.).

([14]) تقرير معتمد المفوّض السامي بقبلي إلى الجنرال قائد التراب العسكري بالجنوب بتاريخ 10 أكتوبر 1955 بنفس المصدر.

([15]) شهادة المقاوم سلامة بن صالح بن علي سلامة عضو فرقة الطاهر الغريبي بالمعهد الأعلى لتاريخ الحركة الوطنية بتاريخ 1995/11/25.

وفي الواقع تشير مختلف التقارير التي اطّلعنا عليها بالدّور الذي اضطلع به الطاهر الأسود في التعبئة للمقاومة خاصة منذ إعلانه رسميا في 11 نوفمبر 1955 عن انضمامه لصالح بن يوسف.

وفي اعتقادنا لم ينجح الطاهر لسود ورفاقه في التعبئة لمعارضة الاتفاقيات والتشجيع على تكوين مختلف فرق المقاومة مباشرة أو بدونه إلاّ لتمتّع المعارضة اليوسفية بالجنوب بشبكة خلايا هيّأت لها إمكانيات جمع التبرّعات وربّما السّلاح. وقد كنّا في دراسة سابقة تعرّضنا لأوجه تنظّم الأمانة العامة وذكرنا إنها تمكّنت من بعث ستّ جامعات بالجنوب وهي جامعة الأعراض وجامعة قفصة وجامعة الجريد وجامعة نفزاوة وجامعة مدنين وجامعة جربة قوامها أكثر من 80 شعبة كانت مصدر معلومات وتموين بالغذاء خاصّة للمقاومين.

وفي إطار الإعداد والتنسيق مع المقاومين في الجزائر والمغرب والرّبط مع مصر جمال عبد الناصر تفيد مصادرنا الأرشيفية وشهادات القادة الضالعين في أحداث تلك الفترة إنّ اتصالات فعلية وتفاهمات تمّت بين هذه الأطراف لبعث قيادة موحّدة لحركات التحرير في إطار ما سمّي "جيش تحرير المغرب العربي" الذي أصدر أوّل بيان له في أكتوبر 1955 ممضى من "حركة المقاومة المغربية... وجبهة التحرير الوطني الجزائرية" ([16]) لكن دون إمضاء الطّرف التونسي ([17]) وكان إلتحاق التونسيين ممثلين في المعارضة اليوسفية لاحقا في بداية 1956 بعد اجتماع يبدو أنه تمّ بين صالح بن يوسف والطاهر لسود من تونس وعبد الحي وعبّاس بلغرور عن جبهة التحرير الجزائرية ومحمّد البصري عن جيش التحرير المغربي ([18]). وتمّ في القاهرة تحت رعاية مصرية في أواخر فيفري

([16]) انظر نصّ البيان التأسيسي لهذا الجيش ضمن ملحق تقرير الدبلوماسي الفرنسي بمفوّضية طرابلس بتاريخ 7 أكتوبر 1955 ضمن أرشيف الخارجية الفرنسية -Q. O. 717, Tunisie 1950) .1955, V. 451, ff. 204-206)

([17]) حول ملابسات ومفاوضات بعث "جيش التحرير المغاربي" يمكن الاطّلاع على البحوث الصادرة في أعمال الملتقى حول **جيش التحرير المغاربي (1948-1955)** عن مؤسسة محمد بو ضياف الجزائر، 1955. وخاصة شهادة أحد المؤسسين والقائد العام لجيش التحرير المغربي الدكتور عبد الكريم الخطيب، ص 193-198.

([18]) الطاهر عبد الله، **الحركة الوطنية التونسية، رؤية شعبية قومية جديدة**، سوسة- تونس، دار المعارف، د ت، ص 131.

1956 اجتماع بين قادة الجيوش الثلاثة حضره عن تونس الطاهر لسود وأحمد بن بلّة عن الجزائر والدكتور الخطيب عن المغرب ([19]) وتقرّر فيه بعث قيادة موحّدة لجيوش التحرير الثلاثة والالتزام بمواصلة الكفاح المسلّح حتى تحرير كامل المغرب كما التزمت مصر بتمويل هذه المقاومة بالسلاح عن طريق رئيسها جمال عبد الناصر ذاته([20]).

ومهما كان الأمر فإنّ الاستعدادات استوفت لبعث تنظيم موحّد لعصابات المقاومة في ما سمّي "جيش التحرير الوطني التونسي" والذي أعلن عن تأسيسه الطاهر الأسود في بيان نشرته "الصباح" يوم 12 فيفري 1956 والذي نقرأ فيه : "هذا بيان القيادة العامة لجيش التحرير التونسي نوجّهه إلى الشعب التونسي : نعلن على رؤوس الملأ للشعب التونسي والشعب الفرنسي والعالم أسره أنّنا أحدثنا على بركة الله جيشا تحريريا وطنيا تونسيا مهمّة هذا الجيش هو تحرير وطننا العزيز من قاذورات الاستعمار وأذنابه وقد قرّرنا ضمّ جيشنا المبارك إلى جيوش إخواننا الجزائريين والمغاربة(...)"([21]).

ويبدو أنّ خطّة عسكرية وقع ضبطها منذ 24 نوفمبر 1955 في اجتماع بطرابلس بين الطاهر الأسود والضابطيْن المصريّيْن فتحي الذّيب وإسماعيل صادق تمّ بمقتضاها تقسيم البلاد التونسية إلى 6 مناطق عسكرية :

- الجنوب العسكري : من وادي الزّرّاس حتى الحدود مع ليبيا.
- قابس : من واد الزاس حتى الصخيرة.
- صفاقس : من الصخيرة حتى الجمّ.
- سوسة : من الجم حتى النفيضة.
- الكاف : المنطقة الحدودية مع الجزائر من الكاف حتى القلعة الجرداء (الخصبة حاليا).

([19]) فتحي الذيب، **عبد الناصر...** م م ص 23.

([20]) هذا الاجتماع يأتي عليه الطاهر الأسود في شهادته المذكورة ويدقق أن جمال عبد الناصر عندما استقبل ممثلي حركات التحرير اقترح أن يكون الطاهر الأسود باتفاق الآخرين رئيس لجنة تحرير شمال إفريقيا". الطاهر لسود عند التسجيل معه أخرج طابعا ذكر أنّ عبد الناصر أرسله له يحمل جملة: "الطاهر لسود اليزيدي، القيادة الثورية لتحرير الشمال الافريقي".

([21]) **الصباح**، 1956/2/12.

- تونس : من النفيضة حتى بنزرت ([22]).

هل طبّقت هذه الخطّة ؟ نشكّ في ذلك. كما سنعود إليه لاحقا عند تناول النشاط العسكري "للعصابات" اليوسفية.

لكن الذي وقع فعلا هو وفاء الجانب المصري بتعهّداته للمقاومة المسلحة في تونس وخاصة في الجزائر ويورد فتحي الذيب في كتابه المذكور تفاصيل عن شحنات سلاح أرسلت للمقاومين في الجبهتين التونسية والجزائرية من ذلك أنه في شهر فيفري 1956 وصلت المقاتلين التونسيين شحنة أسلحة مختلفة من 168 قطعة مع الذخيرة وفي الفترة الممتدّة بين 20 مارس و6 أفريل 1956 أرسلت إلى الجبهة التونسية 4 شحنات فيها 455 قطعة سلاح عصري من الرشاش إلى المسدّس وقنابل مضادّة للدبابات وأكثر من 52 ألف خرطوشة مع مفرقعات مختلفة ([23]) وهو ما أقرّت به مختلف التقارير العسكرية حول مختلف المعارك التي جدّت بين اليوسفيين خاصة في جبال الحوايا ([24]). وقد هرّبت هذه الأسلحة من طرابلس عبر الحدود عن طريق الأبل أو كاهل الرجال كذلك تمّ تسريبها عن طريق قوارب من البحر ([25]).

وقد تحوّلت في الواقع طرابلس منذ بداية الخمسينات لقاعدة خلفية للمقاومة الوطنية التونسية (ثم الجزائرية) ([26]) وأصبحت قاعدة للقيادة اليوسفية منذ لجوء صالح بن يوسف لها في 28 جانفي 1956 وحصوله من الحكومة الليبية على اللجوء السياسي حتى خروجه منها بطلب من السلط الليبية وتحوّله إلى القاهرة.

([22]) الذيب، م م. ص 90-91.

([23]) الذيب، م م. ص 114-115 و120-121. يؤكّد حسين التريكي أنه أوفد في 16 جانفي 1956 إلى القاهرة من طرف الأمانة العامة لمقابلة جمال عبد الناصر والاتفاق على إرسال السلاح والربط مع مقاومي الجزائر والمغرب. راجع شهادته المذكورة.

([24]) الطاهر لسود في شهادته المسجلة بمعهد الحركة الوطنية يذكر أنّ الأسلحة التي سلمتها مصر للمقاومين التونسيين والجزائريين وقع إخفاؤها في زوارة وطرابلس وكلّف 400 (كذا) من ورغمة لنقلها عبر الحدود نحو تونس.

([25]) انظر مقالنا "تهريب السلاح..." م م.

([26]) حول نشاط الوطنيين التونسيين ومراكز تدريبهم ونشاطهم بطرابلس حتى أواخر 1952 انظر تقرير الاستعلامات العسكرية الفرنسية في الموضوع منشور بمجلة **روافد** 6 لـ 2001. Rapport de synthèse sur l'organisation néo-destourienne en Libye, in SHAT, Tunisie 2 H-C 373.

وكان مركز القيادة اليوسفية في الأول أين استقرّ بن يوسف في نزل "الودّان" حيث كان في حراسته رجال أمن وضعتهم الحكومة الليبية في خدمته ([27]) لينتقل لمقرّ آخر بطرابلس نهج مزران ودائما في حراسة البوليس الليبي ([28]). وقد اختار صالح بن يوسف -على ما يبدو- هذه المدينة ليكون حسب قوله "في منتصف الطريق" بين تونس حيث يكون على اتصال "برجاله" والقاهرة حيث ينسق مع رفاقه من الجزائر والمغرب ([29]).

وحسب تقرير الاستعلامات العسكرية المؤرّخ في 14 جوان 1956 كان صالح بن يوسف مع معينيه وخاصة عبد العزيز شوشان تحت إدارته مركزين واحد للاستعلام والتوثيق والآخر للاستعلام واشتراء الأسلحة بطرابلس ([30]). وتفيد في نفس الموضع الحكومة التونسية في "الكتاب الأبيض" الآنف الذكر أنّ معيني صالح بن يوسف المقاومين عبد العزيز شوشان والمبروك الزناتي وعبد الله الحدّاد والطاهر لسود كانوا يتنقلون عبر الحدود التونسية متّخذين قرى الجميل ووادي التل وبئر الضبع وبتجي قواعد لهم ([31]).

أمّا مراكز تدريب اليوسفيين وخزن أسلحتهم فإنها كانت في أول جوان 1956 بقرقارش قرب طرابلس في ضيعة الحاج عياد ربانة ([32]) (مركز تدريب وتكوين كمندوس واستعمال المتفجّرات) ومركز الجميل، 11 كلم جنوب زوارة، في ثكنة إيطالية قديمة تحت أوامر الطاهر الأسود مباشرة وفي صرمان في المكان المعروف بالمزرعة وبأم الفار وتجي وعين غزالة وكلها مراكز لخزن الأسلحة وعبورها للتونسيين والجزائريين ([33])

([27]) مقال أصدرته الصحيفة الإيطالية "**ستامباتوفا**" يوم 14 مارس 1956 وأعادت نشره "**الصباح**" في 20 مارس 1956.

([28]) مذكّرة استخبارية من معتمد المفوّضية السامية بتطاوين بتاريخ 14 جوان 1956 (SHAT, 2H 314, D2. n.f.).

([29]) تصريحه لمبعوث الجريدة الإيطالية م.م.

([30]) ن. م.

([31]) **كتاب أبيض...**، م.م. ص 41.

([32]) الحاج عياد ربانة من أصول جربية كان تاجرا وطنيا ولقي الاضطهاد لكفاحه اشترى سنة 1951 أرضا فلاحية قرب العاصمة طرابلس (سواني بني آدم) ووضعها على ذمّة الوطنيين التونسيين (علي الزليطني) لتدريب المقاومين، وانتقل هذا المركز فيما بعد إلى اليوسفيين. انظر في الموضوع : حمّادي اللواتي، **أبناء جزيرة جربة في الحركة الوطنية 1881-1961**، تونس، طبع الشركة التونسية لفنون الرسم، 2005، ص.ص. 423-424.

([33]) تقرير معتمد المندوب السامي بتطاوين، م.م.

وهو ما يؤكده المقاوم بشير بالقاضي المسؤول الجزائري في جبهة التحرير عن القاعدة الليبية في شهادته عن دعم اليوسفيين وتعاونهم مع الجزائريين آنذاك ([34]).

كانت إذا ليبيا حتى موفى 1956 مركزا "للقيادة العليا لجيش التحرير الوطني التونسي" تحت أوامر "القائد العام" صالح بن يوسف والإشراف المباشر على الفرق المقاومة من القائد الطاهر الأسود على الأقلّ حتى شهر ماي 1956 تاريخ عزله المحتمل من قبل صالح بن يوسف ليعيّن خلفه على ما يبدو العجمي المدوّر ([35]) ثم الطاهر بن لخضر الغريبي ([36]). واعتماد مصطفى المرزوقي بمثابة "المراقب السياسي" للجيش اليوسفي ([37]) مع تعيين قواد فرق محلية يطلق عليها أسماء "جيش" وأحيانا "عصابة" أو "فرقة" تصلهم الأوامر عن طريق عناصر ربط من طرابلس شأن الصادق بن الكامل عبد الرحيم من جليدات تطاوين ومحمد بن عمر بن يحيى بن مذكور من أولاد شهيدة ([38]).

وتفيد التقارير العسكرية إنّ مقاومي اليوسفية خاصة في الجنوب الشرقي كانوا فعلا مدرّبين عسكريا ولهم أزياء عسكرية كذلك إضافة للأسلحة العصرية. لكن هذه الوحدات المقاتلة ليست مبنية على هرميّة ورواتب الجيوش التقليدية إذ كانت تعتمد مبدأ حرب العصابات وهذا يجرّنا إلى الطرق الحربية المرسومة "لجيش التحرير".

يجيب صالح بن يوسف ذاته عن هذا الاستفهام في رسالته إلى "الكوميسار" السياسي "لجيش التحرير" مصطفى كامل المرزوقي عندما يذكّره بـــ "أنّ ثورتنا ليست حربا نظامية يقوم بها جيش يتكاثر عدده كل يوم بل هي عبارة عن حرب عصابات لا يفيدها كثرة الرّجال وإنما تفيدها قلة من المخلصين المؤمنين (...) وأمّا طريقة الكفاح المنتج فلا تكون إلاّ بتقسيم الجيش إلى عصابات قليلة العدد يعيّن على رأس كلّ منها مسؤول من طرف القائد فتنتشر هذه العصابات في النواحي التي هي قريبة من مركز القيادة ثم تتولى هذه العصابات كلّ أنواع العمل التي تخل بالأمن وتضع كمائن لدوريات الجيش الفرنسي أو

([34]) راجع شهادته بـــ "**جيش التحرير المغاربي**" م.م. ص.ص. 174-177.

([35]) حسب إفادة العجمي المدوّر عند محاكمته بـــ : **كتاب أبيض**...م.م. ص. 44.

([36]) هذا ما نستشفه من رسالة صالح بن يوسف لحسن شندول في 6 سبتمبر 1956، م س، ص 96.

([37]) في رسالة بن يوسف لـــ "الاخوان أعضاء اللجنة" القيادة اليوسفية بتونس. بتاريخ 17 سبتمبر 1956، نفس المصدر، ص. 70.

([38]) مذكّرة استخبارية من معتمد المفوّضية السامية بتطاوين بتاريخ 5 ماي 1956 (SHAT, 2H 314. n.f.)

تهاجم مراكز تلك الدوريات على حين غفلة فتغنم منها السلاح والمؤن والذخيرة وترجع إلى مراكز القيادة محاولة دائما وأبدا اجتناب المعارك التي لها صورة معارك واجهات كما أنّ هاته العصابات تقصد الفرنسيين أينما وجدوا فتدمر ممتلكاتهم وتقضي عليهم" ([39]).

لكن السؤال الذي يطرح كيف لرجل سياسي طيلة حياته ولم يتلق -حتى فراره على الأقل من تونس في جانفي 1956- تكوينا عسكريا أن يتحوّل إلى "جنرال" يضع الخطط الحربية ؟ أاستدرك صالح بن يوسف الأمر ليدرس خطط الحروب الثورية للفيتناميين أو الصينيين ؟ أم استفاد من خبرات عسكريين مصريين مثلا أو أجانب ؟ على كلّ الجنرال بايف (Baillif) القائد العام للجيوش الفرنسية بتونس في مذكّرة له بتاريخ 31 مارس 1956، أي بعد معارك جبال الحوايا، يرجّح أنّ صالح بن يوسف كان يستفيد من خدمات 6 أو 7 ليجيونار ألمان فرّوا من الهند الصينية ويدربون عناصره على المفرقعات ورمي القنابل وتوزيع الذخيرة ([40]). وربّما أيضا استفاد من رفاقه الجزائريين الذين كان في اتصال معهم في طرابلس والقاهرة وكذلك في تونس.

على كلّ تفيد مراسلات عسكرية مختلفة تخصّ الفترة المدروسة إنه ليس فقط كانت هنالك "عصابات" مقاومة مشتركة، أي بعناصر تونسية وأخرى جزائرية، بل هنالك محاولات ومفاهمات للتنسيق بين مقاومي البلدين. فمن جملة الوثائق التي عثر عليها الجيش الفرنسي مثلا إثر معركة البليجي جهة قفصة في 11 جانفي 1956 رسالة بعثها الطاهر الأسود بتاريخ 25 ديسمبر 1955 للمقاومين الجزائريين يذكّرهم فيها بوحدة النضال ووحدة المصير وواجب الدين والوطن ويطالبهم بالاقتراب من الحدود التونسية ليحصل التلاقي مع المقاومين التونسيين ليلتحم بهم هؤلاء حتى يتمّ تثوير بقية الشعب لمقاومة نظام الاتفاقيات ويحذّرهم من أتباع بورقيبة ومن يصفهم "بالخونة" شأن "الساسي الأسود من الحامة" أو "محمّد لعتر من الصمباط" ويعطيهم كلمة السر لقبول تونسيين متطوّعين في صفوفهم وهي "قنطرة قسنطينة وواد سوق أهراس" ([41]).

([39]) رسالة صالح بن يوسف بتاريخ 10 جويلية 1956 **بالكتاب الأبيض**... م.م. ص. 85.

([40]) مذكّرة الجنرال بايّف بأرشيف الجيش الفرنسي. (SHAT. S. 507; 2H Tunisie, C. 2H 314).

([41]) الرّسالة مترجمة من العربيّة بأرشيف الجيش الفرنسي . (SHAT. S. 507, Tunisie 2H. C2H 314, D1)

وقد توصّلت قيادة الجيش الفرنسي اعتمادا على المعلومات التي جمعتها خاصة من أسرى المعارك التي خاضتها ضدّ وحدات المقاومين بجهة قفصة في النصف الأول لشهر جانفي 1956 إلى أنّ اتفاقا حصل بين "الأمانة العامة" وجبهة التحرير الجزائرية مفاده :

1- عبد الحي (أحد قادة جيش التحرير الجزائري) له السلطة ومهمّة الاتصال مع القيادة العليا والتنسيق معها.

2- ضرورة التدخل الكثيف للجزائريين بتونس.

3- لا يتّصل المقاومون الجزائريون إلا بشعب "الأمانة العامة" لتلقي المعلومات والإعانة.

4- فقط المتطوعون الذين يعتمدهم الطاهر الأسود يمكن إدماجهم في الوحدات الجزائرية.

5- العصابات المشتركة يجب أن تكون تحت قيادة جزائرية.

6- الإعانة والدعم يضمنه اليوسفيون لتسريب السّلاح.

7- اليوسفيون يكوّنون بدورهم فرقهم المسلّحة والتنظيم السياسي العسكري يكون مماثلا لتنظيم الجزائريين.

8- العصابات الجزائرية بتونس يمكن أن توفّر السلاح والذخيرة لليوسفيين.

9- الجزائريون يلتزمون بتقديم الإعانة المالية للقيام بالعمليات المشتركة.

10- يجب إشعار الجزائريين عندما يدخل اليوسفيون في التمرّد الشامل ([42]).

ويبدو أنّ هذه التفاهمات سار عليها الطرفان في تنسيق وتعاون حتّى تمكّنت حكومة الاستقلال من السيطرة على الوضع الأمني وإضعاف المقاومة اليوسفية بعد صائفة 1956 وسحبت الغطاء من تحت أقدام اليوسفيين حيث أمضت اتفاقيات مع القادة الجزائريين لتتكفّل السلط الرسمية التونسية هي ذاتها بتحويل السلاح لمقاومي الجزائر وتقديم الدعم اللوجستي والمادي الضروري لذلك ([43]).

([42]) تقرير الجنرال بانيف لشهر جانفي 1956 بأرشيف الجيش الفرنسي، (SHAT, S. 507, Tunisie 2H 314, n.f.)

([43]) انظر تفاصيل هذا الدّعم في فصلي: "جيش التحرير الوطني الجزائري بتونس" و"بورقيبة ومحمد الخامس والقضية الجزائريّة".

تبقى نقطة تاريخية للتوضيح في ما يخصّ عدد المقاومين اليوسفيين الذين انخرطوا في ما يسمونه "الثورة الثانية" ونحن إزاء المتوفر حاليا من مصادر لن نستطيع أن نقدّم إلاّ تقديرات فحسب لأن المخابرات العسكرية في حدّ ذاتها كانت تعطي تقديراتها في صيغة تقريبية ثم أن عصابات اليوسفيين كانت تتشكل وتنحلّ ولاحظنا انّ عناصر يوسفية التحقت بالمقاومة في شهر ماي 1956 في الوقت الذي كانت فيه عناصر أخرى تستسلم للسلط التونسية ثم أنّ هذه العصابات كانت خاصة في جهة الظهرية وجهة قفصة مختلطة بين تونسيين وجزائريين. ثم لئن تقدّم جلّ مقاومو "الثورة الأولى" أي فترة 1952-ديسمبر 1954 لتسلّم بطاقات الأمان وبالتالي وقع احصاؤهم فإنّ مقاومي "الثورة الثانية" كانوا عرضة للتتبّعات من الجيش الفرنسي ومن السلط التونسية "كمتمرّدين" أو "مجرمين" فلا غرو إن لم يحصوا أو لم يدرجوا في قوائم المقاومين ولم يعدّ موتاهم كشهداء الوطن وربّما أخفى الكثير منهم انتسابه لليوسفية كخطيئة إن لم تجلب العقاب تجلب العار.

على كلّ تقدّر الاستعلامات العسكرية الفرنسية أنّ عدد اليوسفيين الثائرين بالسلاح تطوّر كالتالي بين فيفري وماي 1956 : منتصف فيفري : 759 مقاوم، 24 أفريل : 770، 29 ماي : 1400 ([44]). ويتوزّع المقاومون اليوسفيون في أواخر ماي كالتالي : 400 بالجنوب الشرقي (بني خداش وظاهر شنني تطاوين) والبقية بالجنوب الغربي بجبال شط الجريد وقفصة والحدود مع الجزائر. هذا الرّقم عندما نظيف إليه عدد الذين قتلوا من اليوسفيين في معارك قبل موفى ماي 1956 أي حوالي 350 شخص نتحصّل على عدد 1750 تقريبا من الرجال الذين حاربوا تحت راية اليوسفية.

III- معارك الجنوب : أضواء وحصيلة أولية

1- مقاومو اليوسفية في الجنوب : من هم ؟

في الواقع مصادرنا الحالية لا تسمح لنا بتقديم صورة دقيقة على مقاومي اليوسفية في الجنوب لكن لدينا من المعطيات المصدرية التي تمكّننا في تقديرنا أن نقدّم مؤشرات دالة على أصولهم الجغرافية والقبلية ومنبتهم الاجتماعي وأوضاعهم العائلية وفي الواقع لا

([44]) هذه الإحصائيات استقيناها من مختلف التقارير والمذكّرات النصف شهريّة للجيش الفرنسي حول الحالة الأمنيّة والاصطدامات مع "المتمرّدين" ضمن أرشيف الجيش الفرنسي: (SHAT., Tunisie 2H ; cartons : 2 H 57, 2H 131, 2H136, 2H 236, 2H 237, 2H 310, 2H 311, 2H 312, 2H 314.

يختلف مقاومو "الثورة الثانية" عن مقاومي "الثورة الأولى" من حيث انتمائهم لذاك الوسط الريفي في أغلبهم إذ كانوا جلّهم من "الفلاحين" أو من لهم علاقة بالأرض كالرّعاة والعملة اليوميين أو تجار صغار بسطاء. ولنا عيّنات دالة من هؤلاء المقاومين في ثنايا وثائق الجيش الفرنسي من ذلك قائمة إسمية لثلاث وعشرين مقاوم وقع أسرهم في معركة أم الكرم (20 مارس 1956) في جبال بني خداش نجد من ضمنهم 13 فلاحا و5 عمال يوميين و2 طلبة بالفرع الزيتوني و1 راعي و1 تاجر و1 بدون مهنة ([45]) وفي قائمة أخرى لخمسة عشرة مقاوم شاركوا في معركة شعبة مسلّم على الحدود مع ليبيا (5 أفريل 1956) ووقع أسر 13 منهم واستشهد إثنان نجد على الخمسة عشرة 5 رعاة، 4 فلاحين، 3 عمّال يوميين، 1 تاجر متجول، 1 نحّاس، 1 طالب زيتوني ([46]). وهي لعمري عيّنات دالة على المقلع الشعبي لمقاومي اليوسفية توافقا مع طبيعة المجتمع والاقتصاد المميّزين للجهة.

أمّا من حيث أعمار المقاومين فلنا عيّنة أخرى بـــ 172 اسم مقاوم من الودارنة ([47]) خرجوا في أفريل 1956 للمقاومة نجد صغيرهم عمره 20 سنة وكبيرهم 50 سنة أي بمعدّل 35 سنة أي أنّ ثوّار سنة 1956 كانوا من الشباب والكهول ككلّ ثوار الجبال تقريبا.

وفي ما يخصّ الوضع العائلي فعلى 13 أسير توازين في معركة شعبة مسلّم الذين سبق ذكرهم نجد 8 منهم متزوّجين ولهم أولاد، 4 عزّاب و1 أرمل وهي عيّنة كذلك دالة على "روح التضحية" لدى هؤلاء المقاومين لأنه ليس من الهيّن أن يعرّض الإنسان حياته لخطر الموت ويترك عائلة بدون عائل إذا كانت لا تحمله "روح الشهادة" من أجل الدين والوطن كما كان يتردّد على ألسنة المقاومين هؤلاء.

([45]) تقرير أمني بتاريخ 29 مارس 1956 من مركز الأمن بقابس. (SHAT, Tunisie 2H., C. 2H 314, n.f.)

([46]) تقرير ضابط شرطة بتاريخ 18 أفريل 1956 من قابس. (SHAT, Tunisie, C. 2H 314. n.f.)

([47]) تفصيلهم كالتالي: مشيخة ذهبية (40)، مشيخة الزّرقان (20)، مشيخة رمادة (16)، مشيخة الحمارنة (5)، مشيخة الحمايديّة (3)، مشيخة جليدات تطاوين (18)، مشيخة جليدات بن بلال (3) مشيخة الكراشوة (14)، غمراسن الحدادة (4)، العباسية 1)، غمراسن البلاد (8)، مشيخة أولاد شهيدة (40)، في أرشيف الجيش الفرنسي (SHAT. 2H314 n.f.)

أما من حيث أصولهم الجغرافية فإنه من النّادر أن تجد مقاومين في منطقة ما من خارج "وطنهم" فيمكن أن تجد مقاومين من نفزاوة مثلا في جبال مطماطة أو في الجريد أو كذلك مقاومين عكّارة على الحدود مع الجزائر أو مقاومين من بني زيد بجبال بني خداش لكن يصعب أن نعثر على ثوّار ماجر أو فراشيش أو أولاد عون أو همامة في جبال مطماطة مثلا. فكلّ العروش تقريبا التزمت في مسارها المحارب بمجالها الجغرافي لذلك فإنّ ثوار الجنوب كانوا أساسا من الجنوب هذا إذا استثنينا "مجاهدي" جبهة التحرير الجزائرية الذين كانوا يتحرّكون من جبال قفصة والجريد جنوبا حتى جبال غار الدماء شمالا.

وبصورة عامة كان غالبية مقاومي اليوسفية في الجنوب من الجنوب الشرقي بالذات ولنا وثيقة تقديرية للثوار المتمركزين بجبال الظاهر ومطماطة في تاريخ 19 سبتمبر 1956 تفصّل انتماءهم العروشي والجهوي كالتالي :

توزيع ثوار الجنوب الشرقي في 19 مارس 1956 ([48])

القبيلة	المركز الإداري	العدد
ودارنة وعروش مختلفة	تطاوين وغمراسن	181
حوايا	بني خداش	50
مطماطة	مطماطة	01
نفزاوة	قبلي	55
مرازيق	قبلي	25
توازين	بن قردان	50
موانسة	جرجيس	13
مدنين	مدنين	70
المجموع		445

أمّا ثوار جبال قفصة والجريد الذين كانوا ينشطون مع المقاومين الجزائريين فهم من أصول مختلفة منهم من نفزاوة والجريد وبني زيد وأولاد سيدي عبيد وخاصة همّامة. ويقدّر معتمد المفوّض السامي الفرنسي بسيدي بوزيد في تقرير له بتاريخ 23 فيفري

([48]) لوحة من إنجاز فرقة الجنوب للجيش الفرنسي بتاريخ 20 مارس (SHAT, Tunisie 2H, C. 2H 314, D1, n.f.)

1956 أنّ عدد الثوار من الهمامة الملتحقين بالمقاومة اليوسفية يتراوح بين 200 و250 رجل([49]) خاصة من أولاد مبارك وأولاد الحاج وأولاد بو عمران... وراء قادة شأن حسين بن عبد الحفيظ الحاجي وعمّار بني وعلي درغل وعبد الله البوعمراني والأزهر بن عثمان والهادي الشبل ومحمّد بن خليفة بالحاج عمّار والعربي الصامت. هؤلاء القادة وغيرهم سوف يقودون معارك الجنوب ([50]).

قادة المقاومة اليوسفية بالجنوب التونسي ([51])

- الطاهر الأسود (بني زيد)	- يانس بن صالح بن يانس (بني زيد)
- محمّد مبروك قرفة (أولاد مهدي)	- الساسي بن الهادف (الحزم)
- محمّد بن موسى الباروني	- حسين بن عبد الحفيظ الحاجي (أولاد الحاج)
- عبد العزيز الأمين (مدنين)	- عمّار بني (همّامي)
- مصباح شلّوف (عكّارة)	- مصباح بن النيفر (بلاد الطلح، المزّونة)
- علي بن عمّار	- علي درغل (أولاد نصر. أم العرائس)
- ميلود الحويوي	- عبد الله بن الشيخ عمّار البوعمراني (بوعمران
- محمّد بن ضو البوعبيدي (البوبكري)	- العربي الصامت (همّامي)
- الحاج عمّار بن ضوّ القنودي	- محمّد بعبع (أولاد يحيى)
- المبروك بن مسعود البكوش	- تركي بن عبد الرحمان (أولاد سيدي عبيد)
- محمّد بن عمر بن يحيى بن مذكور	- عبد الجليل الزيدي (أولاد زيد)
- عمر بن محمّد البوبكري	- الأزهر بن عثمان (همامي)
- بو شهيوة بن سعيد (ربابعية عوين)	
- المبروك بن الشيخ الذهبي	
- علي بن عمّار بن عون (المهادّة)	

([49]) تقرير المعتمد بأرشيف الجيش الفرنسي . م.س.

([50]) انظر قائمة قادة المقاومين اليوسفيّين.

([51]) من خلال تقارير الجيش الفرنسي حول المقاومة اليوسفيّة بـ (SHAT., Tunisie 2H, C. 2H314)

- غرس الله بن أحمد (المهادّة)	- محمد الشتوي (الشتاوة)
- مرعي بن سعيد بن حسين (أولاد قاسم)	- الهادي بن الشبل
- ناصر بن مسعود الوصيف (جليدات)	- الطاهر بن لخضر الغريبي (غريب نفطة)
- أحمد بن عبد الله الأزرق (جليدات)	- عبد الحميد بن عبد الله بن سعد (أولاد خليفة)
- علي بن أحمد المهداوي	- أحمد بن نصر المباركي (أولاد مبارك)
- الصادق بن الكامل بن عبد الرحيم (جليدات)	- الزين لسود العبيدي
- العجمي المدوّر (الزرقان)	- علي الصيد (مرزوقي)
- أحمد ضو مطيمط (الموانسة)	- العربي بن العربي بن امحمّد (مرزوقي)
- مصباح شفطر (الموانسة)	- أحمد بن عمر (مرزوقي)
- المبروك بوذينة (مدنين)	- أحمد بن حامد (مرزوقي)
- الهادي قدورة(مرزوقي)	- بوبكر لرقش (مرزوقي)
- محمد بن أحمد بن عمّار محجوب (يزيدي)	- المبروك بن محمد بن عبد النبي (صابري)
- الهادي لسود (يزيدي)	
- محمود بن حسونة (يزيدي)	
- الطاهر دبّش (يزيدي)	

أهمّ معارك المقاومة اليوسفية في الجنوب (1956-1957) ([52])

المعركة	التاريخ	القيادة	عدد المشاركين	عدد القتلى	عدد الأسرى
معركة خنقة الثالجة	1956/1/3			3	
معارك جبال قفصة	56/9/30-15	الشيخ صالح (جزائري)	130	44	32
معركة البليجي	1956/1/21	الشيخ صالح	38	22	9
معركة جبل الناضور	1956/1/25				

([52]) ن.م.

معركة جبل طريش	1956/3/14	عبد الله بن الشيخ البوعمراني		1	5
معركة جبل مقر	1956/3/20	البشير الحويوي	110	16	23
معركة أم العظم	1956/3/21	محمد بن موسى الباروني			23
معارك جهة قفصة	1956/3/21				4
معارك مطماطة ومدنين	56/3/31-26	عديد القادة		114	
معركة جبل المرة الاولى	1956/3/31	الطالب العربي			2
معركة شعبة مسلّم	1956/4/5	مبروك البكوش الذهيبي	46	2	13
معارك جبل الزيتونة وطريش	1956/4/14	عبد الله البوعمراني	150		
معركة جبل المرة الثانية	1956/4/14				
معركة غار الجاني	1956/3/16	عمر بن محمد البوبكري الجويوي	بين 80 و100		
معركة عين الزارات	1956/4/28	العجمي المدوّر	70	1	
معركة جبل بورملي	1956/5/5			3	
معركة جبال شط الفجيج	1956/5/10			18	
معركة جبل عرباط	1956/5/10	عبد الله البوعمراني	50	18	1
معركة زمالة الدوارية	1956/5/16				
معركة بجبال شط الجريد	1956/5/18	عديد القادة		53	
معركة جبل سمامة	1956/5/23	محمود بن حسونة ومحمد بن الطاهر	-300 400	21	
معركة قصر أولاد دباب	1956/5/24				
معركة جبل مغيلة	1956/5/26	الهادي لسود وحسين بن عبد الحفيظ			
معارك شنني تطاوين	-29 1956/5/30	أحمد بن عبد الله لزرق	275	73	15
معركة دخان البطّوم	1956/6/11		11	1	
معركة جبل السطح	1957/6/14				
معركة جبل السايخة	1957/6/14				
معارك مع الطالب العربي	1957/6/19				
			المجموع	390	

2- معارك الجنوب : من الصمود إلى الاستسلام :

في الوقاع إنّ ما لدينا حاليا حول أحداث المقاومة تحت راية اليوسفية هي أساسا التقارير العسكرية ذات الطابع التأليفي (Renseignements de synthèse) حتّى وإن عثرنا على وثائق تفصيلية كاستنطاق بعض أسرى المعارك التي دارت رحاها بالجنوب فهي في تقديرنا غير كافية حتّى الإفراج الكلّي على وثائق تلك الفترة (1955-1957) من الجانب الفرنسي ومن الجانب التونسي. كما أنّ شهادات بعض المقاومين التي جمعها عمار السّوفي ([53]) في اعتقادنا لا تفي بالغرض رغم فائدتها. لذلك فإنّ النتائج البحثيّة التي سنقف عليها تبقى حصيلة وقتية.

على كلّ -كما أسلفنا الذّكر- كان الجنوب التونسي مسرحا فعليّا لاشتباكات عسكرية بين المقاومين اليوسفيين وحلفائهم من "مجاهدي" الجزائر منذ أوائل جانفي 1956 حتّى صائفة هذه السنة تراوحت من اشتباكات بسيطة (accrochages) إلى كمائن ومعارك حقيقية خاصة في أشهر مارس-أفريل- ماي- جوان وجنّدت لها فرنسا قوّات كبيرة استنفرتها من كامل البلاد (كان هنالك 56 ألف عسكريٍ بتّونس سنة 1956) وشاركت فيها قوات المدفعية والطائرات من ذلك انه في النصف الأول من شهر مارس 1956 لوحده قام الطيران العسكري الفرنسي بـــ 445 طلعة استكشافية أو إغارية على مواقع الثوّار بجهة نفزاوة والجنوب الشرقي ([54]) إضافة طبعا لتدخّل الجيش القوي بجبال قفصة وشط الجريد وجبال العسكر ونقف هنا على أهمّ تلك المعارك :

- **معارك جبال قفصة وشط الجريد** : جدّت معارك قوية بين 14 مارس و7 أفريل بين الجيش الفرنسي والمقاومين التونسيين والجزائريين بجبال الطّريش والزيتونة والمرّة وكان "الثوّار" تحت قيادة عبد الله بن الشيخ عمّار البوعمراني وتحت إمرته 7 رؤساء فرق

([53]) عمّار السّوفي، **بني خداش وجيرانها عبر الحركات النّضالية (من الحركة التمرّديّة إلى المقاومة اليوسفيّة)**، صلامبو، مطبعة الياسمنيّة، 2001. و**عواصف الاستقلال، رؤية في الخلاف اليوسفي البورقيبي**، صلامبو، مطبعة الياسمنية، 2006. مع الملاحظ إنّ المؤلّف – رغم جهده- فإنّ كتابيه يشوبهما التحيّز الواضح للشق اليوسفي وتنقصهما مهنيّة المؤرّخ.

([54]) في تقرير الجنرال قيبون قائد جيش الجنوب لشهر مارس 1956. (SHAT, Tunisie 2H, C. 2H 314) وتفصيلها 181 على تطاوين وغمراسن و50 على بني خداش و1 على مطماطة و75 على نفزاوة و50 على بنقردان و13 على جرجيس و70 على مدنين.

(55) كلّ فرقة قوامها ما بين 25 و40 رجل، أي ما يقدّره الجيش الفرنسي بـ 175 إلى 280 مقاوم يتكوّن عتادهم من 3 مدافع رشاشة وبين 120 و200 بندقية (56) ويقدّر الجيش الفرنسي عدد القتلى في صفّ المقاومين في هذه المعارك بـ 45 قتيل (57). وأفاد القائد عبد الله البوعمراني قائد معركة جبل طريش (14 مارس) أنه كان يعتمد على منظمة سرية بقبلي تزوّده بالسّلاح والمؤونة (58) إضافة لدعم الجزائريين.

ودائما في إطار ملاحقة ثوّار اليوسفية وقعت معارك عدّة في أفريل وماي 1956 خاصة مع الجيش الفرنسي أهمّها معركة جبل بورملي (5 ماي) ومعركة جبل عرباط (10-12 ماي) وحصيلتها حسب السّلط الفرنسية 18 قتيلا من الثوار وقتيلين من الفرنسيين وتعطّب طائرة، معارك شمال شط الفجيج (10 ماي) ومعركة جبل مغيلة (26 ماي) وحسب برقية من الجنرال الفرنسي قائد فرقة الجنوب بتاريخ 5 جوان كانت حصيلة العمليات التي دارت بالجنوب الغربي بين 29 ماي و5 جوان 1956 كالتالي : 112 قتيلا في صف الثوار و68 أسيرا منهم وغنم 118 قطعة سلاح منها 5 رشاشات (59). وتواصلت المصادمات مع فلول المقاومين الذين لم يستسلموا في شهر ماي حيث حصلت مصادمات عسكرية في معركة دخّان البطوم (جنوب جبل عليمة) يوم 11 جوان ويوم 14 جوان في جبل السّطح وأخرى في جبل السايخة وكانت عصابات مختلفة طرفا فيها شأن عصابات القادة : محمود بن حسونة ولزهر بن عثمان وعلي بن معمّر بن أحمد ومحمّد مصباح النيفر وأحمد بن نصر...

---

(55) وهم العربي الصامت ومحمد بعبع وتركي عبد الرّحمان وعبد الجليل الزيدي ومحمّد الشتوي (جزائري). في تقرير العقيد هوسّان بتاريخ 5 أفريل 1956. (SHAT., 2H 314. C. 2H 314, n.f., 9 R du colonel Houssin, comandant le secteur du Gafsa)

(56) خلاصة استعلامية للفترة ما بين 10 و25 أفريل 1956 من فعل الجنرال قيبون قائد فرقة الجنوب (S. 505, 2H 312, D1, ff. 387-390)

(57) ن.م.

(58) هذه الشبكة مكوّنة من رئيس وهو عبد الرّحمان بوزيّان (نقة)، محمّد بن سعّد (رئيس الشعبة اليوسفيّة ببو عبد الله)، عبد الله بن حمّودة بوعبد الله)، أحمد بن بلقاسم الصليعي (القطاعية)، علي بن بلقاسم الصليعي(القطعاية) عمر بن سعيد شنيبة(نقّة)، نصر بن الحاج بشير(دوز) ومن السّقي عمر بن محمّد الكدس والطيّب بن سالم من المضيلة (تقرير العقيد هوسّان 1956/5/12 (2H 314, op.cit)

(59) برقية الجنرال قيّبون بتاريخ 1956/6/5 بأرشيف الجيش الفرنسي (SHAT. S. 507, 2H 314, n.f.)

- معارك الجنوب الشرقي:

في الوقت الذي كان الجيش الفرنسي يتصادم مع اليوسفيين وحلفائهم من الجزائريين في الجنوب الغربي كانت مصادمات أخرى أشدّ عنفا وأوسع من حيث عدد الثوار والقوات الفرنسية المعادية لهم تجدّ بالجنوب الشرقي ويبدو أنّ مركز الثقل "لجيش التحرير الوطني" كان في هذا الجزء الجبلي من الجنوب الصحراوي لاعتبارات عدّة كنّا ذكرناها في بداية هذا الفصل أهمّها قرب هذه المنطقة من مصدر التّمويل بالسّلاح ومن مركز القيادة بطرابلس وسريان "التمرّد" بين عروش المنطقة وتصميم القيادة اليوسفية على إشعال الثورة من هذا "الإقليم القاعدة" لتسري لدى الجهات الأخرى ويكون الجنوب الشرقي ذراع ربط مع مقاومي الجزائر في الأوراس وبلاد سوف.

وقد اجتمع في بداية مارس 1956 ما يقارب 400 مقاوم متطوّعون في صفوف جيش التحرير الوطني في بني خداش من جبال الظاهر التونسي (60) وفي قائمة تفصيلية – أوردناها سابقا– تحصى القوات الفرنسية عدد الذين التحقوا بصف هذا الجيش 445 رجل من مختلف عروش الجنوب الشرقي خاصة من الودارنة والحوايا ومدنين والتوازين وعكّارة ومطماطة وكذلك من نفزاوة. وقد تدخّلت في مختلف المعارك ضدّ الثوار قوّات فرنسية كبيرة جنّدت من كامل جهات البلاد واستعملت فيها الدبّابات وحتى الطائرات وأقرّت القيادة العسكرية الفرنسية بقدرات المقاتلين التونسيين في المناورة وجدّية تدريباتهم وحداثة تسليحهم وهو إقرار بحسن التدريبات التي لقيها المتطوّعون بمختلف المراكز بليبيا خاصة إضافة للذين تكوّنوا بثكنة كبري القبة بالقاهرة وهو ما اعترف به عديد الأسرى في استنطاقهم (61) أو من قدماء المقاومين أو الذين خدموا بالجيش الفرنسي سابقا.

ويذكر أسرى معركة جبل مقر (20 مارس) أنّ العناصر التي كانت محرّكة للتجنيد والتطوّع هم محمّد بن موسى الباروني والكيلاني بن محمّد مقلية وعبد العزيز بن المختار بن الحاج عون ومصباح شلّوف والبشير قرفال وعلي بن عمّار والطاهر بوسعيدة (62).

---

(60) الجنرال قيبون في تقريره بتاريخ 28 مارس 1956 يقدّر عددهم ما بين 500 و700 مقاتل (S. 505, SHAT. 2H, C. 2H312, D1. f. 387

(61) راجع مثلا اعترافات 13 مقاوم أسرّوا إثر معركة شعبة مسلّم على الحدود مع ليبيا (5 أفريل 1956) بمذكّرة استعلامية بتاريخ 18 افريل 1956: (N.R du 18/4/1956 in SHAT, S. 507- 2H, 2H314)

(62) تقرير أمني بتاريخ 29 مارس 1956 (قابس): (SHAT, 2H 314, n.f.)

وكانت الأوامر تأتي من القيادة العليا المتمثلة في صالح بن يوسف وعبد العزيز شوشان والقادة الميدانيين سعيد فرشينة، الطاهر المهداوي، غرس الله بن أحمد المحضاوي، بالك الناصر (العاشق)... ([63]).

وكانت أهمّ المعارك تلك التي دارت في ظهير بني خداش ومطماطة في شهر مارس وأفريل وهي : معركة اخشيم الكلب (03/11)، معركة العشرات (03/13)، معركة مورو (03/15)، معركة غار الجاني (03/16)، معركة مقر ومسالخ، أمنيط، أنكيم (03/17)، معركة سيدي أسطوط (03/18)، معركة أم الكرم (03/20)، معارك جبال مطماطة ومدنين (26-31 مارس)... ([64]) وقد كان تدخّل الجيش الفرنسي وخاصة الطيران قاسيا لوحدات المقاتلين فسقط ضحايا كثيرون وتشتّت المقاومون ليكون النزال الفاصل بين الثوّار والقوات الفرنسية ومساعديها من التونسيين من لجان الرعاية وقوات المخزن الإضافي والصبايحية في جبال تطاوين ومدنين خاصة بعد فشل الحكومة التونسية في إقناع جلّ متمرّدي "جبال الحوايا ومطماطة" بالاستسلام في أول ماي 1956 وإصرارها على وضع حدّ للتمرّد وإلحاحها على الجانب الفرنسي أن يتدخّل ضدّ "المتمرّدين" بالقوة اللاّزمة([65]).

وكانت آخر "المعارك اليوسفية" الكبرى دارت في جبال شننّي تطاوين يوم 29 ماي 1956 وجنّدت القيادة العسكرية الفرنسية 3 كتائب وفرقة مدفعية وكوكبة من الدبابات وسرب من الطائرات مع مشاركة عناصر تونسية([66]) وقد استمرّت المعركة مع 300 مقاوم تقريبا حتى خيّم الظلام. وأسفر القتال حسب الجيش الفرنسي على قتل 73 من الثوّار منهم القائد أحمد بن عبد الله بن أحمد لزرق وأسرّ 15 منهم على رأسهم القائد الهاشمي بن محمّد المدوّر ([67]).

([63]) راجع قائمة قادة المقاومة اليوسفيّة الملحقة بالنّص هذا.

([64]) تختلف تواريخ هذه المعارك في تقارير الجيش الفرنسي عمّا أورده عمّار السّوفي اعتمادا على شهادات مقاومين شاركوا في هذه الأحداث، راجع: السّوفي عمّار، عواصف الاستقلال... ص 187-188.

([65]) برقية الجنرال قيبون بتاريخ 30 ماي 1956 (Télég. Du général Guillebon du 30/5/1956, S. 507, SHAT. 2 H 314)

([66]) برقية الجنرال قيبون بتاريخ 30 ماي 1956، م.س.

([67]) خلاصة شهر ماي 1956 من إمضاء القائد العام للجيوش الفرنسية بتونس الجرنال بيّيف.

وقد تواصلت بعد هذه العملية الكبرى مصادمات متفرّقة مع العناصر الرّافضة للاستسلام شأن القائد محمّد قرفة ومن معه والعناصر الأخرى التي التحقت بثوّار جبال الجريد والرديّف أو الذين تراجعوا نحو طرابلس.

لكن رغم الفشل العسكري "لثورة الجنوب" (مارس-ماي 1956) والتي يعتبر صالح بن يوسف إنّ هزيمة "جيشه" فيها هو من أخطاء الماضي في تسييرها لأنها اندلعت دون تحرّك المناطق الأخرى ([68]) ووضع مسؤوليتها على قائده الميداني الطاهر الأسود[69] وكذلك على بعض عناصر جيشه الذين "لا إيمان لهم سوى الطمع والانتماء للقبيلة الفلانية أو اللّحمة الفلانية" ([70]) حسب قوله، فقد أصرّ صالح بن يوسف على مواصلة "المقاومة" معتبرا رجاله الذين استسلموا للسلط التونسية "خونة ومجرمون" ([71]) وقرّر "ألاّ يقع الشروع في كفاح جديد إلاّ بعد أن تتكوّن عصابات في غالب جهات المملكة وبعد أن تسلّح هذه العصابات وعندئذ يمكن القيام بعمل جماعي مفاجئ حسب الخطة التي قررتها مع الطاهر بالحاج لخضر" ([72]). وفعلا أصبح على ما يبدو، وبعد استسلام جلّ "قادة المقاومة" اليوسفية أو القبض عليهم، القائد الطاهر بالحاج لخضر الغريبي (من غريب نفطة) وهو مقاوم منذ "الثورة الأولى" وبتكليف من صالح بن يوسف، حامل لواء "حرب التحرير" في تحالف مع العناصر الجزائرية المرابطة بالحدود الجنوبية مع الجزائر وخاصة في جهة الرّديف وجبال الجريد حول القائد الجزائري الطالب العربي ([73]). حيث استمرّت

S.R. du mois de mai 1956, signé le général Baillif, Commandant supérieur des troupes de Tunisie, SHAT, T. 2H, C. 2H 312, D1, f469.

([68]) رسالة صالح بن يوسف في 5 نوفمبر 1956 إلى "الإخوة أعضاء اللّجنة المسؤولة" **بالكتاب الأبيض**، م.م. ص. 51.

([69]) حسب تقرير معتمد المندوب السامي بتطاوين أنّه بعد معارك مارس 1956 قابل الطّاهر الأسود صالح بن يوسف فقرّعه هذا الأخير لسوء إدارته لمعارك جبال الحوايا وحشده لعدد كبير من المقاومين في مكان محدود مما أدى للخسائر الكبيرة، فرد الطاهر لسود عليه أن ينظر لحاله وهو يعيش حياة البذخ بينما ينقص الثوّار المال والغذاء (R. du 13/4/1956, SHAT. C. 2H 314)

([70]) رسالة بن يوسف بتاريخ 17 سبتمبر 1956، م.م.

([71]) رسالة صالح بن يوسف إلى مصطفى كامل المرزوقي في 1956/7/10، م.م. ص. 82.

([72]) رسالة 5 نوفمبر 1956 لصالح بن يوسف، م.م. ص. 55.

([73]) حول هذه الوحدات الجزائرية انظر مقال : "جيش التحرير الوطني الجزائري بتونس" ضمن هذا الكتاب.

المناوشات مع العناصر اليوسفية الرّافضة للاستسلام في عدّة نقاط من الجنوب وفي تواصل مع الحضور العسكري الجزائري بجهة القصرين والجبال الحدودية الشمالية. من ذلك إنه في جهة قفصة لوحدها وفي ظرف شهر فقط من 26 نوفمبر إلى 26 ديسمبر 1956 قام الجيش الفرنسي بخمسة عشرة عملية عسكرية هامّة ضدّ الثوار (74). وتفيد التقارير العسكرية أنّ أعمالا مشابهة جدّت كذلك سنة 1957 في إطار شلّ وحدات جيش التحرير الجزائري وأنصاره من التونسيين خاصة في جهدهم لتسريب السّلاح نحو الجزائر والقادم من طرابلس.

على كلّ استغلّت السلط التونسية صائفة 1957 الخلاف الذي جدّ في القيادة الجزائرية بين جيش التحرير وجبهة التحرير الوطني لتقضي على "بؤرة التمرّد" بالجنوب المنجمي والجريد حول الطالب العربي والقائد الطاهر بن لخضر الغريبي حيث وقع تتبّع الطالب العربي في حوالي 200 من أنصاره من التونسيين والجزائريين حتى جبال بني خداش حيث استسلم بعد مشادات مع الجيش التونسي والجيش الفرنسي في المكان المعروف بطابق الغول في 175 من رجاله يوم 19 جوان 1957 (75) وفي الأيام اللاحقة ألقي القبض على التونسيين الفارّين (76) وتمّت محاكمة هؤلاء في أوت-أكتوبر 1959 حيث أصدرت المحكمة في حقّ 123 متهما أحكاما قاسية منها 15 حكما بالإعدام من بينها 8 حضوريا من ضمنهم الطالب العربي أمّا الطاهر بن لخضر الغريبي فقد تمكّن من اللّجوء إلى ليبيا (77). وهكذا أمام الضربات الشديدة للجيش الفرنسي وحلفائه ونقص التنظيم والتنسيق لدى العصابات اليوسفية وتضييق الخناق عليها بقطع الإمدادات ومراقبة السكان وكلّ مناطق العبور وورد الماء وحصر "المتمرّدين" في المناطق الجبلية تحت مراقبة الطيران من السماء وعيون السلطة ومخبريها من الأرض انتهت مع صائفة 1957 تقريبا مغامرة "جيش التحرير الوطني التونسي" أمّا بالقتل أو الإيقاف أو الاستسلام.

(74) الملخّص الاستعلاماتي لفترة 26/11- 26/12/1956 من قبل الجنرال قيبون (SHAT, 505, 2H, C. 2H312, D1. ff 651-658)

(75) برقية بتاريخ 20/6/1957 من القيادة العسكرية للجيش الفرنسي بالجنوب (SHAT, S.390, 2H, C. 2H57, D6.n.f.)

(76) محمّد الصيّاح، **الدّولة الجديدة (Le Nouvel Etat)** الجزء الثالث، م.م. ص. 205.

(77) راجع شهادة المقاوم ضمن مجموعة الطّاهر الغريبي سلامة بن صالح بن علي سلامة بتاريخ 25/11/1955 بمعهد الحركة الوطنيّة.

وقد حاول اليوسفيون في مفاوضاتهم مع ممثلي الحكومة التونسية أن يضعوا سلاحهم مقابل الاعتراف لهم بصفة "مقاوم" شأنهم شأن مقاومي "الثّورة الأولى" وأن يتمتّعوا بنفس المنافع (منح) (78) ولئن منح "الجنود" الأمان فإنّ القادة غالبا ما عرضوا للمحاكمة. على كلّ قدّم بين أواخر جوان و7 أوت 1956 أكثر من 450 مقاوم يوسفي نفسه للسلط التونسية (79). وكان استسلام الطاهر الأسود القائد العسكري للمقاومة في 3 جويلية 1956 لوالي مدنين أشهر تلك الموجة من الاستسلام (80).

هذا بعد تضحيات كبيرة استشهد فيها ما يربو على 480 مقاوم تحت راية اليوسفية في كامل البلاد منهم 430، أي جلّهم، بالجنوب وهو رقم يقارب عدد شهداء المقاومة سنوات 1952-1954 الذين يناهز عددهم حسب إحصاء "السّجل القومي لشهداء الوطن" (81) 597 شهيدا. ونحن هنا في الواقع نراجع تقديراتنا السابقة لعدد شهداء اليوسفية نحو التخفيض لما أسقطتنا فيه من غلط تقديرات الجيش الفرنسي حول ضحايا المعارك التي دارت في الجنوب الشرقي حيث كانت مضخّمة، من ذلك أنّ الجنرال قيبون يتحدّث عن 200 قتيل في معارك مارس 1956 لوحدها (82). ثم أنّ تقديرات الجيش الفرنسي تختلف عن تقديرات الحكومة التونسية ذاتها فمثلا تقدم هذه الأخيرة في 17 جوان 1956 على لسان كاتب الدولة للإعلام، البشير بن يحمد، أنّ عدد ضحايا المعارك التي دارت بين 4 أفريل و12 جوان 1956 بالجنوب كان 136 قتيلا بينما يقدّم الجيش رقم 229 (83). وكذا الأمر بالنسبة للخسائر الفرنسية والتي عموما لا تبرز في التقارير العسكرية حول سير المعارك وإن يرجّح مثلا أنّ قتلى جبال بني خداش وشنني ومطماطة كانوا بالمئات فإنّ مقاومين شاركوا في تلك المعارك (84) جمع شهادتهم عمّار السوفي يقدّرون ضحايا

(78) انظر مثلا تقرير مندوب المفوّض السامي بن قردان حول التفاوض مع ثوّار الحوايا على الاستسلام في 5/5/1956 ؛ (S.507, 2H, C. 2H314)

(79) تقرير بأرشيف وزارة الخارجية الفرنسية (M.A.E, Paris, Tunisie 1956-1969, V.289)

(80) مع الملاحظ أنّ الطّاهر الأسود عفا عنه بورقيبة وجازاه بضيعة ودار. انظر شهادته مسجّلة بمعهد تاريخ الحركة الوطنيّة.

(81) صادر عن دار العمل، تونس، 1978.

(82) تقرير الجنرال قيبون بتاريخ 28/3/1956 ؛ (S. 505, SHAT., 2 H. C. 2H 312. f. 388)

(83) ملحق تقرير الجنرال قيبون بتاريخ 23/06/ 1956. (S. 507. SHAT, 2 H314, D1. n.f.)

(84) انظر، عمّار السّوفي، **عواصف الاستقلال**، ص. 188.

اليوسفيين بـــ 97 شهيدا فقط ([85]) بينما يضخّم هؤلاء الشهود عدد القتلى في الجانب الفرنسي ليبلغ المئات حيث يذكر المقاوم منصور الشّين أنه في معركة "العشرات" (13 مارس) لوحدها سقط ما بين 500 و600 قتيل منهم ([86]) وهو لعمري مبالغة لا تقبل من مؤرّخ.

ومهما كان الأمر نعتقد أنّ أحداث المقاومة اليوسفية لازالت تتطلّب البحث والتّنقيب على الأرض وفي الأرشيفات لتتوضّح عديد الوقائع وتوضع الأسماء على الذين ماتوا لو كانوا من الأحياء.

خـــاتمة :

برهن اليوسفيون في معارك الجنوب على قدرات قتالية وشجاعة كبيرة في مصادماتهم مع الجيش الفرنسي خاصة وكانوا عامّة أوفياء للمثل والأهداف التي ثاروا من أجلها أي تحرير البلاد كاملة ونصرة الثورة الجزائرية حتى وإن صدرت أحيانا منهم أعمال يحرّمها "قانون الحرب والأخلاق" ([87]) كردّة فعل ربّما على البطش الذي لحقهم وفي جوّ من اختلال الأمن والنّهب والسّلب كان يعمّ البلاد في الخمسينات. وحتى إن هزم مجاهدو اليوسفية عسكريا فإنهم انتصروا لا محالة بما أنّ "ثورتهم" كانت وازنة في تاريخ المسيرة التحريرية في تونس وفرضت على الجانب الفرنسي تنازلات سياسية وعسكرية كبيرة أبرزها منح البلاد استقلالها التام في 20 مارس 1956 ثم التسريع بالتفويت بمقاليد الأمن للتونسيين وتمكينهم من بعث جيش وطني وبسط السيادة الفعلية على البلاد، ومن نتائج المقاومة اليوسفية أيضا جلاء المعمرين لانعدام الأمن واستهدافهم. وفي جانب آخر نجح اليوسفيون في جرّ نظام الاستقلال للوقوف الجدّي مع الثورة الجزائرية بالدّعم المادي والسياسي، لذاك كان "فصل اليوسفية" في مسيرة التحرّر في تونس مركزيا في تقديرنا لا "كمّا مهملا" كما يرى البعض.

([85]) السّوفي، **بني خداش وجيرانها**... م م. ص 204 – 213.
([86]) ن . م. ص 207. وتجدر الإشارة هنا إلى أنّ هؤلاء المقاومين يتّهمون الجيش الفرنسي بإعدام أسراه من التّونسيّين في غير واقعة.
([87]) كقتل أطفال مثلا أو رسل تفاوض مثل ما جدّ في أم العرايس في 10 أفريل 1956 عندما تمّ قتل ابن رئيس الشعبة الديوانيّة أو في جبال مطماطة في ماي 1956 عندما صفّى "الثّوار" رسل جاؤوهم لإقناعهم بالاستسلام.

الطيّب الزّلاق: مسار مقاوم (*)

بعد طغيان تاريخ الأحداث والبنى والمؤسّسات لأمد طويل أصبحت الآن وجاهة البحث في مسار الأفراد الضّالعين في الفعل التاريخي قناعة شائعة لدى المؤرّخين حتّى وإن كان أولئك المدروسين ليسوا من صنف القادة وحتّى من صفوف الفاعلين العاديّين لأنّ البحوث في المسارات الفرديّة لا تنير فقط آليات الالتزام وتوضّح دوافع الانخراط لدى الأشخاص في صنع التاريخ بل هي ترسم كذلك حدود ووزن ومساهمة الفاعلين المتفرّدين في الحركة العامة للتاريخ. وفي هذا المنحى اخترنا أن نتناول مسار المقاوم الطيّب الزّلاّق. لماذا هو دون غيره؟ لأنّه حتّى تاريخ شنقه وبعد ذلك بكثير كان يعتبر – وهو كذلك فعلا– أهمّ قائد للمقاومة المسلّحة في الخمسينات من الشمال الغربي وليس بالشمال الغربي لأنّ أسماء أخرى من خارج الجهة سجّلت حضورها في تاريخ المقاومة هناك شأن محجوب بن علي الجميلي وهلال الفرشيشي من فوسانة وبلقاسم البازمي من قبلي والطاهر لسود والساسي لسود من الحامة. ولرسم مسار المقاوم الطيّب الزّلاق الذي لم يدلج ذكره في المصادر إلاّ في الفترة الممتدة بين أواخر 1954 وصائفة 1956 عندما حوكم وأعدم اعتمدنا تقارير الجيش الفرنسي وصحافة العصر وشهادة بعض من عاصروه أو عاشروه وخاصة أيّام محنته أمام القضاء السّياسي. ونأسف لدوام انغلاق أرشيف وزارتي العدل والدّاخلية رغم مرور نصف قرن على أحداث ومحاكمات خمسينات القرن الماضي لأنّ ملفّاتها ستغني لا محالة البحث التاريخي.

ونورد هذه المحاولة البيوغرافية في ثلاثة عناصر:

1- الطيّب الزلاّق من محارب قديم إلى قائد مقاومة.

2- الطيّب الزلاّق بين اليوسفيّة ودعم الثّورة الجزائريّة.

(*) نص مساهمة في ندوة "الشمال الغربي" (15–16 أفريل 2005) وصدر بمجلة روافد، 2006/10.

3- الطيّب الزلاّق أمام القضاء السياسي.

1) – الطيّب الزلاّق من محارب قديم إلى قائد مقاومة .

الطيّب المعروف بالزلاّق هو الطيّب بن عمارة بوعديلة المنّاعي أصيل حكيم بوادي مليز. ولد في بداية العشرينات من القرن الماضي دون تحديد لأنّ المصادر لا تذكر ذلك، هو من وسط فلاّحي فقير. نودي للخدمة العسكرية في الجيش الفرنسي سنة 1938 وشارك ضمن هذا الجيش في وقائع الحرب العالمية الثانية ويقصّ هو ذاته مغامرته هذه يقول "شاركت في حرب 1939 وأسّرت خلال شهر جوان سنة 1940 وسجنت بسجن مرستالق دوبي وقضيت أربعة عشر شهرا في محتشدات النازية ثم فررت والتحقت بكتيبتي الفرنسية التابع لها كما شاركت في محاربة المحور بالبلاد التونسية وحررنا تونس ثم شاركت في المعارك الحربيّة بإيطاليا وخاصة معركة كاسّينو، إلى أن حرّرنا فرنسا وقتها وكذلك جرحت في معركة مرسى بلفور سنة 1944 وأهرق دمي من أجل فرنسا ومبادئ فرنسا وفارقت الجندية عام 1945" ([1]) إذا الرّجل هو محارب قديم قضّى سبع سنوات في الجيش الفرنسي. هل كان يتقاضى منحة على ذلك؟ لا ندري. ما نعلمه أنّه عند اندلاع "المعركة الحاسمة" في بداية الخمسينات كان الطيّب يشتغل عاملا بالسكّة الحديدية ومتزوّجا وأب لولدين. الطيّب إذن عند انخراطه في المقاومة المسلّحة كان عاملا ويتقاضى دخلا قارّا وهذه الحالة نادرة ضمن مقاومي الخمسينات إذ كانوا جلّهم من أبناء الأرياف والفلاّحين الفقراء ومهمّشي البادية أو المدن وليس لهم ما يخسرون عند صعودهم الجبل وهم متعوّدون على شظف الحياة. إمّا أن يترك المقاوم وضعا ماديّا هيّنا نسبيّا وينخرط في مغامرة المقاومة وحياته "على كفّ عفريت" فهو ما يعطي قيمة أكبر لمغزى الانخراط المقاوم ويدلّل على وعي وطني كبير. لكن هل كان الطيّب الزّلاق قبل رفعه السّلاح في وجه فرنسا منخرطا في أحد الأحزاب الوطنيّة؟ نرجّح أنّه كان عضو شعبة وادي مليز للحزب الحر الدستوري الجديد إذ نجده في أواخر أكتوبر 1955 ضمن وفد ضمّ أعضاء من هيئات الشعب الدستورية الجديدة ونوّاب بعض المنظمات بقيادة سوق الإربعاء زار صالح بن يوسف ليعرب له عن تضامنه معه وسيتنكر قرار طرده من الحزب ([2]) . ومهما يكن الأمر لأن مصادرنا ليست صريحة في موضوع انخراطه

([1]) تصريح الزلاّق بجريدة "**الصّباح**". 1954/12/13.
([2]) "**الصبّاح**". 21 1955/10/21.

التنظيمي فإنّ الرّجل كان شأنه شأن جلّ المقاومين منتمين إلى الفكرة الوطنيّة ومضحّين من أجلها. ثمّ أنّه كان ضمن عدد قليل جدّا يرفع السّلاح في وجه الاستعمار من منطقة كانت تعجّ بقدماء المحاربين والذين يربو عددهم على 782 سنة 1945 بعين دارهم وطبرقة فقط ([3]).

على كلّ إنّ خبرته العسكرية التي اكتسبها في الجيش الفرنسي ليست الضامن الوحيد لانخراطه في المقاومة المسلّحة وليس كذلك خيبته في فرنسا كجلّ قدماء المحاربين من التونسيّين وإهمالهم وممارسة التميز ضدّهم وتفضيل رفاقهم من الفرنسيّين بالمنح والقروض وتقاسيم الأراضي ([4]) الدّافع المحدّدة في نظرنا في التحاق الزّلاّق وأمثاله بصفوف مقاومي الجبال بل أنه الوعي بالغطرسة الاستعمارية والإيمان بضرورة مجابهة القوّة بالقوّة والعنف بالعنف وهذا في الواقع ما كان أفصح عنه هذا المقاوم عندما سأله الضابط الفرنسي الذي لاقاه – والذي سنعود إليه- عن سرّ تمرّده عن دولة كان استبسل في الدّفاع عنها يقول: "عندما دافعت عن فرنسا كنت أعتقد أنّني أدافع عن الحريّة وأنّ فرنسا ستعيد لبلادي استقلالها بعد الحرب وإذا بي أجد الاستعمار يزداد استفحالا وضراوة ولا فرق بين هذا الاستعمار وما عاشته فرنسا تحت الاحتلال الألماني. لمّا رأيت كلّ ذلك وأنّ فرنسا لم تغيّر سياستها الاستعمارية رغم ما قدّمناه لها من دمائنا لتحريرها وما قاسته هي من ويلات النّازية رأيت أنّ واجبي يحتم عليّ أن أدافع عن بلادي وأساهم في تحريرها" ([5]). وهو ما ذكره كذلك لمبعوث "**الصباح**" عندما صرّح له أنّه "لما اجتاحت البلاد سياسة عشواء ناهضت أماني البلاد ورامت تقويض سيادتها الموحّدة التحقت بالجبال وحملت السّلاح صحبة إخواني لأذبّ وأذود عن حياض البلاد" ([6]).

لكن متى أعلن الطيّب الزّلاّق تمرّده وصعد الجبل؟ في جوابه لمبعوث "الصّباح" في بداية شهر ديسمبر 1954 لم يحدّد بدقّة هذا المقاوم تاريخ امتشاقه السّلاح ونظنّ أنّ ذلك كان مقصودا منه لأنّنا نرجّح أنّه التحق ومجموعته متأخّرا بالمقاومة أي في ربيع 1954 على عكس جلّ عصابات المقاومة الأخرى التي تكوّنت منذ جانفي 1952 أو في غضون

([3]) عبد الحميد الهلالي، **تاريخ جهة جندوبة (1881-1956). علاقة الحركة الوطنية بالأرياف**، أطروحة دكتوراه، كلّية العلوم الإنسانية والاجتماعية بتونس، 2000، ص.360.
([4]) انظر في هذا الموضوع الهلالي في "**تاريخ جهة جندوبة**..." م.م. ص. 359-361.
([5]) أورده الحبيب المولهي في "**الوطن والصّمود**"، بيروت، دار الغرب الاسلامي، ص. 205.
([6]) "**الصبّاح**"، 1954/12/13.

سنة 1953 شأن مجموعات الطّاهر لسود ولزهر الشرايطي والسّاسي لسود وحسن بن عبد العزيز وزايد الهدّاجي ومحجوب بن علي وهلال الفرشيشي وعمّار صلوغة وغيرهم ([7]). وما يدعم ظنّنا إنّ مجموعة الطيّب الزّلاق لم تتكوّن إلاّ في ربيع 1954 هو خلو الأرشيف العسكري والذي تتبعنا التقارير التّي تعني المنطقة فيه طيلة المرحلة الأولى من المقاومة أي من جانفي 1952 حتّى ديسمبر 1954 ([8]) من الإشارة إلى أعمال مسلّحة جدّت في مجال سوق الأربعاء أو سوق الخميس وجبال خمير عامّة قبل شهر جوان 1954 إذا استثنينا بعض أعمال تخريب من نوع قطع خطوط الهاتف أو قصّ أعمدة الاتصالات أو تخريب السكة الحديدة وهي ذات الملاحظة التي وصل إليها زميلنا الهلالي في أطروحته حول تاريخ جندوبة[9]).

وبصورة عامة لم يعرف مجال باجة وبوسالم وجندوبة تمركزا أو انتشارا للمقاومة المسلّحة في الخمسينات ونعطي سريعا بعض المؤشّرات الدّالة على ذلك أنّه في ما بين جانفي 1952 وجوان 1953 خسر الصّف الفرنسي 230 فردا بين جريح وقتيل في كامل البلاد ولم يسجّل بالشمال الغربي إلاّ حادثة جرح المراقب المدني المساعد بماطر جيرو (Giraud) في 15 ماي 1952 ([10]) وقتل الليجينار شموكل (Schmukel) بالكاف في 21 فيفري 1952 ([11]). كذلك في إحصاء لعمليات الاعتداءات المسلّحة التي جدّت بين 19 مارس و 30 سبتمبر 1954 والتي استهدفت أشخاصا أو ضيعات معمّرين أو منشآت ووسائل نقل والتي كان عددها 363 عمليّة لم يكن نصيب منطقة جندوبة وباجة وبوسالم

([7]) حول المقاومة في الخمسينات وكرونولوجيا الانخراط فيها انظر كتاب: **المقاومة المسلّحة في تونس (1939-1956)** من تأليف عميرة عليّة الصغيّر وعدنان المنصر، نشر المعهد الأعلى لتاريخ الحركة الوطنيّة، 2005.

([8]) الأرشيف المعني هو خاصة أرشيف المصلحة التاريخية لجيش البر الفرنسي (S.H.A.T.) في السلسلة 2H. Tunisie، الصناديق: 310، 311، 312.

([9]) الهلالي، م.م، ص. 362.

([10]) «Liste nominative des Français et Tunisiens tués du fait de l'action des insurgés, janvier 1952 – juin 1953 », in **SHAT., 2H Tunisie, C. 2H154**, f.59-84.

([11]) **SHAT., S /S. 2H Tunisie, C. 154. D3**. f. 706-708.

وماطر منها إلاّ 10 عمليّات ([12]) كذلك لم يورد "السجّل القومي لشهداء الوطن" لكامل الفترة من 1952 وحتّى 1954 إلاّ ثلاثة أسماء لأشخاص من نفزة ذكروا على أنّهم اغتالتهم اليد الحمراء في 1953 ونحن نحترز في حقيقة أمرهم ([13]).

على كلّ منذ بداية شهر جوان 1954 وحتّى نوفمبر من نفس السنة سوف تشهد المنطقة تصاعدا لعمليات "الفلاّقة" ولئن لم تحدّد المصادر وهنا تقارير الجيش والجندرمة خاصّة المسؤولين عنها اسميّا فإنّ مجموعة الطيّب الزّلاق التي كانت تنشط في المنطقة الممتدة من غار الدماء إلى شمال عين دراهم كانت دون شك وراء أغلبها. ويبقى السّؤال: كم كان يقود الطيّب الزّلاق من مقاوم؟ نرجّح أنّ عددهم كان يناهز العشرين أو الخمس وعشرين فردا وهو الرقم الذي لم تتجاوز ذكره التقارير عندما تأتي على عدد المهاجمين من "الفلاّقة" إلاّ مرّة واحدة بلغ عدد "الفلاّقة" خمسين في هجوم على ضيعتي بولان وسارو بغار الدّماء في 1 نوفمبر 1954.

وكانت أهمّ العمليات المسلّحة التي جدّت بالمنطقة بين جوان ونوفمبر 1954 هي:

- 1954/6/12: مهاجمة مركز البريد بالجبل الأبيض.
- 1954/6/17: مهاجمة شاحنة شمال باجة وسلب ركّابها.
- 1954/6/17: مهاجمة نائب بلدي تونسي بماطر.
- 1954/7/18: إطلاق النار على حرّاس ضيعة ديدونة didona بمنطقة باجة.
- 1954/7/21: حرق 30 قنطارا من الخفّاف قرب طبرقة.
- 1954/7/24: إطلاق النار على ضيعتي دبيوا Dubois وبتّي Petit بمنطقة باجة.
- 1954/10/14: مهاجمة مركز غابات بلدة بشمال غار الدّماء.

([12]) **Q.O. 678, Tunisie 1944-1955, C. 374**. Document : Etat des attaques à main armée, actions terroristes, sabotages. Du 19 mars au 30 septembre 1954 », ff. 49-72.

([13]) الأشخاص الثلاثة المذكورين هم: عمارة بن علي بن رمضان وأحمد العيادي ومحفوظ بن بلعيد. في "**السّجل القومي لشهداء الوطن**"، تونس، دار العمل، 1978، ص. 94. أمّا احترازنا فهو متأتّ من أنّه لم يرد ذكر لعملية اغتيال في المصادر التي اطّلعنا عليها بنفزة إن كانت أرشيفيّة أو صحفيّة أو شهادات لا سنة 1953 ولا في غيرها.

- 1954/10/14: مهاجمة ضيعة دومارق ببن بشير.
- 1954/10/23: عمليّة استهدفت بناية الصبايحيّة بكاهية غار الدّماء.
- 1954/10/30: مهاجمة مركز الغابات ببلطة.
- ليلة 1954/11/1: مهاجمة ضيعتي المعمّرين بولان وسارو بغار الدماء [14].

على كلّ سوف يستجيب الطيّب الزّلاق لنداء 22 نوفمبر 1954 من الحكومة التّونسيّة والمقيم العام بتسليم السّلاح مقابل منح المقاومين الأمان وهذا ما تمّ فعلا في ديسمبر 1954 بضيعة محمود ياسين بوادي مليز [15]. وكان كلّه أمل وثقة في الحكومتين التّونسيّة والفرنسيّة ووعد أن يعود "للحياة العادية كسائر المواطنين" [16] لكن هل فعل؟

2)- الطيّب الزّلاق بين اليوسفيّة ودعم الثورة الجزائرية:

لكن الطيّب الزّلاق الذي وضع سلاحه في ديسمبر 1954 وكلّه ثقة في الحكومة التونسية وأمل في المستقبل سوف يعود لرفع السّلاح في جانفي 1956 في إطار المعارضة اليوسفيّة لاتفاقيات الاستقلال الداخلي وفي تناغم وتنسيق مع ثوّار الجزائر. والسّؤال الذي يطرح نفسه ما الذي دفع هذا المقاوم على التمرّد من جديد بعد أن خضع والتقى حتى الحبيب بورقيبة في جوان 1955 وربّما رأى الزعيم في ذاك وعد وفاء له حتى أنّ الزلاّق ندم لاحقا على ذلك [17] . هل القناعة السّياسية ببطلان وزيف اتفاقيات 3 جوان أو دوافع أخرى حكمت في قرار هذا المقاوم على رفع السّلاح من جديد؟ هل الدافع الوطني ونبل الغاية وحده وراء هذا الموقف؟ أو أنّ أسبابا ذاتية وموضوعية أخرى حدت بالزلاّق على الثورة من جديد؟

---

(14) Qo.678, Tunisie 1944-1955, C. 374, ff.49-72.
والهلالي، م م. ص 363-365.

(15) انظر حول تسليم مجموعة الطيّب الزّلاق سلاحها على يدي لجنة الاتّصال المتكوّنة من الحبيب المولهي ومحمود ياسين وعلي الزلاوي وعلي حنيرة بـــ: المولهي، **الوطن والصّمود**، م.م ص. 203.

(16) تصريحه لـــ "**الصّباح**" 1954/12/13.

(17) هذا ما أسرّ به الطيّب الزّلاق إلى رفيقه في السّجن المدني في ماي 1956. وأفادنا بذلك المعني أي السيّد حمّادي غرس في لقاء معه بالمرسى في 26 جانفي 2005.

في الواقع يصعب على المؤرّخ الحسم في تحديد باعث واحد أو تفضيل دافع على آخر وإلاّ سقط في تنجيم النوايا والحكم على السّرائر التي لا يعلمها إلاّ أصحابها. وفي تقديرنا إنّ الأمر بالنسبة للطيّب الزّلاق ولغيره من المقاومين الآخرين تضافرت عوامل عدّة في وقوعه.

أوّلا إنّ الدافع السياسي لمعاودة الزّلاق الثورة ثابت لا محالة فالرّجل كغيره من المقاومين الذين حطّوا سلاحهم في ديسمبر 1954 كانوا يعتقدون فعلا أنّ البلاد استقلّت إذ وعيهم وتكوينهم السّياسي واطّلاعهم عل نصوص الاتفاقيات غير الحاصل جعلهم يقبلون ما كان يشاع من حقيقة استرداد البلاد وفعلا لكامل سيادتها وبتغير الأمور وعودة صالح بن يوسف إلى تونس في سبتمبر 1955 وحركة النّقد الشامل لاتفاقيات الاستقلال الداخلي تفطّن الكثيرون بأنّهم مخدوعون وانخرطوا من جديد في المقاومة لإتمام ما بدؤوه سنة 1952 وإنجاز الاستقلال الفعلي [18].

فالطيّب الزّلاق أعلن منذ أكتوبر انحيازه لصالح بن يوسف وهو يوضّح هذا الانخراط في صفّ المعارضة لاتفاقيات 3 جوان 1955 وعزمه على العودة للمقاومة في بيان نشرته له جريدة "الصّباح" في 20 نوفمبر 1955 حيث يقول: "بناء على أنّي أحد قوّاد المقاومين وأمثّل فئة لا يستهان بها في الأوساط الثّورية فإني أعلن للرّأي العام التونسي وإلى من فشوا فيه الفشل والمكر والخداع على أنّ المجاهدين حطمت شوكتهم وأنهكت قواهم ولا سبيل لهم في الرّجوع إلى المقاومة فإنّي أعلن للملأ أصالة عن نفسي ونيابة عن إخواني المقاومين بأنّنا لا زلنا متمسّكين بمبادئنا المقدّسة، مبادئ الثورة المباركة حاملين لواءها على الدّوام. مشعل العروبة والإسلام وأحذر كلّ من يفتري على المقاومين المجاهدين في سبيل عزّة وكرامة هذا الشعب. قلت هذا ولا زلت أكرره لأجل ما سمعته يخرج من أفواه أناس لا يمثّلون هذا الشعب المطالب بحقوقه الشرعية كاملة غير منقوصة. المطالب باستقلاله الكامل لا شائبة فيه".

---

(18) انظر في هذا الموضوع: عميرة عليّة الصغيّر، **المقاومة الشعبية في تونس في الخمسينات انتفاضة المدن – الفلاّقة – اليوسفيّة**، مطبعة التسفير الفنيّ، صفاقس، 2004، ص 151-168.
- الناصري (محمد المختار)، **المقاومة التونسية المسلّحة واشكالياتها: 1952-1956**، أطروحة دكتوراه ، كلّية العلوم الانسانية والاجتماعية بتونس، 2002، ص. 175-181.

أوضح هذا البيان إذن موقف القائد الطيّب الزّلاق فهو يعتبر المدافعين عن اتفاقيات 3 جوان لا يمثلون الشعب ويعلن أصالة عن نفسه ونيابة عن "إخوانه المقاومين" أنّهم في حلّ من الاتفاقيات وأنّهم ينخرطون في الحركة المطالبة بالاستقلال الكامل ويندرج موقفه هذا في تلك الحركة "التمرّديّة" لقدماء الفلاّقة التي كان يتزعّمها الطّاهر لسود والعديد من مقاومي "الثورة الأولى" شأن القادة محمّد بن مصباح النيفر وعبد اللّطيف زهير وعبد الله البوعمراني والطاهر بن لخضر الغريبي وعمّار بني والحاج النّوري البعصوصي ومحمّد بريبش وغيرهم.

غير أنّ الطيّب الزّلاق أثناء محاكمته في جويلية 1956- التي نعود إليها في العنصر القادم- يسكت عمدا عن قناعاته هذه ويعلن أنّ رفعه للسّلاح في جانفي 1956 كان فقط من أجل دعم القضيّة الجزائريّة ([19]) وله عذره في ذلك.

إنّ هذه الغايات والدّوافع النبيلة المعلنة من هذا المقاوم لا تلغي في اعتقادنا دواعٍ أخرى لم يفصح عليها الطيّب الزّلاق منها ما يعنيه هو ذاته ومنها ما يشترك فيه مع بقيّة "فلاّقة" 1954. من الدوافع المشتركة هي الخيبة التي أصيب بها عديد المقاومين وتحوّلهم من وضعيّة التبجيل والتّقدير عندما حطّوا سلاحهم في ديسمبر 1954 إلى وضع من التّهميش وحتى التبرّم منهم عندما "أقلقوا" بطلباتهم الحكومة الجديدة و "الحزب الدستوري الجديد" وزاد تذمّر الكثير منهم لسوء معاملة السّلط التونسية والفرنسيّة لهم إذ أصبح قدماء "الفلاّقة" محطّ ريبة وتشكّك وهم عرضة للتجسّس عليهم وتتبّع حركاتهم إضافة لوضع البطالة والبؤس الذي أصبح عليه الكثير منهم خاصّة وأنّهم جلّهم من الوسط الرّيفي المعدم ثم أنّ تبجيل بعض المقاومين ورفع شأنهم وتقريبهم من السّلطة والإغداق عليهم بالمنح أو رخص النّقل أو بعض الضيعات أغضب البعض الآخر وزاد من نقمته على حكومة الاستقلال الداخلي وعلى رمز النّظام الجديد الحبيب بورقيبة وخيّروا الاصطفاف إلى جانب غريمه صالح بن يوسف تحقيقا لمآربهم وخدمة لقناعاتهم السياسيّة. وكان الطيّب الزّلاق ضمن هذه الصّورة العامّة وشعر بتهميشه خاصة بعد نزع صفة القائد عليه من طرف قيادة الحزب الحر الدستوري بعد لقائه أحد الضبّاط الفرنسيين بالجهة دون استشارة

([19]) انظر وقائع محاكمته بجريدة "**الصّباح**". 19 جويلية 1956.

الحزب في بداية فيفري 1955 ([20]) وشكاية أعضاء الشعبة الدستورية بسوق الأربعاء لإدارة الحزب في شأنه([21]) ثم وخاصة تبجيل غريمه القائد الآخر محجوب بن علي الذي أصبح الحاكم الفعلي لسوق الأربعاء منذ بداية 1955 وتكليفه بقيادة الحرس الإضافي بالجهة وتتبّع اليوسفيّين فيما بعد وانتصابه قاضيا لفض المشاكل بين النّاس ([22]) ضف لذلك لا نخال الطيّب الزّلاق عاد لشغله بالسكة الحديديّة وهو "الفلاّق" بعد وضعه لسلاحه في ديسمبر 1954 وأنّه كان لا محالة في وضع مادّي صعب وربّما رأى في انخراطه في "الثورة الثانية" واندماجه في شبكة المقاومين الجزائريّين من شأنه أن يعيد له اعتباره من جهة وينقذه من وضع الحاجة ومذلّة التقرّب لسلطة لا يجلّها ولا تجلّه ([23]).

هكذا إذن اختار الطيّب الزّلاّق الانخراط في الأمانة العامّة ودخول مغامرة المقاومة المسلّحة تحت راية العروبة والإسلام والتحرير الشامل للمغرب العربي ووحدة السّلاح ودخل بداية من 9 جانفي 1956 السّرية ومعه أربعة من رجال وادي مليز[24]) ولم يسلّم نفسه إلاّ في 7 ماي 1956.

إذن طيلة أربعة أشهر كان الطيّب الزّلاق حاملا سلاحه ضمن مجموعة من المقاومين التّونسيّين والجزائريّين بقيادة أحمد الشريف الذّي أسّره الجيش الفرنسي في 13 مارس 1956 وخلفه القائد بن ضو متنقلا مع مقاوميه وحلفائه من عين دراهم شمالا إلى تالة وتاجروين جنوبا ومن تونس إلى الجزائر ومن الجزائر إلى تونس. وكان عدد هذه الفرقة المشتركة ناهز 120 مقاوما في 25 جانفي 1956 ([25]) لكن أمام ضربات الجيش الفرنسي

([20]) انظر قصّة هذا اللّقاء والتقدير الذي لقيه الزّلاق كمحارب قديم في **المولهي** م.م. ص. 203-206.

([21]) الهلالي م.م. ص. 379.

([22]) حول نشاط القائد محجوب بن علي انظر في تقارير الجيش الفرنسي خاصة الاحالات التالية:
- SHAT, S.503, 2H310, D1 : - S.B.M. du 20/2 – 6/3/1956 ; - S.504, 2H311, SBM. du 1-12/3/1956 ;
- C.2H312, D2. SBM du 2-23/02/1956, - 2H312, D1, SBM du 9-23/2/56, - 2H312, D1, SM. de mai 1956. et 2H311, D1, SBM du 27/12/55- 13/1/1956.

([23]) انظر مثلا رأي بورقيبة في "الفلاّقة" في خطاب 18 جانفي 1963 بـ **خطب**، ج 15 ، نشر وزارة الإعلام، 1979، ص 37-40.

([24]) التقرير النّصف الشهري بتاريخ 14 جانفي 1956 للكمندان قمبياز Gambiez قائد فرقة الشمال بـ: SHAT, S. 504, 2H311, C.2H311, D1, f. 6-8.

([25]) ملحق تقرير الكمندان قمبياز بتاريخ 14 فيفري 1956 بـ :

والملاحقة الشرسة التي كان يلقاها الطيب الزّلاق من محجوب بن علي وحرسه تضاءل عدد مرافقيه أمّا قتلا أو أسرا أو تسليما ([26]) وكان في الواقع هو ومجموعته خاصة بداية من شهر مارس في وضع المطارد ولم تسجّل لفرقته مبادرة بالهجوم إلا في الشهرين الأوّلين وكانت أهدافها مواقع حراسة الغابات أو أشخاصا تعتبرهم خونة أو عمليات سطو وإن كان يصعب نسب بعض عمليات الاغتيال أو الابتزاز أو افتكاك الأرزاق "لعصابة" الطيب الزلاق خاصة وأنّه في مجال تحرّك هذه المجموعة كانت تتواجد مجموعات جزائرية أخرى وتنشط عصابات النّهب ([27]) لاختلال الأمن وضعف جهاز الدّولة في فترة انتقالية وفي ظروف كانت فيها الإدارة الفرنسية والجيش الفرنسي المرابط دائما بتونس قليلي الحرص على حفظ الأمن وهمومهما أخرى.

وأمام تضييق الخناق عليه وخضوع العديد من رفاقه إذ استسلم خمسة في 3 فيفري لعامل سوق الأربعاء وأربعة لمحجوب بن علي في 13 مارس ([28]) ووقع إيقاف ثلاثة من مخزن تالة و 6 آخرين من مخزن الساقية ([29]) سوف يسلّم الطّيب الزّلاق نفسه في مجموعة من 7 مقاومين من عصابته ليلة 7 ماي 1956 بسيدي مسكين بعدما رتّب ذلك مع رئيس شعبة حكيم الدّستورية وحرّر رسالة في هذا الشأن إلى محمود الكافي رئيس الجامعة الدّستورية بباجة ([30]).

لكننا نعتقد أنّ الأهمّ في دوافع الطيب الزّلاق على تسليم نفسه هو وعيه بتغيّر المعطيات التاريخيّة التي يتحرّك ضمنها. أوّلها إدراكه بأن مواصلة المغامرة المسلحة هو من باب السّير في طريق مسدود خاصة بعد إحراز الاستقلال في 20 مارس ونداء حكومة بورقيبة للمقاومين اليوسفيّين بالعودة "للحضرة القوميّة" ووعدهم بالعفو وكذلك بعد ذلك

S.504, SHAT, 2 H311 C – 2 H 311, D1 f 30-38.

([26]) انظر ملخّص هذه الاشتباكات بين الزلاق ورفاقه ومحجوب بن علي والجيش الفرنسي في أطروحة الهلالي م.م. ص. 388 – 390.

([27]) حول هذه المجموعات التي كانت تنشط على كامل الحدود التونسية الجزائرية من عين دراهم شمالا إلى تمغزة جنوبا راجع : محسن الخميري، **الحركة اليوسفية : مجالها وحدودها (1955-1961)**، رسالة الدراسات المعمقة في التاريخ، كليـــة الآداب بمنوبـــة، 2004، ص.48-52.

([28]) **"الصّباح"** 1956/7/17.

([29]) تقرير قمبياز بتاريخ 15 ماي 1955 بـــ :

S.504, SHAT. 2H, C-2H 311, D1, f. 96-97.

([30]) الهلالي م.م. ص.392.

تراجع المقاومة اليوسفية بتعدّد حالات الخضوع وإعلان الولاء لبورقيبة وإحراز الجيش الفرنسي و"لجان الرعاية"([31]) والحرس الإضافي الغلبة على عصابات اليوسفيين في عديد الوقائع خاصة بالجنوب وجهة القصرين. وثاني معطى وهو أساسي هو تخلّي الجزائريين على حلفائهم اليوسفيين الذين أصبحوا ثقلا عليهم أمام استعداد السّلط التونسية وبصورة رسميّة على تقديم المساعدة للمقاومة الجزائرية ([32]) وسحب البساط من تحت أقدام مناوئيها ووفائها بوعدها (تسريب السلاح، السّماح بجمع الإعانة وتجنيد المتطوّعين وتواجد وحدات المقاومين الجزائريين وتدربهم...) وهذا التخلي من الطرف الجزائري لحليف أضمن سوف يلجئ العديد من المقاومين في العصابات المشتركة على الإقرار بالواقع الجديد وإعلان خضوعهم وهذا ما أسرّ به الطيّب الزلاق لرفيقه في الزنزانة السيد حمادي غرس في ماي 1956 عندما أخبره بأن رفاق السّلاح من الجزائريين عبّروا له عن عدم استعدادهم لمواصلة احتضانه ([33]) .

وهكذا انتهت هذه الحلقة في مسار الطيّب الزلاق في 7 ماي 1956 لينتقل من الجبل إلى السجن ثم يمثّل أمام القضاء.

([31]) نشطت هذه اللّجان بصورة غير قانونية منذ بداية 1956 وأعطيت بمفعول رجعي الشرعية بقرار من رئيس الوزراء بتاريخ 31 مارس 1956 **(J.O. .27/4/56)** وحلّت رسميًا في 6 جويلية 1956 **(J.O. 10/7/56)** . وهي عبارة على وحدات شبه عسكريّة مكوّنة من قدماء المقاومين أو الصبايحية والوجق تتبّع المعارضين من اليوسفيين ومكلفة بحفظ نوع من الأمن وقد تحركت في كل الجهات يقودها مسؤولون حزبيون وقدماء فلاقة شأن محجوب بن علي وحسن العيادي والسّاسي لسود وحسن بن عبد العزيز ومصباح الجربوع ولزهر الشرايطي وحمد الرّداوي وعمر شاشية... انظر حول نشاط هذه "الكمندوسات" في أرشيف الجيش الفرنسي :

- S. 505, SHAT 2H, C. 2H312, D1, f. 367,422, - S.504, C.2H311,D1,f.75, - S.505, C.2H312,D1, f.441.
- S.505, C.2H312, D1, f.469.

([32]) كلّف وزير الداخلية الطيب المهيري وأحمد التليلي بهذا الملف وتمّ اتّفاق بين الطرفين على تقديم المساعدة للجانب الجزائري مقابل الالتزام بعدم التعرّض للفرنسيين بالتراب التونسي. وفعلا في المنطقة الحدودية نشط كلّ من محجوب بن علي ورئيس شعبة عين دراهم الطاهر بوريال في ذلك الاتجاه. انظر :

- SHAT, S.523, C. 2H318, R. du 6 juin 1956 et SHAT 503, 2H310, D1, R. du 5/10/1955.
- A.Aleya Sghaier : *« La Tunisie base arrière de la révolution algérienne »*, in **RHM** n° 118, pp155-160, 2005.

([33]) أفادنا به في المقابلة المذكورة .

3)- الطبيب الزلاق أمام القضاء السّياسي:

لم يخل سبيل الطبيب الزلاق ولا رفاقه وحوّلوا إلى السّجن للتحقيق ثمّ المحاكمة بين 16 و 21 جويلية 1956 في ظرفية تميّزت بالتوتر السياسي وتأثير الصّراع بين البورقيبيّين واليوسفيّين وعلى مستوى السّلطة كان هناك شعور بنخوة الانتصار، انتصار بتحقيق الاستقلال في 20 مارس ونخوة بانتخاب المجلس التأسيسي (22 مارس) وتونسة الأمن والقضاء (أفريل- ماي) وخاصة بالسيطرة عمليًا على "الفتنة" اليوسفية بتحطيم أهم بؤرها خاصة في الجنوب (أفريل – جوان) واستسلام جلّ عناصرها. فكانت المحاكمات السّياسيّة التي جدّت منذ بداية ماي 1956 أداة أخرى مكمّلة للعنف هدفها القضاء على الخصوم والحسم النّهائي في صراع تاريخي رأت فيه النخبة المنتصرة أن لا مناص لضمان استقرار الدولة واستتباب أمنها من القضاء على كل عناصر "التآمر" و"التخريب" "خدمة للمصلحة القوميّة" و"هيبة الدّولة" حسب الخطاب السّائر آنذاك. ولعلّه ثأرا من خصوم ألدّاء ! على كل سوف تشمل المحاكمات المئات من اليوسفيين حيث تعرّض بين ماي وسبتمبر 1956 أكثر من 212 منهم للمحاكمة وصدر ضدّهم حتى أكتوبر 1959 : 53 حكما بالإعدام كما صدرت الكثير من الأحكام بالأشغال الشاقة لمدد مختلفة تصل إلى مدى الحياة ([34]) وهي شدّة لم يبلغها حتى القضاء الاستعماري ([35]).

وقد أنيطت مسؤولية محاكمة المناوئين للنظام الجديد إلى "محكمة القضاء العليا" المعروفة كذلك باسم المحكمة الشعبية والتي أحدثت بتاريخ 19 أفريل 1956 ولم يقع حلّها إلا في أكتوبر 1959. وحسب أمر تأسيسها أحدثت للنظر في القضايا "ذات الصبغة السّياسية مثل التحريض بأي وسيلة على جنايات القتل... وإضرام النار عمدا والنهب وهدم المباني" وفي "الاعتداء على أمن الدّولة" وبصورة عامة تنظر المحكمة في كل

([34]) محمد ضيف الله، *المحاكمات السّياسيّة في تونس في عهد بورقيبة (1956-1987)*، ضمن **القضاء والتشريع في تونس البورقيبية والبلاد العربية**، زغوان، مؤسسة التميمي، 2004، ص. 164.

([35]) من اليوسفيين الذين حكم عليهم بالإعدام : صالح بن يوسف، الهادي قدورة، الحسين الحاجي، عبد الله البوعمراني، الهادي لسود، علي درغال، حسين التريكي، محمد عبد الكافي... لكن الكثير عفي عنهم أو كان حكمهم غيابيًا.

الاعتداءات الواقعة على مصالح الوطن العليا" ([36]). وهي محكمة استثنائية بكل المقاييس من حيث أحكامها الاستعجالية وعدم إمكانيّة الطّعن فيها لا بالاستئناف ولا بالتعقيب وتنفيذها يقع في الحين ([37]). ويعيّن أعضاء هذه المحكمة من بين نوّاب المجلس التأسيسي إلاّ رئيسها يختاره مجلس الوزراء من بين القضاة أو المحامين. ولا يغيب عن الذهن أن الطابع السّياسي للمحكمة هنا أيضا ثابت لأن أعضاء المجلس التأسيسي كلهم كانوا من الحزب الحرّ الدّستوري الجديد أو الموالين له ([38]).

لقد سبقت محاكمة الزلاق محاكمة ثلاثة آخرين من مجموعته يوم 9 ماي 1956 على رأسهم الطاهر بن أحمد البوخاري المشهور بالذباح بتهمة اغتياله ليلة 26 فيفري 1956 العدل علي بن الباهي من أولاد مدّاح "وتنظيم شركة مفسدين وحمل السّلاح دون رخصة" ([39]). وحسب تصريحات البوخاري إن حكم الإعدام على هذا العدل صدر من الشيخ الحسناوي والطبيب الزلاق ذاته بتهمة التخابر مع فرنسا[40]). وحكمت المحكمة الشعبية على الذباح بالإعدام وعلى رفيقيه أحدهما بالأشغال الشاقة المؤبدة (عبيد المناعي) والآخر (محمد السكوري) بالسّجن مدّة 3 سنوات. وكان تنفيذ حكم الإعدام في الذبّاح سريعا وتمّ

([36]) **الرائد الرسمي التونسي**، 27 أفريل 1956، أمر علي، مؤرخ في 19 أفريل 1956، ص. 782 - 783.

([37]) حول ظروف بعث هذه المحكمة ولجوء بورقيبة إلى نصيحة القاضي محمد الوصيّف رئيس محكمة التعقيب لاحقا باعتماد صيغة المحاكم التي قاضت النازيين أو الخونة عند تحرير فرنسا بعد الحرب العالمية الثانية انظر شهادة السيد محمد الصيّاح بـــ : **القضاء والتشريع في تونس**... م.م، ص. 391.

([38]) كانت هيأة المحكمة في قضية الزلاق يرأسها القاضي محمد فرحات وأعضاؤها من المجلس التأسيسي : محمود زهيوة، محمد الكافي، امحمّد القنوني، الشاذلي قلالة، بلحسين جراد، الطاهر عبد الكافي.

([39]) غطت الصّحف التونسية هذه المحاكمة انظر "**الصباح**" يومي 9 و10 ماي 1956 والتي مثلت "Le Petit Matin" لـــ 10 ماي.

([40]) **Le Petit Matin** 10/9/56 .

ذلك بعد أسبوع أي يوم الإربعاء 16 ماي شنقا بساحة ثكنة الأعوان الإضافيين بسوق الإربعاء ([41]).

بدأت محاكمة الزلاق وأفراد "عصابته" وجماعة آخرين بتهمة تموينهم أي 45 شخصا يوم 16 جويلية 1956 أمام المحكمة العليا للجنايات لتصدر حكمها يوم 21 جويلية. ولن نقف عند تفاصيل مجرى المحاكمة لأنها أوردتها الصّحف وخاصة جريدة "الصباح" ([42]) والذي يعنينا هنا هو موضوع الزّلاق. وكانت نقطة الخلاف الأولى بين هيأة المحكمة والدّفاع حول طبيعة الدّوافع التي حدت الزلاق ورفاقه لرفع السّلاح فإن كانت المحكمة لا ترى في الزلاق وصحبه إلا عصابة مفسدين وقتلة ومخرّبين كانت تحدوهم الأطماع الشخصية وإن أقرّت حسن النّية للبعض فإن الدّفاع قدّم المتّهمين على أنهم وطنيّين ناضلوا ضدّ الاستعمار وهبّوا لمساندة إخوانهم الجزائريين لنفس الغاية. وقد أكد الطبيب الزلاق أن "سبب قيامه بالثورة هو القضية الجزائرية" وأنه يتصل "بكلّ شيء من مال وعتاد وحتى السّقاير من إخواننا المجاهدين الجزائريين" ([43]) وكانت مرافعة المحامين شأن الأساتذة عمّار الدّخلاوي وفتحي زهير وعبد السلام ثابت جاهدة في رفع التهم عن منوّبيهم والإشادة بخصالهم الوطنية من ذلك ما أورده المحامي الميزوني الشيحي حيث قال عن المتهمين أنّ "أغلبهم من رجال الثورة وكانوا من الذين يقاومون الدّبابات والطائرات ويشهد لهم بذلك أغلب قادة الثورة وخصوصا القائد لزهر الشرايطي وأنّ هؤلاء الأبطال لو فرضنا أنهم ارتكبوا غلطات هل يمكن أن نجازيهم بالقسوة؟" ([44]) .

وكانت نقطة الخلاف الأخرى وهي أساسية هل قبض على الزلاق أم سلّم نفسه؟ وكانت أطروحة الادعاء العام أن الطيب الزلاق قبض عليه وهو ما أكده شاهد الإدارة الحاضر في المحكمة والذي تسلّم الزلاق قائد المخزن المتجوّل محجوب بن علي ليلة 7 ماي 1956 وقد عارض الزلاق هذا الادعاء قائلا : "لم يقع اعتقالي بالصّورة التي قالها المحجوب بل أنني سلّمت نفسي بنفسي وكانت معي رسالة سلمتها إلى العامل فتسلّمها

([41]) حسب "**الصباح**" ليوم 17 ماي 1956 حضر عملية الشنق ممثلو السّلط التونسية والفرنسية بسوق الإربعاء وكذلك أعضاء محكمة الجنايات العليا وعلى رأسهم السيد محمد فرحات، ويروى أن جمهورا غفيرا حضر تنفيذ حكم الإعدام هذا وقد أرادته السّلطة مسرحيّا للعبرة والامتثال.
([42]) "**الصباح**" أعداد 7/17 – 7/19 – 7/22.
([43]) "**الصباح**" 1956/7/17 .
([44]) "**الصباح**" 1956/7/22 .

المحجوب ومزّقها" ([45]). وأوضح المحامي الشيحي إن القبض على الزلاق ورفاقه بدار المسمى ع.م. كان إثر وشاية هذا الأخير للسّلط وخيانة ثقة الزّلاق فيه ([46]). وبدورنا نرجّح أطروحة الاستسلام على القبض وهذا ما أتى أيضا في تقرير الجنرال قمبياز المؤرّخ في 15 ماي 1955 حيث كتب : "هذا القائد المتمرّد سوف يسلّم نفسه في سيدي مسكين مع سبعة أفراد". « Le chef insoumis devait faire sa reddition à Sidi-Meskine avec sept membres » ([47]) لكن هيئة المحكمة لن تقتنع بحجج الدّفاع ولا بتصريحات المتّهمين الذين أكدّوا أن أقوالهم كانت تحت إكراه الضرب ([48]) ولا بشهادة الشهود الذي لم يدينوا الزلاق ذاته ووجّهوا المسؤولية في الضرر الذي حصل لهم لعصابات الجزائريين لأن حكمها كان سياسيّا وغايته الضرب بشدّة وإعطاء المثل وترهيب "العصاة" وأصدرت يوم 21 جويلية حكمها على الزلاق بالإعدام بتهمة الهجوم على علي العبيدي وقتل علي الباهي([49]).

لكن هل كانت هيأة المحكمة مقتنعة فعلا بإدانة الزلاق؟ يبدو أنها لم تكن كذلك وحاولت مراجعة الحكم باللّجوء إلى صاحب حق العفو أي الرّئيس الحبيب بورقيبة حيث اتّصل عضوا هيئة المحكمة بلحسين جراد والشاذلي قلاّلة بالزعيم بورقيبة بقصر الحكومة بتونس وحاولا إقناعه ببراءة الزلاق وخلوّ ملفه من أي سبب فعلي للحكم عليه بالإعدام ويبدو أن بورقيبة اقتنع بهذا الرأي وأحال الفصل في المسألة للسيد الباهي الأدغم فأشار هذا الأخير بإعدامه ([50]) . لماذا هذا الموقف من الباهي الأدغم؟ أكان يقرأ في أفكار بورقيبة؟ أو تزلّفا للزعيم؟ أو لمحو ذكرى ماضيه اليوسفي؟ .

([45]) "**الصباح**" 1956/7/19 .
([46]) "**الصباح**" 1956/7/22 .
([47]) SHAT, S.504. 2H, C.2H311, D1. f.96. Rapport du G.Gambiez
([48]) "**الصباح**" 1956/7/17 .
([49]) وحكمت على المتّهم الثاني والذي اعتبر الرأس المدبّر لعصابة الزّلاق الهادي شريط بعشرين سنة أشغالا شاقة وعفي عليه بعد ثماني سنوات (**الهلالي** م.م. ص.393) وعلى 11 بين 10 و 5 سنوات أشغالا شاقة و 29 بأحكام مختلفة بالسّجن والغرامة (**ضيف الله**. م.م. ص. 172) .
([50]) هذه الرّواية استقيناها من مصدرين الأوّل من السيد حمّادي غرس ومخبره بالقصة فتحي الزليطني والثاني السيد علي معاوية في لقاء معه بتونس في 26 جانفي 2005 ومصدره بلحسين جراد ذاته .

ولم تنفع كذلك تدخّلات شخصيات عربيّة لدى بورقيبة للعفو على الطيب الزلاق منهم شيخ جامع الأزهر ومفتي الدّيار المصرية وأمين عام الجامعة العربية ورئيس مؤتمر الخريجين العرب وجمعية الشبّان المسلمين وجماعة الكفاح لتحرير الشعوب الإسلامية وحزب الاستقلال المراكشي ولجنة تحرير المغرب العربي وجمعية العلماء الجزائريين وحزب البعث السّوري ونقابة الصّحفيين المصريّين ([51]).

وكان إعدامه يوم السّبت 28 جويلية 1956 شنقا على الساعة السادسة والنصف صباحا بسجن الزندالة بباردو وحسب أحد الحرّاس الذين حضروا عملية إعدامه كان الطيب الزلاق متجلّدا وصعد المشنقة لوحده بعد أن شهّد وآخر عبارة نطق بها تجاه واضع الحبل في رقبته "ارخف شويّ خليني نتنفس أنا باش نموت بطبيعتي" ([52]). وهكذا انتهت حياة مقاوم وهو في الأربعين.

خاتمـــة :

كان الطيّب الزلاق أوّل قائد مقاومة يعدم من حكومة الاستقلال بداعي المصلحة العليا للوطن لأنه كان في صفّ اليوسفيّين لذلك بقي في ذاكرة هؤلاء وغيرهم بطلا شهيدا ([53]) قتل ظلما.

([51]) "**الصّباح**" 28 جويلية 1956 عن صحيفة **الجمهورية** القاهرية ليوم 26 جويلية 1956.

([52]) رواية السيد حمادي غرس عن "القرديان" المعني.

([53]) انظر مثلا : الطّاهر عبد الله، **الحركة الوطنيّة التّونسيّة**، سوسة، دار المعارف، 1990، ص 153.

في سيرة مقاوم : الأزهر الشرايطي (1920 – 1963) ([*])

أيـــه الأزهر ولُـــــه دُولةْ   حاكـمتْهُم عـلى غرباطْ
خَـــــارُوا ما قدُّوا يمشُولَه   وعدده نُسخة من السّادات

شاعر مجهول

لمع اسم لزهر الشرايطي مدّة عشر سنوات تقريبا أي منذ اندلاع المقاومة المسلّحة في بداية الخمسينات (1952) حتّى سنة 1963 عندما نفّذ فيه حكم الإعدام وكغيره من غالبية قادة المقاومة (الفلاّقة) كان لزهر أميّا ولم يترك سيرة ذاتيّة ولا مذكّرات يعتمد عليها الباحث في درس تعرّجات حياته لذلك لا مفرّ أمام انغلاق الأرشيف الأمني والعدلي، من اللّجوء إلى شهادات رفاقه أو معاصريه ([1]) وذاك على وعي بحدودها من ذاتيّة الشّاهد وانتقائية ذاكرته وفعل الحاضر في تشكيلها . كذلك اعتمدنا في كتابة هذه الصّفحات في حياة الشرايطي على بعض ما ورد في الصّحافة عنه من تصريحات المعني أو تعليقات على نشاطه إذ كان زمن الجبل أو عند محاكمته إضافة لما ورد في أرشيف السّلط الإستعمارية من إشارات حوله. ولنبدأ بنشأته.

1- المنشأ : فقير بين الفقراء

بما أنّ الأزهر الشرايطي كان عمره عند محاكمته في 1963 ثلاث وأربعين سنة يرجّح أنّه ولد سنة 1920 ([2]) وذاك بأولاد شريّط أحد عروش الهمامّة بباطن العيش من

([*]) نص قدم في ندوة حول "الجنوب الغربي" (7-8-9 أفريل 2006) وصدر بمجلة روافد، 2006/11.

([1]) في رصيد معهد تاريخ الحركة الوطنية استمعنا خاصة لشهادات : السّاسي بويحي (102)، السّاسي لسود (29)، الطّاهر لسود (43)، عبادة عثمان الشرايطي (108) ومن الذّين تورّطوا مع الأزهر في محاولة انقلاب 1962 التقينا مع السّادة محمد صالح البراطلي وعلي بن سالم ببنزرت في 2005/12/30 ومع تميم لحمادي في 2005/12/25 بتونس.

([2]) في لقاء تمّ مع السيدة ربح ابنة الأزهر الشرايطي تؤكّد أنّ أباها ولد في 19 مارس 1919. (لقاء بتونس في 31 /3/ 2006).

أرياف قفصة في عائلة فلاحيّة فقيرة، لم يتعلم كأغلب أبناء الأرياف التونسيّة زمن الإستعمار وكجلّ مقاومي الخمسينات، أخذته حياة الكدح منذ صغر سنّه من عمل الأرض إلى الرّعي حتّى دخل منجم المضيلة كعامل ويبدو أنه انخرط في الإتّحاد العام التونسي للشغل وكان من مناضليه ([3]) وهكذا كان الأزهر الشرايطي أحد ثلاثة فقط من العمّال غير الفلاحيّين الذين برزوا كقادة للمقاومة في الخمسينات وهم إلى جانب الأزهر، الطيب الزلاّق عامل السكة الحديدية والمقاوم بجهة جندوبة والكاف ([4]) ومحجوب بن علي الجميلي القائد كذلك في الخمسينات في الشمال من بنزرت إلى غار الدماء والذي كان يعمل بترسخانه فرّيفيل (منزل بورقيبة) ([5]).

فالمنبت الشعبي والفقير هو سمة جلّ ثوّار الخمسينات في تونس من شمالها إلى جنوبها إذ لم تذكر كل البحوث التي تناولت حركة الفلاقة لتلك الفترة أعيانا دخلوا فيها لا أعيان ثروة ولا أعيان المناصب عل خلاف حركة المقاومة للإستعمار سنوات الإحتلال الأولى (1881 – 1883) إذ سجّل التاريخ أسماء بعض الوجاهات وحتى على رأس المقاومة لعلّ أشهرهم القائد علي بن خليفة النّفاتي.

هل يعني ذلك أنّ الفقر هو المحدّد في انخراط الرّجال في الدّفاع عن أوطانهم ؟ كلا. غير أنّ المعاينة لوقائع الحركة الوطنية ولسير فاعليها تبيّن بجلاء أنّ الفقراء كانوا الأكثر انخراطا في الكفاح وخاصة في أشكاله الأكثر خطورة من الاصطدامات مع قوات الأمن إلى امتشاق السلاح وصعود الجبل . فالغيرة على "الوطن" وعلى "الدّين" وعلى "الشرف" كما كان يتردّد على ألسن المقاومين كانت أكثر عند الذين لا يملكون الكثير من "متاع الدّنيا" ويرادف الوطن عندهم "الكرامة".

ومهما كانت الأسباب فها هو الأزهر الشرايطي يهبّ وهو في التاسعة والعشرين من عمره لنصرة فلسطين.

([3]) شهادة أخ الأزهر عبد العزيز الشرايطي (108).

([4]) حول هذا المقاوم انظر مقالنا : "الطيب الزلاق : سيرة مقاوم" بمجلة **روافد** عدد 10، 2005، ص. 291 -305.

([5]) توفي محجوب بن علي سنة 1999 لمزيد التفاصيل حوله يمكن الرّجوع إلى : **المقاومة المسلحة في تونس (1939 – 1956)** من تأليف عميرة عليّة الصغير وعدنان المنصر، نشر معهد تاريخ الحركة الوطنية، 2005، ص. 209 وغيرها.

2- الأزهر الشرايطي متطوّع لفلسطين من بين الآلاف :

حول هذا الفصل من حياة الأزهر الشرايطي لا نعرف الكثير غير ما رواه عنه أخوه عبد العزيز الشرايطي ([6]) أو ما أشار إليه هو ذاته عند استنطاقه في محاكمته في جويلية 1963 ([7]). من جنّد الأزهر وأمثاله للتطوّع لفلسطين ؟ هل هي "جمعيّة الدّفاع عن فلسطين" ([8]) أو "لجنة إغاثة فلسطين الشهيدة" ([9]) أو مناضلي الحزب الدستوري أو نقابيي اتحاد الشغل أو طلبة الزيتونة ؟ لا ندري على وجه التّحديد وهو موضوع يتطلّب البحث والتنقيب. على كلّ كان تطوّع لزهر الشرايطي للجهاد الفلسطيني سنة 1947 في إطار موجة ([10]) جهاديّة شارك فيها أكثر من 2676 تونسيّا إلى حدود جويلية 1948 حسب تقرير للمقيم العام يتوزّعون كالتالي : جهة تونس : 657 متطوّعا، صفاقس ومنطقتها : 276، سوسة والسّاحل : 256، قابس وبقيّة الجنوب : 222 متطوّعا ([11]).

وكان الأزهر الشرايطي من الذين أسعفهم الحظ ووصلوا فلسطين لأن الكثير من المتطوّعين حُجزوا في المعتقلات بليبيا أو مصر ([12]). وقد شارك المتطوّعون التّونسيون في معارك ضدّ القوات الصهيونية واستشهد العديد منهم وكان الشرايطي ضمن الفيلق المغربي وفيه تونسيّون وجزائريّون ومغاربة وطرابلسيّون ([13]) تحت قيادة ضابط

([6]) م.م.

([7]) انظر نص الاستنطاق بجريدة **الصبّاح** ليوم الأحد 13 جانفي 1963.

([8]) تأسست هذه الجمعية في 18 أوت 1947 ومن أبرز مؤسّسيها محمد الصّادق بسيّس من الحزب الدستوري القديم .

([9]) تكوّنت كذلك سنة 1947 وترأسها أحمد بن ميلاد من الدستور القديم.

([10]) من الذين تطوّعوا معه من قفصة منصور بالحاج التليجاني والهادي قدورة وعمّار بن منصر التليجاني حسب شهادة الكاتب الخاص للأزهر في الجبل المقاوم السيد عبيد بن منصور الشرايطي في لقاء معه بقفصة في 2006/4/7.

([11]) التقرير بتاريخ 1948/07/22 بأرشيف وزارة الخارجية. مترجم **بالمقاومة المسلحة (1939 – 1956)** م.م. ص. 84.

([12]) حول هذا الموضوع يمكن العودة إلى مقال سمير البكوش : "صدى القضيّة الفلسطينية بتونس وصراع القوى السّياسية حولها بين 1947 – 1948 " بمجلة **روافد**، عدد 6، 2001، ص. 31 -60.

([13]) شهادة عبد العزيز شريّط، م.م.

ســوري. وكانــت عودته بعد سنتيــن أي فــي أواخر 1949 ([14]). هل تحصّل على الجنسيّة السّورية هنالك ؟ هل تزوّج بسوريّة ؟ هل رُقّي إلى رتبة ملازم في الجيش السوري ؟ يصعب الإقرار بذلك خاصة وأن المعني لم يدل بهذه المعطيات عند استنطاقه في محاكمته عن ماضيه في سوريا وفلسطين وكل ما في الأمر أنه بقي بالجيش السّوري سنتين برتبة جنديّ فقط ([15]). نقدّر إنّ الأمر يختلف مع الشريك الآخر للأزهر في محاولة انقلاب 1962 أي عمر البنبلي أصيل القلعة الكبرى الذي شارك في حرب فلسطين ضمن الجيش المصري ورقّي فعلا إلى رتبة ضابط ولم يعد إلى تونس من لبنان إلا سنة 1956 ([16]).

ومهما كانت المشاركة الفعليّة للمتطوّعين للجهاد في فلسطين فإن هذه التجربة "الجهادية" ولّدت لدى العديد من العائدين استعدادا للثورة على المستعمر خاصة وأنّ الكثير منهم تدرّب على السلاح والقتال شأن حسن بن عتيق جبو وعلي بن مسعود متطوّعا كمندوس فرحات حشّاد (12 ديسمبر 1952) ([17]) أو الأزهر الشرايطي الذي يبدو إنّ إهانة ضابط سوريّ للمتطوّعين واستنكاره عليهم بأنّ وطنهم "لو كانوا رجالا" هو أولى من فلسطين بالتّحرير كانا من الدوافع الرئيسية لرفع السّلاح في وجه المستعمر.

على كلّ أصبح لزهر الشرايطي كغيره من العائدين من فلسطين محلّ ريبة وحذر من السّلط الإستعمارية حتى أنّه وضع تحت الإقامة الجبريّة ولم يسمح له بالعودة للعمل بالمنجم إلا بضمان من أحد الأوروبيّين لكن لم يدم شغله فيه ليبدأ فصل آخر من حياته وهو الإنخراط في المقاومة المسلحة.

3- الأزهر الشرايطي قائد من أهمّ قادة "الفلاقة" :

متى صعد الأزهر للجبل ؟ ومن دفعه لذلك ؟ من الثّابت إنّ الرجل كان على درجة كبيرة من الوطنية ومن الحميّة على الوطن ولم تزده تجربة فلسطين إلاّ إصرارا على المضيّ إلى تلك الغاية ومن الأكيد أيضا أنّ انخراط الشرايطي في المقاومة سنة 1952

([14]) استنطاق الأزهر الشرايطي، **الصّباح**، 1963/01/13، ص.5.

([15]) ن.م.

([16]) استنطاق عمر البنبلي بجريدة **الصباح** 1963/01/13، ص.4.

([17]) حول هذا الكمندوس انظر مؤلّفنا : **المقاومة الشعبية في تونس في الخمسينات، انتفاضة المدن – الفلاقة – اليوسفيّة**، صفاقس، مطبعة التسفير الفنّي، 2004.

كان بتحريض من العناصر الوطنيّة الفاعلة بالمنطقة وخاصة من المناضل النّقابي والدستوري أحمد التليلي ([18]) وما اتّصال بورقيبة به عند زيارته لقفصة في أواخر 1951 وتحريضه له على الصّعود للجبل ([19]) كما حرّض الطّاهر لسود وغيره لدليل على أنّ الرّجل كان من العناصر المتميّزة والتي يعول عليها للدّخول في الاصطدام المسلّح مع المستعمر.

إنّ لزهر الشرايطي كغيره من المقاومين كان مقتنعا بأنّ السّلاح هو اللّغة الوحيدة التي تفهمها فرنسا و "لا انتصار للقضيّة إلاّ بالسلاح" كما ورد في رسالته للباي بتاريخ 31 جانفي 1954 ([20]) وإنّ هدفه و"هدف المقاومين إمّا النصر أو الشهادة من أجل الوطن" ([21]) كما كتب كذلك لوزير الشؤون التونسية والمغربية في 12 أكتوبر 1954.

إنّ ما يجعل انخراط الشرايطي في "المعركة الحاسمة" سنة 1952 حريّ أكثر بالتّقدير هو إنّه كان على قاعدة ماض نضالي "نظيف" خلافا للكثيرين من قادة حركة "الفلاّقة" أو مقاوميها الذين شاركوا فيها بعد ماض من السّرقة والنهب والبشارة شأن فلاّقة زرمدين (محمد يونب وصالح الوحيشي وأخوه فرج الوحيشي وحسن بن علي شهر بُوصويفة)، سنوات 1944 – 1948 ([22]) وبلقاسم قرف مــن الساحــل ([23]) ومن القياديّين هلال الفرشيشي الذي حوكم 7 مرّات بتهمة السّرقة في فترة 1928 – 1950 وحسن بن عبد العزيز الذي كان محلّ تفتيش من قبل الشرطة (في الخمسينات) من أجل محاولة القتل

([18]) حول دور أحمد التليلي في الإعداد للمقاومة المسلّحة بالجنوب الغربي انظر مداخلة البشير الشريف "نضال على مختلف الجبهات" ب : أحمد التليلي ، **في سبيل الديمقراطية**، تونس مطبعة قرطاج، 1991، ص. 132-141.

([19]) يقول لزهر الشرايطي في استنطاقه: "نعم فقد قابلت فخامة الرئيس سنة 1951 واتفقت معه على الصعود إلى الجبل"، **الصّباح**، 1963/01/13، ص 5.

([20]) الرسالة أوردها محمد الصيّاح بالفرنسية في **تاريخ الحركة الوطنية، الجزء XIV**، دار العمل، تونس، ص. 93- 96.

([21]) رسالة لزهر الشرايطي بتاريخ 12 أكتوبر 1954 إلى الوزير الفرنسي للشؤون التونسية والمغربية بأرشيف وزارة الخارجية الفرنسية Q.O. 648/ Tunisie 1944 – 1955, volume 313, ff. 134 – 136.

([22]) انظر : العثمني عبد الرزاق : **فلاقة زرمدين (1943 – 1948)** ش.ك.ب، كليــة الآداب بسوســة، 2001، **والمقاومــة المسلحــة (1939 – 1956)**، م.م. ص. 57-74.

([23]) راجع شهادته بالمعهد الأعلى لتاريخ الحركة الوطنية (رقم 87).

والسرقة ومحمد النيفر المحكوم عليه من قبل محاكم الحق العام ([24]) أو الشيخ حسن العيّادي المتهم بالقتل أو لعجيمي بن المبروك القايد في جلاص الذي عرف عنه النّهب قبل التحاقه "بالثوار" ([25]) أو أولئك الذين تحصّنوا بالجبل هروبا من القبض عليهم إثر فرارهم من السجن كالذين فرّوا من زندالة باردو في 22 أوت 1953 أو من السجن المدني بتونس في 4 أفريل 1954.

ومهما كان الأمر حول تاريخ خروج لزهر الشرايطي للجبل في أواخر 1951 أو بعد عملية السطح في 13 فيفري 1952 واغتيال سليمان بن حمُودة خليفة بلدة القطار فإنّ هذا المقاوم انتقل إلى جهة الحامّة ليلتقي هنالك بالطاهر لسود وبالساسي لسود ليعود في مارس أو أفريل 1952 إلى جبال قفصة ومعه المقاومون محمد بن أحمد وعلي بن ضو ويانس اليزيدي والسّاسي لسود ([26]) وهناك تركّز نشاطه في التّوعية والتّجنيد "لعصابات" المقاومة وانطلقت عملياته في "محاربة العدو" ليبرز اسمه كقائد للفلاّقة ويتغنّى به الشعراء الشعبيّون شأن القادة الطاهر لسود والساسي لسود وحسن بن عبد العزيز وهلال الفرشيشي ومصباح الجربوع والبرني البناني وعمّار سلوغة وعلي الصّيد ومحمد علي السّاكري وغيرهم كثيرين. لكن ثلاثة أسماء من بين هؤلاء لمع نجمهم في "ملحمة" الفلاقة هذه وهم الطاهر لسود والسّاسي لسود والأزهر الشرايطي ولعلّ مؤتمر سمّامة الذي عقده المقاومون في ربيع 1954 ([27]) لإكساب المقاومة التنظيم والتنسيق الضروريين وانتخاب المشاركين فيه للأزهر الشرايطي قائدا عامّا للمقاومة والطاهر لسود (الذي كان في فريقة) ولم يحضر المؤتمر عيّن مساعدا أولا للشرايطي أمّا السّاسي لسود فقد سمّي مساعدا ثانيا ([28]) يؤكد المكانة التي كان يحظى بها الأزهر الشرايطي لدى المقاومين ودوره الفعلي

([24]) عن **الصباح** : 1954/11/9، أورده ناصري محمد المختار، **المقاومة التونسية المسلحة واشكالياتها (1952 – 1956)** أطروحة دكتوراه، كلية العلوم الانسانية والاجتماعية بتونس، 2002، ص. 26.

([25]) شهادة الطاهر لسود، م.م.

([26]) شهادة عبد العزيز الشرايطي. م.م.

([27]) لا نمتلك معطيات دقيقة حول هذا المؤتمر إذ تتضارب الشهادات حول عدد المشاركين فيه وحتى في تاريخه بالضبط وكذلك حول قراراته.

([28]) شهادتي السّياسي بويحي وعبد العزيز الشرايطي. م.م. وشهادة كاتب الأزهر السيد العبيدي الذي يضيف أن المؤتمر حضره كذلك مختار عطيّة وعزّوز الرباعي عن الحزب الدستوري الجديد.

كقيادي فيها وهو ما يؤكده هو ذاته حيث أجاب عندما سأله مبعوث جريدة "الصباح" : "هل أنتم القائد الأعلى للثوار؟" بـ : "إن جميع فرق الثوار يعترفون بسلطتي" ([29]). هل كان ذلك فعلا ؟ لا نعتقد ذلك. فها هو الطاهر لسود يحكي لقاء له جمعه مع الحبيب بورقيبة والأزهر الشرايطي سنة 1955 يقول عن هذا الأخير "لزهر سفسوف ماهوش قائد" ويضيف أنّ الأزهر أجاب : "بالحق سفسوف هو اللّي ربّاني" ([30]). أمّا الساسي لسود فيقول : "الأغلبية الساحقة هم همامّة وأنا أقودهم وأستنكر لزهر الشرايطي كيف يكون ذلك والأغلبية همامّة وطرحنا المسألة للتصويت وقد صوّت لي 400 وذهب معه 4 أفراد (هكذا) الهمامة لا يعترفون بلزهر الشرايطي" ([31]). إنّ رأيي القائدين الطاهر والسّاسي يعبّران على علاقة التنافس وربّما تصفية حسابات بين الثلاثة ([32]) لكن في الآن ذاته يؤشران على أنّ قوّاد المقاومة كانوا فعلا مستقلين "بعصاباتهم" حتى وإنّ جدّ تعاون في بعض الأحداث أو ولاء من قوّاد من الصف الثاني لأحد القادة الكبار.

وكيف ما كانت العلاقة بين قواد المقاومة فإنّ منطقة الجنوب الغربي ([33]) مجال نشاط الأزهر الشرايطي كانت الأسخى من حيث عدد المقاومين إذ على 2869 مقاوما سجّلوا إثر تسليم السلاح في ديسمبر 1954 في كامل البلاد نجد منهم 1365 بالجنوب الغربي ومن بين هؤلاء 721 من همامة سيدي بوزيد والسند... و 543 من منطقة قفصة و101

([29]) **الصباح** : 1954/12/3.

([30]) شهادة الطاهر لسود، الشريط عدد 3 م.م.

([31]) شهادة الساسي لسود، م.م.

([32]) المعروف أن السّاسي لسود ولزهر الشرايطي وقفا إلى جانب بورقيبة بينما الطاهر لسود كان في صفّ صالح بن يوسف والمعروف كذلك أن تنافسا وتحاسدا وقع بين السّاسي والأزهر في فترة الاستقطاب من طرف السلطة ثم أنّ الأزهر عند محاكمته حاول أن يورّط السّاسي لسود بادّعائه المشاركة في محاولة الإنقلاب وتهديد الأزهر على ذلك. (راجع تصريحات الأزهر عند المحاكمة في **الصّباح** جويلية 1963).

([33]) رغم أهمية المقاومة بالجنوب الشرقي أي جهة قابس والحامة وعكارة ومطماطة وورغمّة فإنّها كانت أقلّ عددا وبرز النشاط المقاوم فيها خاصة في "الثورة الثانية (1955 – 1956). راجع في ذلك:
- عروسية التركي، **المقاومة المسلحة في جهة الأعراض من 1952 إلى 1954**، ش.ك.ب.، كلية العلوم الانسانية تونس، 1985.
- **المقاومة المسلحة في تونس (1939 – 1956)**، م.م.

مقاوما من توزر ([34]). ويبدو أنّ ثوار هذه المنطقة من نشاط "الفلاّقة" تقاسم قيادتهم قائدان: الساسي لسود الذي كان تحت إمرته أغلب مقاومي جهة سيدي بوزيد والمقدّر بـ 446 مقاوما والأزهر الشرايطي الذي كان يتبعه جلّ مقاومي قفصة (375 مقاوما) وتوزر (90 مقاوما) وتحت إشرافه قواد "العصابات" (الكتائب) التالين : الهادي بن علي بن رابح (الخمايليّة)، مبروك بن احمد بن إبراهيم (ماجورة)، محمد بن علي بن الحاج (سيدي بن عون)، محمد الطيب بالحاج (المساطرة) ([35]).

ما هي المعارك التي خاضها أو قادها الأزهر الشرايطي؟ إنّ أهمّ المصادمات التي كان طرفا فيها جدّت بجبال قفصة في أواخر سنة 1954 بالتحديد عندما وضعت السلط الاستعمارية في هدفها القضاء على المقاومة المسلحة لرفع الضغط عليها في المفاوضات الجارية آنذاك منذ سبتمبر 1954 بباريس حول الاستقلال ومنع الالتحام بالمقاومة الجزائرية التي بدأت منذ 1 نوفمبر 1954. هذه المعارك هي : معركة زلّين في أمّ قصور في صيف 1952، معركة السّلوم في خريف 1952، معركة سيدي عيش الأولى (18 سبتمبر 1954)، معركة الرديف (أكتوبر 1954)، معركة سيدي عيش الثانية في 20 – 21 نوفمبر 1954 ([36]). ويبدو أنّ الأزهر مع بعض المقاومين بعد تسليم السلاح في ديسمبر 1954 انحاز نحو الجزائر وشارك في بعض "الحوادث" هناك مثل معركة عين بابوش ([37]).

وقد سلم الأزهر الشرايطي ومن معه سلاحهم يوم 8 ديسمبر 1954 بسيدي عيش على يدي أحمد التليلي وحسونة بن الطاهر عضوي لجنة الاتصال بجهة قفصة وتسلم المقاومون "شهادة أمان" (بطاقة دولاتور)، كما كان يسمّيها المقاومون ([38]) وهكذا لم يشذ الشرايطي على بقيّة قادة المقاومة على عكس أكبرهم الطاهر لسود الذي سينخرط في الصف الآخر أي صف المعارضين لتسليم السلاح ولاتفاقيات الإستقلال الداخلي. لذا

([34]) محمد مسعود إدريس : "المقاومة المسلحة بالجنوب الغربي للبلاد التونسية، 1952 – 1954: استنتاجات أولية من خلال بعض الاحصائيات"، بأعمال الندوة : **حول الجنوب التونسي من الاحتلال إلى الاستقلال (1881 – 1956)**، نشر معهد تاريخ الحركة الوطنية، 2005، ص 189.

([35]) محمد مسعود إدريس، م.م. ص 195.

([36]) حسب شهادات عبادة بن عثمان الشرايطي والسّاسي بويحي وعبد العزيز الشرايطي، م.م.

([37]) شهادة عبد العزيز الشرايطي (108).

([38]) شهادة عضو فرقة الأزهر الشرايطي البشير بن نصر الزيدي (107).

الأزهر الشرايطي الذي صرّح لمبعوث جريدة "الصباح" قبل تسليمه سلاحه بقوله "سأقوم بأية مهنة كانت وسأعمل في المنجم كما كنت" ([39]) سوف يكون له مصير آخر.

4- الاستقلال والتّوظيف وقطف الثمار المرّة

دخل الفلاّقة ومن ضمنهم الأزهر الشرايطي بعد تسليم السلاح مرحلة جديدة فيها كثير من التبجيل وكثير من الأمل وكثير من الخيبات وأضحوا قوة مراهنة ومناورة لدى التنظيمات الوطنية وخاصة لدى الحزب الحر الدستوري الجديد ولدى جناحيه المتصارعين إثر الإنشقاق والخلاف حول اتفاقيات 3 جوان 1955 ويلخص النقيب الفرنسي سويريس (A. Souyris) وضع الفلاقة الجديد بقوله : "بما أنهم يعتبرون كأبطال الكفاح الديني والوطني فقد حظي الفلاقة لدى السكان بهيبة كبيرة وعمل الحزب الدستوري الجديد على دوام تأثيره عليهم وتوظيفهم لتعزيز نفوذه على مختلف عناصر البلاد" ([40]).

وحتى قبل إمضاء الإتّفاقيات سوف يعمد الحزب الدستوري الجديد إلى المناورة بالفلاّقة وتوظيفهم والتّهديد برفع السلاح من جديد خاصة عندما تعثّرت المفاوضات حول الاستقلال. ففي غضون شهر جانفي 1955 اتصل القيادي الدستوري ووزير الدولة والمفاوض في حكومة الطاهر بن عمّار المنجي سليم بالأزهر الشرايطي محاولا إقناعه بضرورة تجميع مقاتليه والصعود للجبل ثانية فرفض هذا الأخير رفضا قاطعا وتعذّر بصعوبة أن يطيعه رفاقه من القدماء بعدما حصل لهم من خسائر في الوقائع الحربية قبل تسليم السلاح ([41]).

ويفيد روجي سيدو (Roger Seydoux) المعتمد لدى الإقامة العامّة إن القائد الآخر الساسي لسود اعتذر هوّ أيضا للطلب ذاته من المنجي سليم ([42]).

لكن لئن لم يستجب الأزهر الشرايطي هذه المرّة لطلب الحزب رفع السلاح ثانية للضغط على المفاوض الفرنسي فإنه سوف يدخل طيّعا في لعبة الشق المنتصر، شق

([39]) الصباح في 1954/12/3.

([40]) Cne A. Souyris : « *le Mouvement fellaga tunisien. Expression d'une révolution sociale* » in **Rawafid**, n°2/1996. pp. 155-171, p. 166.

([41]) برقية روجي سيدو الوزير المعتمد لدى الإقامة العامة بتونس بتاريخ 1955/01/29 بـ : (Q.O. 649 / Tunisie 1944 – 1955, V.314, f.32).

([42]) ن.م.

بورقيبة منذ عودته من المنفى في 1 جوان 1955 حيث حظر الشرايطي وكل قيادي عصابات المقاومة في استقبال الزعيم بتونس وحُظوا بقبوله لهم وحتى في حراسته في "معقله" بالعاصمة (43). لكن الأزهر لم يكن من المقرّبين للرئيس شأن حرسيه المباشرين القائدين أيضا حسن بن عبد العزيز الورداني ومحجوب بن علي الجميلي. هل لأن حسن بن عبد العزيز ساحليّ مثل بورقيبة ؟ لكن محجوب بن علي هو أيضا ليس من الساحل أو لأن صراعا للفوز بالحظوة لعبت فيه النساء المقرّبات من رئيس الحزب (ابنة أخته وعشيقته وسيلة بن عمّار) الدور الأهم كما يدّعي الساسي بويحي ؟ على كل سوف يمنح الأزهر الشرايطي وقتيّا مكانا للسكن في قصر الباي بحمّام الأنف ويصبح من المقرّبين لوزير الداخلية في الحكومة التونسية الطيب المهيري. هل هي صداقة فعلية بين الرجلين أم احتياط رجل مخابرات من مقاوم كبير يتمتع بشعبيّة وبكلمة لا زالت مسموعة لدى قدماء الفلاقة ويجب مراقبته وربّما استعماله ؟ ربّما الاثنين.

وبالفعل عند انفجار الصّراع بين جناحي الحزب الحرّ الدستوري الجديد وخاصة بعد عودة صالح بن يوسف الأمين العام في 13 سبتمبر 1955 وانتقال الخلاف من مستوى الكلام والتّلاسن إلى درجة العنف ورغبة كل طرف في اسكات الآخر إن لم يكن القضاء عليه اختار الأزهر الشرايطي أن يقف في صف بورقيبة كغالبية قوّاد "الثورة الأولى" (44) على عكس قواد آخرين شأن الطاهر لسود وعبد الله البوعمراني وعمّار بنّي وعبد اللّطيف زهير الذين انخرطوا في المعارضة للاتفاقيات وكانوا من الرؤوس الهامة والقياديّة في ما سمّاه اليوسفيون "بالثورة الثانية" (1955 – 1956).

على كل لقد كوّن البورقيبيون في أواخر 1955 "عصابات" لملاحقة اليوسفيّة تعرف "بلجان الرعاية" (45) متألفة خاصة من قدماء الفلاقة والمتحمّسين لبورقيبة وحتّى من

(43) شهادة الساسي بويحي المذكورة. كذلك شهادة المناضل علي المعاوي في لقاء مع المؤلف في تونس في 2006/02/19.

(44) حول حادثة اختيار المواقع لبورقيبة أم لصالح بن يوسف وحضور الشرايطي الجلسة التي جمعت الزعيم بهذين القائدين يمكن سماع رواية الطاهر لسود في شهادته المذكورة كذلك شهادة بويحي في "ملف الخلاف اليوسفي البورقيبي" م.م. ص. 220 – 221.

(45) رغم تكون هذه اللجان في أواخر 1955 لم يصدر من الوزير الأكبر قرارا في تكوينها إلا في 31 مارس 1956 ولم تحل إلا في 6 جويلية 1956 (انظر **الرائد الرّسمي** 27 / 1956/04 و 1956/07/10).

شريحة المتعاونين مع الإستعمار أو المتخاذلين والسّاعين لركوب التيّار (46) على رأسها قوّاد سابقين للفلاقة، مثل حسن بن عبد العزيز في جهة الساحل وصفاقس والسّاسي لسود في جهة قابس والحامة والعجمي المبروك بجلاص والمصباح الجربوع بالتراب العسكري بالجنوب وأحمد الردّاوي بقطاع سيدي بوزيد والساسي بويحي والبشير الزيدي وعبد الوهاب السندي بجهة قفصة (47). وكانت هذه المجموعات المسلحة تنشط بالزّي المدني (القشابيّة) تحت أوامر القيّاد والحزب الدستوري وفي تعاون وتنسيق مع قيادة الجيش الفرنسي لمتابعة وملاحقة العناصر اليوسفية. أمّا الجهاز الآخر الذي جنّده الجناح البورقيبي، للقضاء على الخصوم كان "المخزن المتجول الإضافي" الذي وضعته الداخلية تحت إشرافها لإعطائه طابعا رسميا وكان جلّ عناصره أيضا من قدماء الفلاقة أساسا (48) ونشط فيه قوّاد شأن محجوب بن علي خاصة في منطقة الشمال الغربي وكذلك الأزهر الشرايطي في جهة قفصة والمتلوي حيث يذكر الجنرال قيبون (Guillebon) قائد فرقة الجنوب في الجيش الفرنسي إنّ الأزهر كان على رأس مجموعتين متكوّنتين كل واحدة من 20 عضوا من قدماء الفلاقة (49) وكان نسّق تحركاته مع قوات الجيش الفرنسي في ملاحقة المعارضين من اليوسفيين (50) هل تورّط الأزهر الشرايطي في أعمال عنف أو قتل او تعذيب مثل ما يحكى عن ما جدّ "بضباط الظلام" على يدي الشيخ حسن العيادي بالعاصمة مثلا ؟ أو ما وقع بزاوية سيدي بن عيسى ببني خلاد (51)؟ إنّ المصادر المتاحة

(46) انظر في هذا الموضوع ملف "الخلاف البورقيبي – اليوسفي" **بالمجلة التاريخية المغاربية**، عدد 2004/114، ص. 215-257.

(47) انظر في نشاط هذه العصابات تقارير الاستعلامات العسكرية بـ : SHAT 2H, C. 2H 312, D1 et 2H 311, Dl.

48- حلّ هذا الجهاز في شهر أوت 1956 كما حلّت لجان الرّعاية شهرا قبل ذلك لانتهاء الغرض من بعثهما. انظر تقرير الجنرال قيبون بتاريخ 1956/08/26 بـ : S.505/ SHAT 2H ; C. 2H 312, Dl. – f. 563

(49) R. du G. Guillebon du 28/03/1956, in s. 505/SHAT. 2H.C. 3H 312, Dl. f.389.

(50) R. du G. Guillebon du 25/02/1956, in S. 505 / SHAT. 2H. C. 2H 312, Dl. f. 367.

(51) تحكى كثير من الفضاعات من التعذيب والقتل جدّت في تلك "المحنة" وليس للمؤرخ إلا أنّ يشير لذلك حتّى تثبت ادعاءات كل طرف . ويمكن كمثال على ذلك قراءة شهادتي مثلا المحامي الأزهر القروي الشابي أو المناضل عبد الستار الهاني بالملف "الخلاف البورقيبي – اليوسفي" **بالمجلة التاريخية المغاربية**. م.م.

من شهادات أو تقارير الجيش الفرنسي لا تذكر ذلك ولا كذلك ما بقي في ذاكرة من عاشوا تلك الفترة من قدماء المناضلين.

على كل بانتصار الشق البورقيبي والقضاء على الخطر اليوسفي وطي صفحة الفوضى والملاحقات العشوائية مع صائفة 1956 واستتباب الأوضاع واقتسام "أرباح" النصر على فرنسا وعلى "المعارضين" سوف يجد الأزهر الشرايطي نفسه في صفّ المنتصرين وحتّى الرّابحين فهو أصبح من شبه أعيان العاصمة يلبس الطربوش الطويل ويخالط الشخصيات ويدخل على وزير الدّاخلية بدون إذن ويسكن "فيلا" بالزهراء وتزوّج سويسريّة وامتلك سيارة ومنح رخصة نقل بخمسة عشرة طنا ورخصة سيارة أجرة لأخيه وامتلك ضيعة بمجاز الباب مساحتها 200 هكتار عن طريق المغارسة بها آلتي حصا [52].

لكن هل هذه الإمتيازات التّي حوّلت الأزهر الشرايطي ذاك من إنسان بسيط وفقير حتّى 1955 إلى تلك الشخصيّة التّي أصبحت تجلب الإعجاب وربّما الحسد سوف ترضي هذا القائد وتضمن ولاءه للحبيب بورقيبة ؟ أو دوافع أخرى سوف تقلب "فلاّق الأمس" و"تلعب نشوة الانتصار والطموح" برأسه ليشارك في مغامرة أخرى تودي به إلى النهاية.

5- الخيبـــة والتمـــرّد :

من المعروف أنّ الأزهر الشرايطي تورّط في محاولة الإنقلاب على النظام في ديسمبر 1962 وحوكم مع المجموعة الإنقلابية في جانفي 1963 [53] حتى أنّ العمليّة أضحت تعرف بـــ "انقلاب لزهر الشرايطي" وليس في نيّتنا هنا تناول موضوع "الانقلاب" بل البحث في دوافع انقلاب هذا القائد الموالي لبورقيبة إلى متآمر يريد أن يقصّ رأس الزعيم "لتنشف العروق" حسب العبارة التي رويت على الشرايطي.

إنّ الرجل لم يعلن مسؤوليّة المشاركة في التآمر على العكس قدّم نفسه على أنّه غُرّر به وغصب على أمره ووُرّط فيها حيث صرّح في المحكمة : "إنّي وقعت في هاوية وقد تورّطت وخاصة وهم "ثعابين" (يقصد شركاءه في المحاولة) وقد كافحت كثيرا فما هو

---

[52] استنطاق الأزهر الشرايطي بجريدة **الصباح**. 1963/01/13. ص.5.

[53] حول هذه المحاولة الانقلابية يمكن الاطلاع على أراء بعض المتورّطين فيها ضمن ملف "المحاولة الانقلابية لسنة 1962" **بالمجلة التاريخية المغاربية**، عدد 2004/114، ص. 259-290 ومتابعة جريدة **الصباح** للمحاكمة من 1 إلى 17 جانفي 1963.

موقفي اليوم أمام الشّعب بعد هذا الكفاح وما هي غايتي من التّحول في حركة من هذا النّوع (...) أنا لا أريد هذه الحركة ولكن ورّطت لأنّي جبان" [54]. وهنا نحن لا يعنينا أسلوب الدفاع الإنكاري وادّعاء التّوريط ولا حتّى البراءة من دونها بل الذي يهمّنا تفسير تحوّل الأزهر الشرايطي من الولاء إلى العداء. في تقديرنا بعد اطلاعنا على المتوفّر من الشهادات وسماع رفاق الشرايطي [55] وشهادة ابنته وقراءة ما ورد في أرشيف الاستعلامات العسكرية حول قدماء الفلاقة لأنها كانت تتبّع تحركاتهم يمكن تفسير موقف الشرايطي هذا بعوامل عامّة وأخرى ذاتية.

أوّل دافع نعتقد كان في الحالة التّي صار عليها "قدماء الفلاقة" والذي يعتبر لزهر الشرايطي نفسه ممثّلا عنهم أو على الأقل كبيرهم والمتكلّم باسمهم حتّى أنه قاد مظاهرة في 28 نوفمبر 1955 شارك فيها 200 مقاوم تطالب بحقوق المقاومين بعد المظاهرة التّي قادها السّاسي الأسود في 21 أكتوبر 1955 وفيها ألف مقاوم [56] وذكر في محاكمته "أنّي بقيت قلقا من طرف الثوار الذين كانوا معي وجاؤوني المرار العديدة يطلبون تحسين حالتهم وذهبت بهم مرّة للرّئيس وحدثته عن حالتهم" [57]. وهو ما شهد به رفاقه مثل الساسي بويحي وتميم لحمادي ومحمد صالح البراطلي. وفي الواقع رغم أن النّظام الجديد حاول تلبية مطالب قدماء المقاومين قدر جهده برصد منح على تواضعها وتوظيف البعض في جهاز الحرس الوطني أو في الجيش أو كشوّاش إدارات وتشغيل آخرين في الحظائر ومنح البعض (لعلهم المحظوظين) رخص نقل أو ضيعات معمّرين لكن الأغلبية من قدماء الفلاقة وجدت نفسها في حالة من البطالة والاحتياج وأصبح شعورهم كما كتب روجي سيدو منذ 31 جانفي 1955 بأن "هؤلاء المحامين (أي السّياسيين الذين أخذوا زمام الحكم) بعدما جرّوهم ها هم يرفضون منحهم العناية التّي تستحقها المشاق التّي تحمّلوها والأخطار التّي تعرّضوا لها" [58] . ولعلّ رأي بورقيبة لا يجانب الحقيقة كثيرا عندما صوّر حالة قدماء الفلاقة بعد الاستقلال على أنّهم "أناس بسطاء استقرّ في أذهانهم أنّهم هم الذين رفعوا

---

[54] استنطاق الأزهر الشرايطي بجريدة **الصباح** ليوم الأحد 1963/01/13، ص.6.

[55] نعني السادة : محمد الصالح البراطلي وتميم لحمادي وعلي بن سالم، م.م.

[56] **الصباح** 1955/11/29.

[57] **الصباح** 1963/01/13. ص.5.

[58] R. de Roger Seydoux du 31/01/1955, in QO 649, Tunisie 1944-1955, V. 314, ff. 34-36.

السّلاح وحاربوا في الجبال إلى أن خرجت فرنسا وهكذا أصبحوا يحسبون أنهم هم الذين أسسوا الدّولة ومن ثمّ يجب أن تكون تحت تصرّفهم وأن يكونوا هم الوزراء والسّياسيون والسّفراء والقادة وأن تسند إليهم رخص النّقل وتمنح لهم الضّيعات وامتيازات التّصدير والتّوريد (...) هكذا كانوا يتصوّرون الاستقلال وبما أنّهم قاموا في الجبال وشكّلوا ما يدعى بجيش التحرير وظهر فيهم القائد الأزهر والقائد ساسي ومن لفّ لفّهما فإنّهم يجسّمون هذه الدّولة وأنّنا استثمرنا جهودهم وتبوّأنا الكراسي وتخلّينا عنهم (...) هذه هي نفسيّة "الفلاقة" ولا أقول نفسية المقاومين ومن حسن الحظ أنها لا تشمل جميعهم" [59].

لكن هل الحقد فقط على نظام لم يجز "رفاق الجبال" حقّ قدرهم هو الدّافع الوحيد لمحاولة الانقلاب على بورقيبة أو دوافع أخرى أخرجت الأزهر الشرايطي من تردّده [60] وانخراطه في المشروع وفتح داره بالزهرة لاجتماع المتآمرين والاتّصال بعناصر المؤامرة خاصة وإن أحد معارفه من المتطوّعين بفلسطين سنة 1947 الضابط عمر البنبلي كان ضمن المجموعة والمتحمّسين فيها ؟ أو هل كان يبيّت مثل ما كانت كتبت "جان أفريك" أنّه سيصبح وزير دفاع في الحكومة الثّورية [61] وله مكانة القوّاد الكبار شأن أحمد بن بلّة في الجزائر ويرتدي زيّ الضّابط السّامي الذي كثيرا ما حلم به وناشد وزير الدّاخلية الطّيب المهيري أن يمنحه إيّاه على الأقلّ شرفيّا مثل ما اعترف بذلك في محاكمته [62] ؟ أو لأن عوامل أخرى موضوعيّة هذه المرّة أقنعت الشرايطي على فعل ما فعل؟ نعتقد أن جوّ التّذمر العام الذي طبع المجتمع التونسي بداية السّتينات لم يكن لكي لا يؤثّر في رجل سليل وسط شعبي يعاني من البطالة وغلاء المعيشة والشعور بالإحباط خاصة في الجنوب الجهة التي منها الشرايطي ولا أن يكون غير مبال كذلك ببداية تراجع شعبية الزّعيم بورقيبة وحقد النّاس عليه خاصة عندما نادى بإفطار رمضان في خطابه في

[59] الحبيب بورقيبة، من خطاب 18 جانفي 1963 بتونس في **خطب**، ج. 15، وزارة الإعلام، تونس، 1979، ص. 37-40.

[60] يبدو أن الأزهر الشرايطي لم يكن الرأس المدبّر لمحاولة الانقلاب ولا حتى من المتحمّسين لها في الأول : راجع شهادة الساسي بويحي في "ملف محاولة الانقلاب" وكذلك في استنطاقه بالمحكمة في **الصباح** ولعلّ عبد العزيز العكرمي بشهادة رفاقه كان العقل المدبّر لمشروع الانقلاب على بورقيبة.

[61] عن **الصباح** 1963/01/1. ص.5.

[62] وهو ما أقرّ به الأزهر الشرايطي في استنطاقه في محاكمته . **الصباح** في 1963/01/13 ص.5.

8 فيفري 1960 أو عندما أدار معركة بنزرت في جويلية 1961 بطريقة ذهب ضحيتها الآلاف دون نتيجة مرئيّة خاصة وأنّ الأزهر الشرايطي الذي كُلّف من الطيب المهيري كما كُلّف غيره لإعداد المتطوّعين "لحرب الجلاء" عن بنزرت وبعدما أتمّ ما طلب منه أبعد الشرايطي إلى قابس ثمّ رمادة [63]. أتحذّرا منه أو تنكيلا به ؟ على كل لم تكن هذه العوامل المختلفة الذاتية أو الموضوعيّة إلاّ لأن تقنع الأزهر الشرايطي بضرورة رفع السّلاح من جديد للقضاء على نظام لم يقدّره حقّ قدره ولم يقدّر تضحيات الشعب ولا معتقداته كما كان يردّده المورّطون في مؤامرة ديسمبر 1962.

وفشلت محاولة الإطاحة بنظام بورقيبة وحوكم المتورّطون وصدر الحكم عليهم من المحكمة العسكرية في 17 جانفي 1963 بأحكام قاسية منها ثلاثة عشرة حكما بالإعدام ومن ضمنهم الأزهر الشرايطي وكان تنفيذ الإعدام بعد أسبوع فقط في مكان مجهول والدّفن كذلك [64]. وهكذا أسدل السّتار على حياة مقاوم تردّد إسمه طويلا.

الخـاتمـة :

لئن كان الطيب الزّلاق أوّل قائد مقاومة يعدم في عهد الاستقلال في جويلية 1956، فإنّ الأزهر الشرايطي كان آخر قائد يعدمه النّظام الجديد الذي عمل جاهدا في إطار بناء "التاريخ الوطني" على تهميش دور "أبطال الجبال" هؤلاء ومحو آخرين من الذّاكرة الجماعيّة أو إفساد ذكراهم [65] فإن البحث الموضوعي يبيّن أهميّة تدخّل مقاومي الخمسينات في صنع تاريخ تونس وفي إحراز استقلالها ويثبت كذلك إنّ إعادة التّرتيب الاجتماعي والسّياسي واقتسام "أرباح النّصر" تفترض الرّابحين والخاسرين ولعلّ الأزهر الشرايطي كان من الذين قامروا على الأكثر فخسر الكلّ. ويبقى الرّجل أحد رموز المقاومة الشّعبية للاستعمار في تونس.

[63] كلف الأزهر الشرايطي والساسي بويحي حسب شهادة هذا الأخير بمعهد تاريخ الحركة الوطنية بأن يعدّوا 800 مقاوم في حي الخضراء وليلة معركة بنزرت أبعد الأزهر وانتقل هو إلى بنزرت. ونفس الرواية نجدها في شهادة عبد العزيز الشرايطي. م.م.

[64] في استجوابنا للسيد تميم لحمادي حول مكان تنفيذ الإعدام ومكان الدفن ذكر لي أنه من القائل إنّ الإعدام تمّ بالرّصاص بالسّجن وإن مكان الدفن مجهول وحتى شهادة الوفاة لم تسلّم لعائلات المعدمين.

[65] محاولة إنساء ذكرى هؤلاء المقاومين شملت حتى عائلاتهم التي وصلت إلى حدّ إخفاء انتسابهم لهم. انظر مثلا شهادة ربح بنت الأزهر الشرايطي بـ : ملف "الخلاف البورقيبي اليوسفي" م.م. ص. 254

القسم الثاني:

في التضامن والتحرر

في المغرب العربي

لم يقتصر شعور التونسيين أو وعي نخبهم بالانتماء إلى نفس المجموعة البشرية مع الشعوب المغربية على التعاطف مع قضاياها بل ارتقى التّواصل معها إلى التّضامن والتّنسيق النضالي على أكثر من مستوى وتبيّنت لنا هذه الحقيقة التاريخية من خلال مجموعة من البحوث أنجزناها ([1]) في إطار مشروع مؤلّف لم يكتمل بعد موضوعه التّواصل النّضالي بين شعوب المغرب العربي إيمانا منّا بحقيقة هذا التواصل أوّلا وثانيا بنجاعة وإثمار المقاربة الجامعة لتاريخ المنطقة لما تسمح به من إمكانيات مقارنة وتنسيب هي من ضرورات أي بحث علمي فإخراج البحث في تاريخ الحركة الوطنية التونسية من الإطار "القومي" (التونسي) الضيق الذي تسير عليه هو ضرورة منهجيّة ملحّة نعود إلى تفصيلها في العنصر الخامس وهي كذلك مجزية في مستوى آخر لا يعني المؤرّخ بالذات لكن لا بأس من ذكره وهو المستوى السياسي و"تطلّعات" شعوب المغرب وحكامها للتوحّد في عالم يقوم على التّكتّلات.

وقبل أن نأتي على أهمّ أشكال هذا التّواصل النضالي بين الشعوب المغربية ونخبها في مقاومة الاستعمار والذي نقدّر أنّنا ساهمنا في الكشف عن جوانب جديدة منه نقف أوّلا عند

([1]) البحوث المعنيّة هي خاصة : "النخبة في تونس والقضايا العربيّة في ما بين 1920 و 1925"، في المغرب في العشرينات، نشر معهد تاريخ الحركة الوطنية، 2001.

- "الوطنيّون التّونسيّون والقضيّة المغربية (1912 – 1956)" ضمن هذا الكتاب.

- "عبد الكريم الخطابي في عيون التّونسيين"، ضمن هذا الكتاب.

- « Les Tunisiens et la révolution algérienne (1954-1958) », in **Méthodologie de l'Histoire des mouvements nationaux au Maghreb**, FTERSI, Zaghouan, 1998, pp. 109-141.

- « La Tunisie : Base arrière de la révolution algérienne (1954-1962) » à paraître aux actes du colloque : **La révolution algérienne dans les écrits arabes et étrangers** », organisé par le Ministère des Moujahidin, Alger (3-5 Juillet 2002).

- « Trafic d'armes en Tunisie : 1942-1962 », in **IBLA**, n° 192, 2002-2003, pp. 109-141.

بعض الشروط الموضوعيّة التي كثيرا ما تغيّب عند قراءة تاريخ هذا التّضامن أو تصرف بسرعة. أوّلها طبعا دور الاستعمار وهنا الاستعمار الفرنسي بالذّات الذي جعل "المغرب" أو ما اصطلح على تسميته بـ"شمال إفريقيا" واقعا تاريخيّا واحدا بما أنّه يخضع لنفس الاستعمار (حتى وان كانت إسبانيا تحتل الرّيف المغربي والصّحراء الغربية ووادي الذّهب)، ويعامل كوحدة لغاية غير خافية لعزله عن الشرق العربي مجال النفوذ الأنجليزي، فالاستعمار الفرنسي أنتج هذا التّواصل بين شعوب المغرب رغم إرادته. وهو الذي يفسّر كذلك ضعف التّواصل والتنسيق بين النّخب الوطنية في المغرب الأقصى والجزائر وتونس مع النخبة الوطنية اللّيبية التي كانت تقاوم استعمارا آخر أي إيطاليا والتي حصلت على استقلال بلدها في ظروف خاصة وبتدخل منظمة الأمم المتّحدة كما هو معروف منذ 1951.

وثاني هذه الشروط هو تجربة الهجرة خاصة منذ الحرب العالمية الأولى إذ مثّلت باريس أوّلا والقاهرة ثانيا قاعدتين ثابتتين للمعارضة والمقاومة الوطنية المغاربيّة تلاقت فيها أجيال المناضلين من البلدان الثلاثة وتعارفت وتبادلت الخبرات وأثّرت وتأثّرت وتكوّن وجدانها النّضالي وتحدّدت آمالها في التحرّر على مقاعد الدّرس وفي خضم نار المقاومة وأحضان مختلف الجمعيات والأطر النّضالية شأن "الهيئة الجزائرية-التونسية" (Le Comité algéro-tunisien) (1919) التي رفعت شعار تحرير "الشعب التونسي الجزائري" و"نجم شمال إفريقيا" (1926) و"جمعية طلبة شمال إفريقيا المسلمين بفرنسا" (1927) و"لجنة العمل الشمال الإفريقي" (باريس 1936) و"مكتب المغرب العربي بالقاهرة" (1947) و"لجنة تحرير شمال إفريقيا" (1948) و"لجنة الوحدة والعمل الشمال الإفريقي" (باريس 1952) وغيرها... فأسماء مثل الشاذلي خير الله وأحمد بن ميلاد والطاهر صفر والحبيب ثامر وعلي البلهوان وسليمان بن سليمان والمنجي سليم والهادي نويرة وصالح بن يوسف ومحيي الدين القليبي والحبيب بورقيبة ويوسف الرويسي وعز الدين عزوز والرّشيد إدريس وحافظ إبراهيم ... من تونس ومحمد بن لحسن الوزاني وأحمد بلافريج ومحمّد علاّل الفاسي وأحمد بن عبد الجليل ومحمد وعمر وعبد المجيد بن جلون ومحمد بن عبّود وعبد الخالق الطريس ومحمد بن عبد الكريم الخطابي من المغرب الأقصى وعبد القادر الحاج علي ومصالي الحاج وفرحات عبّاس وبومنجل والشاذلي المكي وأحمد بن بلّة وغيرهم كثيرين هم من زعماء الحركات الوطنية والمقاومة في المغرب العربي اشتركوا في فترة ما في أعمال نضاليّة وتكوّنت بينهم لحمة رفاقيّة وإرادة

فعليّة لتوحيد جهودهم ضد العدو المشترك وبناء المستقبل الواحد رغم التّباينات. كما عزّزت جامعة القيروانيّين بفاس وخاصة الزيتونة بتونس التي كانت تؤمها أجيال من الجزائريين تلك اللّحمة بين طلبة الجزائر ورجال الوطنية فيها مع رفاقهم في البلدين.

هذه الشروط ما كانت لتثمر لولا وعي النّخب وشعور الشعوب بانتمائها الواحد الجغرافي والتاريخي والثقافي وحتّى العرقي.

على هذه القاعدة سوف يحصل ذاك التّواصل النضالي والتّضامني بين التونسيين وشعوب المغرب العربي وإن كنّا كتبنا خاصة في العلاقات بين التّونسيين والمقاومة الوطنية في المغرب الأقصى وفي الجزائر فإننا بصدد البحث في العلاقات مع ليبيا خاصة بعد الحرب العالمية الثانية وإن كنّا تناولنا جوانب من هذا الموضوع عندما بحثنا في المقاومة المسلحة في الخمسينات وحتّى يتمّ استيفاء البحث نشير إلى أنّه وقعت محاولات ربط الصلة بين الوطنيين التونسيين ورفاقهم بليبيا وخاصة بطرابلس قبل استقلال هذا البلد وبعده واستبشر التّونسيون بقرار الأمم المتحدّة منح ليبيا استقلالها ونظّم الحزب الحرّ الدستوري الجديد احتفالات بذلك يوم 25 نوفمبر 1949 وهنأ أمينه العام الأمير محمد إدريس السنوسي والبشير السّعداوي رئيس المؤتمر الوطني الطرابلسي ([2]) . كما كانت طرابلس في الخمسينات القاعدة الخلفيّة للمقاومة التّونسية (والجزائريّة) وملجأ لعديد المناضلين الفّارين من ملاحقات القوات الاستعمارية وساحة للتدرّب على السّلاح ([3]) وممرّا لعديد المقاومين التونسيّين (حوالي 140) أرسلوا في فوجين في مارس 1954 بإشراف محمد بن عبد الكريم الخطابي رئيس لجنة تحرير المغرب العربي وبتنسيق مع مكتب الحزب الحرّ الدستوري الجديد بطرابلس (علي الزليطني)، للتدرب على مهمّات الكمندوس في ثكنة كبري القبّة بالقاهرة ([4]). وما كان ذاك ليتمّ على الأراضي اللّيبية لولا

([2]) حول هذه الأحداث انظر تقارير القنصل الفرنسي بطرابلس والمقيم العام الفرنسي بتونس بأرشيف وزارة الخارجيّة الفرنسية. (Q.O. 595, Tunisie 1944, V. 27. D1)

([3]) انظر مقالينا : "كمندوس فرحات حشّاد" و "جيش التّحرير الوطني" **بالمقاومة الشعبية في تونس في الخمسينات**، م.م.ص. 125-136.

([4]) حول هذه الأحداث يمكن الاطلاع على شهادتي عبد الله العبعاب الضّابط التونسي الذي أشرف على تأمين نقل المتطوّعين وأحد أفراد الفوج الأول حمّادي غرس مسجلتين بمعهد تاريخ الحركة الوطنية. وقد أكّد لنا ذلك المنسّق آنذاك بين السّلط المصرية ومحمد بن عبد الكريم الخطّابي الضابط

الموقف الإيجابي من السلط الرّسمية وحتى رئيس الوزراء مصطفى بن حليم ذاته. هذا الفصل من المقاومة التونسية ودعمها في ليبيا الذي استبعد في التاريخ الرّسمي لارتباطه بالخلاف اليوسفي-البورقيبي لا زال بكرا في البحث الأكاديمي إلى حدّ علمنا.

أمّا في ما يخصّ التّواصل النضالي بين تونس والمغرب الأقصى فإننّا نظنّ إنّنا علّمنا (من العلامة) لأهمّ محطّاته في بحوثنا الأربعة المذكورة ([5]) وقد غطّت كامل فترة الحماية على المغرب (1912-1956) وتوصّلنا إلى حقيقة حضور القضيّة المغربيّة في اهتمامات النّخبة الوطنية التونسية وحتى عموم الشّعب خاصة في فترات مفصليّة من تاريخ المغرب المستعمر وذاك رغم بقاء هذا البلد خارج السّلطة العثمانية وما ولّدته فترة التبعيّة لها عند الشعوب التابعة شأن التونسيين أو الجزائريين من ولاء للسّلطان العثماني ورغم كذلك عدم مجاورة تونس للمغرب.

ومع أنه لم تسجّل ردود فعل مستنكرة لاحتلال المغرب الأقصى وفرض الحماية عليه سنة 1912 ومشاركة العساكر التونسيين في الحملة عليه لأن النخبة الوطنية في قيادة حركة الشباب التونسي كانت مضيّقا عليها وشرّد رموزها (نفي علي باش حامبة وعبد العزيز الثعالبي وحسن القلاتي ومحمد نعمان في مارس 1912) فإنه سرعان ما تدارك رجال الحركة الموقف وأعلنوا من منفاهم رفضهم للاحتلال. وكانت ثورة الرّيفيين (1920-1926) فرصة انبرى فيها الوطنيّون وخاصة العناصر الشّابة في الحزب الحرّ الدستوري (أحمد توفيق المدني والطاهر الحدّاد...) وفي الحركة العمّالية (محمد علي الحامي والمختار العيّاري وعلي القروي...) يدافعون على ثورة الرّيفيين التي رأوا فيها ثورة وطنية يجب دعمها ونادوا بضرورة سحب الجنود التونسيين من جبهات القتال في صف الجيش الفرنسي وجمعوا التّبرعات بتونس وبنزرت وقابس ودعوا في الجوامع الله لينصر عبد الكريم الخطابي وكفّروا كل متطوّع لمحاربته وانبرت الصّحف الوطنية والشيوعية تنقل بطولات مجاهديه ويبدو أنّ بعض التونسيين تطوّعوا في صفوف جيش عبد الكريم ولعلّ أشهرهم وهذا ثابت المناضل النقابي محمد علي الحامي الذي نفي من

المغربي الهاشمي الطّود في لقاء معه بالجزائر في 4 جويلية 2002 كذلك الوثيقة : "تنظيم الحزب الحرّ الدستوري التونسي في طرابلس" المنشورة بمجلة **روافد** 6، 2001.

([5]) وهي : "النخبة في تونس والقضايا العربية..." و "الوطنيّون التونسيون والقضيّة المغربيّة..." و"محمد بن عبد الكريم الخطابي في عيون التّونسيين" و "جيش التحرير الوطني التّونسي".

وطنه في نوفمبر 1925 ليهبّ لنصرة أمير الرّيف في فيفري 1926 ويسجن ويطرد من طنجة لذلك إضافة للجنود التّونسيّين الذين فرّوا من الوحدات الفرنسيّة لينخرطوا في صفوف الثّوار الرّيفيين وكان اثني عليهم محمد بن عبد الكريم ذاته ([6]).

وتوقّفنا في بحث مخصوص عند محمد بن عبد الكريم الخطّابي وتبيّن لنا أنّ الرّجل فعلا كان بطلا عربيّا مغاربيّا (إضافة لمكانته العالميّة لدى حركات التّحرّر في العالم) وله مكانة خاصة في وجدان التونسيين ليس فقط من جيل العشرينات الذين عايشوا انتصاراته بل حتى الأجيال اللاّحقة وإقرار عديد القياديّين بفعل ثورة محمد بن عبد الكريم في انخراطهم المقاوم وتمثله كبطل ملهم شأن الحبيب بورقيبة ويوسف الرويسي والرّشيد إدريس والحبيب ثامر وعز الدّين عزّوز... وغيرهم من المناضلين وخاصة من بين الذين شاركوه "مغامرته" الثانية بعد فراره للقاهرة سنة 1947 وعمله على بعث حركة مسلحة تحريريّة مغاربيّة تحرّر الأوطان وتوحّدها. وليس من باب الصّدفة أن نشيد المقاومة في جبال الريف يتبنّاه الكشّافون والمناضلون التونسيون ضد الاستعمار ([7]).

وكانت السّنوات اللاحقة للعشرينات في تواز مع تجذّر الحركة الوطنية التونسية واتساع قاعدتها الاجتماعية وانخراط المنظمات الجماهيرية والمهنية في مسارها أكثر إصغاء وحساسيّة لأحداث المغرب الأقصى وقد شدّ منها في الثلاثينات الرأي العام الوطني التونسي مسألتان: الظهير البربري (16 ماي 1930) والقمع الذي استهدف القيادات الوطنية أواخر 1937 خاصة وأن تونس كانت تعيش ظروفا مشابهة إثر مؤتمر الأفخارستي (ماي 1930) وتبعات سياسة التّجنيس وقد رأى الوطنيّون في السّياسة الفرنسية في البلدين حملة صليبية جديدة تشنّها فرنسا ضدّ المسلمين في شمال إفريقيا لإخراجهم من دينهم وتنصيرهم و"مؤامرة خبيثة" لتقسيم الشّعوب المغربيّة بضرب العرب بالبربر وقد اتفق أفراد النّخبة على التّنديد بتلك السياسة إن كانوا من الوسط المحافظ أو الليبراليين حول "صوت التونسي" (La Voix du Tunisien) وأرسلت البرقيات والعرائض للسّلط الفرنسية تشجب وللوطنيين والملك في المغرب تساند وقد فوجئنا عند

([6]) في النّداء الذي توجّه به عبد الكريم الخطّابي سنة 1925 إلى "الأمّة الجزائرية والتّونسية". في أرشيف ما وراء البحار بآكس أن بروفنس (Archives d'Aix en Provence 142H.C.9). وأمدّنا بهذه الوثيقة مشكورا زميلنا الأستاذ لطفي الشايبي.

([7]) راجع مقالنا :"محمد بن عبد الكريم في عيون التّونسيين" م.م.

قراءتنا للصّحافة الوطنية حول هذا الموضوع بالدّقة في الاطلاع والذّكاء في الاستنتاجات والكشف عن حقيقة السّياسة الاستعماريّة ومنها هذا المقال للبشير الخنقي (1884-1977) الذي أورده في جريدته "لسان الشعب" (17 سبتمبر 1930) وكأنّه كتب اليوم حول الجزائر أو المغرب الأقصى أين عادت القضيّة البربريّة إلى السّطح، يقول : "إنّ مسألة تقسيم سكان إفريقيا الشمالية إلى عرب وبربر قديمة جدّا وهي وليدة الاحتلال الفرنساوي للجزائر ففي جبال الجزائر قبائل بربريّة كما هي في جبال المغرب ولكنها لا تعتدّ ببربريتها إزاء ما يغمرها من نور الإسلام وسماحة تعاليمه فهي لا تعتدّ إلاّ برابطة الإسلام وان احتفظت ببعض مميزاتها وخصائصها ولكن السّياسة الاستعمارية أرادت أن تخلق فيها روح العصبيّة الجنسيّة وتنفّرها من العروبة وما في العروبة من آداب وأخلاق وروح جبّارة توّاقة إلى المجد وعقيدة شريفة وطاهرة وأن ترجع بها إلى الأحقاب العتيقة في التاريخ من تقاليد البربر على عهد الرومان عسى أن تصطنع هذا القسم المهم من السكان وتستخلصه لنفسها فتجعل منه نواة الإمبراطورية الإفريقية التي يحلم بها رجال الاستعمار".

وكان التضامن مع الحركة الوطنية المغربية (والجزائرية) كذلك في الإضراب السّياسي العام والأوّل في تاريخ تونس المستعمرة يوم 20 نوفمبر 1937 والذي نادى به الحزب الحرّ الدستوري الجديد وقرّره في مؤتمره الثاني تنديدا بحملة الاعتقالات التي استهدفت مصالي الحاج ورفاقه في الجزائر وفي المغرب محمد الديوري وعلال الفاسي وحسن الوزّاني وعبد الجليل وغيرهم.

وباندلاع الحرب العالمية الثانية جدّ انقطاع نسبي في التّواصل بين الحركتين الوطنيتين في تونس والمغرب الأقصى إلا ما سيسفر عنه البحث في النّشاط الممكن في الهجرة لكنه استأنف مع نهاية الحرب وبالقاهرة أساسا عندما أصبحت بعد تأسيس الجامعة العربية قبلة الوطنيين في المغرب العربي كما ذكرنا ذلك سابقا. وكان العمل المشترك ضمن مكتب المغرب العربي ثم لجنة تحرير شمال إفريقيا. وكانت إضافتنا في هذا الموضوع بالذات محاولة استجلاء خلفيات التقارب أو التباعد بين العناصر المغاربية النشطة آنذاك في القاهرة والتي كان منها الذّاتي (بين بورقيبة وعلاّل الفاسي مثلا بين المثقف الحداثي سليل الوسط الشعبي والمثقف التقليدي رغم انفتاحه ابن الارستقراطية الفاسيّة) ومنها الموضوعي (بين بورقيبة كذلك رجل السّياسة أوّلا ومحمد بن عبد الكريم الخطابي ذاك الثائر المحارب دائما) وبين دعاة القومية الضيقة والمؤمنين فعلا بمغرب

مستقل وموحّد ونجد في الأوّلين بورقيبة وأتباعه وجلّ قيادات الأحزاب الوطنية المغربيّة وفي الثّاني الحبيب ثامر ويوسف الرويسي ومحمد بن عبد الكريم الخطابي ومناصريه.

على كل كانت الخمسينات فترة ثريّة جدّا في التّجاوب بين المقاومة الوطنية في البلدين وخارجهما وخاصة في فرنسا حيث أثمر التنسيق بين الأطراف الوطنية إلى بعث "الجبهة المتحدة للعمل الشمال الإفريقي" بباريس في أواسط فيفري 1952 وأمضى ميثاقها من الجزائريين فرحات عبّاس عن حزب البيان الجزائري وأحمد مزغنة عن حركة انتصار الحرّيات الديمقراطية والشيخ البشير الإبراهيمي عن جمعية علماء الجزائر والمكي الناصري عن حزب الوحدة والاستقلال المغربي ومحمد بن لحسن الوزّاني عن حزب الشورى والاستقلال وأحمد العلوي عن حزب الاستقلال وصالح فرحات عن الحزب الحرّ الدستوري القديم ومحمد المصمودي عن الحزب الدستوري الجديد وأكّد المضمون على بيان الجبهة التأسيسي على ضرورة التكاتف وتنسيق الجهود لتحرير الشعوب واستقلال البلدان الثلاثة. ماذا جدّ عمليّا تكريسا لهذه الإرادة في محاربة الاستعمار والتنسيق في الجهود؟ ما نعرفه هو نزر قليل عن نشاط المغاربة بباريس في الخمسينات وهو مبحث آخر للنّظر.

أمّا في مستوى تونس فقد جدّت أنشطة تضامنية عدّة أتينا عليها في بحوثنا من المساندة وإصدار اللّوائح والمذكّرات المندّدة بالسّياسة الاستعمارية خاصة سنوات 1951-1952-1953 عندما كانت فرنسا -كما هو الحال في تونس- تريد أن تغصب السّلطان على القبول بازدواجية السّيادة والتبرؤ من الوطنيين وخاصة من حزب الاستقلال وحرّضت عليه عملاءها من الإقطاعيّين وعلى رأسهم باشا مراكش القلاوي وكان أهم عمل مساند هو ذاك الإضراب التضامني مع السّلطان محمد بن يوسف والدّاعم للمطالب الوطنية في المغرب الأقصى والذي نادى به يوم 10 مارس 1951 الحزب الحرّ الدستوري الجديد وبقية المنظّمات القومية من الإتحاد العام التونسي للشغل والإتحاد العام للفلاحة التونسية والإتحاد التونسي للصّناعة والتجارة والإتحاد النّسائي الإسلامي التونسي وجمعية الطلبة التونسيين وكتلة الدّفاع عن المطالب الزيتونية.

والذي تجلّى خاصة في هذا الإضراب هو الوعي عند مختلف هذه التنظيمات بأنّ تحرّر تونس هو رهين تحرّر المغرب والجزائر وإنّ النّصر رهين لحمة الشعوب المغربية. وكان دور الإتحاد العام التونسي للشغل بقيادة زعيمه فرحات حشاد بارزا في إنجاح التّظاهرات التضامنية مع الوطنيين في المغرب وخاصة من رفاقه النقابيين حيث

كان ينادي بـ"جبهة عمّالية واحدة" وإن "لا تحرّر اجتماعي إلاّ بتحرّر الأوطان" وكانت أحداث الدار البيضاء في 7و8 ديسمبر 1952 والتي استشهد فيها مئات المغاربة في اضطرابات منددة باغتيال حشّاد تنمّ عن مكانة هذا الرّجل لدى الوطنيين والشغيلة في المغرب. وفي مجال المقاومة المسلّحة التي عرفتها تونس بداية من 1952 والمغرب الأقصى مع عزل السّلطان في أوت 1953 وإن لاحظنا في بحوثنا تشابها في أعمالها من حيث تحديد الأهداف ونوعيّة العمليّات ومنفّذيها فإننا أشرنا كذلك إلى ارتقائها تنظيميا في المغرب واتساع رقعتها ووفرة عدد المنخرطين فيها وكذلك ضخامة عدد ضحاياها في الجانبين وتورّط تنظيمات واحدة وخاصة اليد الحمراء التي كانت تنشط في البلدين [8] كما تعرّضنا لمحاولات التنسيق التي جدّت منذ أواخر 1955 بين دعاة التّحرر الشّامل والكامل تحت راية العروبة والإسلام في ما يعرف بـ"جيش تحرير المغرب العربي" والذي كان من رموزه من تونس الطاهر لسود والدكتور عبد الكريم الخطيب من المغرب وأحمد بن بلّة من الجزائر وإن أثمر التنسيق فعلا مع الثوار الجزائريين وهذا ما سنعود إليه فإنه مع المغرب كان -لحدّ علمنا- إعلان نيّات فحسب هذا إذا استثنينا مساهمة مناضل تونسي آخر لم يكن طرفا مباشرا في "جيش التحرير" وهو الدكتور حافظ إبراهيم الذي كان له دور أساسي في دعم المقاومة المغربية والجزائرية بالمال والسّلاح وتسهيل المأموريات وتجنيد الدّعم لها.

أمّا التواصل بين التونسيين والجزائريين فكان أعمق وأشمل لعدّة اعتبارات وقد كان اهتمامنا بصورة خاصة بفترة "الثورة الجزائرية" أي سنوات 1954-1962 [9] وبصورة أعمّ تعرّضنا للعلاقات بين تونس والجزائر عندما درسنا تهريب السلاح في تونس سنوات 1942-1962 [10] أو عندما تناولنا مسألة الاغتيال السياسي بالمغرب العربي سنوات 1950-1970 [11] في مقاربة قرانيّة للظاهرة في البلدان الثلاثة.

---

(8) انظر خاصة فصولنا المذكورة : "أوربيو تونس والمقاومة المسلّحة في الخمسينات" و"الاغتيال السّياسي بالمغرب العربي (1950-1970)"، في **روافد**، عدد 5 و "جيش التّحرير الوطني التونسي".
- انظر في هذا الموضوع كذلك : "**جيش التحرير المغاربي 1948-1955**"، أعمال ملتقى مؤسسة محمد بوضياف. الجزائر 11-12 ماي 2001، الجزائر، مؤسسة بوضياف، 2004.

(9) في النّصين المذكورين :
« Les Tunisiens et la révolution algérienne »
« La Tunisie base arrière… »

(10) « Trafic d'armes en Tunisie 1942-1962 », **Ibla**, 2003, pp. 137-159

(11) "الاغتيال السّياسي بالمغرب العربي (1950-1970) " م.م.

وقد تبيّن لنا أنّ القضية الجزائرية طيلة فترة المقاومة (1954-1962) كانت حاضرة وفاعلة في حياة التونسيين كمجتمع وكدولة بحكم التّاريخ والجغرافيا حيث أنّ الجزائر وتونس بلدان متجـاوران -كما هو معلوم- ولا تفصلهما أي حواجز طبيعيّة والعلاقات التاريخية والبشرية والسكانية بينهما أقدم من الاستعمار وهي كذلك معروفة لذلك كانت تونس فعلا قاعدة خلفيّة للثورة الجزائرية وهذا ما تثبته المصادر الأرشيفية الفرنسية والجزائرية وعديد الكتابات وشهادات المقاومين والدّبلوماسيّين التي كنّا أول من استغلها وبتواضع أوّل من كتب فيها كذلك.

وقد أثبتنا في بحوثنا هذه أنّ دعم التونسيين للثورة الجزائرية كان على المستوى الشعبي والرسمي ففي المستوى الأول كان هناك فيض تضامني مع المقاومة الجزائرية ومساهمة فعلية في أحداثها الحربية إذ منذ قبل حتى أن يضع "الثوار" التونسيون أسلحتهم في ديسمبر 1954 هبّ المئات منهم من تلقاء ذاتهم أو بإيحاء من قيادة الحزب الحرّ الدستوري الجديد لنصرة الثورة في الجزائر وكان أشهر الملتحقين بها القائدين الطاهر لسود ولزهر الشرايطي كما كان الالتحام المقاوم بين مجاهدي البلدين في ما سمّيناه "زمن العصابات المشتركة" أي في إطار "الثورة الثانية" و "جيش تحرير المغرب العربي" بدفع وإشراف من صالح بن يوسف وقيادة ميدانية من الطاهر لسود حيث تكوّنت أكثر من 20 "عصابة" على كامل الحدود الجزائرية التونسية وخاصة في الوسط والجنوب تناوش القوات الفرنسية وتتعرّض لمن تعتبرهم خونة وعملاء لفرنسا. وكان أكبر دعم لهذه المقاومة التلقائية التي دامت من أواخر 1955 حتى صائفة 1957 تقريبا هو تسريب السّلاح لثوّار الجزائر عبر شبكة تنطلق من طرابلس مرورا بالحدود الجنوبية وحامة قابس وجبال قفصة نحو جبال الأوراس والنمامشة.

تجلّى كذلك التضامن مع الجزائريين في المستوى الشعبي إضافة للتعبير عن المساندة وحضور مختلف التظاهرات الداعمة في الإسهام بالتبرّعات وخاصة في احتضان أكثر من 140 ألف لاجئ جزائري الكثير منهم آوتهم العائلات التونسية أو رعتهم الدولة التونسية ومساهمة مختلف المنظمات القومية في ذلك الجهد المساند ونذكر هنا خاصة نشاط الطلبة في الإتحاد العام لطلبة تونس ودور الإتحاد العام التونسي للشغل في بعث "الاتحاد العام للعمّال الجزائريين" وخاصة التعريف بالقضيّة الجزائرية والدّفاع عنها في المحافل الدّولية ولدى السيزل والمكتب الدولي للشغل. وقد أسهم كذلك المهاجرون التونسيون خاصة في

فرنسا من عمّال وطلبة في دعم المقاومة الجزائرية وتعرّض الكثير منهم للتّتبعات وحتى السّجن لتقديم أموال أو سند لوجستي "لرفاق النّضال".

أمّا على المستوى الرّسمي وعلى عكس ما تروّجه بعض الكتابات وما يشيعه "قدماء اليوسفيّين" من أنّ بورقيبة "خان الثورة الجزائرية" أو "خذلها" ثبت لنا أن الدّولة التونسية الناشئة ليس فقط وقفت مع الثورة الجزائرية بل دعّمتها وساهمت في جهد المقاومة المسلحة ودفعت بالقضيّة الجزائرية وفرضت تدويلها بقدر جهدها. لكن العلاقات بين بورقيبة وقيادة جبهة التّحرير الجزائرية لم تخل فعلا من فترات تأزّم خاصة وأنّ الحكومة التونسية كانت طيلة فترة الثّورة الجزائرية بين المطرقة والسّندان، بين واجب دعم شعب شقيق يقاوم الاستعمار وواجب دولة في حاجة أن تبسط سيادتها على كلّ أراضيها وتضمن الأمن فيها خاصة وأنّ عناصر جبهة التحرير والعديد من وحدات جيش التحرير الجزائري كانت تتصرّف في البلاد(في المناطق الحدودية خاصة) وكأنها في "أرض مفتوحة" ثم تحت ضغط فرنسا التي لم تقبل بموقف تونس هذه الدولة الناشئة والتي لا تزال تحت رحمتها وفي حاجة للإعانة المالية والفنّية منها. ثم أنّ حكم بورقيبة ذاته كانت تتهدّده حتى 1962 أخطار داخلية من انعدام الأمن وتدهور الوضع الاجتماعي وفلول المعارضة اليوسفية التي لا تخفي عناصر قيادية جزائرية تعاطفها معها (بوصوف، بن خدة، دبّاغين...) وأخطار أخرى خارجيّة آتية من المغالين من الاستعماريّين الفرنسيين من السّياسيين أو العسكريين الذين كانوا ينوون "العودة إلى الوراء" وبسط السّلطة الفرنسية من جديد على تونس لضرب الخطر الذي يهدّد الوجود الفرنسي بالمغرب وإطفاء لهيب المقاومة التي كانت تجتاحه.

لذا كان بورقيبة في تعامله مع الثورة الجزائرية يحاول أن يأخذ بكل هذه المعادلات الصّعبة ويعمل إلى جرّ القيادة الجزائرية إلى تبنّي سياسته التي تقوم على مبدإ "خذ وطالب" والمرحليّة لبلوغ الهدف لكنّ ليّ ذراع "ثوار الجزائر" لم يكن هيّنا خاصة وأنّ عساكر جيش التّحرير كان يناهز عددهم في تونس لوحدها ثمانية آلاف مقابل بضعة آلاف في جيش تونس والذي لم يتكوّن إلاّ في جوان 1956 إضافة للدّعم السّياسي والإعلامي الذي كان يلقاه الجزائريون من جمال عبد الناصر والصورة التي كان يبثها إعلامه وتردّدها كذلك المعارضة اليوسفية (صالح بن يوسف لم يغتل إلا في 11 أوت 1961) من "خيانة بورقيبة" و "عمالته للاستعمار" والتي كان لها وقعها في الرأي العام التونسي.

على كلّ وصل بنا البحث في العلاقة بين الطرفين إلى أنّ نظام بورقيبة وعلى مستوى رسمي قد وفّى المقاومة الجزائرية حقّها في التّضامن مع "شعب شقيق" إذ سمحت الدّولة الناشئة – وإن كانت مغصوبة على أمرها في الأول– أن تتحوّل تونس إلى قاعدة خلفيّة لجيش التحرير الجزائري ومركز قيادته بغار الدماء وتمكينه من مراكز التّدريب والتّعليم والاستشفاء وجمع التبّرعات والتنقل بسهولة وحتى القيام –في السنوات الأولى– بضربات سريعة في التراب الجزائري ضدّ القوات الفرنسيّة.

وكانت أكبر خدمة قدّمتها الدّولة في تونس للثورة الجزائرية هي السّماح بتسريب الأسلحة القادمة من الشرق (من مصر أساسا) أو "الدول الصّديقة" (أوربا الشرقية) أو المهرّبة إلى الوحدات المقاومة في الجزائر عبر الحدود التونسية وأحيانا في شاحنات الجيش والحرس الوطنيين. إذ يقدّر دارسو التاريخ العسكري للحرب في الجزائر أنّ 80% من الأسلحة التي دخلت الجزائر مرّت بتونس. وفعلا خوفا من سقوط الأسلحة في يد أعداء النّظام أو أن تصبح تعلّة ضدّه من الفرنسيين وقع اتفاق بين القيادة التونسية والقيادة الجزائرية على تنظيم تهريب الأسلحة وكلّف المناضل أحمد التليلي بهذه المهمّة مع الملاحظ أنّ بعض السّفارات وخاصة سفارة تونس في روما كانت أيضا مخبأ لأسلحة جبهة التحرير.

وفي المستوى السّياسي كان دعم المقاومة الجزائرية جليّا كذلك إذ كان القادة الجزائريون وقبل حتى الهيكلة في مؤتمر الصّومام (20 أوت–19 سبتمبر 1956) وإنشاء "لجنة التنسيق والتنفيذ" (C.E.E) يتمتّعون بالصّفة الدبلوماسية في تونس التي أصبحت "عاصمة الثورة الجزائرية" بانتقال الحكومة المؤقتة الجزائرية إليها في نوفمبر 1958 واعتراف الحكومة التونسية بها (20 سبتمبر 1958) رغم تهديد الحكومة الفرنسية إضافة للدّعم الإعلامي بفتح "إذاعة صوت الجزائر الشقيقة العربية" (جويلية 1956) والسّماح بصدور جريدة الثورة "المجاهد" بتونس منذ 1957 والدّعم في الصحف الوطنية. وكانت أحداث ساقية سيدي يوسف (8 فيفري 1958) فرصة للدّبلوماسية التونسية لفرض تدويل القضية الجزائرية وساهمت في تحويل الموقف الأمريكي تجاه هذه القضية نحو تفهّم أكبر.

لكن في المقابل إن دفع التونسيون غاليا دعمهم للثورة في الجزائر (ضحايا كثيرين وتعدّيات وإهانات في حقّ سكّان الحدود خاصة من الجيش الفرنسي وحتى الجزائري)، وصعّبت عليهم مهمّة استتمام سيادتهم على وطنهم بتعقيد العلاقات مع فرنسا فإنّ الثورة

في الجزائر عجّلت بمنح تونس استقلالها التّام في 20 مارس 1956 وإنّ مجاهدي "الثورة الثانية" من التونسيين الذين قاموا في خضمّها لهم "فضلهم" التاريخي في ذلك أيضا.

في ختام هذا النص التأطيري نحاول أن نجيب عن إشكال كنا أثرناه وأرجأنا الإجابة عنه وهو لماذا ارتدّ الوعي الوطني في تونس (وفي بقيّة بلدان المغرب) من ذاك السّخاء الحاضن لكلّ بلاد شمال إفريقيا وتصوّر مستقبل المغرب المحرّر وطنا واحدا إلى تمثّل ضيّق للوطن وفي حدوده الصغيرة والموروثة على الاستعمار (وحتّى قبله)؟ وبدون الإفاضة لأنّ الموضوع أشيك من ادّعاء الإجابة عليه لوحدنا نرى أنّ ذاك "النكوص" أو "الخيبة في الأمل" مرده لأسباب ذاتية والأهمّ لأسباب أخرى موضوعيّة. في الأسباب الذاتية نرى أنه وإن حصل فعلا رغبة وطموح صادقان لدى الشعوب وحتّى عديد القيادات في خضم الصّراع مع المستعمر في توحيد المغرب فإنّ ذاك كان مرتهنا بقضيّة الاستعمار والخطاب التوحيدي كان من أدوات محاربته وبانتهاء الاستعمار (المباشر) انتهت علّة وجوده ثمّ إنّ الخلافات التي جدّت منذ أواخر الأربعينات وخاصة بداية الخمسينات بين دعاة التوحيد والعروبة والإسلام والارتباط بالشرق ودعاة المرحليّة والطرق الدبلوماسية والوطنية الضيقة والارتباط بالغرب حُسمت بالاستقلالات في البلدان الثلاثة لصالح الأخيرين وبدعم من فرنسا لأن صيغ استقلال المغرب العربي كان الطرف المحدّد فيها والرّاسم لحدودها هي فرنسا لأن موازين التاريخ آنذاك تفترض ذلك. ثمّ أنّ النّخب الوطنية التي تسلّمت السّلطة في بلدان المغرب المستقلة لم تزدها الحزازات والمشاكل التي جدّت في ما بينها لاسيما مشاكل الحدود وأحيانا الاختيارات الاقتصادية والثقافية ([12]) إلا قناعة بضرورة الانكفاء وإدارة الظّهر للدولة المجاورة خاصة وأن حكومات الاستقلال كلها لم "تتميّز" لا بديمقراطيتها ولا باستشارة شعوبها. والأهم في تقديرنا "إن الناس يصنعون تاريخهم بما يسمح به الواقع" والواقع في بلدان المغرب عند الاستقلال وبعده يتميّز على المستوى الاقتصادي أما باقتصاد ريعي نفطي (في الجزائر وليبيا)، أو برأسماليات تابعة وبنى ما قبل رأسمالية وما تعنيه من انعدام الاندماج والتكامل وفرز الطبقة الرأسمالية القادرة على توحيد السّوق وتوحيد الشعوب واحتلال المكان المناسب في إطار اقتصاد عالمي معولم.

([12]) انظر العريبي (عبد القادر)، **تونس وعلاقاتها مع بلدان المغرب العربي (1947-1980)** أطروحة دكتوراه في التاريخ، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، تونس، 1999، مرقونة.

الوطنيّون التّونسيّون والقضيّة المغربيّة (1912-1956) (*)

ليست غاية هذا البحث تقديم كشف مفصّل عن ردود فعل الوطنيّين التّونسيّين ومواقفهم قيادة وقواعد إزاء كلّما عرفته القضيّة المغربية طيلة الأربع وأربعين سنة من السيطرة الاستعمارية على المغرب لأنّ ذلك يتطلّب حيزا بحثيا أوسع لكن كل ما نرومه في هذا الفصل هو إبراز ذلك الموقف الايجابي والثابت للوطنيّين في تونس من مطالب إخوانهم في المغرب والذي تبلور أثناء أحداث مفصليّة من تاريخ المغرب المستعمر طرحت فيها قضيّة تحرير الأرض أو تصاعدت فيها النّضالات دفاعا عن السّيادة من أجل ترسيخ الكيان والانعتاق من الاستعمار الفرنسي والإسباني مزيحين عن قصد عدّة مسائل مرتبطة بالموضوع المطروق –لأنه ليس مجالها هنا– مثل الخلافات التكتيكيّة بين القيادات الوطنيّة في البلدين في فترات محدودة والصّراعات الشّخصيّة التي جدّت بين الزّعامات خاصة في القاهرة والتّشيّعات التي قامت لهذا الطرف أو ذاك.

ولعلّه من الضّروري في بداية هذه الدّراسة لفهم طبيعة ردود فعل التّونسيّين وإطاره تجاه مطالب الشّعب المغربي التّذكير ببعض الحقائق التّاريخيّة الفاعلة في ذلك أوّلها شعور التّونسيّين ثم وعيهم بانتمائهم لنفس "الأمّة" مع إخوانهم من العرب المسلمين في غرب تونس أو في شرقها ثانيا ولئن وجدت جالية مغربية هامّة نسبيا في تونس فإنّ طابعها الكادح وضعف مستواها الثّقافي حدّ من فاعليتها السياسيّة ومن إمكانية لعبها دورا مهمّا في استقطاب الاهتمام والتعاطف مع قضايا المغرب على عكس ما كانت تمثّله الجالية الجزائرية بتونس لاعتبارات تاريخيّة (الهجرة الجزائرية إلى تونس للتعلّم أو لأسباب سياسية أو اقتصادية كانت سابقة حتى لاحتلال الجزائر) وجغرافية إذ كان حضور الجزائريّين متميّزا في العمل الوطني في تونس (من ذلك دور قياديّين كالثّعالبي وأحمد

(*) نص المساهمة في ندوة "مغرب المقاومات" التي نظمها المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية بالرباط في 11 جانفي 2004، وصدر ضمن أعمال الندوة عن نفس المعهد سنة 2005.

توفيق المدني وحسن النّوري مثلا الذين هم من أصول جزائريّة) ووجودهم السّياسي والعسكري الحاسم في تونس في الخمسينات إبان الثّورة الجزائريّة. ثالثا إن كان موقف الوطنيّين في تونس مبدئيا ضد الاستعمار ومن ذلك الاستعمار الإسباني للأراضي المغربية فان الموقف تجاه إسبانيا بالذات كانت تحكمه اعتبارات عامّة منها السياسة الإسبانية المتعاطفة مع قضايا العرب والمسلمين والصّدقات التي كانت تربط فرانكو مع الدّول العربية خاصة مصر والأردن ولبنان خدمة لمصالح إسبانيا على المستوى الدولي ثم موقف الحكومة الإسبانية من السياسة الفرنسية بالمغرب ورفضها لعزل السّلطان محمد بن يوسف وايجابية موقفها تجاه المقاومة الوطنيّة المغربيّة والجزائرية للفرنسيّين في شمال المغرب (السّماح للقيادات الوطنيّة بالنّشاط في المنطقة الخليفيّة وغض النّظر عن تهريب السّلاح والتّدرّب عليه هناك) ولاعتبارات خاصّة بالدّستوريّين الجدد - قطب المقاومة الوطنيّة في تونس- إذ كانت إسبانيا ملجأ لقياديّين منهم حكمت عليهم فرنسا بالإعدام واستقرّوا فيها من أوت 1944 إلى جوان 1946 مثل الحبيب ثامر والرشيد إدريس والهادي السعيدي والطيب سليم وحسين التريكي إذ منحتهم الحكومة الإسبانية اللّجوء السّياسي ودعمتهم ماديّا. هذا إضافة للدكتور حافظ إبراهيم الذي سنعود إليه لاحقا.

ومهما كانت الاعتبارات فان مساندة التّونسيّين للمغاربة في تحرير أرضهم ودحر الاستعمار كانت حقيقة ثابتة طيلة الفترة المدروسة.

I- العشرينات: تعاطف مع ثورة محمد بن عبد الكريم الخطّابي ودعمها:

لئن لم يكن رجال النّخبة الوطنيّة في بداية القرن العشرين راضين على احتلال المغرب – وهذا سوف تثبته مواقفهم اللاّحقة- فانّه لم تسجّل ردود فعل استنكاريّة للتغلغل الاستعماري في هذا البلد ولا تعاطفا ايجابيا مع أعمال المقاومة الأولى (ثورات بوحمارة والريسوني وماء العينين...) ولعلّ ذلك يفسّر بضعف النّخبة آنذاك وتسليمها بقوّة المستعمر في مرحلة أولى ثمّ أنّه عند فرض الحماية الفرنسية في 30 مارس والحماية الإسبانية في 27 نوفمبر 1912 على المغرب الأقصى المقسّم كان عناصر الشباب التّونسي مشتّتين مقموعين منذ أحداث الترامواي ومحكوم على أبرزهم منذ 13 مارس 1912 بالنّفي (على باش حامبة عبد العزيز الثعالبي، حسن القلاتي، خير الله بن مصطفى). غير أنّ العناصر الوطنيّة المهاجرة عبّرت عن رفضها للاستعمار في المغرب ومن ضمنها مرّاكش شأن الشيخ صالح الشّريف (1869–1920) الذي راسل السّلطان

مولاي يوسف يناشده أن يخلع طاعة الجنرال ليوطي (1) وخاصة جماعة "مجلّة المغرب" (La "Revue du Maghreb") الصّادرة بجنيف (1916-1918) والتي كان يديرها القاضي الوطني التّونسي المهاجر محمد باش حانبة (1881–1920) والتي نادت باستقلال بلدان المغرب الثلاث وان كان تركيزها أساسا على تونس والجزائر(2).

وكان اندلاع ثورة الرّيف سنة 1920 بقيادة محمد بن عبد الكريم الخطابي وتكبيده هزائم شنيعة للجيش الإسباني خاصة في معركة أنوال الشهيرة في 21 جويلية 1921 فرصة للنّخبة الوطنيّة التّونسيّة ولعموم التّونسيّين للتعبير عن تضامنهم مع الثّوار الريفيّين خاصة مع التدخّل الفرنسي لجانب إسبانيا بداية من أفريل 1925 (3) وتعكس تقارير الإقامة العامة بتونس هذا التّعاطف والمد التّضامني من ذلك نقرأ في تقرير المقيم العام لوسيان سان إلى وزير خارجيّته بتاريخ 9 جوان 1925 :"كلّ السكّان المسلمون بتونس يتتبّعون بحماس أحداث المغرب الأقصى ويحظى عبد الكريم بالتّعاطف العام فهو ينظر له كبطل . إنّ الأهالي يعلّقون على الأخبار التي تنقلها الصحف ويضخّمونها وقد زادت المواظبة على قراءتها خاصة منذ أسابيع يتحلّق الأميّون أكثر من أي وقت مضى حول قارئي الجرائد لسماع أخبار الجهاد في المغرب الأقصى ثم تتناقل الألسن أخبارا خياليّة حول ما يجدّ هناك" (4).

ويفسّر هذا الانحياز الواضح والتّعاطف الثابت والشامل لكلّ الطّبقات والجهات في تونس مع ثورة الرّيفيّين في شمال المغرب بعدّة عوامل أساسها شعور التّونسيّين بالاشتراك في الهويّة العربيّة الإسلامية مع إخوانهم في المغرب ثم للظّرفيّة السّياسية التي

---

(1) كرّاس من إمضاء صالح الشريف بعنوان "كتاب مفتوح لمولاي يوسف سلطان المغرب" بدون تاريخ ولا مكان طبع، محفوظ بالمكتبة الوطنية الفرنسيّة (B.N.) تحت رقم (2) 8 LK 82290 . راجع ملخّصه في تقديم للحفناوي عمايريّة بمجلّة **روافد** عدد 4، 1998، ص. 229.

(2) انظر الدّراسة التي افردها لها البشير التليلي، **بالكراسات التونسيّة** عدد 101–102، 1978 ص 93-108، تحت عنوان:
"La Grande Guerre et les questions tunisiennes : Le groupement de la " Revue du Maghreb" (1916-1918)"., P.65.

(3) كنّا تناولنا هذا التضامن مع ثورة عبد الكريم ضمن دراسة صدرت لنا بعنوان "النّخبة في تونس والقضايا العربيّة في ما بين 1920 و1925" في أعمال ندوة : **المغرب العربي في العشرينات**، نشر معهد الحركة الوطنية، تونس، 2001، ص 77–103 ونتوسّع هنا في فحواه.

(4) Q.O.57, Tunisie 1917-1929, V.70, D.3, f.225.

كان يعيشها التونسيّون آنذاك وخاصة النّخبة التي أصيبت بخيبة أمل كبيرة لفشل مساعيها في تحقيق المطالب الوطنيّة ثم لسياسة القمع العام والتّرهيب ومحاكمة الوطنيّين منذ صائفة 1924 فرأى النّاس في محمد بن عبد الكريم بطلا مغربيّا يثأر لهم من فرنسا ويحقّق تطلّعاتهم في التحرّر (5).

وقد تراوح التضامن الشعبي مع "المجاهدين" المغاربة من الدّعاء لهم بالنّصر على منابر الجوامع وتناقل أخبار انتصاراتهم والابتهاج بها إلى التطوّع للقتال في صفوفهم (6) ولعلّ أشهر هؤلاء محمد علي الحامي مؤسّس أوّل نقابة تونسيّة مستقلّة سنة 1924 أي جامعة عموم العملة التّونسيّة والذي حكم عليه بتهمة التآمر على أمن الدولة في نوفمبر 1925 وبالنّفي خارج وطنه لمدّة عشر سنوات ورحل يوم 26 نوفمبر 1925 فاختار التطوّع في صفوف ثوّار الرّيف ويحكي الوطني التّونسي المغترب في القاهرة محمد شقرون الذي التقى محمد علي في رسالة إلى عبد العزيز الثعالبي(7) مغامرة ذلك المناضل يقول: "وهو شاب لم تزده المصائب إلاّ تمسّكا بمبادئه ولم تزده المتاعب التي تذوّقها إلا إقداما وجسارة ومخاطرة فقد بذل مجهوداته في الوصول إلى عبد الكريم زعيم الرّيف المغوار. وفعلا ذللت له بعض المصاعب بهمّة بعض زملائه المصريّين (...) ثم امتطى متن باخرة من بور سعيد ووصل جبل طارق ثم طنجة [في 20 فيفري] وهناك قبض عليه وأودع السّجن أسبوعا قضاها تحت التّحقيق ثم أطلق سراحه وترك له اختيارا الجهة التي يقصدها فاختار الرّجوع إلى القطر المصري فوصل الإسكندرية في 21 رمضان (7 أفريل 1926)" وهو ما تؤكّده تقارير الاستخبارات بمدينة طنجة آنذاك (8).

---

(5) Mahjoubi (A), **Les origines du mouvement national en Tunisie, 1904-1934**, Pub. de l'université de Tunis, 1982, p. 421-421.

– وحول تأثّر جيل العشرينات بملحمة محمد بن عبد الكريم انظر مذكّرات يوسف الرويسي، نشر مؤسسة التميمي، زغوان، 1995.

وتقرير المقيم العام 9 جوان 1925 الآنف الذكر.

(6) يذكر الباحث مبروك الشيحي في أطروحته "**حرب الرّيف وانعكاساتها بتونس. 1921-1926**" (الجامعة التّونسيّة، 1982، مرقونة) أن بعض التّونسيّين تحوّلوا للرّيف للمحاربة في صف عبد الكريم، صفحة 217 لكن دون ذكر تفاصيل حول العدد أو الأسماء مثلا.

(7) رسالة بتاريخ 14 أفريل 1926 نشرها محمد مسعود إدريس وأحمد بن ميلاد **بالمجلّة التاريخية المغاربية** عدد 74، 1994، ص. 168-172.

(8) Voir in Archives du Q.O., Tunisie – 1917-1940, C.72, f92.

وقد تناقلت الصّحف التونسيّة آنذاك أخبار أحداث الرّيف وان اتّسم أسلوبها في بداية الحرب بالاتزان فان تورّط فرنسا منذ أفريل 1925 إلى جانب إسبانيا سوف يغيّر من لهجة الصّحف حتى الأكثر اعتدالا مثل جريدتي النّهضة والزّهرة اللتين منعتا من الدّخول إلى المغرب لذلك (9). غير أنّ أهمّ نشاط جنّد الرّأي العام في تونس وخاصّة الحضري منه لصفّ الثّورة في المغرب هو عمل الصّحافة الوطنيّة مثل "اللّيبرال" و"لسان الشّعب" و"إفريقيا" التي تميّزت بمقالاتها الجريئة في نقد التدخّل الفرنسي والوقوف إلى صفّ محمد بن عبد الكريم واعتبار نضال الرّيفيّين حقّا مشروعا من أجل التّحرّر. من ذلك قصيد طويل (65 بيتا) نشرته الصّحيفة الوطنية "لسان الشّعب" لصاحبها البشير الخنقي (10) وهو ممضى باسم مستعار ابن سليمان لم نتمكّن من كشف صاحبه الحقيقي. يقول:

أجـبريل هلـــلّ بـــآي الظّفـــــر ... وكبّــر وخط جليل الخبـــــــر!

ورف بأجنحة النصـــر فـــــو ... ق بني الريف حول القنا المشتجـــر

ورتـل على الجيش ان تنصروا الـــــ ... ـــه ينصركـم ببلوغ الوطـــر !!

واعل اللواء لهـام الثـــــريـــــــــ ... ـــا وسر للأمام بتلـك الـزّمـــــر

(...)

سـلام بني الـريف مــن مهــــــج ... تــكاد تــطيــر ولا تصطبـــــر

هنيئــا بنــي الــريف قـــد فتحـــت ... لكـم جنــة الخلـد مــن يبتـدر؟!!

بني الريف ليـس ســـوى جــرعـــــة ... من الهول ثمت تجلى الغيــــــر

(...)

فحـريـــة الشعب صـــــاحـــت ... وهل مهرهــا غير هام البشــــر؟!!

فكونوا الفــداء وكونـــوا الضـــــــــــ ... ـــيا ليحي الهلال ويبقى الأثر!!(11)

Information de la Police de Tanger du 25/2/1926 et l'arrêté de l'expulsion de Mohamed Ali daté du 2 mars 1926, signé par Allal El Moferredj, Le Premier Khalifa à Tanger, même source, folio. 114.

(9) انظر تقرير المقيم العام بتاريخ 16 ماي 1925 بـ:

Q.O., Tunisie 1917-1929, Tunisie 1917-1929, C 70, D 3, f. 187.

(10) هو البشير بن حسونة الخنقي مولود حوالي 1884 بتونس (من أب جزائري) وتوفي عام 1977. درس بالزيتونة وتميز بنشاطه المسرحي واشتغل في الصّحافة. راسل جريدة **الكرمل** الفلسطينيّة والبلاد اللبنانيّة (1911) و**الأهالي** بالإسكندرية وأصدر جريدة **لسان الشعب** (1920). (محمد حمدان، أعلام الإعلام بتونس (1860-1956)، مركز التوثيق القومي، 1991، ص . 188).

(11) القصيد منشور في **لسان الشعب** 6 ماي 1925. انظر نصّه كاملا بالملحق.

وكان المناضل والقيادي في الحزب الحر الدستوري أحمد توفيق المدني الأكثر جرأة في وقوفه إلى جانب ثوّار الرّيف ممّا كلّفه إبعاده عن تونس ([12]) يقول في مقاله الصّادر بجريدة "إفريقيا" (25 ماي 1925) تحت عنوان "الحقيقة عن حوادث الرّيف. ليحي الرّيف حرّا مستقلاّ": "الآن حصحص الحق وظهرت الحقيقة" ثم يبرّئ محمد عبد الكريم ممّا تدّعيه فرنسا من أنّ الرجل يرغب في احتلال فاس وطرد فرنسا ويحيّي فيه ذاك البطل صنو مصطفى كمال رافع راية التّحرر والاستقلال مشنّعا بجرائم فرنسا وإسبانيا وفاضحا أطماعهما الاستعمارية، محذّرا إيّاهما بالهزيمة إن تمادتا في حربهما ضد الثوّار الريفيّين خاتما مقاله بأمانيه: "نحن لا نتمنى الحرب ولا نرضى ضياع الأنفس البشريّة ولا ننظر إلا بعين الكدر إلى انهيار مالية فرنسا وهي نفس ماليتنا (...) لا يسعنا إلاّ أن نحبذ عمل من يسعى لحريّة بلاده ويجاهد لاستقلال أمته ونعطف العطف الأخوي الصادق على الشعب الريفي الذي أصبح عنوان الأمم صاحبة العزيمة والقويّة الإرادة التي لا تنثني تحت عوامل الأيّام. ولا نريد إلاّ أن نرى الرّيف الباسل حيّا عاملا سعيدا تحت راية الحريّة التامة والاستقلال المفدى بالمهج والأرواح".

ولئن لم يصدر موقف رسمي من الحزب الحر الدّستوري التّونسي آنذاك ([13]) من حرب الرّيف إلاّ أنّ التقارير الرّسميّة تفيد أن قضيّة المغرب وقع تداولها في اجتماعاته من ذلك اجتماعه في 7 ماي 1925 الذي تقدّم فيه أمينه العام محيي الدّين القليبي بعريضة اقترحها المناضل الدّستوري ورفيق محمد علي الطّاهر الحدّاد يعتبر فيها الريفيّين وطنيين يناضلون من أجل استقلالهم ومن واجب التّونسيّين الامتناع عن الخدمة في الجيش الفرنسي بالمغرب وحثّ الحزب على أن يقوم بالدّعاية الضّرورية في هذا الاتّجاه غير أنّ القيادة الدّستوريّة حبّذت عدم التصويت على هذه اللاّئحة خوفا من بطش السّلطة خاصة

12- أبعد أحمد توفيق المدني إلى الجزائر لأنه من أصول جزائرية في 5 جوان 1925 لمقاله بجريدة "**إفريقيا**" (25 ماي 1925) ولنشاطه النّقابي والسّياسي والمسرحي حتى أنّه أصبح "يكوّن شغلا جديا للسّلط وخطرا متزايدا على مصالح فرنسا بتونس وفي شمال إفريقيا" حسب عبارة المقيم العام لوسيان سان ذاته في ملحق لتقريره بتاريخ 9 جوان 1925 بـ: Q.O.57, Tunisie 1917-1929, V.70., D.3, f.239.

13- في تقرير للمقيم العام بتاريخ 23 ماي 1925 يذكر أن الطّيب جميّل أحد قيادي الحزب الدّستوري صرّح في اجتماع لهيأة هذا التّنظيم بتاريخ 16 ماي أن كلّ العالم الاسلامي يتمنى النّصر لمحمد بن عبد الكريم وان يتحقّق الاستقلال وأن تعمّ ثورته كامل السّلطنة الشّريفة. **بنفس المصدر**. ص. 196.

وإنّ الإقامة العامّة كانت تشن حملة ضد الوطنيّين آنذاك متّهمة إيّاهم بالتّورّط مع الشيوعيّين ونعرف موقف الحزب الشيوعي آنذاك من حرب الرّيف ([14]) . على كلّ كانت السّلط الاستعمارية آنذاك تتهم الوطنيّين بالقيام بحملة دعائيّة ضد تجنيد التّونسيّين في الجيش الفرنسي لمحاربة إخوانهم في الرّيف المغربي من ذلك هذا النّداء الذّي علّق في مواقع عديدة من مدينة تونس في بداية شهر جوان 1925: "نداء إلى المسلمين. الذي لا يستجيب له ليس بمسلم حقيقي. إنّ الدّين الإسلامي يبلّغ كل أبنائه أنّ كلّ من يذهب إلى المغرب الأقصى لمحاربة إخوانه في الدّين ليس مؤمنا حقيقيا ويجب تكفيره. إنّ المعاهدة التي أمضتها فرنسا في باردو (معاهدة الحماية) تمنع على العساكر التّونسيّين الانتقال للقتال خارج تونس" ([15]) . كذلك جدّت حملة مماثلة في المدن الأخرى مثل بنزرت وسوسة وقابس ([16]). حتى أنّ المقيم العام تخوّف من تلك الدّعاية واقترح على وزير الخارجية إيقاف تجنيد عساكر من تونس وتحويل وحدات من الجيش الفرنسي للمغرب تأهبا لكلّ طارئ ([17]) خاصة وان القنّاصة التّونسيّين الذين زجّ بهم في المعارك ضد ثوار الرّيف كانوا لا يخفون تعاطفهم مع إخوانهم المغاربة مثل ما تشي به رسائلهم لأهاليهم ([18]).

كما أنّ الدّستوريّين حاولوا جمع بعض التّبرّعات لفائدة ثوّار الرّيف خاصة بتونس العاصمة وبنزرت وقابس([19]) وقد وقع تتبع بعض العناصر التي أشرفت على ذلك منهم رئيس فرع الحزب الدستوري بقابس عمر قفراش([20]).

---

(14) تقرير المقيم العام لوسيان سان بتاريخ 16 ماي 1925. / بـ Q.O., Tunisie 1917-1929, C.70, D.3, f.187

(15) نصّ النّداء ضمن تقرير للمقيم العام بتاريخ 9 جوان 1925. بـ Q.O., Tunisie 1917-1929, C.70, D.3, f.229

(16) تقرير المقيم العام بتاريخ 23 ماي 1925 بـ. Q.O., Tunisie 1917-1929, C.70, D.3, f.196.

(17) تقرير المقيم العام بتاريخ 18 ماي 1925 بـ . Q.O., Tunisie 1917-1929, C.70, D.3, f.188.

(18)- تقرير المراقب المدني بالقيروان بتاريخ 5 سبتمبر 1925 بـ .Q.O., Tunisie 1917-1929, C.70, D.3, f.141

(19) تقريري المقيم العام بتاريخ 6 و11 جويلية 1952 بـ : Q.O., Tunisie 1917-1929, C.70, D.3.

(20) **المصدر ذاته.**

هذا وقد نشط الشيوعيون كذلك في مساندة ثورة الرّيف رغم القمع الذي استهدفهم وحلّ فرع الحزب الشيوعي بتونس في 17 ماي 1922. وتفيد التقارير الأمنيّة أنهم وخاصة منذ أواخر 1924 وتطبيقا لتعليمات الأممية الثالثة في دعم حركات التحرّر وسيرا على هدى الحزب الأب في فرنسا ندّد الشيوعيون في صحفهم بالسياسة الاستعمارية لإسبانيا وفرنسا واعتبروا الحرب التي تشنها فرنسا في الرّيف حربا إمبريالية وحيّوا نضال عبد الكريم الخطابي "ضحيّة الجشع الاستعماري"([21])مما كلّفهم إيقاف جريدتهم "Le Combat Social" وإيقاف مديرها الصغير وتتبعه (معيّة رفيقه المحبوس سابقا فندوري) بتهمة التحريض والإجرام في حق الأمن الدّاخلي للدولة والدّعاية لجرائم القتل والنّهب والحرق وحثّ الجنود على العصيان ونشر الأخبار الزائفة([22]).

هذا المد التضامني من التّونسيّين نخبة وعامّة مع ثورة الرّيفيّين لتحرير أرضهم وفرض السّيادة سوف يتبلور بأشكال أخرى في الثلاثينات والأربعينات.

II- الثلاثينات والأربعينات: الدّفاع عن الهويّة العربيّة الإسلامية للمغرب دفاع عن الأرض أيضا.

تميّزت الأوضاع في كل من تونس والمغرب الأقصى في الثلاثينات بالتّشابه ([23]) إن كان في مستوى تجذر العمل الوطني وارتقائه تنظيميّا ونضاليّا ببروز أحزاب جديدة وفاعلة (في المغرب: حزب الإصلاح الوطني وكتلة العمل الوطني التي انشقت في 1937 إلى الحركة الوطنيّة لتحقيق الإصلاحات بزعامة علاّل الفاسي والحركة القوميّة بزعامة محمد بن الحسن الوزّاني، وكذا في تونس حيث أفرز انشقاق الدّستوريّين في 2 مارس 1934 حزبا جديدا حول الدّكتور الماطري والحبيب بورقيبة حتى ولو حافظ على تسمية الحزب الحر الدّستوري التّونسي) أو في المستوى الاجتماعي الذي انطبع بتدهور

([21]) تقرير لوسيان سان لوزير الخارجية بتاريخ 9 جوان 1925 بـــ Q.O., Tunisie 1917-1929, C.70, D.3, f.255.

وبرقية المقيم العام بتاريخ 3 جوان بنفس المصدر، الورقة 211. كذلك:

KRAIEM (M.), **Le Parti communiste tunisien pendant la période coloniale,** Tunis, Pub. de l'ISHMN, 1997, pp. 104-105 et 115-116.

([22]) تقرير المقيم العام بتاريخ 9 جوان 1925. م. م.

([23]) انظر في المنحى دراسة جمعة بيضة: "الحركة الوطنية المغربيّة وتحرّر البلاد التّونسيّة (بالفرنسيّة) ضمن أعمال الملتقى الدّولي التاسع: **تصفية الاستعمار بتونس، الأطوار والأبعاد (1952-1964)**، نشر المعهد الأعلى لتاريخ الحركة الوطنية، 1999، ص 137-145.

الأوضاع نتيجة الأزمات واشتداد الاستغلال الاستعماري وقد استغلّت النّخب الوطنيّة هذه الحالة من الاستياء الاجتماعي لتوسّع قواعدها وتثبّت أقدامها خاصة وأنّ السّياسة الاستعماريّة اتّسمت في بداية الثلاثينات بالتّحدّي الصّارخ للمشاعر الوطنيّة للشعبين والاعتداء على كيانهما وذاتيتهما إن كان في سياسة التّجنيس وخاصة في التعامل مع الشعور الدّيني للسكان وكان المؤتمر الافخارستي في تونس في ماي 1930 والذي أحدث رجّة وردود فعل عنيفة من التّونسيّين (خاصة من طلبة المدارس والزيتونة) وفي المغرب الأقصى كان لإصدار الظهير البربري في 16 ماي 1930 تداعيات مماثلة محليّا وإسلاميا.

ولئن كانت أحداث كلا البلدين تجد صداها لدى النّخب الوطنيّة وتتداعى لها بالشجب أو المساندة هنا أو هناك فان حدثين هامين عرفهما المغرب الأقصى في الثلاثينات شدّا انتباه النّخبة الوطنيّة والتّونسيّين عامة وهما ظهير 16 ماي 1930 وموجة القمع التي استهدفت الوطنيّين في صائفة وخريف 1937.

من المعروف أن هذا الظهير يعترف للسكان البربر بحق المحاكم العرفيّة لديهم (مجالس الجماعة) بالفصل في النزاعات المدنيّة وليس الشّرع أمّا في القضايا الجنائيّة فانّ المحاكم الفرنسيّة هي وجوبا صاحبة الاختصاص وهو بذلك يسحب من الملك حقّ الفصل في القضايا الجزائيّة ويحطّ من مكانة الشّرع الإسلامي فكانت تلك ردّة الفعل الرّافضة من المغاربة عربا وبربرا وموجة السّخط والاستنكار للسياسة الفرنسية التي عرفتها كل الدّول الإسلامية تقريبا ولم تشذّ تونس عن ذلك خاصة وأن مسألة الظهير البربري كانت متزامنة مع المؤتمر الافخارستي في تونس فأكّد الحدثان لدى النّخبة وعند العامّة أن الإسلام في خطر وانّ المسلمين مهدّدين في هويتهم في المغرب أو في تونس خاصة وإن الظهير البربري اقترن بإرسال مئات من المبشّرين إلى دواخل المغرب لغاية التّمسيح.

وكانت الاحتجاجات في تونس في أوساط النّخبة التقليدية أو من بين أفراد النّخبة العصريّة من ذلك إمضاء عرائض الاحتجاج كهذه التي أوردها بوعيّاد حسن: "إنّ ما تحاول فرنسا صنعه بالمغرب الأقصى من إخراج سبعة ملايين من المسلمين عن دائرة دينهم الحنيف قد اهتزّت له المملكة التونسيّة قاطبة وأوقع الحيرة في نفوس كلّ التّونسيّين من المسلمين واعتبروا ذلك نكثا للعهود التي التزمتها فرنسا نفسها وخطوة أولى في تنصير من بنظرها لذلك فإنّنا نحتج على هذا الصّنع الفظيع الذي يثير الريبة في مقاصد فرنسا

نحو محميّيها ونضم أصواتنا لبقية الشعوب الإسلامية الذين اهتزّوا لهذا المصاب المهول" ([24]).

ويبدو أنّ موقف الوطنيّين في تونس ضد الظهير البربري لم يكن بدافع رد فعل بدائي لشعور ديني مجروح بل نتيجة تقييم واع لمرامي السياسة الاستعمارية الفرنسية في شمال افريقيا عامّة وهذا ما لمسناه من قراءة الصّحف الوطنيّة زمنذاك.

نقرأ في الصّحيفة الوطنيّة "لسان الشّعب" لصاحبها البشير الخنقي: "إن مسألة تقسيم سكان إفريقيا الشمالية إلى عرب وبربر قديمة جدّا وهي وليدة الاحتلال الفرنساوي للجزائر ففي جبال الجزائر قبائل بربريّة كما هي في جبال المغرب ولكنّها لا تعتدّ ببربريتها إزاء ما يغمرها من نور الإسلام وسماحة تعاليمه فهي لا تعتد إلاّ برابطة الإسلام وان احتفظت ببعض مميزاته وخصائصها ولكن السّياسة الاستعمارية أرادت أن تخلق فيها روح العصبية الجنسية وتنفرها من العروبة وما في العروبة من آداب وأخلاق وروح جبارة تواقة إلى المجد وعقيدة شريفة وطاهرة وأن ترجع بها إلى الأحقاب العتيقة في التّاريخ من تقاليد البربر على عهد الرّومان عسى أن تصطنع هذا القسم المهم من السكّان وتستخلصه لنفسها فتجعل منه نواة الإمبراطورية الإفريقية التي يحلم بها رجال الاستعمار وفعلا أصبحت مسألة البربر مسألة بحث ودرس وعلم وتأليف وأصبح للبربر نظامهم في الجزائر وللعرب نظامهم وأصبحت اللغة البربريّة لغة درس وتعليم هناك بل وأصبحت اللّغة الرّئيسيّة إلى جنب اللّغة الفرانساويّة في كثير من المناطق التي لم يعد للعروبة فيها من حظ قليل أو كثير" ([25]).

ونفس الرّأي والموقف نقرأه في صحيفة النّخبة الوطنيّة العصريّة "صوت التّونسي" (La Voix du Tunisien) ([26]) ليوم 19 سبتمبر 1930 فبعدما قدّمت فحوى الظّهير

([24]) بوعيّاد حسن، **الحركة الوطنيّة والظهير البربري، لون آخر من نشاط الحركة الوطنية في الخارج (1930)**، الدار البيضاء، دار الطّباعة الحديثة، 1979، ص.257.

([25]) **لسان الشعب**، 17 سبتمبر 1930 الافتتاحية بعنوان: "حول مسألة البربر في المغرب الأقصى: هفوة يجب أن تتدارك". دون إمضاء، والغالب أن يكون صاحبها مدير الصحيفة الخنقي ذاته.

([26]) **"لافوا دي تينزيان"** هذه الجريدة الأسبوعيّة ثم اليومية بداية من 1931 بعثتها سنة 1930 (26 مارس) ثلّة من النّخبة الوطنيّة العصريّة منهم الدّكتور محمود الماطري والحبيب بورقيبة وعلى رأس الجريدة مديرها الشاذلي خير الله (1988-1972) أحد الوجوه البارزة في العمل الوطني وأحد قيادي الحزب الدستوري الجديد وروّاد الصّحافة الوطنيّة في تونس.

يتناول المقال تبعاته وردود الفعل عليه حيث نقرأ أنّ المغاربة الذين لم يتفطّنوا تماما لتبعات ذاك الظهير في الأوّل عند صدوره وعوا بذلك لاحقا عند بداية تطبيقه فتحرّك كامل المغرب بما فيه المنطقة الإسبانية وكان الطلبة والتلاميذ في أوّل من وقف ضد هذا الظهير ومنذ شهرين تتوالى المظاهرات ولم تهدأ الأعصاب. أنّ طنجة وتطوان وفاس والرّباط ومراكش ومدن أخرى تتحرّك والمدن كلّها تغلق أنشطتها وكل المغاربة يدعون لحماية المغرب من أخطار التمسيح ويدعون الله أن لا يفرّق المغاربة العرب عن إخوانهم البربر المسلمين. وتفنّد الجريدة ادّعاءات الدّولة الحامية من أنّ ذلك الإصلاح أتي بطلب من البربر ذاتهم ذاكرة أنّ وفودا عديدة من المناطق البربرية في الجبال توجّهت نحو المدن لتعلن رفضها لذاك الظهير وعدم قبول فصلها عن بقية الأمة ويساهم البربر في الحركات الاحتجاجيّة ضدّه حتى أن السّلط منعت بالقوّة وصول وفود بربرية من عروش أيت سغراشن وبني مخيلد وغيرهم. وتستخلص الجريدة "أنّ هذا الظهير الذي أتى حسب واضعيه ليسعد البربر فانه أدّى إلى نتيجة عكسيّة. لأن البربر لم يطالبوا يوما بتخليصهم من دين عاشوا عليه منذ ثلاثة عشرة قرنا" ([27]) .

هذا الموقف المساند للشعب المغربي والممجّد لنضالاته لإلغاء الظهير البربري نجده كذلك في "لسان الشعب" نقرأ مثلا في عددها المذكور آنفا "وعلى كلّ فانا نحتّج ضد هذه الظاهرة الجديدة في السّياسة الفرانساوية وهي اصطباغها بالصّبغة المسيحيّة ونتألّم لما أصاب إخواننا سكان المغرب الأقصى ونطالب الحكومة الجمهوريّة الحرّة بمعالجة المشكل بما تقتضيه المبادئ الجمهورية وأن سلك قادة الحكومة الفرنسوية هناك غير هذا السّبيل". وتنشر نفس الصّحيفة يوم 24 سبتمبر 1930 العريضة التي أمضاها أهل الحلّ والعقد والتي قدّمها وفد منتخب إلى السّلطان في المغرب تطالبه بإلغاء الظهير المعني وإصدار ظهير مولوي شريف "يجعل سائر الحواضر والبوادي خاضعة لحكم الشريعة الإسلامية" و"توحيد برامج التعليم" و"اعتماد اللّغة العربية" و"إيقاف حركة التبشير" في المغرب و"منح العفو العام عن جميع المسجونين والمنفيّين في هذه القضية وعدم التعرّض لكلّ من خاض فيها" ([28]).

([27]) موقف الجريدة هذا أثار سخط الاستعماريين وكذلك غضب السّلط الفرنسية في تونس وفي المغرب حيث تمّ في جانفي 1931 منع دخول الجريدة للمغرب بقرار من الجنرال فدلون (Vidalon) القائد العام للقوّات الفرنسية بالمغرب الفرنسي.

([28]) انظر النّص الكامل للعريضة بـ **لسان الشعب** لوم 24 سبتمبر 1930، صفحة 3.

هذا وقد ساهم التونسيون خارج البلاد في الحملة التي شنّت آنذاك ضد سياسة التمسيح في المغرب وشارك علماء من الزيتونة في اللّجنة التي تكوّنت في القاهرة لهذا الغرض وكانت أصدرت بيانا ممضى من شخصيات منها عبد الحميد السيّد رئيس جمعيّة الإخوان المسلمين ورشيد رضا صاحب مجلة "المنار" وعديد العلماء من الأزهر ومكة والمدينة والزيتونة والقرويّين وشخصيات ومنظّمات أخرى من بلدان إسلامية عديدة [29].

واتّخذت شعبة الحزب الحرّ الدّستوري التونسي بالقاهرة نفس الموقف وأرسلت برقية إلى رئيس الدّولة الفرنسية تناشده إلغاء العمل بالظهير البربري، ممضاة من عبد العزيز الثعالبي ووطنيّين آخرين مهاجرين من تونس والجزائر والمغرب وليبيا [30].

محطة أخرى في الثلاثينات تجلّى فيها تضامن الوطنيّين في تونس مع إخوانهم ضحايا القمع الاستعماري في الجزائر والمغرب الأقصى كانت في نوفمبر 1937. اثر حملة الاعتقالات التي شنّتها السّلط الاستعمارية في الجزائر (مصالي الحاج ورفاقه) وفي المغرب (محمد الديوري وعلاّل الفاسي وحسن الوزّاني ومكوار واليزيدي وعبد الجليل وغيرهم) وما تلا ذلك من أحكام بالسّجن أو النّفي قرّر المؤتمر الثاني للحزب الحر الدّستوري الجديد الذي انعقد في ما بين 30 أكتوبر و2 نوفمبر 1937 التصويت على لائحة تضامن مع ضحايا القمع في البلدين وتنظيم تحركات في ذاك الاتجاه فكان قرار المكتب السياسي لهذا الحزب تنظيم إضراب تضامني ليوم 20 نوفمبر 1937. إضراب عام يستثنى منه الموظّفون ومستخدمي المصالح المفوّضة للخواص ورغم معارضة السّلط وتهديدات المقيم العام ورفض النّقابات [31] كذلك الحزب الدّستوري القديم [32] والمنظمات الاقتصادية شنّ الدّساترة الجدد إضراب يوم 20 نوفمبر وحسب تقييمهم كان

---

[29] في "صوت التّونسي" لــ 1930/9/19 "**La voix du Tunisien**"، ص. 2.

[30] ضمن برقية السفير الفرنسية بالقاهرة في: Q.O., Afrique. 1918-1940. Affaire musulmanes, C.22, D.1.

[31] النقابات التابعة للاتحاد الإقليمي للكنفدرالية العامة للشغل (C.G.T.) كذلك النقابة التونسية النّاشئة: جامعة عموم العملة التونسية بقيادة بلقاسم القناوي رفضت المساهمة في الإضراب تأكيدا على مبدإ استقلاليتها السّياسية وخوفا من بطش السّلطة التي أطاحت بالجامعة الأولى سنة 1925 بقيادة محمد على الحامي بحجّة تورّطها في العمل السياسي.

[32] لا لأنّه ليس متضامنا مع الوطنيّين في الجزائر والمغرب بل رفضا للمشاركة في عمل نضالي نادى به خصم سياسي.

ناجحا وشمل كامل جهات البلاد من شمالها إلى جنوبها ومسّ أساسا قطاع التّجار والحرفيّين وحتّى عمّال الموانئ بتونس وصفاقس [33]، وهو أوّل إضراب سياسي عام يشنّه الوطنيّون في تونس.

شكل آخر من أشكال التّضامن والتّنسيق النّضالي بين الوطنيّين في تونس وفي المغرب (وفي الجزائر) جدّ خارج حدود البلدان الثلاثة وخاصة في فرنسا ومصر وذلك في الواقع منذ العشرينات حول جمعيات مختلفة مثل نجم شمال إفريقيا بباريس (1926) إلى جمعيّة طلبة شمال إفريقيا المسلمين بفرنسا (1927) ولجنة العمل الشمال الإفريقي (جويلية 1936) والتي ضمّت الحزب الحر الدستوري الجديد واللّجنة الجزائريّة لجمعية نجم شمال إفريقيا وكذلك العمل الوطني المغربية إلى مكتب المغرب العربي (15 فيفري 1947) ولجنة تحرير المغرب العربي (8 جانفي 1948) بالقاهرة. وغرضنا هنا لا أن نعيد تاريخ هذه الأطر التضامنية والنّضاليّة والتي درست من غيرنا [34] بل أن نثبت أنّها كانت أطر وطنيّة تلاقت فيها أجيال من المغاربيّين وتعزّزت ضمنها مشاعر الانتماء إلى وطن واحد ولو تغيّرت الرّقعة الجغرافيّة واختلفت السّبل أحيانا فأسماء مثل الشاذلي خير الله وأحمد بن ميلاد والطاهر صفر والحبيب ثامر وعلي البلهوان وسليمان بن سليمان

---

[33] على عكس ذلك صحيفة "**La Dépêche tunisienne**" القريبة من الإقامة العامة في نشرتها لـ21 نوفمبر 1937 تقول أن الإضراب كان محدودا. بينما وثيقة تفصيليّة حجزها البوليس في مكتب بورقيبة في 10 أفريل 1938 حول ذلك الإضراب تثبت أن الإضراب كان شاملا تقريبا. انظر (Fonds de la Résidence (Nantes), Carton. 1715, ff. 493-498.)

[34] نذكر هنا على سبيل الذكر بعض المصادر القليلة الرّواج:

- HAMED TOUATI (M.) "Quelques biographies de militants à travers l'immigration maghrébine en France dans l'entre- deux- guerres", in **Mélanges Charles- Robert Ageron,** Zaghouan, F.T.E.R.S.I., 1996, pp. 323-368.

- Inspections des Forces Terrestres, Maritimes et Aériennes de l'Afrique du Nord : **Les Partis nationalistes en Afrique du Nord**, Diffusion restreinte, Mars 1955, au Fonds de l'I.R.M.C. à Tunis, Côte-62.

والبحثين الجامعيين:

- خالد عبيد، **مكتب المغرب العربي بالقاهرة (1947–1949)**، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية بتونس، 1989 (مرقونة).

- عادل بن يوسف، **الطلبة التّونسيون بالجامعات الفرنسية فيما بين 1880 و1956: دراسة لملامح النخبة العصريّة، نشاطاتها ومواقفها من أبرز القضايا الوطنيّة والدّولية** ، أطروحة دكتوراه، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية بتونس، 200، (مرقونة).

والمنجي سليم والهادي نويرة والحبيب بورقيبة ويوسف الرويسي والرّشيد ادريس والطيب سليم... من تونس ومحمد بن حسن الوزّاني وأحمد بلاّفريج ومحمّد علاّل الفاسي وأحمد بن عبد الجليل ومحمّد وعمر وعبد المجيد بن جلّون ومحمد بن عبّود وعبد الخالق الطّريس من المغرب الأقصى ومصالي الحاج وعبد القادر الحاج علي وفرحات عبّاس وبومنجل والشاذلي المكي وغيرهم كثيرين من المناضلين المغاربة والذين قادوا العمل الوطني اشتركوا في فترة ما في أعمال نضاليّة من المؤتمرات والنّدوات وإصدار اللّوائح والعرائض والنشريات والقيام بالدّعاية الضّروريّة للتّعريف بالقضيّة الوطنيّة في كلا الأوطان الثلاثة عبر بلدان عديدة من أوربا إلى آسيا وأمريكا ويضيق المجال هنا عن تفصيلها. وقد ارتقى التنسيق النّضالي بين حركات التّحرّر الثلاث في الخمسينات إلى درجة أرقى حيث خيضت المعارك الحاسمة في التّحرّر.

III- الخمسينات: سنوات الحسم والتّضامن على أكثر من جبهة.

وصلت في الخمسينات سبل المقاومة السّلمية لتحقيق المطالب الوطنيّة في المغرب العربي إلى طريق مسدود أمام تعنّت المستعمر وارتقى العمل الوطني إلى رفع السّلاح في وجه الاستعمار. 1952: في تونس، 1953: في المغرب ، 1954: في الجزائر. وفي العلاقات بين الوطنيّين في تونس والمغرب الأقصى طبعت بداية الخمسينات بنوع من البرود وحتّى الاختلاف وذلك عندما قرر الحزب الدستوري الجديد أن يدخل منفردا في تفاوض مع فرنسا حول الاستقلال الداخلي على قاعدة النّقاط السبع التي أعلنها بورقيبة في باريس في 15 أفريل 1950 ([35]) وتكوين حكومة تفاوض برئاسة محمد شنيق في أوت 1950 وكان الحزب الحر الدّستوري الجديد طرفا فيها في شخص أمينه العام صالح بن يوسف. مما أغضب الوطنيّين في المغرب والجزائر ([36]) ورأوا في ذلك خروجا عن

([35]) وهي: استعادة السّلطة التنفيذيّة، حكومة تونسيّة متجانسة، إلغاء الكتابة العامة، إلغاء الجندرمة، مجالس بلدية منتخبة، انتخاب مجلس تشريعي لوضع دستور ديمقراطي وتحديد طبيعة العلاقات بين فرنسا وتونس.

([36]) من ذلك برقية بعث بها محمد بن عبد الكريم الخطابي وعلال الفاسي وعبد الخالق الطريس إلى بورقيبة وعبّروا له فيها عن اعتقادهم من أنّ المنحى الذي اتخذه ومشاركة حزبه في حكومة شنيق من شانه أن يبث التفرقة في صلب الوطنيّين في المغرب العربي ويضعف قضية تونس في الخارج مما جعل بورقيبة يوفد الباهي الأدغم للقاهرة لإقناع محمد عبد الكريم بصواب سياسة حزبه في ديسمبر 1950 دون أن يفلح في مهمّته. أتى في:

التزامات ميثاق لجنة تحرير المغرب العربي بالقاهرة في 9 ديسمبر 1947 ([37]) التي كان من مقرّراتها "أنّ غاية اللّجنة هي تحرير بلاد المغرب العربي: تونس والجزائر ومراكش من السّيطرة والاحتلال الأجنبيين بتحقيق جلاء الجيوش المحتلة وحصولها على الاستقلال التام والسّيادة القومية الكاملة" والتي أكّدت كذلك في مادتها الرّابعة: "لا غاية يسعى لها قبل الاستقلال". و"لا مفاوضة إلاّ بعد إعلان الاستقلال" ([38]). في هذا الموقف دعما من الحزب الحر الدستوري القديم الذي رأى في مشروع بورقيبة تجاوزا "لعهد لجنة تحرير المغرب التي تمنع فتح التفاوض قبل الرّجوع إليها ونيل موافقتها وموافقة الأمير عبد الكريم الخطابي وأن لا يكون التفاوض إلاّ في إطار المطالبة بالاستقلال" ([39]) لكن فشل المفاوضات التّونسية الفرنسية التي كرّستها مذكرة الخارجية الفرنسية (15 ديسمبر 1951) ثم ما تلا ذلك خاصة بداية من 18 جانفي 1952 من حملة اعتقالات وقمع

(Étude : le Mouv.Nat.Tunisien (1948-1951), in Q.O., Tunisie 1944-1955, C. 297, ff 99-100).

ونفس الموقف عبّر عليه الوطنيّون الجزائريّون من حزب الشعب- وحركة الانتصار للحريات الديمقراطية في:

(Q.O., Tunisie 1944-1955, C-310, Rapport du Résident Général du 29/8/1950).

([37]) تأسّست لجنة تحرير المغرب العربي بالقاهرة في 9 ديسمبر 1947 وأعلن عليها رسميّا في 5 جانفي 1948 من الأحزاب التالية: الحزبين الدّستوريين الجديد والقديم وحزب الشعب الجزائري وحزب الاستقلال وحزب الشورى والاستقلال وحزب الاصلاح الوطني وحزب الوحدة المغربية من المغرب الأقصى. وتكوّن مكتب اللّجنة من محمد بن عبد الكريم الخطابي كرئيس وأخيه امحمّد كوكيل رئيس والحبيب بورقيبة كأمين عام ومحمد بن عبّود أمين للصّندوق. (انظر. **خالد عبيد**، م.م. ص. 55).

([38]) **خالد عبيد**، م.م. ص. 56.

([39]) الإرادة: 9 ماي 1950، "التهالك على الأطماع يملي إنكار الحقائق".

الوطنيّين وانفجار المقاومة العنيفة في المدن والأرياف ([40]) سوف يعيد الدّفء للعلاقات بين الأحزاب الوطنيّة في المغرب العربي ([41]).

والذي يعنينا هنا هو حقيقة الدّعم السّياسي (وحتى المادّي) للقضيّة المغربية من الجانب التّونسي في الخمسينات (وفي الواقع كان التآزر متبادلا). وقد تتبعنا تفاصيل تلك المساندة من خلال المصادر الأرشيفية المتاحة وخاصة عبر الجريدة الوطنيّة "الصّباح" التي بعثها الحزب الحر الدّستوري الجديد في 1 فيفري 1951 ([42]) والتي تميّزت بمهنيّة عالية وثراء كبير على الأقلّ في الخمسينات.

على المستوى التنسيقي والتّضامني بين الوطنيّين في المغرب العربي تمّ في أواسط فيفري 1952 بباريس بعث "الجبهة المتّحدة للعمل الشمال الإفريقي" وقد أمضى على ميثاقها فرحات عبّاس عن حزب البيان الجزائري وأحمد مزغنّة عن حركة انتصار الحريات الديمقراطية والشيخ البشير الإبراهيمي عن جمعية علماء الجزائر والمكي الناصري عن حزب الوحدة والاستقلال المغربي ومحمد بن حسن الوزّاني عن حزب الشّورى والاستقلال وأحمد العلوي عن حزب الاستقلال وصالح فرحات عن الجزب الحر الدستوري القديم ومحمد المصمودي عن الحزب الدستوري الجديد ([43]) ونقرأ في البيان التأسيسي لهذه الجبهة: "إن الحالة بشمال إفريقيا على جانب عظيم من الخطورة وهي تتطلب من الحركات القومية اليقظة والتّبصر وتفرض عليها توطيد اتحادها ونشاطها. وإن هاته الحركات عازمة على القضاء في بلادها على النّظام الاستعماري وإبداله بنظام

([40]) حول هذا التّحول في العمل الوطني في تونس من التّفاوض إلى التّصادم يمكن العودة إلى مقالينا:
- "ستّون يوما من النّضال الشعبي بتونس من 14 جانفي إلى 15 مارس 952 **بالمجلة التاريخية المغاربية** عدد 9 ماي 1995.
- " أوربيو تونس والمقاومة المسلحة في الخمسينات" بأعمال ندوة: **التوسع الاستعماري والمقاومة بالبحر الأبيض المتوسّط** نشر .C.E.R.E.S، تونس، 2003.

([41]) انظر مثلا تقرير الاستعلامات الفرنسية بتاريخ 1951/12/20 حول هذا الموضوع وخاصة حول اللقاء الذي جمع بباريس بورقيبة بالوزّاني وحسين لحول بـــ Q.O. Tunisien1944-1955, V.311 ff 260-261.

([42]) **الصّباح** هي جريدة سياسية، إخبارية، جامعة، يومية بعثها الحزب الحر الدّستوري الجديد في 1 فيفري 1951 ولازالت تصدر منذ ذاك التاريخ مع فترات توقّف كان مديرها حتى وفاته مؤخرا الحبيب شيخ روحه وفي الفترة التي تعنينا كان رئيسي تحريرها الحبيب الشّطي ثم الهادي العبيدي.

([43]) **الصّباح** 1952/3/16.

ديمقراطي ذي سيادة فتحقّق بذلك تحرير الشعوب التي تنتسب إليها تحريرا سياسيّا واجتماعيّا واقتصاديّا وتضمن لجميع السكان "دون تمييز بينهم حقوقهم وحرياتهم" ويضيف البيان بعدما وضّح مرامي السّياسة الاستعمارية: "إن الأحزاب والمنظمات القومية بشمال إفريقيا تلتزم بمواصلة وإنماء الكفاح في سبيل تحرير شمال إفريقيا من كل نظام استعماري وارتقاء بلادهم في نطاق دستور الأمم المتحدة إلى نظم الدّول الديمقراطية ذات السّيادة وتنسيق عملهم لفائدة تحقيق هاته الأهداف" ([44]).

أمّا في القاهرة وتكريسا لقناعته بأن ما سلب بالقوّة لا يسترجع إلاّ بالقوّة وان الاستعمار لا يخضع إلاّ بالعنف، جمع محمد بن عبد الكريم الخطابي في أواخر ديسمبر 1952 ثلّة من الوطنيين المغاربيّين منهم الضابط الهاشمي الطود من الغرب وعز الدين عزوز من تونس ليكوّن هيأة سرّية مغاربيّة هدفها تفجير ثورة مسلحة تحرّرية في كامل المغرب ([45]). ولنفس الهدف جمع محمد بن عبد الكريم حوله في أواخر ديسمبر 1954 مجموعة من المناضلين الرّافضين لنهج التّفاوض ليكوّن "اتّحاد الأحزاب الشمال افريقية" والذي نجد من ضمنه ممثلين عن حزب الشورى والاستقلال من المغرب ومن تونس يونس درمونة وصالح كعفار عن الحزب الدستوري القديم ([46]).

ورغم إيقاف جلّ القايديّين الوطنيّين وإيداعهم السجن منذ 18 جانفي 1952 حتّى خريف 1954 فان الاتصالات والأعمال والمواقف المشتركة لم تنقطع بين الوطنيّين التونسيّين ورفاقهم المغربيّين الذي أفلتوا من الاعتقال ونشطوا خاصة بالقاهرة مثل صالح بن يوسف وعلي البلهوان ويوسف الرويسي وحسين التريكي والطيب سليم والرّشيد

([44]) **المصدر ذاته.**

([45]) راجع شهادة المناضل الهاشمي الطّود مسجّلة في ندوة: **محاولات التّنسيق بين جيوش التحرير الوطني بالمغرب**، التي نظمتها مؤسسة محمد بوضياف بالجزائر في 11–12 ماي 2002.
- زكي مبارك، "محمد بن عبد الكريم الخَطابي وحركة التحرّر المغاربيّة (1947–1956)" بأعمال ندوة: **تصفية الاستعمار بتونس: الأطوار والأبعاد (1952–1966)**، نشر معهد الحركة الوطنية، 1999، ص. 22.
- شهادة محمد الصالح كعفار مسجّلة بالمعهد الأعلى لتاريخ الحركة الوطنية، وكان قريبا من توجه محمد بن عبد الكريم و
- AZZOUZ (Azzedine), **L'Histoire ne pardonne pas, Tunisie 1938-1939**, Paris / Tunis, L'Harmattan/ Dar Ashraf, 1988 , p.178.

([46]) Q.O., Tunisie 1944-1955, V. 316, Les partis tunisiens à l'étranger, f. 236.

إدْريس من تونس ومحمد بن عبد الكريم الخطابي وعلاّل الفاسي وعبد الخالق الطريس والمهدي بنونة من المغرب والشاذلي المكي وفوضيل الورتلاني من الجزائر. ويجدر التذكير هنا بالدّور الكبير الذي لعبه المناضل القيادي في الدّستور الجديد للدّفاع عن قضية المغرب العربي عامة يوسف الرّويسي خاصة في سوريا ولبنان (ربط الصلّة بالأحزاب والقوى الوطنية هناك، طرح قضية شمال إفريقيا على الشرقيّين في ندوات ونشرات وعبر الصّحف وفي إذاعة دمشق) كذلك الدّور المهم الذي قام به مناضل آخر وطني -غُمط حقّه- العابد بوحافة منذ أواسط الأربعينات وفي الخمسينات للتّعريف بقضية شعوب شمال إفريقيا إن كان بمكتب المغرب العربي الذي بعثه الحبيب بورقيبة بنيويورك في جانفي 1947 أو لدى الصّحافة الأمريكية والبعثات الدّبلوماسية في الأمم المتحدة ([47]).

على المستوى الداخلي لم يفتر دعم الوطنيّين في تونس للقضيّة المغربية وحتّى في أحلك فترات القمع الاستعماري وتجلي ذلك خاصة منذ بداية الأزمة الفرنسية- المغربية في 1951 ومناورات فرنسا لفرض القبول بالسيادة المزدوجة في المغرب وإرغام السلطان مولاي محمد على القبول بذلك وإكراهه على التّبرّئ من حزب الاستقلال.

فها هي الصحيفة الوطنية الصّباح تندّد بمناورات الجنرال جوان وتهديداته "ومحاولة بث التّفرقة وتشتيت الكلمة في المغرب الأقصى بين جلالة السّلطان وأحزاب بلاده الوطنية بوسائل الإكراه والضّغط ثم إثارة أمثال القلاوي باشا (...) إن المغرب العربي والعالم المهتم به من ورائه يعلم أن الشعب المغربي الشّقيق تستحوذ عليه ثلاثة قوى لا رابع لها وهي: سلطة العلماء الرّوحية والدّينية المؤيدة لجلالة الملك وسلطة حزب الاستقلال السّياسية التي توجّهه وتقوده بكلّ جرأة وحزم نحو أهدافه الوطنية وسلطة جلالة السّلطان المشرف على الجميع بعطفه السّامي وإخلاصه النبيل. أمّا القلاوي فلا نعرف عنه أكثر

([47]) حول نشاط هؤلاء الوطنيّين التّونسيّين المغتربين بالخارج انظر في أرشيف وزارة الخارجية الفرنسية:

Q.O., Corresp.pol. et comm.. Tunisie 1944- 1955, C. 335, ff. 45-97 et QO.Tunisie 1944-1955, ff. 307-319.

كذلك المسح الشامل لنشاط هؤلاء طيلة الفترة الاستعمارية بتونس بـ"كرونولوجيا الحركة الوطنية بتونس" بالقرص الذي سيصدر عن معهد الحركة الوطنية بتونس، وفي الموضوع القسم المنجز من الأستاذ خالد عبيد.

من أنه جندي من قدماء المحاربين" ([48]) ويوضّح المناضل الوطني رئيس تحرير الصّباح الهادي العبيدي الصّورة إذ يكتب: "عاد الجنرال جوان بعد التّهديد والوعيد لإعادة المحاولة من جديد وشاء أن يقتلع من جلالة السّلطان استنكارا لمواقف رجال حزب الاستقلال حتّى ينفصم العرى ويفسد بين الشعب وسلطانه ليجدّد عهد القابون والإرهاب القديم ويشرع سنة القمع ليتبعها رفاقه في بلاد المغرب العربي الأخرى" ([49]).

وتلتجئ الصّباح للتعريف بالقضيّة المغربيّة لنشر تصريحات الأحزاب الوطنية في المغرب الأقصى وخاصة حزب الاستقلال كالبلاغ المنشور بعددها لـ 15 فيفري 1951 والذي نقرأ فيه خاصة: "ونظرية الحزب التي لا يفتأ يؤكّدها هي أن إلغاء نظام الحماية الاستعماري واسترجاع سيادة البلاد شرطان أساسيان لإيجاد اتفاق حقيقي ومفيد بين المغرب وفرنسا".

كذلك تنشر أخبار التضامن والمساندة للوطنيين المغاربة في صراعهم مع الاستعمار بإيراد ما يقع من مظاهرات وتحرّكات طلابيّة والإدلاء بالتصريحات والمواقف إن كان في الدّول العربية أو الإسلامية من الهند إلى الباكستان وإندونيسيا.

وعلى مستوى تونس يبدو أن هناك رسائل وبرقيات تضامن وتأييد كان قد بعثها التّونسيون للسّلطان والأحزاب الوطنية في المغرب ([50]).

وقد عبّرت كل القوى الوطنية عن تضامنها مع القضيّة المغربية ونادت بإضراب تضامني معها ليوم السبت 10 مارس 1951. ونقرأ في النّداء الذي توجّه به **الدّيوان السّياسي للحزب الحر الدّستوري التّونسي** بعد أن ندّد بسياسة الضّغط والقوّة المسلّطة على الشعب المغربي وسلطانه وشجب الإيقافات والتّتبعات التي "تنال من الوطنيّين المنخرطين في حزب الاستقلال ولا ذنب لهم سوى الطمع إلى جعل القطر المراكشي دولة عصرية وجعل الأمة المراكشية أمة حرّة مستقلّة" لذلك "فان الدّيوان السّياسي المتمسك بمبدأ مقاومة الاستبداد مهما كان مصدره والحريص على روابط الأخوة التي لا تنفصم بين شعوب المغرب العربي يرفع احتجاجه الصّارم على هذه المحاولة (الضّغط على السّلطان) الجديدة التي ترمي إلى خنق الأمّة المراكشية معلنا سخطه على الأساليب التي

([48]) الصّباح. 1951/2/7. ص.2.

([49]) الصّباح. 1951/2/22. ص 1. المقال بإمضاء يقضان الاسم المستعار للهادي العبيدي.

([50]) الصّباح. 1951/3/8. ص 1. عنوان:"الشعب التّونسي يساند الشعب المغربي المكافح"

استعملت لهاته الغاية وهو يشهّر بصورة خاصة بالتدابير الجائرة من إيقافات والتفاوت جماعيّة مسلّطة على أعضاء حزب الاستقلال وأنصاره ويعلن تضامنه الوثيق معهم. ويوجه الدّيوان السّياسي نداء للشعب التّونسي ليعلن تضامنه الفعّال مع الشعب المراكشي باضطراب قومي يدوم كامل يوم السبت 10 مارس 1951 يسوده الهدوء والانتظام والجلال" (51).

ويؤكّد الدّيوان السّياسي هذا الموقف في برقية بعث بها إلى محمد الخامس بتاريخ 8 مارس 1951 نقرأ ضمنها "إن الدّيوان السّياسي يعبّر لجلالتكم عن عميق تأثر الشعب التّونسي من موقف السفارة العامة بالرّباط نحو بلاطكم الشريف وهو يؤكد لجلالتكم عواطف تقديره لشخصكم المعظم وتضامنه الذي لا ينفصم من الشعب المراكشي الشقيق ضد كل محاولة ترمي إلى تفكيك وحدة الأمة المراكشية وضد كل سياسة تعتمد على القوّة من شأنها أن تمس بالسيادة الشريفة" (52).

وكان موقف المنظمات القومية الأخرى متناغما مع موقف الحزب الدّستوري الجديد ومشاركا معه في النّداء ليوم الإضراب التّضامني. فها هو **حشاد الأمين العام للاتحاد العام التّونسي للشغل** يؤكّد في بيان النّداء للإضراب: "إن الاتحاد العام التّونسي للشغل ما انفك يعتبر أن نجاح الكفاح الذي يقوم به بتونس يرتبط ارتباطا متينا بنجاح كفاح الشعوب المغربية عامة في ميداني الرّقي الاجتماعي والتحرير القومي. وينبني هذا الارتباط في آن واحد على وحدة في الغايات القومية والوضع السّياسي المسلّط عليهم وعلى وحدة الخصم المتجسّم فيه معا رأس المال والاستعمار (...) والاتحاد العام التونسي للشغل الشاعر بخطورة هاته الحالة وبواجب التضامن المتبادل المتحتم في كفاح الشغالين لتحريرهم وإرضاء رغباتهم القومية والاجتماعية ليعلن مشاركته في العمل القومي الاحتجاجي والتّضامني ليوم 10 مارس ضد العسف المسلّط على الشعوب والعملة المغربيّين والجزائريّين والتّونسيّين. ويحث كافة الشغّالين التّونسيّين من عملة ومستخدمين ومتوظفين على المشاركة في الإضراب العام يوم السبت 10 مارس بما عهد فيهم من إجماع والتحام مبيّنين بذلك استعدادهم لصد كل سياسة مبنية عن التحيّل والقوّة والدّكتاتورية فان الطبقة

(51) الصّباح 1951/3/9. ص 1.

(52) الصّباح 1951/3/9. ص3. برقية من إمضاء صالح بن يوسف الكاتب العام للدّيوان السّياسي.

الشغيلة التونسية المتحدة والمتضامنة ستكون يوم 10 مارس بجانب الشعب والشغالين في نضالهم ضد الاستبداد والظّلم" (53).

ووجّه **الاتّحاد العام للفلاحة التّونسية** نداء مماثلا ممضى من أمينه العام إبراهيم عبد الله نقرأ فيه خاصة: "والاتحاد العام للفلاحة التّونسية الذي يعمل من ناحية أخرى على تحرير الأرض التّونسية وإعادتها إلى أربابها الشّرعيّين يعتقد أيضا وأن نجاحه في مهمّته الشاقة يرتبط ارتباطا وثيقا بنجاح أبناء المغرب العربي في كفاحهم لتحرير ترائهم الذي هو كيان الوطن وان كل تفوق استعماري عدواني في أي جزء من أجزاء المغرب تتولّد عنه آثار سيئة جدّا في الحقل الزّراعي خصوصا وفي كافة ميادين النشاط الاقتصادي عموما" (54).

كما انضمّ **الاتحاد التّونسي للصّناعة والتّجارة** لنداء الإضراب وأصدر بلاغا في ذلك[55] كذلك فعلت منظّمات **الاتّحاد النّسائي الإسلامي التّونسي** برئاسة بشيرة بن مراد **وجمعيّة الطلبة التّونسيّين وكتلة الدّفاع عن المطالب الزيتونيّة** (56).

وهكذا كان إضراب 10 مارس 1951 إضرابا شاملا ناجحا لما سبقه من تحضير وتعبئة اذ ساهم فيه التّجار والمهنيّون والموظّفون. ونقرأ في بيان الاتحاد العام التّونسي للشغل بجريدة الصّباح لــ 14 مارس 1951: "لقد لبّت الطبقة الشغيلة نداء الاتّحاد العام التونسي للشغل ونفذت قرار الإضراب (...) فعمّال المناجم والرّصيف والبناء والبلديات والمصارف والحبوب والفلاحة والمطاحن والمعاش والأشغال العموميّة وغيرهم (...) والمتوظفين الذين لم يشذ منهم إلاّ القليل النّادر فقد اضربوا كلهم وكذلك كل الصّنّاع التّونسيّين بالمدن والقرى (...) فلقد نجحنا رغم الرّجعيّين ورغم التّهديد ورغم المناورات القاتلة وأيضا رغم مغالطة الدّجالين الذين لم يبق لهم إلاّ طول اللّسان" (57).

إنّ هذا التّضامن الشعبي الكبير مع المغربيّين لتحرير الوطن تجلّى كذلك في الاستعراض والتّجمّع الكبير الذي نظمه اتحاد الشغل بتونس يوم غرّة ماي 1951. وقد أكّد

(53) الصّباح. 1951/3/8. ص. 2.

(54) الصّباح. 1951/3/9. ص.2.

(55) المصدر ذاته.

(56) ن. م.

(57) الصّباح. 1951/3/14. ص. 2.

فيه الزعيم النقابي حشّاد مرّة أخرى ما أقرّه مؤتمر المركزيّة النقابية الأخير (29-31 مارس): "إن هذا الاتّحاد ليتكلّم باسم الشعب الإفريقي بأجمعه إذ لا تحرير لتونس ولا للجزائر أو مراكش ما دام هذا المغرب العظيم يرزح تحت أثقال الاستعمار فلا غرابة حينئذ أن ننوه في هذا العيد بالشعوب الشقيقة. المغرب وجلالة سلطانه العظيم سيدي محمد بن يوسف وشعبه وزعمائه وشعب طرابلس الجسور الذي تحصل على استقلاله فهذه الوحدة التي تجلّت في هذا العيد تجعلنا نجعل منه عيد التّحرير والاستقلال" ([58]).

وفعلا كان الاتحاد العام التونسي للشغل بعدد منخرطيه الذي يفوق 75 ألف منخرط القوّة الاجتماعيّة الضّاربة في البلاد في بداية الخمسينات. وكانت تحرّكاته التّضامنيّة مع شعب المغرب محلّ اعتراف وتقدير من الزعماء المغاربة. وقد ورد ذلك في كلمة ممثل مراكش عبد العالي في المؤتمر السّابق الذكر حيث صرّح: "اسمحوا لي أن أغتنم هذه الفرصة الثمينة لأعبّر لكم عن العواطف التي ملأت قلوبنا وخالجت صدورنا عندما سمعنا بإضرابكم الشريف أقول أعبّر عن تلك العواطف والحقيقة أني عاجز عن ذلك التعبير أي كلمة يا ترى تستطيع أن تصف لكم السّرور الذي أخذ منا مأخذه عندما علمنا تضامنكم الثمين وأي قلم يمكنه أن يعبّر لكم عن الفرح الذي نالنا عندما سمعنا بنجاحه الباهر التامّ فيا له من سرور عميق ويا له من فرح عظيم كيف لا نفرح وقد برهنتم للعالم بأسره على متين الرّوابط التي تربطكم والشعب المراكشي الشقيق كيف لا نفرح وقد أدليتم بهذا الإضراب ببرهان قاطع على أن المغرب العربي جزء لا يتجزأ بل أنه جسد واحد" ([59]). وهو نفس الرّأي الذي عبّر عنه رفيقه الزّعيم النقابي محجوب بن الصّديق الذي حضر المؤتمر كذلك ونسّق مع حشاد والنّقابيّين في الجزائر لتكوين جبهة عمّالية واحدة تحت زعامة فرحات حشّاد ([60]). هذه المكانة للزّعيم النّقابي والوطني في تونس وذاك الإيمان الصّادق بوحدة مصير الشعوب المغربية في التّحرّر والعدالة هما اللذان يفسّران انفجار الدّار البيضاء عند السماع باغتياله في 5 ديسمبر 1952 ([61]).

([58]) الصّباح. 1951/5/2. ص. 3.

([59]) الصّباح. 1951/3/30. ص 4.

([60]) الصّباح. 1951/4/1. ص 2 وأكّد هذا القائد النّقابي نفس الاعتبار لحشّاد في خمسينيته (انظر الشّعب 02/12/21).

([61]) كان رد فعل المغاربة عند سماع خبر اغتيال حشاد فوريا من التّظاهر والإضراب العام والمظاهرات نتيجة تحركات يومي 7 و8 ديسمبر 1952 على منات القتلى في صفوف المغاربة وبالخصوص بالدار البيضاء. انظر مقال: زكي مبارك، "اغتيال فرحات حشاد. ردود الفعل والتبعات في المغرب" بـ فرحات حشاد. *الحركة العمّاليّة والنّضال الوطني*، نشر فترسي، زغوان، 2002، ص 109-117. كذلك مقال محجوب بن الصّديق بـ الشّعب (02/12/21).

لقد أفضنا هنا في الاستشهاد بتصريحات القوى الوطنيّة تجاه قضيّة المغرب عن قصد التأكيد على قناعة الوطنيّين في تونس ومهما كانت انتماءاتهم بأن تحرير المغرب الأقصى هو ضمان لتحرير بلدهم تونس وأنّ قضية المرّاكشيّين هي قضيّة كلّ المغاربيّين. وهذا المد من التعاطف والتّضامن تواصل حتّى بعد عزل السّلطان مولاي محمد في 20 أوت 1953 وإلى غاية استقلال المغرب في سنة 1956. من ذلك نذكر لائحة التّهنئة بعودة السّلطان محمد الخامس مظفرا للعرش من مؤتمر الحزب الدستوري بصفاقس (15-18 نوفمبر 1955) والتعبير للشعب المغربي عن إجلال شهدائه ودعمه لتحقيق الحريّة والاستقلال التّام ([62]).

ويضيق المجال هنا لتقديم كشف ضافي على مجمل المواقف والأنشطة والتصريحات التي جدّت في هذا الاتّجاه ويمكن فقط ملامسة ذلك من خلال الجريدة الدّستوريّة الصّباح والتي ما فتئت طيلة الفترة (ماعدا مدّة إيقافها عن الصّدور من أواسط أفريل 1953 إلى 7 مارس 1954) تكتب عن المغرب وتتصدّر أحداث هذا البلد عادة الصّفحة الأولى ورغم الرّقابة المسلّطة آنذاك على الصّحافة في تونس فان هذا المنبر ثابر على نشر أخبار المقاومة الوطنيّة وتصريحات ومواقف زعمائها وخاصة أحداث المقاومة المسلّحة وتفاصيلها كذلك ما يجدّ ما تتبعات ومحاكمات للوطنيّين ومن مظاهر قمع مختلفة. وكانت الصّحيفة كثيرا ما تلجأ وهو هروبا من سيف الرقابة إلى إيراد مقالات من الصّحافة اليساريّة واللّيبراليّة الفرنسية (Franc-Tireur, Paris-Presse, Le Monde...) العالمية والمتعاطفة مع القضيّة المغربية ولا تخفي تضامنها مع المناضلين المغاربة واشمئزازها من المتعاونين مع الاستعمار مثل باشا مراكش القلاوي ومصرّحة بزيف أساليب القمع والمراوغة في إفشال ارادة المغاربة في التّحرّر ([63]) . وهي تعكس في الواقع رأي وموقف القوى الوطنية عامة وخاصة الحزب الدستوري الجديد.

([62]) نص لوائح مؤتمر صفاقس بـ: QO. Tunisie 1944-1955, C. 297, ff 43-44.

([63]) هذه مثلا أهم العناوين الواردة في جريدة **الصّباح** لشهر أفريل 1954 نوردها هنا كأنموذج لمكانة قضيّة المغرب فيها:

- لجنة تحرير المغرب العربي (6 أفريل).

مع الملاحظ أنّ جريدة الحزب الدّستوري القديم "الإرادة" رغم موقفها المساند للقضيّة المغربية فإنها لم تكن في مستوى جريدة "الصباح" في تغطية ما كان يجدّ بالمغرب ونادرا ما نعثر فيها على أخبار تهمّه. ربّما لضعف الحزب الدستوري القديم في حدّ ذاته ولعدم التّواصل الفكري والسياسي مع التنظيمات الحركيّة بالمغرب آنذاك.

وكانت الخمسينات مثّل ما ذكرنا تميّزت من حيث المسار النّضالي ضد الاستعمار في المغرب العربي باندلاع المقاومة العنيفة المسلّحة التي بدأت في تونس في جانفي 1952 وفي المغرب خاصة بعد عزل السّلطان مولاي محمد بن يوسف في 20 أوت 1953 ([64])

– اعتداءات وأحكام بالمغرب– كارثة المغرب قد تضاف إلى كارثة الهند الصينية (14 أفريل).
– تطور حركة المقاومة بالمغرب (16 أفريل).
– الحكم بالإعدام على تسعة مغاربة بتهم الاغتيال والمشاركة في الاغتيال . (17 أفريل).
– التدابير الاستثنائية المتخذة بالمغرب (18 أفريل).
– حوادث الاعتداء تتفاقم بالمغرب الأقصى بعد اتخاذ الجنرال قيوم التدابير الاستثنائية لقمع الإرهاب (20 أفريل).
– المخازنية يقومون برد الفعل الناري في الدار البيضاء بعد إعلان التدابير الاستثنائية (21 أفريل).
– شهادة شخصية لجندي فرنسي نزيه (حول عنصرية فرنسيي المغرب والإدارة هناك) (21 أفريل).
– الأمين العام للجامعة العربية يزور المنطقة الإسبانية بالمغرب– تطويق بعض الأحياء بالدار البيضاء وتفتيشها منزلا منزلا. (22 أفريل).
– اغتيال مقدم بمراكش وتخريب سكة الحديد بالقرب من الدار البيضاء (23 أفريل)
– الدّوائر الفرنسية تذيع رسالة لسلطان المغرب يعلن فيها تجنبه وأولاده لكل نشاط سياسي ويطلب الإقامة في بالبلاد الفرنسية (24 أفريل).
– محاولة الضّغط الجديدة على جلالة السّلطان مولاي محمد بن يوسف لم تسفر عن تنازله عن العرش وإنما عن رسالة يلتزم فيها بالكف عن كل نشاط سياسي (27 أفريل).
– طرائق مقاومة الإرهاب بالمغرب لم تغل يد الإرهابيين بل ضاعفت نشاطهم (27 أفريل).

([64]) حول المقاومة المسلّحة في المغرب الأقصى انظر أعمال سلسلة الندوات التي نظمتها المندوبية السّامية لقدماء المقاومين وأعضاء جيش التحرير:
– **ندوة المقاومة المغربية ضد الاستعمار (1904–1955)**، الرّباط، 1991.
– **تاريخ المقاومة المسلّحة والحركة الوطنية في المنطقة الوسطى الجنوبيّة (1908–1955)**، الرّباط، 1992.
– **دكالة وتاريخ المقاومة بالمغرب**، الرّباط، 1995.
– **المقاومة بإقليم خريبكة (1912–1956)**، الرّباط، 1993.

وفي الجزائر في 1 نوفمبر 1954 وقد حاول الجناح الراديكالي في الحركات الوطنيّة المغربيّة تنسيق جهوده من أجل شنّ حرب تحرّريّة شاملة لطرد المستعمر كانت القاهرة وخاصة بعد ثورة الضبّاط الأحرار في مصر (1952) وإمساك جمال عبد النّاصر بالقيادة قاعدة هذه المحاولات ([65]). والذي يعنينا هنا محاولات التنسيق بين التّونسيّين والمغاربة بالذات. وفي الواقع نظرا للفاصل الجغرافي بين تونس والمغرب الأقصى لم تحصل عمليّا أعمال تنسيق في المرحلة الأولى من المقاومة المسلّحة في تونس (جانفي 1952- نوفمبر 1954) رغم وجود الفكرة عند مناضلين من أمثال عز الدّين عزّوز ومحمد بن عبد الكريم الخطابي والهاشمي الطوّد، بينما جدّ فعلا تنسيق في المرحلة الثانية من المقاومة في تونس أو ما اصطلح على تسميته الثّوار آنذاك بـ"الثورة الثانية" ([66]). أي من أواخر 1955 إلى صائفة 1956. وكان أهم عنصر فيها المناضل الطّاهر لسود الذي قاد "جيش التحرير الوطني التونسي" وحضر الاجتماعات التّمهيدية التي تمت بالقاهرة وخاصة اجتماع فيفري 1956 والذي ضمّ قيادات جيوش التحرير الثلاثة: أحمد بن بلّة عن الجزائر وعبد الكريم الخطيب عن المغرب والطاهر لسود عن تونس بحضور الضّابط المصري فتحي الذّيب ([67]). ولا ندري ما جدّ عمليّا من أعمال في هذا الإطار في اتجاه المقاومة المغربية وحتى الطاهر لسود في شهادته لا يفيد بشيء في ذلك ([68]) ما عدى رفع شعار التحرير الشّامل للمغرب العربي تحت راية العروبة والإسلام والوحدة.

وقد برز في إطار هذه الجهود التّنسيقيّة بين المغاربة من أجل التّحرّر المناضل الوطني التّونسي الدّكتور حافظ إبراهيم المستقّر بمدريد منذ أوت 1944 وقد قدّم خدمات

- **المقاومة في المغرب الشرقي**، الرّباط، 1994.
- **المقاومة المسلّحة والحركة الوطنية بالمنطقة الوسطى الشمالية ما بين 1911-1956**، الرباط، 1997.

([65]) راجع: - فتحي الذيب، **عبد النّاصر وثورة الجزائر**، دار المستقبل العربي.
- أعمال ندوة بوضياف حول: **محاولات التنسيق بين جيوش التحرير الوطني بالمغرب** (2001)، (لم تصدر بعد).

([66]) انظر دراستنا: "جيش التّحرير الوطني بتونس: واقعه ومصيره" **بالمجلّة التاريخيّة المغاربية** 2003.

([67]) ALADIB (F.), **Abdel Nasser et la Révolution algérienne**, Paris, (traduit de l'arabe) L'Harmattan 1985, p.178.

([68]) شهادة الطاهر لسود مسجلة بالمعهد الأعلى لتاريخ الحركة الوطنية، رقم 43.

جليلة للمقاومة المغربيّة والجزائريّة حيث يصحّ نعته حسب عبارة خليدي وخبّاش بـ "جندي الخفاء ورجل المهام الصّعبة" ([69]) وقد أبرزت دراسة حديثة ([70]) دور هذا المناضل الأساسي في المقاومة في الرّبط بين المناضلين المرّاكشيين (عبد الكبير الفاسي وعبد الرّحمان اليوسفي والحكيم الخطيب...) والجزائريّين (العربي بن مهيدي وفرحات عباس ومحمد بوضياف...) والقيادة في مصر ([71]) وتزويد المقاومة في المغرب والجزائر بالسّلاح والتبرّع بأمواله الخاصة لاشترائه والتنقل عبر أوربا لذلك و"يمكن القول أنّ نشاطه لفائدة حركة التحرّر بالمغرب الأقصى كان مكثفا تواصل على امتداد ثلاث سنوات كاملة من اندلاع الكفاح المسلّح إلى غاية نجاح مفاوضات السّلطات الفرنسية مع محمّد الخامس وحزب الاستقلال وعودة السّلطان المخلوع إلى العرش" ([72]).

خاتمة:

حاول البحث إبراز وجه من وجوه التواصل المغاربي زمن الكفاح الوطني بين التّونسيّين والمغاربة تجلّت فيه لحمة حقيقيّة وعطاء نضالي من أجل الانعتاق وإيمان بوحدة المغرب العربي متخلّصا من السيطرة الاستعماريّة ولعلّ تكريس القناعة بأنّ مناعة دول المغرب واستكمال سيادتها على الأراضي التي لازالت تحت السيطرة الأجنبيّة يمرّ حتما بضرورة تمتين العلاقات بين أقطاره وتربية شعوبها على أنّ تاريخها واحد ومستقبلها واحد.

ملحـــــق:

إلـــــــى الـــــريفيّيـــــــــــن

اجبريل هلـــــــل بآي الظـــــفر ... وكبر وخط جليل الخـــــــبر!
ورف بأجنحة النصـــــــــر فو ... ق بني الريف حول القنا المشتجر

([69]) خليدي (محمّد) وخبّاش (حميد)، **جهاد من Hجل التّحرّر: الحكيم عبد الكريم الخطيب- الحكيم حافظ إبراهيم**، الرّباط، منشورات إفريقيا، 1999.

([70]) عادل بن يوسف، "مقدمة لدراسة مساهمة الحكيم حافظ إبراهيم في النّضال ضد الاستعمار الفرنسي بشمال إفريقيا"، **المجلّة التاريخية المغاربية**، عدد 102-103، مارس 2001.

([71]) Mohamed LEBJAOUI, **Vérités sur la révolution algérienne**, Paris, Gallimard, 1970, p.p.126-133.

([72]) عادل بن يوسف، م.م. ص. 62.

ورتل على الجيش إن تنصروا اللـ ... ـه ينصركم ببلـــــــوغ الوطر !
واعل اللواء لهـــــــــام الثريـــ ... ـا وسر للأمـــــام بتلك الزمر
وابلغ رسول البريئة أحـــــــــــ ... ـمد هادي الشريعة بادي بالبـــشر
بان الهـــــــــلال على أفق الـــ ... ـعز المجد بعد الأفـــول ظهر !!

*

* *

ســلام بني الـــريف مـــن مهج ... تكاد تطـير ولا تصـــــــطبر
هنيئا بن الريف قد فتــــــــــحت ... لكم جـنة الخـلد مـن يبتدر؟!!
بني الريــف ليس ســـوى جرعة ... من الهول ثمت تجــلى الغير !
بني الريف ليست سوى خـــــطوة ... على النار ثمت يجني الـــثمر!
بني الريف ليســت سوى جـــولة ... على الضـيم ثم يطـيب المقر!
نضـــالا نضـــالا بنـــي الريف عن ... تراث لـــكم غالـــي المـدخر!
أجـــيبوا أجيبوا نداء الضـــــمير ... ودعـــوة رمـيم نــــــخر! !
فكم تحت ذاك الثـــــرى من رفات ... تطالبكم حـقها المــــحتكر ! !
وكم فـــــوق ذي الأرض من مسلم ... لنصـــــــركم ولــه منتـظر ! !
بني الريــف من كان يهــوى الحياة ... يهــون عليه ركــوب الخطر ! !
فعـــرش الســـعادة لا يبـــتنى ... لقــوم سوى فوق هام أخر.. ! !
وبـــين البـــلاد ودســـــتورها ... ضحــايا نفوس وســجن اسر! !
وما الفخر إلاّ على ضـــــــــمر ... تلوح منـــــاكبها بالشـــرر! !
وأن يبلغ العز إلاّ الـــــــــــذي ... على رشــف كاس العذاب صبر
ولا يجني ثمرات الســــــــــعا ... دة والفخر حقا ســـوى من بذر!
فحرية الشعـــــب صــــاحت ... وهل مهــرها غير هام البشر؟!!
فكونوا الفداء وكونوا الضـــــــ ... يا ليحي الهــلال ويبــقى الأثر! !

بني الريف في عظـــماء الرجال ... ومجد الغزاة ولكم مـــدكر!

ألا نـــظرات إلى ابـــن الوليد ... وفاتح ملـــك العزيز عمر!

وعقـــبة فـاتـــح افـــريقيا ... وحســان من بعــده قد زار!

وطارق أذاك وابـــن نصيـــ ... ـر بأندلس سعـــيهم مشتهر!

أليسوا سوى بشـــر مثـــلنا ... وقد فتـحوا الـعالم المكـــفهر!

أليـس بعـــزم يفـــل الروا ... سي أضـــحوا ملوكا بهم يفتخر؟

أليس بذلك القـــوا درو ... سا لاجيالنا من عظـــيم السير؟

ألم يستقلوا من الصـــين مل ... كا إلى البـــرنات لأرض التتر!

وأضحى لواء الخــليفة يخـ ... ـفق حول بـيـس ولولا القهر!!!

وقد رتلوا مـــن ثباتهم ... على الفاتحـــين بليغ السور!

وقد صوروا بمجال الكـــفاح ... من الاصـــطبار بليـغ الصـور!

وأضحى الزمان يـــردد فينا ... عن ابن زيـــاد لآلي الدرر!

"فليس لديكم ســـوى موتـين ... بأيهما يستـطاب المـــقر؟!"

"وليس لكم قـــوم إلاّ الثـبات!! ... فـذلك بحـــر!! وهذا سـفر!!"

"فكونوا الفداء وكـــونوا الضحا ... يا لحيي الهـلال ويبـــق الأثر"

بني الريف إيـــاكم والفراق ... فإن التفرق يعـمي البـــصر!

أما بالتفرق لا سمـــح اللـــ ... ـه أصبح دين الهادى محتضر؟!

ألا بالتفرق لا سمـــح اللـ ... ـه أصبح عقد الهـــنا مندثر؟!

أما بالتفرق والوعـــتا ... ه سالت دما المســلمين! هدرا!

أمّا بالتفرق واحـــر قلب ... ـي أصبح صـــرح العلى مندثر؟!

فذي أمم الشرق تبكي البـــكا ... ء أليما وجيـعا يذيـب الحجر!!

وتندب حظا غدا ســلعا ... تباع وتشرى بسوق الصـغر!

وأبناؤها صامتون يســا ... قون نحو المهالك سـوق البقر!

ألا عزمات !؟ ألا همـــم!؟ ... أما آن تذكـــرة بالـــعبر؟!

فأين الشـــعور؟ وأين الإبا؟ ... وأين الأبـــي الذي يقـــتدر؟

فـ'ن سامـــحتكم ضـــمائركم ... فإن المهيمن لا يغـــتفر؟*

*

* *

بنـي الريف إيـاكم والجـــمود ... فإن النـجاح حلـيف السـهر!

بنـي الريف هـبوا بهـــذا الزمان ... تحـــرك ما فيه حـتى الحـجر!

فليس الفلاح بنـقر الدفـــوف ... ودعوى الضـريح وخـط الزبر!

ولا بالتـواكل عـــند الـــبلا ... ء ولا بالكـؤوس وضـرب الوتر

بل النصر في الســعي والاتحاد ... لنيل المنـــى ودوام النـــظر!

وصبر وحــزم وعــزم إلى الـــ ... ـعلا ورضى بالقـــضا والقدر!

ونفس تظل بتـــاج الجـلال ... وتأبى لها غيـــر هام القمر

تنـــادي بصـــوت الشـــهامة تاللـــ ... ـه من يرضي بالـذل يوما كفر!

وروح تفيـــض مـــع العـــبرات ... غـــراما وحـــبا لشعب أغر

كعبد الكريم عظيم الحـــماة ... ليحيى جلـــيلا بذكر عطر

ويبق مثالا على صـــحف الد ... هر للعظـــماء بآي العصر

بني الريف لا بل بني الشرق جمعا ... هلموا فقد عـــذب المستقر

ففوقكم عين رب خبـــير ... تنام العيـــون ولا تنحسر

وتحتكم أعظم نخـــرات ... وحولكم أنفـــس تنتظر

فكونوا الفـداء وكونوا الضـــحايا ... فيحـي الهـلال ويبـقى الأثر

ابن سليمان

المصدر: لسان الشعب 6 ماي 1925

محمد بن عبد الكريم الخطابي
في عيون التونسيين (*)

إنّ طرح مبحث كهذا يتعلّق في جانب كبير منه بالتمثّلات والتصوّرات موضوعها بطل تاريخي نقرّ مسبقا أنّه فيه كثير من المجازفة وحتى ربّما الادّعاء وذلك لعدّة اعتبارات سنأتي عليها ضمن التحرير لكن نعلن منذ البدء أنّ إعادة تركيب صورة تارخيّة لفاعل تاريخي يفترض بداهة الاستناد إلى مادّة مرجعية موثوقة ومتوفرة وهذا ليس حال موضوع بحثنا تماما إذ الوثائق ذات الصلّة بمحمد بن عبد الكريم الخطابي وملحمته خاصة في ثورة الريف هي أمّا غير كافية أو وردت معطياتها في تقارير السلط الاستعمارية وهي بالتالي صورة مشوّهة أو محرّفة. ورغم هذه المحاذير سوف نجازف باستجلاء صورة هذا المقاوم المغربي في عيون التونسيين خاصة وأننا كنا تطرقنا لجوانب أخرى تتعلق بردود الفعل السياسية من التونسيين إزاء حرب الريف أو مواقف الوطنيين في تونس تجاه القضية المغربية والقوى الفاعلة فيها بمن فيهم أمير الريف في بحثين سابقين (1).

وتأتي هذه المحاولة في عنصرين :

I- صورة محمد بن عبد الكريم الخطابي زمن الريف : البطل المثال.

(*) مساهمة في ندوة "عبد الكريم الخطابي في ذكرى لجوئه للقاهرة 1947" نظمتها المندوبية السامية لقدماء المقاومين بالحسيمة في 23-24/7/2004، وصدرت ضمن أعمال الندوة عن نفس المؤسسة في ديسمبر 2004.

(1) "النخبة في تونس والقضايا العربية في ما بين 1920 – 1925" ضمن أعمال ندوة : **المغرب العربي في العشرينات**، نشر المعهد الأعلى لتاريخ الحركة الوطنية، تونس، 2001، ص. 77- 103.
- "الوطنيون التونسيّون والقضية المغربية (1912-1956)" ضمن أعمال ندوة "**المقاومة المغربية عبر التاريخ أو مغرب المقاومات**" التي نظمها المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية بالرّباط في ديسمبر 2003، تحت الطبع.

II– صورة محمد بن عبد الكريم الخطابي زمن القاهرة : بطل حوله خلاف.

I– صورة محمد بن عبد الكريم الخطابي زمن الريف : البطل المثال

رغم الحصار الذي حاولت السّلط الاستعمارية في تونس ضربه عن قصد على وصول أخبار الأحداث العسكرية في الريف الثائر بمراقبة الصحافة وتتبّعها ([2]) وسنسرة رسائل الجنود التونسيين العاملين في الجيش الفرنسي في جبهة القتال في الريف ([3]) فإنّ المعلومات حول ما يحدث مع ثوار الريف سنوات 1920 – 1926 كانت تصل التونسيين عبر الصّحف المشرقية والصّحف الفرنسية ذاتها من المتروبول أو من تونس إذ كانت استعماريّة أو يسارية وكانت تلك الأحداث خاصة في الوسط الحضـــــري ([4]) تشدّ الرأي العام التونسي وتكوّن مادّة لحديث الناس وتعاليقهم التي تغذيها مقالات الصحف الوطنية وتلهمها حيث تبلورت صورة محمد بن عبد الكريم على أساس من الحقائق والتخيّلات في مجتمع لا زالت تغذي وجدانه الجمعي بطولات الفاتحين المسلمين وأمجادهم من علي بن أبي طالب وخالد بن الوليد وطارق بن زياد إلى صلاح الدّين الأيوبي ومصطفى كمال وتقوم نظرته للعالم على ثنائية الصّراع بين بلاد الإسلام وبلاد الكفار.

([2]) مثلا تعرّضت الصّحف الوطنية مثل "**العصر الجديد**" و "**إفريقيا**" أو "**الليبرال**" وكذلك المطبوعات الشيوعية مثل "**الكفاح الاجتماعي**" **Le Combat Social** للإيقاف وتتبّع مديريها.

([3]) راجع مثلا مراسلة الإقامة العامة بتونس لوزارة الخارجية بتاريخ 1925/9/19 بـ(Q.O. Tunisie 1917-1929, V.71, D.2, f.140) خاصة وأن السّلط الاستعمارية كانت في هذه الفترة شديدة الحساسيّة تجاه قضيّة العساكر التونسيين وتعاطفهم مع إخوانهم الريفيين ودعوة الوطنيين إلى القيام بحملة لمنع إرسالهم للمغرب.

([4]) نقول خاصة في الوسط الحضري لكن ليس حصرا فيه لأن الوسط الريفي لاسيما الذي كان ينشط فيه بعض المتعلمين والنشطين الدستوريين أو الذي كان من أبنائه من جند للحرب في الريف كان هو أيضا مشغولا بحرب عبد الكريم وتعاطف معها. انظر مثلا تقارير المراقبين المدنيين بقابس في 1924/5/7 بأرشيف نانت. Q.O. Protectorat – Tunisie C.2247,D1. f.164 كذلك بزغوان في 1925/8/8 (Q.O, Tunisie 1917-1929, V.71, D.2, f.127) وبالقيروان في 1925/9/5 (Q.O., Tunisie 1917–1929, V.71, D.2, f.141) وهذا يقوّم ما كان ذكره الأستاذ حمادي الشريف من عدم اكتراث أهل الريف بقضية عبد الكريم في مساهمته في المؤتمر حول عبد الكريم الخطابي.

- Mohamed Cherif : « La guerre du Rif et la Tunisie » in Actes du colloque international sur : **Abdelkrim et la république du Rif**, Paris, Maspero, 1976, pp. 456-471.

وفي الحقيقة أنّ كل تمثّل للأحداث أو الشخوص التاريخية حتى وإن كان المتمثّل أقرب إلى العقلانية هو مرهون بثقل وفعل الماضي الفردي والجماعي وشروط الحاضر وآمال المستقبل فعلى المستوى العمل الوطني تميّزت سنوات العشرين في تونس بتأسيس الحزب الحرّ الدستوري (1920) لكن سرعان من خابت الآمال خاصة بعد أزمة أفريل 1922 وانهيار هذا الحزب وانقسامه ([5]) وتشديد الخناق عليه وتعطيل أنشطته ([6]) ثم استهداف النضال العمالي بداية من فيفري 1925 بإيقاف قيادي جامعة عموم العملة التونسية ومحاكمتهم في نوفمبر 1925 (محمد علي الحامي ورفاقه المختار العيّاري ومحمد الغنوشي ومحمود الكبادي وعلي القروي والشيوعي بول فينودوري) ومن التأثيرات الخارجية وعلى المستوى العربي والإسلامي كان لأحداث تركيا منذ الحرب العالمية الأولى وخاصة في العشرينات مع انتصارات مصطفى كمال أتاتورك ثم إصلاحاته الجريئة وخاصة إعلان الجمهورية (29 أكتوبر 1923) وإلغاء الخلافة (3 مارس 1924) الأثر البالغ في الرأي العام التونسي إلى جانب أحداث الشام والعراق والثورة العربية الكبرى وثورة الدروز وأحداث مصر بقيادة حزب الوفد والمقاومة الطرابلسية ([7]) حيث كان التونسيون من النخب خاصة زمن ثورة عبد الكريم يتجاذبهم الأمل والخيبة وخاصة الشعور بالعجز أمام تجبّر قوى الاستعمار وكان بروز محمد بن عبد الكريم الخطابي لا سيما بعد انتصاره الباهر على الجيش الإسباني في معركة أنوال الشهيرة في 21 جويلية 1921 وتأسيسه لجمهورية الريف المستقلة في أوت 1921 وخاصة عندما دخل في حرب مع فرنسا في أفريل 1925 بمثابة البطل الذي بعثته الأقدار ليثأر لهذه النفوس المكلومة ويشفي غليل المسلمين من تجبّر الاستعمار وغطرسته وهنا تبلورت أسطورة عبد الكريم.

([5]) كوّن محمد نعمان وحسن القلاتي "الحزب الإصلاحي" في أفريل 1921 وانشق فرحات بن عيّاد والشاذلي المورالي والطيّب بن عيسى ليكوّنوا "الحزب الدستوري المستقل" في نوفمبر 1922 وأصيب زعيم الحزب ذاته عبد العزيز الثعالبي بالخيبة فغادر تونس شبه منفيّ في 26 جويلية 1923.

([6]) إيقاف بعض مناضلي الحزب في نوفمبر 1924 وطرد أحد قيادييه وهو أحمد توفيق المدني نحو الجزائر (7 جوان 1925)، تتبّع الصّحف الوطنية وإصدار الأوامر الصّارمة في 29 جانفي 1926 المعادية لأي نشاط معارض.

([7]) لمزيد التفصيل يمكن العودة لمقالنا المذكور : "النخبة في تونس والقضايا العربية في ما بين 1920 و1925".

وفي الواقع كان نحت صورة عبد الكريم الخطابي ونضال شعبه ودرجة التعاطف معه إجمالا حسب الانتماء الطبقي والسّياسي للفئات المعنية. حيث إن كنّا وجدنا تعاطفا عند الأعيان والوجهاء فهو دون تحمّس كبير ودون إعلان ثقة في انتصار عبد الكريم بل على العكس كان هناك يقين في غلبة فرنسا عليه "لأنها القوة التي هزمت ألمانيا في الحرب الكبرى" ([8]). وتتباين الصّورة عند المتسيّسين من الوطنيين وهنا من الدستوريين خاصة حيث نلقى تعاطفا واضحا مع محمد بن عبد الكريم الخطابي وانحيازا إلى صفّه لكن وجهاء الحزب من المحامين والملاكين الكبار شأن أمينه العام المحامي صالح فرحات ([9]) كانوا أكثر تعقلا ويهدّئون من اندفاع العناصر الشابة ذات المنبت الشعبي شأن الطاهر الحدّاد أو أحمد توفيق المدني أو المناضلين النقابيين شأن محمد علي الحامي ورفاقه ([10]) وذاك بحكم استبعاد العناصر البرجوازية للمواقف الجذرية ونفورها من أعمال العنف عامّة وتخوّفها من بطش السّلطة المترصّدة وربّما أيضا وعيها بانتمائها الطبقي الذي لا يتوافق مع حركة قوامها قبائل ذات طابع شعبي لذاك لم تتماشى مع ما كان ينادي به المتجذرون في حركة المساندة هذه للرّيفيين بالجهر بالمطالبة بسحب الجنود التونسيين الذين أرسلوا لمحاربة إخوانهم في الدّين وتكفير المتطوّعين في تلك الحرب والدّعوة للدعم الفعلي بجمع المال أو التطوّع ([11]).

وبصورة عامّة تمثلت النخبة الوطنية وحتى العامة من التونسيين ثورة الريفيين بأنها جهاد مسلمين لتحرير وطنهم من الغاصبين وهي ثورة وطنية ضدّ الاستعمار وكان المناضل الدستوري الشاب أحمد توفيق المدني ([12]) أحسن من عبّر عن هذا الرأي في

([8]) راجع في هذا مثلا تقرير المقيم العام لسيان سان (Lucien Saint) بتاريخ 9 جوان 1925 بأرشيف الخارجية الفرنسية (Q.O., Tunisie 1917-1929, V. 70, D.3, ff. 225-227)

([9]) انظر في هذه النقطة مقال محمد الهادي الشريف السابق الذكر.

([10]) راجع مثلا : أحمد توفيق المدني، **حياة كفاح، مذكّرات (1905–1925)**، الجزائر، 1976 وحول محمد علي ورفاقه كتاب خميّس العابد "محمد علي وفرنسا" بالفرنسية Khémaïs el Abed, **Mohamed Ali Hammi et la France**, Tunis, C.P.U, 2004, 447p.

([11]) راجع مثلا تقرير المقيم العام بتاريخ 9 جوان 1925 الآنف الذكر كذلك تقريره بتاريخ 18 ماي 1925 بنفس المصدر، الورقات : 187 – 189.

([12]) أحمد توفيق المدني من مواليد تونس من عائلة ذات أصول جزائرية كان عمره سنة 1925 ... وعشرين سنة وكان من أنشط العناصر الوطنية. سجن أثناء الحرب العالمية الأولى وكان يناضل ...

مقال له طويل بالجريدة الوطنية "إفريقيا" يوم 25 ماي 1925 بعنوان: "الحقيقة عن حوادث الريف. ليحي الريف حرّا مستقلا" حيث أنهى مقاله المرافعة هذا عن ثورة الرّيفيين بـ "نحن لا يسعنا إلا أن نحبّذ عمل من يسعى لحريّة بلاده ويجاهد لاستقلال أمته ونعطف العطف الأخوي والصّادق على الشعب الرّيفي الذي أصبح عنوان الأمم صاحبة العزيمة والقوة والإرادة التي لا تنثني تحت عوامل الأيام . ولا نريد إلا أن نرى الرّيف الباسل حيّا عاملا سعيدا تحت راية الحرّية التامة والاستقلال المفدى بالمهج والأرواح" ([13]).

فمحمّد بن عبد الكريم الخطابي عكس ما كانت تروّجه عنه الصّحف الاستعمارية من ذاك "الرقي" المارق على القانون والمتعدّي على حرمة السّلطان وعلى عظمة فرنسا يبرز في كتابات أنصاره في تونس وفي ما يردّده العامّة ذاك البطل المحارب قاهر الإسبان وذاك الشجاع المقدام الذي يخوض حربا عادلة من أجل تحرير الأرض وهو السائر على خطى الفاتحين المسلمين أجداده وخاصة طارق بن زياد ([14]) وهو صنو مصطفى كمال هازم الإنجليز واليونان الذي ثأر لهزائم المسلمين والعرب من طغيان المتغطرسين فهو منتصر لا محالة وحتى عند استسلام محمد بن عبد الكريم سنة 1926 لا نجد في الصحف إقرارا بهزيمته وكأنه هناك قناعة بأن من فعله هذا البطل هو كاف ويصنع منه بطلا ومثالا على الدّوام.

كشاعر وأديب وصحفي، قريب من النقابيين. أبعد لنشاطه الوطني هذا إلى الجزائر في 5 جوان 1925 ليواصل كفاحه للاستعمار هناك.

([13]) انظر في نفس الاتجاه جريدة "**الزهرة**" بتاريخ 6 ماي 1925 والجريدة الوطنية الأخرى "**لسان الشعب**" التي نشرت قصيدا مطوّلا يحيّي ثورة الريفيين نشرناه كاملا بدراستنا "الوطنيون التونسيون والقضية المغربية 1912 – 1956" أو الجريدة الشيوعية "**الكفاح الاجتماعي**" **Le Combat Social** ليوم 23 أوت 1925 التي رأت في محمد بن عبد الكريم "تجسيدا لآمال الشعب وبطل الاستقلال الوطني".

([14]) في مسرحية "فتح الأندلس" التي كان من المفروض أن تقدّمها فرقة "السعادة" بإدارة أحمد توفيق المدني في 5 جوان 1925 بمسرح بن كاملة والتي منعتها السّلط، كان زي جنود طارق بن زياد نفس زي جنود عبد الكريم الخطابي، انظر في هذا التقرير الذي رفعه المقيم العام حول نشاط أحمد توفيق المدني في 9 جوان 1925 بأرشيف وزارة الخارجية (Q.O., Tunisie 1917-1929, V.70., D.3. ff.236-238)

وكانت ملحمة عبد الكريم الخطابي لبنة هامة في التكوين الوطني والوجدان المقاوم لجيل من التونسيين صرّح الكثير منهم لاحقا بدور بطولات أمير الرّيف في التزامهم الوطني ونستشهد هنا بعلمين من أعلام المقاومة الوطنية في تونس أولهما يوسف الرويسي ([15]) وثانيهما الحبيب بورقيبة. يقول الرويسي : "كنّا شبابا وكنّا مفتونين بصورة خاصة بالأسلوب الثوري الخاص لمحمد بن عبد الكريم وطريقته الجديدة في حرب العصابات (...) إن الفشل الذي انتهت إليه ثورة الريف كان له الأثر العميق عليّ وكان أحدث أثرا كبيرا بين شباب جيلي" ([16]) . أمّا بورقيبة فهو يقول عن محمد بن عبد الكريم الخطابي أنه كان من جملة الأشخاص الذين تأثر بهم في شبابه ويذكر عنه أنه "قام بثورة وكانت له الغلبة في معركة "أنوال" فكان هذا النصر حافزا لإحياء الشعور بالكرامة والنخوة وهتف الناس باسمه في كلّ مكان حتى باعة "الفطاير" غدوا ينادون عبد الكريم يا كريم" ([17]) أمّا رؤية بورقيبة لبطل الرّيف لاحقا فهي قصّة أخرى نعود إليها في القسم الثاني من هذه المساهمة.

كان إذا محمد بن عبد الكريم الخطابي زمن ثورة الريف محلّ إجماع كل التونسيين تقريبا لكن بروزه مرّة أخرى على مسرح الأحداث التاريخية بالقاهرة بداية من 1947 سوف يشكّل صورة أخرى لدى التونسيين حتمتها مستجدّات الواقع التاريخي ومصالح القوى الفاعلة فيه.

II- صورة محمد بن عبد الكريم الخطابي زمن القاهرة : بطل حوله خلاف

تحولّت القاهرة كما هو معروف مع نهاية الحرب العالمية الثانية وتأسيس الجامعة العربية في 22 مارس 1945 إلى عاصمة الكفاح التحرّري المغربي تنافس باريس حيث

([15]) يوسف الرويسي (1907-1980) أحد قيادي الحزب الدستوري الجديد منذ نشأته ورفيق محمد بن عبد الكريم الخطابي في مكتب المغرب العربي وفي الصرّاع بين المغاربييّن ودعاة الوطنية الضيقة في صفّ الوطنيين المغاربة في الهجرة وسوف نعود له ثانية.

([16]) شهادة يوسف الرويسي في أعمال ندوة باريس حول محمد بن عبد الكريم، **المصدر المذكور**، ص. 509.

([17]) الحبيب بورقيبة، **حياتي**، آرائي، **جهادي**، تونس، منشورات كتابة الدولة للإعلام، 1978، ص. 48.

لجأ لها عديد المناضلين والزعماء الوطنيين ([18]) وكان أشهرهم محمد بن عبد الكريم الخطابي الذي لجأ إلى مصر في 31 ماي 1947. وكانت محاولات التنسيق النضالي بين هؤلاء الوطنيين لدحر الاستعمار حيث تلاقت السّبل بينهم غالبا وتباعدت أحيانا وكان هذا الجانب من تاريخ المقاومة المغاربيّة المشتركة للاستعمار موضوع عديد الكتابات والندوات ([19]) ولن نضيف هنا كثيرا فيه وهو ليس قصدنا أصلا في هذا العنصر لكن ضرورة استجلاء خلفيات صورة محمد بن عبد الكريم في هذه الفترة الأخيرة من مقارعة الاستعمار تضطرّنا إلى استحضار بعض تلك الحيثيات.

في الواقع وحتى سنة 1950 عندما برز الخلاف السياسي بين خط الحبيب بورقيبة التفاوضي مع فرنسا ونكوصه على ما التزم به حزبه (الحزب الحرّ الدستوري الجديد) خاصة منذ سنة 1948 عند إمضائه لميثاق لجنة تحرير المغرب العربي وبين مخالفيه من التونسيين والمغاربيين كانت صورة محمد بن عبد الكريم ايجابية في عيون التونسيين وكلّ من كتب حوله لهج بمكانته وخصاله ودوره فهاهو الزعيم الحبيب ثامر، أحد قيادي الحزب

([18]) نذكر من تونس الحبيب بورقيبة والحبيب ثامر ويوسف الرويسي وصالح بن يوسف والرشيد إدريس والطيب سليم وعلي البلهوان ومحي الدين القليبي ومن المغرب الأقصى عبد الكريم ثابت وعبد الكريم غلاب وعبد المجيد بن جلّون وأحمد الوزاني وأحمد بن المليح ومحمد بن عبّود وعلال الفاسي وإبراهيم الوزاني وناصر الكتاني والمكي الناصري ومن الجزائر الفوضيل الورتلاني وبشير الإبراهيمي والشاذلي المكي وأحمد المدني ومحمد خيضر وحسين لحول وامحمّد يزيد وحسين آيت أحمد وأحمد بن بلة... وغيرهم كثيرين.

([19]) حول صيغ التنسيق وأطر التضامن والمقاومة المشتركة من "جبهة الدّفاع عن افريقيا الشماليـة" (1945) و"مكتب المغرب العربي" (1947) و"لجنة تحرير المغرب العربي" (1948) و"اتحاد الأحزاب الشمال افريقية" (1955) إلى "جيش تحرير المغرب العربي" (أواخر 1955) صدرت عدّة مؤلفات نذكر ما صدر أخيرا حولها :

- زكي مبارك، "قضايا في حركة محمد بن عبد الكريم الخطابي" مجلة **أمل** عدد 8، الدار البيضاء، 1999.
- زكي مبارك، **محمد الخامس وابن عبد الكريم الخطابي واشكالية استقلال المغرب**، الرّباط، منشورات، 2003، 342 ص.
- مؤسسة محمد بوضياف، **جيش التحرير المغاربي (1948 – 1955)**، الجزائر، 2004 ، 246 صفحة بالعربية و 80 صفحة بالفرنسية.
- عميرة علية الصغيّر، **المقاومة الشعبية في تونس في الخمسينات**، صفاقس، التسفير الفني، 2004، 200 صفحة.

الحرّ الدستوري الجديد ومن مؤسّسي مكتب المغرب العربي (20) يكتب عنه في "هذه تونس" منوّها بدوره في دفع النضال الوطني منذ لجوئه مصر: "وقد ضاعف هذا النشاط خروج البطل العربي سموّ الأمير عبد الكريم الخطابي من الأسر الفرنسي ونزوله في القاهرة ضيفا على جلالة الفاروق المعظم وقد خطت الحركة الوطنية في المغرب خطوة أخرى جريئة وذلك بتكوين لجنة تحرير المغرب العربي من ممثلين عن الأحزاب القومية في تونس والجزائر ومراكش تحت رئاسة سمو الأمير عبد الكريم الخطابي" (21) أمّا المناضل الآخر الدّستوري الجديد وأحد مؤسسي مكتب المغرب العربي بالقاهرة الرشيد إدريس فقد كتب عنه لجريدة "الزهرة" (التونسية) في 15 جوان 1948 : "عبد الكريم (...) البطل المغربي الكبير (...) بطل المغرب العربي الرّمز الحي لجهادنا المسلح في سبيل الحرّية والاستقلال والشرف (...) وإني أذكر بهذه المناسبة كيف تحرّر البطل من قيوده وعاد إلى الحرّية يحرّك قلبه الكبير الإيمان القوي وكأنه لم يقضّ اثنتين وعشرين سنة في جزيرة (لارينيون) النائية وكأنه لم يعرف الأسر ومرارته أبدا (...)" (22) وفي مقال آخر بعد سنة تقريبا يعبّر الرشيد إدريس على إكباره الدائم لبطل الريف وقناعته بعقيدة الأمير النضالية حيث كتب في الجريدة ذاتها بتاريخ 13 جويلية 1949 : "لقد شعرت وأنا بين يدي هذا الرّجل العظيم الذي كتب في تاريخ المغرب العربي صفحة بطولة ومجد رائعة وهو يخط كل يوم صفحات من الصّبر والجهاد الصّامت يستمدّ منها الشباب المناضل قوّة وعزما ونشاطا. شعرت وأنا بين يديه الكريمتين بعبء الرسالة التي علينا أن نضطلع بها معشر أبناء الجيل فإن عبد الكريم يدعونا إلى جهاد مرير ويبشرنا بنصر من الله قريب إذا آمنّا بقوّتنا على قهر الاستعمار وهذه اللّغة الصّافية الواضحة هي وأيم الله اللغة التي تعيها قلوبنا وتستطيبها فتوتنا ولئن رسم لنا البطل الكبير سبيل المجد

(20) الدكتور الحبيب ثامر (1909 – 1949) درس الطبّ بباريس وترأس جمعية طلبة شمال إفريقيا المسلمين في باريس أصبح من قيادي الحزب الحرّ الدستوري الجديد منذ 1938 واعتقل مرّات قبل أن يغادر تونس في ماي 1943 هروبا من القمع الاستعماري حتى التحق برفاقه بالقاهرة في جوان 1946 وكان محلّ إجماع المناضلين المغاربيين بمصر. وقد لقي حتفه هو ورفيقه علي الحمامي من الجزائر ومحمد بن عبّود من المغرب في حادث طائرة في 12 ديسمبر 1949 بباكستان أين كانوا يحضرون المؤتمر الاقتصادي الإسلامي باسم مكتب المغرب العربي بالقاهرة.

(21) الحبيب ثامر، **هذه تونس**، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1988، ص. 176 (الطبعة الأولى بالقاهرة في 1948).

(22) الزّهرة يوم 15 جوان 1948 مقال بعنوان : "خلاص الأمير عبد الكريم الخطابي".

علينا معشر الشباب أن نمهّده ونعبّده ونسلكه في غير ما رهبة ولا إحجام وأول جهاد جهاد النفس وبدء النصر والإيمان" (23) هذا الإجلال من الرشيد إدريس لبطل الريف والإقرار بعقيدته النضالية نجده عند أحد الزّعامات المغاربية الأخرى وهو القيادي الدستوري يوسف الرويسي (24) فقد كتب عنه في مذكراته عند نزول عبد الكريم بمصر يقول : "فقد كان نزوله ببور سعيد في ذلك التاريخ من الأحداث التاريخية البارزة لما يتمتع به عبد الكريم من شهرة عالمية كرائد من الأوائل في حرب العصابات التحرّرية ومحارب من الطراز الأول ضد الاستعمار فقد بلغت الدّعاية لقضية المغرب العربي في تلك الفترة رقما قياسيا فأصبح مكتب المغرب العربي بالقاهرة قبلة أنظار العالم يتوافد عليه الصحافيون من كل حدب وصوب فقالت عنه إحدى الصّحف البريطانية أن رقم 10 في شارع ضريح سعد في القاهرة يعادل رقم 10 دونينق ستريت (Downing Street) في لندن" (25). هذا الإقرار بمكانة محمد بن عبد الكريم الخطابي وعظيم دوره في الدفع بحركة التحرّر في المغرب العربي لم يتغيّر عند الرويسي حتى بعد وفاة بطل الريف بعشر سنوات حيث أكد من جديد في المؤتمر المنعقد في باريس سنة 1973 حول محمد بن عبد الكريم نفس الرأي وأشاد بسموّ أخلاق الرجل وصدق ثوريّته حيث أسرّ : "لقد عاشرت الرّجل وتحدّثت معه المرّات العديدة ورغم تقدّمه في السن بقي محمد بن عبد الكريم كما هو وفيّا لمثله الثوري لأنّ هذا الرّجل الصغير القامة والمتواضع الهيأة وذو

(23) مقال بعنوان : "الأمير عبد الكريم يقول لمراسل "الزهرة" أحيّي جهاد جريدة "الزهرة" في سبيل المغرب العربي ونضاله في سبيل العروبة والإسلام".

(24) يوسف الرويسي (1907–1980) أحد مؤسسي الحزب الحرّ الدستوري الجديد وأحد قياداته حتّى خروجه من تونس في ماي 1943 هروبا من القمع الاستعماري نشط بفرنسا وألمانيا وإسبانيا هو ورفاقه. حكم عليه بالإعدام غيابيا في أفريل 1946. تمكن من اللجوء إلى دمشق سنة 1946 أين كوّن "مكتب الحزب الحرّ الدستوري التونسي بدمشق". كان من مؤسسي "مكتب المغرب العربي بالقاهرة" في فيفري 1947. اختلف مع بورقيبة في نهجه التفاوضي منذ 1950 وكان قريبا لطروحات محمد بن عبد الكريم الخطابي. وكان من المغضوب عليهم في تونس حتى عودته سنة 1964 حيث انتخب عضوا بمجلس النواب. انظر في حياة الرويسي التعريف الذي أنجزه الأستاذ التميمي في مقدّمة كتاب **كتابات ومذكرات المناضل يوسف الرويسي** الآنف الذكر وبأرشيف وزارة الخارجية الفرنسية التقارير الذاتية حول الرويسي من فعل المخابرات العامّة (Q.O., Tunisie 1944-1955, V. 317, ff. 125-129)

(25) يوسف الرويسي، **كتابات ومذكرات**، م.م.، ص. 171.

النظرة الهادئة الملائكية والابتسامة البريئة هو ثوري في الصّميم وما يؤمن به في هذا الموضوع هو في رسوخ عقيدته الدينية" ([26]).

هذا الإعجاب بشخص محمد بن عبد الكريم الخطابي نجده كذلك عند غير المنتمين شأن الكشاف الوطني التونسي الضابط عز الدّين عزوز ([27]) الذي شارك الأمير مغامرة التأسيس لأركان ثورة مسلحة مغاربية بداية من سنة 1949 ([28]) حيث كان يصفه "بأسد الريف" و"الأستاذ العظيم" ويمكن أن نعدّد هذه النظرة التقديرية لبطل المغرب عند كثيرين آخرين.

لكن هذا الإكبار لشخص محمد بن عبد الكريم الخطابي لئن تواصل عند المقتنعين بأفكار عبد الكريم في التحرّر باعتماد الثورة المسلّحة الشاملة والمتزامنة في كامل المغرب العربي وفرض الاستقلال الكامل ورفض الحوار مع العدو فإنه خفت وتحول إلى نقد خفي أو معلن عند السياسيين ودعاة المرحلية والوطنية الضيقة. ونجد في الجانب الأول أي المنحازين لعقيدة محمد بن عبد الكريم الخطّابي ولمبادئ ميثاق لجنة تحرير المغرب العربي ([29]) مجموعة من الضبّاط التونسيين الذين أشرف على تكوينهم محمد بن عبد

([26]) أعمال الندوة المذكورة، ص. 509.

([27]) عز الدّين عزّوز (1918 – 1983) . كان أحد قادة "**الكشاف المسلم التونسي**". اشتغل مترجم شرطة. شارك في المؤتمر العالمي للشباب بلندن سنة 1945 كممثل عن الشبيبة التونسية حيث ألقى خطابا وطنيا طالب فيه بإنهاء الاستعمار فطرد من شغله وحوكم غيابيّا. عاش منذ ذاك التاريخ في الهجرة وخاصة بين مصر وسوريا وطرابلس تخرج ضابطا من الأكاديمية العسكرية في دمشق سنة 1949. كان أحد العناصر المقرّبة والنشطة في مجموعة الخطابي. لم يعرف اعترافا بجهده النضالي في تونس حتى وفاته لأنه لم يكن متحزّبا.

([28]) حول هذا الموضوع انظر : زكي مبارك، **محمد الخامس...** م.م، ص. 65–79. وشهادة الضابط المغربي الهاشمي الطّود "**جيش التحرير المغاربي**" عن مؤسسة بوضياف، م.م، ص. 13-25. و Azzedine Azzouz, **L'Histoire ne pardonne pas. Tunisie (1938-1989)**, Paris Tunis, L'Harmattan, Dar Achraf, 1988.

([29]) نذكّر أنّ "لجنة تحرير المغرب العربي بالقاهرة "والتي تمّ الإعلان عنها في 5 جانفي 1948 قد أمضى ميثاقها ممثلون عن الحزبين الدستوريين القديم والجديد وحزب الشعب الجزائري وحزب الاستقلال وحزب الشورى والاستقلال وحزب الإصلاح الوطني وحزب الوحدة المغربية من المغرب وكان رئيسها محمد بن عبد الكريم الخطابي وأمينها العام الحبيب بورقيبة وأمين الصندوق محمد بن عبّود. وينصّ الميثاق على أنّ "الاستقلال المأمول للمغرب العربي هو الاستقلال التام لكافة أقطاره

الكريم شأن الهادي بن عمر ويوسف العبيدي وخاصة عز الدين عزوز ومجموعة من السياسيين التونسيين ذوي التوجه العروبي الإسلامي شأن الأمين العام للحزب الدستوري القديم محي الدين القليبي المتوفى بدمشق (1954) وكذلك المناضل الوطني العابد بوحافة بالولايات المتحدة والدستوري القديم محمد الصالح كعفار ([30]) والمنشقون عن الحزب الحرّ الدستوري الجديد خاصة بعد إمضاء اتفاقيات الاستقلال الداخلي في 3 جوان 1955 ونجد من ضمنهم يوسف الرويسي وأمين عام الحزب صالح بن يوسف ومناضلون دستوريون آخرون من أبرزهم علي الزليطني وإبراهيم طوبال وعبد العزيز شوشان وحسين التريكي هؤلاء الذين دخلوا مغامرة جيش تحرير المغرب العربي منذ أواخر 1955 ([31]) وساهموا في الثورة الجزائرية.

أما في جانب المخالفين لاستراتيجيا عبد الكريم في التحرّر والذين تراجعوا عن ما التزموا به سنوات 1947 – 1949 بالقاهرة في إطار تلك الطّفرة المغاربية والعربية نجد طبعا رئيس الحزب الحرّ الدستوري الجديد الحبيب بورقيبة وأتباعه وهم الأغلبية في الدستور الجديد منهم في الكفاح خارج الوطن الرشيد إدريس والطيّب سليم وعلي البلهوان. وفي الواقع اختلاف بورقيبة مع محمد بن عبد الكريم هو اختلاف "السّياسي" مع "المحارب" وهذا لا يخصّ الزعيم التونسي فحسب بل كذلك بقية الزعماء السّياسيين في المغرب و"التجافي" في الحقيقة كان متبادلا بين الطرفين وعبد الكريم منذ أواخر الأربعينات كان لا يخفي حذره وحتى احتقاره لهؤلاء الزعماء السّياسيين الذين "يدّعون تحرير أوطانهم بالمفاوضات والمظاهرات". ونقرأ في تقرير استعلاماتي فرنسي عن نظرة عبد الكريم للزعماء السّياسيين حوله في الخمسينات يقول : " فعبد الكريم كان دائما حذرا منهم وحتى محتقرا شيئا ما لهؤلاء "المدّعين" بالقاهرة "الذين يأكلون ويشربون جيّدا" كما يقول وإن كانوا مصرّين على تزعم مقاومي الاستقلال فإنهم يحبّذون البقاء خارج ساحة

الثلاثة، تونس والجزائر ومراكش" و "لا غاية يسعى لها قبل الاستقلال" و "لا مفاوضة إلا بعد إعلان الاستقلال" و "حصول قطر من الأقطار الثلاثة على استقلاله التام لا يسقط على اللجنة واجبها في مواصلة الكفاح لتحرير البقية".

( ) راجع شهادته مسجّلة بالمعهد الأعلى لتاريخ الحركة الوطنية.

( ) في هذا الموضوع انظر "**جيش التحرير المغاربي**" المصدر المذكور وحول تونس من ضمنه بالخصوص: "جيش التحرير التونسي، حقيقته ومصيره"، ص. 83–112.

المعارك" ([32]) وكان السياسيون من جانبهم رغم تقديرهم لمحمد عبد الكريم فهم في قرارة أنفسهم وأحيانا علنا يعتبرون أفكاره وطروحاته "بدائية" ولا تتماشي مع أساليب الكفاح العصرية وتجهل خفايا الواقع السياسي العالمي فعلال الفاسي مثلا ورفاقه حسب التقرير الاستعلاماتي المذكور "كانوا رافضين أن يكونوا من أتباع عبد الكريم ويعتبرونه لم يعد في منطق العصر وهو في عمر متقدّم لا يسمح له أن يقوم بدور نشط" ([33]).

أمّا الخلاف مع بورقيبة فمردّه ليس فقط لاختلاف في أسلوب الكفاح فيعود كذلك لاعتبارات ذاتية. فمحمد بن عبد الكريم رئيس لجنة تحرير المغرب العربي عزل في أواخر ماي 1948 أمين عام هذه اللجنة الحبيب بورقيبة وعوّضه بعلال الفاسي بتهمة اختلاس أموال تبرّع به الحكام العرب في أفريل 1948 للّجنة إثر جولة بورقيبة في البلاد العربية مكلفا بمهمة حشد التأييد المعنوي والمادي لقضية المغرب العربي ([34]) ورغم التصالح بين الطرفين فيما بعد فإنّ بورقيبة ليس ممّن ينسى لذاك عندما أتى على ذكر محمد بن عبد الكريم في محاضراته حول الحركة الوطنية سنة 1973 وإن أقرّ له بدوره المقاوم كما أسلفنا الذكر فقد ادّعى أنه منذ سنة 1926 كان منتقدا له لأنه لم يكن في مستوى المسؤولية التاريخية حيث يقول بورقيبة : "تألمت كثيرا لمصير هذا الرّجل الذي بعد أن ثار وأصبح أمال شعوب إفريقيا يستسلم هكذا في زمرة من أبنائه وأفراد عائلته فتفعل بهم فرنسا ما تشاء وقلت في نفسي والله لو كنت مكانه لما استسلمت ولاخترت الموت وسلاحي في يدي على أن استسلم" ([35]) ولا يخفي بورقيبة كذلك خيبته عندما التقى بالأمير لأول مرة في 31 ماي 1947 بميناء بورسعيد إذ كان يتصوّره خاصة في مستوى فكري وسياسي أرفع إذ يقول : "وقلت في نفسي حين شهدته واجتمعت به أهذا هو الذي هزّ عواطفنا وأثار حماسنا عندما كنا شبابا إذ هو لم يظهر لنا إلا بمظهر بعيد جدا عمّا كنا نتصوّره وتبين لنا أنّ الرجل بسيط وتصريحاته للصحافة وغيرها لم تكن إلا من قبيل

([32]) تقرير بتاريخ مارس 1955 بعنوان : «**Les Partis nationalistes en Afrique du Nord**», Inspections des forces terrestres, maritimes et aériennes de l'Afrique du Nord », in Recueil et Documents, à l'I.R.M..C., Tunis, f. 102

([33]) **المصدر نفسه**، ص 103.

([34]) حول هذه القضية وتبرئة بورقيبة من التهمة التي ألصقت به راجع : يوسف الرويسي، **كتابات ومذكرات** ...م.م.، ص. 256 – 263.

([35]) بورقيبة ، **حياتي**، آرائي، **جهادي**، م.م، ص. 48.

الكلام الأجوف" ([36]). فهذه النظرة الاستعلائية لبورقيبة تجاه المقاومين ذوي الأصول الشعبية والثقافة التقليدية معروفة عنده ([37]) واحتقاره للذهنية الشرقية كرجل الفلسفة الوضعية والعقلانية ثابت عنده كذلك. ففي سنة 1951 في خضمّ الخلاف معه وانتقادات حزبه في سياسة التفاوض مع فرنسا من قبل رفاقه في "لجنة تحرير المغرب العربي" ومن قبل محمد بن عبد الكريم في حدّ ذاته كتب لابنه يعلّق على معارضيه : "لعلهم تحت تأثير "القماء" واتهامات خصومنا. إن بناء ذهنيتهم الشرقية يمنعهم من إدراك أنّ السّياسة هي فن تحقيق ما هو ممكن . إن استياءهم لن يؤثر فيّ" ([38]) وفي الحقيقة ما عرف على بورقيبة من استخفاف بالأمور الدينية وسلوكه العلماني ودسّ قدماء الحزب الدستوري القديم (محيي الدّين القليبي، محمد الصالح كعفار...) وحتّى الإخوان المسلمين المصريين ([39]) لهذا الزعيم واتهامه بالإلحاد عقّد العلاقة بين رئيس الحزب الدستوري الجديد وبطل الريف وشوّه صورة كل منهما لدى الآخر.

على كلّ كانت وفاة محمد بن عبد الكريم الخطابي في 6 فيفري 1963 بالقاهرة غاضبا على جميع التونسيّين ثمّ المرّاكشيين وحتى الجزائريين لأنهم لم يسيروا على هديه ولم يستشيروه في القرارات الهامة وأمضوا اتفاقات "لاستقلالات منقوصة" ([40]) ولم نجد أثرا يذكر في الصحافة التونسية لهذا الحدث وأقصى ما ورد هو ذكر وفاته والتذكير بنضاله دون إطناب. صحيح إن وفاة هذا البطل المغربي تزامنت في تونس مع موجة من التضييق على حرّية التعبير وكانت الطبقة السياسية تتابع آنذاك محاكمة المتورّطين في محاولة الانقلاب على النظام (تمّ كشفها في ديسمبر 1962) والتي كان الكثير من

([36]) ن.م.

([37]) نفس الاحتقار كان يكنّه مثلا لقياديِ الحزب الدستوري القديم أو للزعيم مصالي الحاج. في ما يخصّ نظرة بورقيبة لمصالي الحاج. انظر في أرشيف وزارة الخارجية المذكّرة حول الحزب الدستوري الجديد بتاريخ 15 مارس 1952 بـ Document : Le Néo-Destour au début de l'année 1952, ff. 108-147 (Q.O. Tunisie 1944 – 1955, V.297.

([38]) في رسالة من الحبيب بورقيبة لابنه من كراتشي بتاريخ 12 مارس 1951: H.Bourguiba, **La Tunisie et la France**, Tunis, M.T.E., 1954, p. 256.

([39]) انظر في هذا مثلا عز الدّين عزوز، **التاريخ لا يرحم**، م.م. ص.146.

([40]) راجع في هذا الشأن مقال عثمان بناني : "محمد بن عبد الكريم الخطابي ومسألة استقلال المغرب" مجلة أمل عدد 8، 1999، ص 145 – 154.

عناصرها في علاقة فكرية أو سياسية مع خصم بورقيبة الألد وحليف محمد بن عبد الكريم صالح بن يوسف.

خاتمـــــــة :

إنّ صورة محمد بن عبد الكريم الخطابي رغم الخلاف حوله بقيت لدى أجيال من التونسيين ولازالت صورة ذاك البطل الثائر قاهر الاستعمار وخاصة أحد الرموز التاريخيين المكافحين من أجل وحدة المغرب العربي ولعلّ ملحّات الواقع الراهن والنداءات لتفادي ما فات من واقع التشتت المغاربي يعطي لأفكار عبد الكريم وإيمانه بضرورة بناء الدولة المغاربية الواحدة، لأن الشعوب واحدة، بعدا استشرافيا عميقا ومصداقية تاريخية أثبتها الواقع.

جيش التحرير الوطني الجزائري بتونس (*)

إنّ تاريخ المقاومة الوطنيّة الجزائرية للاستعمار إن كان في وجهها السياسي (هيئات جبهة التّحرير أو الحكومة المؤقتة للجمهورية الجزائريّة) أو في وجهها العسكري (وحدات المقاومين وجيش التّحرير الجزائري) لم يكتب على الأرض الجزائريّة فحسب بل قد كتب وعن جدارة كذلك على أرض تونس (والمغرب). حيث كانت البلاد التونسية شعبا وسلطا تعيش على وقع أحداث وتطوّرات الثورة الجزائريّة طيلة السّبع سنوات من عمرها وتأثّرت بوقائعها سلبا وإيجابا ونجحت المقاومة الجزائريّة علاوة على الصعوبات والعراقيل وسوء الفهم في الجعل من تونس قاعدة خلفيّة لجيش التّحرير الجزائري منذ انتظام النّواتات الأولى من المجاهدين في نوفمبر 1954 إلى انتصار 1962 حيث رسمت المقاومة الجزائرية آثارها في كل مكان تقريبا من البلاد التونسية وخاصة على حدودها وتشهد على ذلك مواقع الذاكرة الكثيرة القائمة على الأرض ([1]) وفي وجدان الكثيرين من الذين عايشوها.

وغايتنا في هذه الورقة ليس كتابة تاريخ جيش التحرير الوطني الجزائري بتونس طيلة سنوات حرب التحرير لأنّ ذاك ليس فقط يفوق جهدنا وينأى عن اهتماماتنا بل لأنّ ذلك يتطلّب خاصّة الإطّلاع على مصادر أساسيّة لازالت مغلقة في وجه البحث وهي خاصة وثائق أرشيف وزارتي الدّاخليّة والدّفاع التونسيتين وأرشيف الجيش الجزائري حتّى

(*) نص المساهمة في الملتقى الدولي حول : "نشأة وتطور جيش التحرير الوطني" الذي نظمته وزارة المجاهدين، وصدرت ضمن أعماله عن نفس الهيئة في 2005.

(1) يا حبّذا لو يقع حصر أهم المواقع التي تخلّد خاصّة التعاون بين التونسيين والجزائريين من مواقع مراكز وحدات جيش التحرير إلى المشافي والمخابئ وساحات المعارك كمعالم للذكرى وتوطيد الانتماء لتاريخ واحد.

وإن أصبحت مصادر أخرى متاحة وهي خاصّة أرشيف الجيش الفرنسي وأرشيف جبهة التّحرير وما كتبه بعض رجال المقاومة من مذكّرات أو ردود.

وبما أنّنا كنّا تطرّقنا في بحوث سابقة (2) لجوانب من موضوع هذه الورقة لا كل في ما يتعلّق بالتضامن التونسي مع المقاومة الجزائريّة أو الدّعم الرّسمي لها أو عمليات تموينها بالسّلاح فإنّنا حبّذنا أن نتناول هنا جوانب أخرى لازالت مغمورة نبسطها في العنوانين التاليين :

I– شروط نشاط جيش التحرير الجزائري بتونس.

II– تونس : قاعدة لجيش التحرير ومنطلقا لعمليّاته.

I – شروط نشاط جيش التحرير الجزائري بتونس.

مثّلت تونس ملجأ طبيعيا للمقاومين الجزائريين إن كانوا سياسيين أو عسكريين وضمنت لهم شروط النجاح في مهمّتهم في التّحرير حيث كان المجاهدون يتحركون في "أرض حليفة" يحضنهم مدّ تضامني من أخوة لهم يحدوهم الشعور بالانتماء الواحد للإسلام والعروبة وللمغرب وتوحّدهم الإرادة في الإنعتاق والتّحرّر من عدوّ واحد وهو الاستعمار الفرنسي. وهذا الفيض التضامني لم يكن فقط لدى السياسيين والمثقّفين وطلاّب العلم والصّحافيين والأدباء (3) بل كان عند عامة الناس وبسطائهم. وتترجم هذا التّضامن ليس فقط في المواقف المساندة وحضور التظاهرات المؤيّدة وشذب عمليات القمع الاستعماري

(2) البحوث المعنيّة هي :

«Les Tunisiens et la révolution algérienne» in "**Méthodologie de l'histoire des mouvements nationaux au Maghreb**", Zaghouan, FTERSI, 1998.

«*Trafic d'armes en Tunisie : 1942 -1962* », **IBLA**, 66 année, 2003-2.

«*La Tunisie : Base-arrière de la révolution algérienne 1954-1962* » in **RHM**, n°118,2005.

(3) يراجع في هذا الموضوع مقالنا المذكور : "التونسيون والثورة الجزائرية" ص. 133-134 و

– جعفر ماجد، "الثورة الجزائرية في الشعر التونسي"، **مجلة سيراس**، تونس، 1979، ص.45-58.

– محمد صالح الجابري، **العلاقات الثقافية بين تونس والجزائر**، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1990.

– عادل بن يوسف، "النخبة التونسية والحركة الوطنية الجزائرية (1927-1962)" بالمجلّة التاريخية **المغاربيّة**، عدد 2003/109، ص.9-32.

والتشهير بها أو إعلاء "صوت الثورة" والتغني ببطولات وانتصارات جيش التحرير بل كذلك في الدّعم المادي والتبرّع –على محدوديّة– لدعم خاصة ضحايا الحرب واللاّجئين من الجزائريين والفارّين من موجات القمع والملاحقة خاصة في سنوات 1956-1958.

وعرفت سنوات 1954-1956 أسمى مظاهر التّضامن مع الثورة الجزائرية باشتراك المقاومين التّونسيين والجزائريين في جبهة موحّدة تحارب الاستعمار وتدخل في معارك مع عساكره من جبال تطاوين بالجنوب الشّرقي التونسي إلى جبال قفصة والنمامشة وسوق أهراس والقصرين وخمير وعلى كامل الحدود التونسية الجزائرية. وإن كنّا تعرّضنا في بحوثنا لهذا الوجه من المقاومة (4) وتناوله غيرنا كذلك (5) لكنّه لازال لم يدرس ما فيه الكفاية ولازال أعلام مقاومي تلك الفترة في طيّ النسيان إن كانوا من قيادي المجموعات المشتركة أو المجموعات التونسية أو الجزائريّة. فمن التونسيين الذين قادوا 'عصابات' المقاومة اليوسفيّة في إطار "جيش تحرير المغرب العربي" (6) وتحت راية التضامن المغاربي والوحدة وخاضوا معارك مشتركة مع "العدو" نذكر الطّاهر لسود، الهادي لسود، حسين بن عبد الحفيظ، الطيّب الزّلاق، الحاج النوري البعصوصي، عبد الله البوعمراني، علي درغال، الطاهر بن لخضر الغريبي، محمد قرفة، الناصر الوصيف، الصادق بن الكامل بن إبراهيم، محمود بن حسونة الزيدي، عبد اللّطيف زهير، علي الصيد، محمد بريبش، محمد بن مصباح النيفر، حسين بن عبد الحفيظ...(7).

أمّا في صفّ المقاومين الجزائريين الذين كان مسرح تحركهم الشريط الحدودي مع الجزائر وجبال الجنوب وجبال الظهّرية وجبال خمير في علاقة وتواصل مع القاعدة الشرقيّة (سوق أهراس) والمنطقة الأولى (الأوراس النمامشة) أو المنطقة الثانية (الشمال القسنطيني) كعناصر مقاومة وربط وتموين فإنّه تتردّد في تقارير الاستعلامات في

(4) أنظر خاصة مقالنا : "جيش التّحرير الوطني التونسي : حقيقته ومصيره" بـ : **جيش التحرير المغاربي، 1948-1955**، مؤسسة محمد بوضياف، الجزائر، 2004، ص.83-112.

(5) راجع مثلا : محسن الخميري، **الحركة اليوسفية : مجالها وحدودها (1955-1961)**، رسالة الدراسات المعمّقة، غير منشورة، كليّة الآداب بمنوبة، ص. 45-58.

(6) أنظر حول هذا الجيش : **جيش التحرير المغاربي 1948-1955**، جماعي، نشر مؤسسة محمد بوضياف، الجزائر، 2004.

(7) حول هؤلاء القوّاد أنظر مؤلّفنا : "**المقاومة الشعبية في تونس في الخمسينات. انتفاضة المدن – الفلاّقة – اليوسفيّة**"، صفاقس، مطبعة التسفير الفني، 2004.

الأرشيف العسكري الفرنسي ([8]) للفترة الأولى هذه من المقاومة، فترة "العصابات المستقلّة" (1954-1957) أسماء قوّاد عديدين نذكر البعض منهم على أمل مزيد البحث في مساراتهم النضاليّة وهويّاتهم الحقيقيّة.

فرق المقاومة الجزائريّة بتونس 1954-1957

قائد الفرقة	مجال التّحرّك	تقدير العدد
حمدي باشا	شمال فريانة	18
عبد القادر السوفي	فريانة – القصرين – مكثر	50
محمد الجبالي بن عمر الجيلاني	منطقة قفصة	200
الزين لسود	جبال الرديف	20 - 15
أحمد الشريف (+ الطيب الزلاق)	سوق الأربعاء – جبال خمير	120
قودري صالح	الكاف – تاجروين	–
عبد الله بولحية	جهة ساقية سيدي يوسف	–
الفهري باشا	على الحدود – الكاف	80
الصّحري عبد الله اللّموشي	" "	–
عبد الله العبيدي	جهة تالة	–
أحمد القبايلي	جهة خمير (سوق الأهراس)	–
الحاج عبد الله	جهة الكاف(سوق الأهراس)	–
بن الشريف أحمد	جهة القصرين	–
فاهر التكوكي	جهة القصرين	–
عبد الله بلهويشات	تاجروين – الساقية – الفالتة	–
عمارة العسكري بوقلاز	الكاف – سوق الأربعاء	–
عبد الله لصنب بورب	تاجروين – الكاف	–

([8]) هذا الأرشيف مصوّر في مكروفلمات في قسم منه محفوظ بالمعهد الأعلى لتاريخ الحركة الوطنية. والأرشيف المستغل هنا والذي استخلصنا منه قائمة القوّاد الجزائريين هو أرشيف المصلحة التاريخية لجيش البر الفرنسي (SHAT) في السلسلة 2H والصناديق والبكرات التالية :

2H310 (S.503), 2H311(S.504)
2H312 (S.505), 2H30 (S.503)

قرزة محمود	بوربيع قلعة سنان	200 -150
جمري حمّان بن زروال	قماطة – طباقة	200 - 150
البحري علي	الحمرة	300 - 250
مسطي صالح	زقاق – زباس – سمامة – تالة	280 - 200
عثماني أحمد فريد	الرديف	–
عنتر إبراهيم	جهة المناجم قفصة	–
الحاج لخضر	جهة الكاف	–
محمد الجبالي السوفي	منطقة الجريد – المناجم	–
قيري عبد القادر (كردوس)	تمغزة – المتلوي – عليمة	100
محمد بن عبد الله اللّموشي	الرديف – الجبل الأبيض	15
القاسم جعري	الحدود	30
لموذي العربي المدعو الطالب العربي (+ العريبي)	جبال شمال شط الجريد	700-500
عبد الكريم سلطانة	بسكرة – الجريد	–
محمد الصغيّر + الرّزقي	جهة قفصة	50

وما يجدر الإشارة إليه أنّ تقريرا للجيش الفرنسي يقدّر عدد المقاومين الجزائريين الناشطين بتونس في منتصف جانفي لسنة 1957 بحوالي 600 مجاهد بجهة خمير وبين 600 و700 بجهة الكاف وبين 800 و 1200 بجهة القصرين ([9]) وبعدد أكبر بالحدود الجنوبيّة وهذا ما سنعود إليه لاحقا.

هذه المقاومة الجزائريّة ما كانت لتنشط وتتركّز في تونس وترتقي من مرحلة العطاء الجهادي التّطوّعي لفرق مستقلّة إلى مرحلة جيش تحرير مهيكل وممركز إلاّ بارتقاء قيادة الثورة الجزائريّة ونضجها التّنظيمي وكذلك لما وفرته الدّولة التونسية الناشئة من شروط النّجاح ([10]).

([9]) SHAT, 2H.C.2H311, S.504, D1.

([10]) حول الدّعم الرّسمي لنظام بورقيبة للمقاومة الجزائريّة يمكن العودة لدراساتنا المذكورة آنفا كذلك إلى :

- أحمد توفيق المدني : **حياة كفاح**، الجزء الثالث، الجزائر، الشركة الوطنيّة للنشر والتوزيع، 1982.

في الواقع كانت الدولة التونسية منذ اتفاقيات الاستقلال الداخلي في 3 جوان 1955 تتحرك ضمن إكراهات وضغوطات عدّة وكانت حريّة حكومة بورقيبة رغم إمضاء بروتوكول الاستقلال في 20 مارس 1956 مقيّدة حيث لم تسترد البلاد فعلا سيادتها إذ لازال الأمن وخاصة الجيش الفرنسي (56 ألف سنة 1956) مرابطا بالبلاد التونسية (حتى جلاء 15 أكتوبر 1963) ولازالت مراقبة الحدود من مشمولات السّلط الفرنسيّة (حتى اتّفاق 16 أكتوبر 1956) ولازالت ميزانيّة الدّولة وتحقيق مشاريعها الاجتماعيّة وبناء وتسليح جيشها الوليد (جوان 1956) تحت رحمة الإعانة الفرنسية ولازالت أخطار الانقسام تتهدّدها (المعارضة اليوسفيّة) وتهديدات المغالين من الاستعماريّين الفرنسيّين وخاصّة من الجيش المرابط بتونس والجزائر (فرض "حقّ التتبع" في أوت 1957 ومشروع العقيد ملّو (Mollot) المحبط في ماي 1958) بالعودة بالبلاد إلى الوراء وإعادة احتلالها وتوسيع دائرة الحرب لها وتدمير المقاومة الجزائريّة على أرضها وخنق تموليها بالسلاح.

ثمّ أنّ حكومة الاستقلال كانت تطمح لتعزيز استقلالها وتكريس سيادتها بالعمل على بسط نفوذها على كامل ترابها والتحكّم في مجالها الذي كانت تخترقه القوات الفرنسيّة بتعلّة ملاحقة "المتمرّدين" من الجزائريين وهذا كان يتناقض أحيانا مع ما كان يترفّه الجزائريون من إخوانهم بتونس من واجب التضامن والمؤازرة وحق التّحرّك الحرّ بالبلاد ممّا أحدث أحيانا مشاحنات بين التونسيين والجزائريين ووتّر العلاقات بينهم وكان المقدّم قاسي في تقريره بتاريخ 5 أفريل 1960 لوزير الخارجيّة في الحكومة المؤقّتة قد وقف عند تلك الحالة وبيّن بروح نقد ذاتي مسؤوليّة الجانب الجزائري في ذلك قائلا : "وفي المقابل لقد تعدّينا كثيرا على السيادة التونسية وهيّجنا حساسيّة التونسيّين عوض أن نراعيها وذاك بـــ:

- عبد القادر العريبي، **تونس وعلاقاتها مع بلدان المغرب العربي (1947-1980)** أطروحة دكتوراه (مرقونة)، كلية العلوم الإنسانية والإجتماعية بتونس، 1999.
- لطفي الشايبي، "الدولة التونسية الجديدة والثورة الجزائرية. 1954-1958" مداخلة في الذكرى 40 لاستقلال الجزائر، الجزائر، 2002، تحت الطّبع.
- Mohamed Lebjaoui, **Vérités sur la révolution algérienne**, Paris, Gallimard, 1970.

1- كان انغراسنا بتونس صاخبا (مباني وزارية بالعاصمة كثيرة، تجول الجنود بتونس بالزيّ العسكري حتى وإن كان ذاك قد ولّى).
2- تصرّفنا وكأنّنا على أرض الجزائر مما أعطاهم انطباع وجود "دولة داخل دولة".
3- تصفيات الحسابات وتعدّد المؤامرات بيننا.
4- عدم احترام بعض الاتفاقيات الممضاة معهم والقائمة طويلة.
5- الفوضى التي كانت سائدة عندنا (...)
6- طريقة التعامل لدى بعضنا وكأنّ كل ما يأتي من التونسيّين هو حقّ لنا عليهم..." [*]

ومهما كان الأمر فإنّ فترات التوتّر [12] التي عرفتها العلاقات بين السّلط التونسية والمقاومة الجزائريّة التي تعرّضت أحيانا لتقييد حركة مقاومي جيش التّحرير أو إيقاف بعضهم أو حجز السّلاح ومنع التّموين أو التّعدّي على المقرّات وسريّة المحفوظات هي ثانويّة في ثبات الدّعم الرّسمي للقضيّة الجزائريّة ولجيش التّحرير بالذّات.

ولن نكرّر هنا ما كنّا تناولناه في بحوث سابقة بل نذكّر فقط أنّه منذ تخطّي مرحلة الصراع اليوسفي - البورقيبي سنتي 1955-1956 واستعادة نظام بورقيبة تدريجيا

[*] التقرير بالفرنسية موجود بـــ :
M. Harbi, **les archives de la révolution algérienne**, Paris, les éditions Jeune Afrique, 1981, pp.447-458, p.456.

[12] أهمّ هذه الأزمات كانت في جوان 1958 إثر اتفاق الحكومة التونسية مع فرنسا على نقل نفط بئر إيجلي الجزائري عبر تونس وفي نوفمبر 1958 إثر محاولة الضابط الجزائري لعموري الانقلاب على الحكومة الجزائرية المؤقّتة وفي صائفة 1959 إثر دعاوي تونسية ضدّ تعديّات وحدات جيش التحرير الجزائري ضدّ المدنيين والعساكر التونسيّين وفي جوان 1961 إثر أسر المقاومة الجزائريّة على الحدود التونسية ضابطا فرنسيا.
حول هذه الأحداث يمكن مراجعة : علي الكافي، **مذكرات. من المناضل السياسي إلى القائد العسكري**، الجزائر، دار القصبة، 1999 وتقرير الكمندان "قاسي م.م.
M. Harbi, **Le F. L. N., Mirage et Réalité**, Paris, Les Editions J.A./S.T.D., 1985, p.213.
حول وجهة نظر التونسيين يمكن مراجعة :
M. Sayah, **La République délivrée**, tome 2 ; 1959-1964, Tunis, Dal El Amal, 1986.

لسلطته وسيطرته على الأوضاع جدّت اتصالات بين القادة التونسيين والقادة الجزائريين لتنسيق الدّعم للثورة الجزائريّة وخاصّة تأمين تمرير السّلاح للمقاومة في الجزائر وتوفير الشروط والتّسهيلات للعناصر المتواجدة في تونس للقيام بمهامها وكانت شخصيات الرّبط من الجانب التونسي في الأوّل خاصّة المناضل النقابي والقيادي الدستوري أحمد التليلي ووزير الداخليّة الطيب المهيري حيث تمّ اتّفاق أوّل في 29 ماي 1956 بين أعضاء من الديوان السياسي للحزب الحرّ الدستوري الجديد وعبد الله بلهويشات عن جبهة التّحرير لتحويل السّلاح القادم من طرابلس ([13]) واتفاق آخر في فيفري 1957 بين ممثّل جبهة التّحرير عمار أوعمران وبورقيبة أوكلت بمقتضاه مسؤولية نقل السلاح وتأمينه للمقاومة على الحدود والمعسكرات الجزائرية للحرس الوطني التونسي ([14]) واتفاق ثالث أمضي في يناير 1957 بطرابلس بين الدكتور لمين الدّباغين وأحمد توفيق المدني عن الجبهة والصادق المقدّم والطيب سليم عن الحكومة التونسية ويقضي الاتفاق بـ :

"1 – الحكومة التونسية تتعهّد بنقل الأسلحة الجزائرية التي ترد عليها إلى الحدود من ممثّلي جبهة التّحرير الوطني وتتعهّد بتسليمها على الحدود الجزائريّة لمن تعيّنه الجبهة لتسلمها.

"2 – تكون هذه الأسلحة تحت حراسة وضمان هيئة مشتركة مؤلفة من ممثّلين عن الدّيوان السياسي وممثّلين عن جبهة التحرير الوطني الجزائري.

"3 – تتعهّد هذه الهيئة المشتركة بأنه لن يتسرّب إلى البلاد التونسية أي قطعة من السلاح أو أي جزء من الذخيرة المخصّصة للجزائر.

"4 –لا تتمّ معاملة النقل هذه إلاّ بين الجزائريين المفوّضين من قبل جبهة التّحرير الوطني والتّونسيّين المفوّضين من قبل الديوان السياسي التونسي دون مشاركة خارجيّة.(...)" ([15]).

لم يقتصر الدّعم الرّسمي لجيش التحرير الوطني الجزائري على تسهيل مرور السّلاح (80% من السّلاح مرّ عبر تونس) ([16]) وحتى تسهيل اقتنائه وحشد المال لذلك ([17]) بل

([13]) SHAT, C 2H318. S. 523, R. du 6/6/1956.

([14]) Serge Bomberger, **les Rebelles algériens**, Paris, Plon, 1958, p. 215.

([15]) أحمد توفيق المدني، **حياة كفاح...**، م.م. ص. 279.

تمثّل خاصّة في التّسهيلات المختلفة التي منحت لقيادة الثّورة الجزائريّة لتنظيم الجزائريين في تونس وقبول المتطوّعين والتحرّك الحر لوحدات جيش التّحرير وبعث مراكز التّدريب والتعليم والمناورة ومخابئ الذّخيرة والأسلحة في مختلف جهات البلاد (أنظر العنصر اللاّحق) وتسهيل تنقل القيادات داخل تونس وعبر العالم بمنح الوثائق الإدارية وجوازات السّفر والتأشيرات ([18]).

استطاعت القيادة الوطنيّة الجزائريّة إذا زمن فترة حرب التّحرير من أن تجعل من تونس قاعدة خلفيّة للمقاومة ولجيش التحرير بالتّفاهم والدّعم الطوعي من السّلط التّونسيّة والتعاطف المجدي من الرّأي العام التونسي وأحيانا بفرض الأمر الواقع – لأن الجغرافيا لها أحكامها – حيث تكوّنت قوّة ضاربة لهذا الجيش على الأرض التونسية نستجلي في العنصر الموالي بعض أوجهها.

II – تونس : قاعدة لجيش التّحرير ومنطلقا لعمليّاته

حظيت الجوانب التّنظيميّة لجيش التّحرير الجزائري في تونس بعدّة مؤلّفات من متخصّصين أو ضالعين في أحداث حرب الجزائر إن كان في صف المقاومة أو في الصفّ المقابل ([19]) والذي يعنينا هنا هو تسليط الضوء على جوانب لازالت مجهولة على ذاك الوجود والتي مكّننا منها اطّلاعنا على الأرشيف الفرنسي المغطّي لأحداث تلك الفترة.

() Hartmut Elsenhans, **La Guerre d'Algérie, 1954-1962. La transition d'une France à l'autre, le passage de la IVe à la Ve République**, Paris, Publisud, 2000, p. 438.

() شهادتي الديبلوماسيين التّونسيين نجيب بوزيري بـ : **بورقيبة والبورقيبيون وبناء الدولة التونسيّة**، زغوان، فترسي، 2001 ص227. وشهادة السيّد عبد الجليل المهيري مسجلة بمعهد تاريخ الحركة الوطنية التونسية. وتمثّل حشد المال خاصّة في لعب الدولة التونسية دور المحوّل للأموال التي تفد على جبهة التحرير و GPRA من الخارج.

() راجع مثلا تقرير الكمندان قاسي السابق الذكر، ص. 452.

() نشير هنا خاصّة لمؤلّف محمد حربي حول جبهة التّحرير الآنف الذّكر وخاصّة للدّراسة التأليفيّة التي استثمرت مصادر أرشيفيّة للجيش الفرنسي ونعني دراسة الجنرال الفرنسي موريس فافر بعنوان "جيش التّحرير الخارجي" والتي أطلعنا عليها بموقع "موقع الإستراتيجيا في التاريخ"

Général (C. R.) Maurice FAIVR, « **L'ALN extérieure** » WWW.STRATSC.ORG. Le site de la stratégie dans l'histoire, 38 pages.

على كلّ تطوّر كما هو معلوم التواجد العسكري للمقاومة المسلّحة الجزائرية بتونس من مرحلة فرق المجاهدين والمتطوّعين العزّل أو المستقلّين في السنوات الأولى (1954-1957) إلى مستوى أرقى و "فقد جيش التّحرير خاصيّته كجيش أنصار ليتحوّل لجيش كلاسيكي" حسب تعبير محمد حربي ([20]) من حيث التّنظيم والقيادة ومن حيث التدريب والتّسليح فتمّ بعث "لجنة التّنظيم العسكري" (COM) في أفريل 1958 وكان قسمها في الشرق (في تونس) تحت قيادة الكولونال محمّدي سعيد ومساعديه الكولونال لعموري ممثل عن الولاية الأولى والكولونال مصطفى بن عودة ممثل عن الولاية الثانية والكولونال عمارة بوقلاز عن القاعدة الشرقيّة ولإعادة الهيكلة وإحكام التسيير والنّجاعة الحربيّة قرّر المجلس الوطني للثورة الجزائرية (CNRA) في جانفي 1960 إلغاء وزارة القوات المسلّحة وتعويضها "بلجنة الحرب البيْوزارية" (CIG) وآلت قيادة الجيش عمليّا للقيادة العامة للجيش" (EMG) والتي وضعت تحت مسؤوليّة الكولونال الهوّاري بومدين بمساعدة الكمندان علي المنجلي والكمندان قايد أحمد والكمندان عز الدّين ومقرّها بغار الدماء بتونس[21] على بعد خمسة كيلومترات من الحدود.

أمّا من حيث عدد أفراد جيش التّحرير المرابط بتونس فإنّ التّقديرات تتفاوت إن كان مصدرها مؤرّخين أو المكتب الثاني للجيش الفرنسي فمثلا إن كان محمد حربي يتحدّث عن 15 ألف مقاتل بتونس لسنة 1960 فإنّ القيادة العام لجيش التحرير تنزل العدد إلى 12 ألف ([22]) بينما يقدّم الجيش الفرنسي أرقاما تفوق ذاك لكن ليس بكثير. ويعطي الجدول الموالي تقديرات المكتب الثاني للفترة الممتدّة بين 1956 و1962 مع إمكانية المقارنة مع تواجد جيش التّحرير بالمغرب الأقصى وقد أوردها الجنرال فافر (FAIVR) اعتمادا على أرشيف جيش البر الفرنسي.

M. Harbi, **Le FIN... op. cit**, p.265 ([20])

Idem p.265. ([21])

([22]) مذكرة القيادة العامة لجيش التحرير بتاريخ 1961/7/15 الموجّهة لرئيس الحكومة المؤقتة بـ"**أرشيف الثورة الجزائرية**" لمحمد حربي، م م ص.329.

عدد أفراد جيش التّحرير في تونس وفي المغرب الأقصى

1962-1957

التاريخ	تونس	المغرب الأقصى
57/03	1400 + 1000	([23]) 1500 + 500
58/08	5000 + 3600	1300 + 1200
59/01	4000 + 5000	2000 إلى 3000
60/01	10100	–
60/07	15000	6500
61/01	18000	9000
61/07	20000	9700
62/01	21000	9800
62/08	22100	([24]) 9850

أمّا من حيث هيكلة جيش التّحرير بتونس فقد تطوّرت لا محالة خاصة بعد بعث القيادة العامة في جانفي 1960 وتعصير السّلاح والتّجهيز بالمدفعيّة والأسلحة الثقيلة والمضادات للطائرات ([25]) وتكثيف التّجنيد حيث مرّ عدد كتائب جيش التّحرير من 9 في أفريل 1960 إلى 16 في سبتمبر 1961 و 21 في جويلية من نفس السنة ([26]).

وفي مستوى التموين والمصالح اللّوجستية وغيرها يلاحظ تركيز المنشآت خاصة بالعاصمة تونس ومدن الشريط الحدودي حيث القواعد العسكرية لجيش التّحرير بمدن الكاف وسوق الأربعاء وتالة وتاجروين وغيرها من المواقع على رأسها مقر القيادة بغار

([23]) الرّقم الأوّل عدد المقاتلين المقدّر والرّقم الثاني عدد المقاتلين العابرين من الولايات.

D'après le tableau dressé par le Général Faivr, op. cit. p. 9. ([24])

([25]) حسب المكتب الثاني في الجيش الفرنسي يقدّر التّسليح كالتالي : 8 canons de 1055R, 120 de 75SR, 20 à 40 mortiers de 120 et 106, 8 à 12 obusiers de 122, 8 à 12 canons de 85 AC, 40 canons de 37, 6 canons de 76, 20 canons de 20 Flack, 70 mitrailleuses DCA, 500 mortiers légers, 250 LRAC, 1200 mitrailleuses ou FM, 15000 PM et FG. 50 postes radio type C9, 150postes ANPRCIO.Cité par le Général Faivr, op. cit. p. 15.

G. FAIVR, **op. cit**. p.15. ([26])

الدماء ومركز التكوين والتدريب بملاّق ([27]) والمدارس العسكرية المختلفة كمدرسة الإطارات ومدرسة التدريب العسكري الأساسي ومدرسة المحافظة السياسية ومدرسة المفرقعات ومدرسة تعليم السياقة... ([28]).

وكانت مصلحة الصحّة والإسعاف تحت إشراف أطباء جزائريين التحقوا بالمقاومة منهم الدّكاترة النقاش، عيسى مينة، العيد إيدير، الرّحماني، العلاّم... ويسعف أفراد جيش التّحرير بالمستشفيات التونسية خاصة المستشفى الصادقي (الحبيب ثامر)، مستشفيات الكاف وسوق الأربعاء وسوسة إضافة للمشافي التي كان يشرف عليها جيش التّحرير بغار الدماء وتاجروين وتالة ([29]).

أمّا مخازن الأسلحة فكانت الأساسيّة منها بليبيا بمدينتي طرابلس وبنغازي كذلك بمدينة الكاف التونسية (سلاح وذخيرة) ومخازن الراديو والاتصالات فكانت كذلك بمخازن طرابلس وبجبل الجلود بتونس العاصمة وورش أخرى عديدة لصنع الأزياء والأحذية ([30]).

ويتمتّع جيش التّحرير بتسهيلات للنّقل والتموين بالموانئ التونسية (تونس، سوسة...) ومطار تونس (خاصة بالنسبة لتجهيزات الرّاديو) وكان الجهد أكبر خاصة في النّقل البرّي عبر تونس من طرابلس وفي اتجاه القواعد على الحدود حيث كان جيش التّحرير يملك في فيفري 1961 / 100 عربة نقل منها 50 شاحنة وفي فيفري 1962 ارتفع أسطول النقل إلى 400 عربة منها 200 شاحنة ([31]).

([27]) Général Khaled Nezzar, **Récits de combats, guerre de libération nationale, 1958-1962**, Alger, Chihab Editions, 2000, pp. 135-136.

([28]) مداخلة الضّابط أحمد قادري المسؤول على التموين بالحدود الشرقية بعنوان : "تواجد جيش التحرير الوطني الجزائري بالحدود التونسية وتطوّرات أنظمته" ضمن أعمال الملتقى الدولي حول "نشأة وتطوّر جيش التحرير الوطني 54-62" من تنظيم وزارة المجاهدين – الجزائر، 2- 3- و4 جويلية 2005، ص.8.

([29]) Guentari (M), **Organisation Politico-Adminstrative et militaire de la révolution algérienne de 1954 à 1962**, Alger, O.P.U., 2000, Tome1, p.p. 305-308 et réf. Citées à la note 8

([30]) G. FAIVR, **Op. Cit.** pp 16-17.

([31]) Ibidem, p.16.

وهكذا كان لجيش التحرير الوطني الجزائري حضور بارزا على الأرض التونسية ليس فقط في بلدات خلّدتها أحداث عسكرية شأن ساقية سيدي يوسف أو عين دراهم أو تالة بل كذلك في بلدات ومدن عديدة لازالت مواقعا للذاكرة (بناءات، مواقع التدريب، مدارس، مشافي،...) شأن الرّديف وتوزر ومكثر وتالة وتاجروين والكاف وقرن الحلفاية وسوق الأربعاء وشمبتو وعين دراهم (أنظر الخريطة المرافقة) وسوسة وتطاوين وتونس العاصمة وغيرها.

وقد خيّرنا التّوقّف عند مدينة تونس التي لم تكن عاصمة للدّولة التونسية فحسب بل كذلك للقيادة الجزائرية منذ استقرار الحكومة المؤقتة بها (نوفمبر 1958) ومرور جلّ القيادات السياسيّة أو العسكرية منها واقترن إسمها باسم "صوت الجزائر الشقيقة" منذ أول جويلية 1956 ([32]).

([32]) كان البثّ بدأ من إذاعة تونس ببرنامج "صوت الجزائر الحرّة" وبتدخّل فرنسا أصبح البثّ باسم "صوت الجزائر العربية الشقيقة".

خريطة : نشاط جبهة التحرير الوطنية بالقطاع الشمالي من تونس

ACTIVITE du F.L.N en ZONE NORD – Implantations permanentes – Trafic d'armes – (Déc 1957)

ANNEXE I

SECRET

- 2- Source : S.H.A.T., S/S.Tunisie, C.2H311, f.219.

ولنا في أرشيف المخابرات العسكريّة الفرنسية وثيقة تعود إلى شهر جانفي 1957 تبين بجلاء كثافة حضور المقاومة الجزائريّة ومختلف مصالحها المدنيّة والعسكريّة بمدينة تونس [33] مع الملاحظة أنّه بعد استقرار الحكومة المؤقّتة للجمهورية الجزائريّة بها سوف تزداد كثافة الحضور الجزائري بهذه المدينة وكذلك بضواحيها (المرسى، منوبة، خزندار...)

وتكشف لنا هذه الوثيقة الاستخباراتيّة عن 59 موقعا كانت تستعمله المقامة الجزائريّة بتونس نذكر هنا أهمّها :

• مقرّات ومحلاّت جبهة التّحرير ونشاطاتها السياسيّة :

- نهج باب سويقة : مكتب جبهة التحرير (FLN).
- 1 نهج التّسامح : مقر مكتب علي محساس ممثل جبهة التحرير.
- نهج رومة : مقر الحزب الدستوري الجديد كذلك مقر لجنة التنسيق للجبهة.
- ساحة باب سويقة : مقر فدرالية الحزب الدستوري الجديد كذلك مقر الهيئة السياسيّة الجزائريّة
- نهج روسيا : مقر لجنة فرعية للجبهة مكلفة بالدّعاية والتجنيد وجمع الأموال.
- 26 و26 مكرّر نهج الصادقية : مكتب القيادي بالجبهة بن عودة عمّار.
- نهج القاهرة : مقر جريدة « La Résistance algérienne »
- نهج الزّاوية البكرية : مصحّة الدكتور النقاش.
- نهج الباب الجديد : فرع مكتب نهج الحلفاء لاستقبال الجزائريّين القادمين من فرنسا.
- 31 نهج شارل ديغول : مقر جريدة "المجاهد".

---

(33) الوثيقة هي خريطة مع مفتاحها لمدينة تونس موجودة بـ : SHAT.S/S. Tunisie, C. 2H311, f. 222

- نزل ومقاهي يستعملها المقاومون للاجتماعات أو الإقامة: مقهى الحاج الشريف (باب الجديد)، مقهى الحاج لخضر (باب الجديد)، مقهى عزيّز (باب الجديد)، نزل سالم (نهج المر)، نزل الحاج لخضر (نهج المر)، نزل العياشي (باب سويقة)، مطعم المنصورة (نهج الجزيرة)، نزل كرسي (نهج مرموز)، نزل عبد العزيز (نهج المر).

* ***مقرّات ومحلاّت ذات صبغة عسكرية***

- حي باب الجديد : البوليس السرّي لـ ALN (جيش التحرير الوطني).
- 62-64 نهج باب الجديد : شركة نقل Goubi Nadj (نقل المجنّدين، أسلحة...).
- خليّة الحزب الحر الدستوري بباب الجديد : مخزن أسلحة.
- الجبل لحمر : مركز رئيس لإيواء المتطوّعين.
- ثكنة فرجمول (رأس الطابية) : تمرّ بها أسلحة جيش التّحرير.
- باب سعدون : مقرّ خليّة الحزب الدستوري الجديد، مخزن أسلحة.
- 6 نهج القبطان مارك : سكنى الكمندان مراد.
- نهج مسكو : سكنى الدكتور النّقاش ومحل تكوين الممرّضين لفائدة جيش التّحرير.
- نزل العياشي : مستودع لسيّارات جيش التّحرير.
- نهج الصادقيّة : مركز صحّي واجتماعي لفائدة FLN.
- جامع شمال مقبرة سيدي يحيى : مخبأ أسلحة.
- رحبة الغنم : مستشفى جيش التحرير.
- ثكنة سوسيي : حضور عناصر من جيش التحرير.
- نهج فالنس : مستشفى التّحرير حيث يعالج المقاومون تحت إشراف الدكتور النقاش.
- 46 نهج الجزيرة : مصحّة الدكتور الشاذلي أين يعالج الجزائريون.
- المستشفى الصّادقي : يقبل فيها مقاومو جيش التحرير.

- خزندار (قرب طريق تونس-غار الدماء) : مركز التكوين والتدريب النّظري لعناصر جيش التحرير.
- 37 نهج الحلفاوين : مكتب FLN برئاسة بوتلّيس : استقبال الأسلحة والتبرّعات من الجزائريين.
- 104 شارع باريس : سكنى الدكتور سليمان مكلّف بمعالجة جرحى جيش التّحرير.
- بئر الباي : معسكر تدريب للمتطوّعين التّونسيين.

كما كانت مدينة تونس تأوي "مديرية التموين المركزيّة" (Entendance centrale) لجيش التحرير (غذاء) ومنها يموّن قسمي قيادة الحدود بالكاف وغار الدماء ([34]).

في نهاية هذا العنصر نتوقّف عند أهمية ومكانة جيش التّحرير في تونس في مسار حرب التّحرير الجزائريّة فإنّه من الثّابت الآن ليس فقط لدى قدماء جيش الحدود هذا بل كذلك عند المؤرّخين إنّ مساهمة هذا الجيش كانت أساسيّة لضمان النّصر في مستويات عدّة. لعلّ أهمّها مهمّة تموين جيش التحرير الداخلي رغم صعوبات خطي موريس وشال (Maurice, Challe)([35]) بداية من سبتمبر 1957. تموينه بالسّلاح والمتطوّعين وتعزيزه بالكفاءات المدرّبة على أرض تونس أو الفارّة من الجيش الفرنسي والملتحقة بالمقاومة وتوفير الملجأ الآمن للعناصر المنكفئة من الجزائر وخاصّة تثبيت قوّات فرنسيّة كبيرة على الحدود وتخفيف الضغط على الجبهات الدّاخليّة ([36]). أما على مستوى العمليّات الصّدامية مع العدو ذاته نعتقد أن تاريخها لم يكتب كاملا بعد خاصّة للفترة السابقة لسنة 1957 وفصل المقاومة المشتركة بين التونسيين والجزائريّين (1954-1956) في إطار "جيش تحرير المغرب العربي". على كل رغم الصّعوبات والضغوطات من الجانب

([34]) أحمد قادري، م.م. ص12.

([35]) حول هذين الحاجزين الدّفاعين لمنع تسرّب المقاومين إلى الجزائر (من تونس ومن المغرب الأقصى) والتجهيزات الفنيّة والإلكترونية والأسلاك المكهربة وشبكة الألغام والقوات العسكريّة الفرنسية التي تعزّزها يمكن مراجعة مذكّرات علي الكافي المذكورة سابقا، ص. 219-220.
- Henri Le Mire, **Histoire militaire de la guerre d'Algérie**, Paris, Albin Michel, 1982, pp.195-201
- Général Maurice FAIVR, op-cit, Annexe A2, pp30-34.

([36]) **Mémoires du Général Khaled Nezzar**, préfacé par Ali Haroun, Alger, Chiheb Editions, 1999, pp. 57-71.

التونسي وخوفا من خطر اتّساع رقعة الحرب والتّضييقات خاصّة منذ 1958 على جيش التّحرير في المجابهة المباشرة كانت وحدات هذا الجيش تشتبك دوريّا مع عناصر الجيش الفرنسي في ذلك الشريط العازل بين تونس والجزائر ولعلّ أهمّ تلك المصادمات ما عرف "بحرب الحدود" والتي امتدّت من جانفي إلى ماي 1958 والتي استشهد فيها 4 آلاف جزائريٍ وقتل في الجانب الفرنسي 279 (37) حسب لــومير Le Mire أو أكثر حسب القيــادي فــي جيش التحرير عمار أوعمران حيث يقدّر عدد شهداء الجزائريين 6 آلاف و 8 آلاف شهيد (38) والعمليّات التي جدّت لاحقا للتّحريك الدّعائي أو للاختراق الغصبي "للبرّجات" لتمرير السلاح والكتائب نحو الدّاخل، نذكر أهمّها :

- "عمليّة ديدوش" : 11 سبتمبر – 16 أكتوبر 1959 وشاركت فيها أربع كتائب.

- "عملية عميروش" : 26 نوفمبر 1959 – 10 جانفي 1960 : شاركت فيها 10 كتائب (1300 رجل).

- الهجوم على عين زانة : ليلة 13-14 جويلية 1959 : على طول جبهة بـ 90كلم من البحر حتى الساقية وشارك فيه أكثر من ثلاث كتائب.

- هجوم 6 مارس 1962 : وكان أوسع هجوم شنّه جيش الحدود على جبهة تمتد من البحر حتى بئر العطّار بالجزائر واستعملت فيه الأسلحة الثقيلة والمدفعيّة (39).

وقد أسفرت هذه العمليّات حسب الجيش الفرنسي بين سبتمبر 1958 وسبتمبر 1962 على استشهاد 2858 جزائريّا وقتل 146 في الصفّ الفرنسي (40).

وهكذا مع إعلان الاستقلال في 3 جويلية 1962 بدأت قوات جيش الحدود الشرقيّة تدخل الجزائر لتطوي صفحة في تاريخ جيش التّحرير الجزائري بتونس وتبدأ صفحة أخرى هذه المرّة بوطنها المحرّر.

---

(37) H. Le Mire, op cit., p. 217

(38) أحمد قادري، م.م. ص.6.

(39) حول تفاصيل ونتائج هذه العمليّات العسكريّة يمكن مراجعة دراسة الجنرال موريس فافر المذكورة ص. 21-25.

(40) حسب دراسة الجنرال فافر، ص.24.

خاتمــــة :

حاولت هذه الورقة أن تميط اللّثام عن صفحة من تاريخ جيش التّحرير الوطني الجزائري بتونس ضمن حدود المتاح وتبقى دون شكّ عديد المسائل والقضايا عالقة منها [...] حقائق المقاومة التونسية الجزائريّة سنوات 1954-1956 وكشف وقائعها [...] وشهدائها كذلك واقع التّواصل التّضامني بين الشّعبين التونسي والجزائري في [...]هما ضدّ الاستعمار وحقيقة العلاقة بين القيادتين في رأس الدولة التونسية وفي قيادة المقاومة الجزائرية بما فيها من نقاط مشرقة أو مظلمة لأن الشعوب لا تبني مستقبلها إلاّ [...]ما تضطلع بماضيها.

محمد الخامس وبورقيبة وحركات التحرّر:

حالة الجزائر (*)

إزاء الراحلين الملك محمد الخامس والرئيس الحبيب بورقيبة نحن أمام رمزين من رموز قادة التحرّر في شمال إفريقيا وفي العالم وقد طبع نشاطهما التحرّري مرحلة خاصة ما بعد الحرب العالمية الثانية حتى بداية الستينات. وإن اختلفت الشخصيتان من حيث الموقع كقائد حزب وطني وكرئيس دولة بالنسبة لبورقيبة وكرمز للشرعيّة وبقاء الأمّة وتحرّرها بالنسبة للمرحوم محمد الخامس فإنّهما التقيا في إصرارهما على خدمة قضيّة شعبيهما وتخليصهما من الإستعمار وإيمانهما بحقّ الشعوب في تقرير مصيرها. وقد ترجم هذا الإيمان وهذا الموقف بدعم الشعوب الإفريقية خاصة في كفاحها ضد الإستعمار إن كان قبل تحرّر تونس والمغرب أي زمن الكفاح أو بعد انعتاقهما سنة 1956.

وقد خيّرنا الإقتصار في هذه المداخلة على دور محمد الخامس وبورقيبة في دعم القضيّة الجزائرية وذاك لما لاحظناه – وللأسف – في شهادات عديد القيادات والرموز النضالية الجزائرية وحتى عند بعض المؤرخين الجزائريين من سهو – لا ندري إن كان عن قصد أو عن غير قصد – عن ذكر ما قدّم الرّجلان كزعيمين وما تحمّله وطناهما خدمة لتحرّر الجزائر رغم الصعوبات والضغوطات التي كانت عليها تونس والمملكة المغربيّة في السنوات الأولى من استقلالهما عن فرنسا. وما كان يتطلّبه واجب حاكمين في تكريس سيادة دولتهما على ترابهما وما يفترضه منطق المصلحة الوطنية.

وسنحاول الكشف في هذه الورقة عن هذا الدّعم للقضيّة الجزائرية في مستوياته المختلفة : السياسيّة والعسكرية والإنسانية مقتصرين أساسا على دور الزعيمين فيه.

(*) نص قدم في الندوة التي نظمتها المندوبية السامية لقدماء المقاومين بالرباط في ديسمبر 2004، تحت الطبع.

I- الدّعم السّياسي وإكراهات الواقع

يتشابه بورقيبة ومحمّد الخامس رغم اختلاف المنبت (عائلة متواضعة وعائلة حاكمة عريقة) واختلاف التكوين (رجل حداثي وجامعي وأمير تربّى على التّقاليد لكن متفتّح) فهما انخرطا مبكّرا في العمل الوطني ومنذ 1934 على الأقل عندما تحالف محمد بن يوسف مع كتلة العمل الوطني ([1]) وعندما تزعّم بورقيبة الشّق الراديكالي والحركي من الدّستوريّين الذي انفصل ليكوّن الحزب الدّستوري الجديد. وارتبطت حياتهما بتاريخ الحركة الوطنية في كلا بلديهما وبتاريخ حركة التّحرّر في الشمال الإفريقي بصورة خاصّة وفي إفريقيا بصورة عامة من ذلك ما سجّله التاريخ لبورقيبة ومحمّد الخامس من مواقف داعمة لشعوب إفريقيا السّوداء في نضالها من أجل التحرّر من الاستعمار والوحدة والتخلّص من العنصرية كتدخّل تونس والمغرب سنة 1960 بالكنغو وحضورهما مختلف المؤتمرات التي سعت لتلك الغاية شأن مؤتمر أكرا (Accra) في أفريل 1958 ومؤتمر الدّار البيضاء في جانفي 1961 والذي دعا له الملك محمّد الخامس ([2]) .

وكان التآزر بين الشعوب المغربيّة وحضور الزعيمين فيها أكبر ([3]) وفي موضوع القضيّة الجزائرية كان التّلاحم والتّضامن تعدّى شخصيهما رغم محوريّة حضورهما فيه. وفي الواقع كما سنبيّنه لاحقا من أهميّة الدّعم للقضيّة الجزائرية لم يكن الحبيب بورقيبة ولا محمّد الخامس حرّين في تعاطيهما مع المسألة الجزائرية فهما كانا يتحركان تحت إكراهات الواقع وإملاءات الشروط التاريخيّة التي وجدا فيها نفسيهما كبلدين مستقلّين حديثا (1956) في حاجة للدّعم الفرنسي المالي والتّقني والعسكري وتحت ضغوط كبيرة من

([1]) زكي مبارك، **محمد الخامس وابن عبد الكريم الخطّابي وإشكالية استقلال المغرب**، الرّباط، منشورات فيديبرانت، 2003، ص. 24-25.

([2]) انظر في علاقة المغرب بحركات التّحرّر في إفريقيا وعلاقات التعاون مع الدّول المستقلّة منها : "أعمال ندوة : "**المغرب وإفريقيا بعد الاستقلال**" التي نظمها معهد الدّراسات الإفريقية، نشر معهد الدراسات الإفريقية، الرّباط، 1996.

([3]) في التضامن بين الشعبين التونسي والمغربي يمكن مراجعة :

– عميرة عليّة الصغيّر: "الوطنيّون التونسيّون والقضيّة المغربية (1912-1956)" ضمن أعمال ندوة : **مغرب المقاومات**، المعهد الملكي للثقافة الأمازيغيّة، الرّباط، 2004 تحت الطبع.

- Jamaâ Baida, « le mouvement national marocain et la décolonisation de la Tunisie », in **Processus et enjeux, de la décolonisation en Tunisie (1952-1964)**, I.S.H.M.N. Tunis, 1999, pp. 137-145.

حكومة فرنسا التي كانت تساوم البلدين في ذلك بمنطق الإعانة مقابل التخلّي عن دعم القضيّة الجزائرية وتهدّد سيادتهما ووحدة ترابهما كلّما جدّت مصادمات على الحدود بين القوات الجزائرية ووحدات الجيش الفرنسي خاصّة وأنّ المغالين من الإستعماريّين وجنرالات الجيش الفرنسي في الجزائر كان حلمهم العودة إلى الوراء وبسط السيطرة على المغرب وتونس وقتل "الثورة الجزائرية " في قواعدها الخلفيّة. لذلك كان الحبيب بورقيبة ومحمّد الخامس أمام معادلة صعبة زادت تعقيدا بما كان يعانيه وطناهما في تلك السنوات الأولى من الاستقلال من مشاكل كادت تعصف بوحدتهما التّرابية والبشريّة كالصّراعات والخلافات في الصّف الوطني شأن الصّراع اليوسفي البورقيبي في تونس سنوات 1955 ـ 1957 ([4]) والصّراع بين حزب الإستقلال ومعارضي هيمنته من الأحزاب الأخرى وتمرّد الرّيف سنة 1958 بالمغرب ([5]) هذا علاوة على مشاكل أخرى كانت تهدّد الأمن والإستقرار في البلدين كالتّوترات الإجتماعية نتيجة تدهور الأوضاع الإقتصاديّة وشلّ عديد المشاريع وانسحاب كثير من رؤوس الأموال الأجنبية وعجز حكومات الاستقلال على تلبيّة رغبات شعوبها المتعطّشة للحرّية والعيش الكريم.

وخلافا لمحمّد الخامس أو بدرجة أقلّ منه كان الحبيب بورقيبة في نظر أغلب قادة الثّورة الجزائرية خاصّة في السنوات الأولى (1954 - 1956) مشبوها بما أنّه قبل باتّفاقيات الإستقلال الداخلي (3 جوان 1955) و"قسّم وحدة جبهة المقاومة المغاربيّة" و"خان ما التزم به حزبه في لجنة تحرير المغرب العربي بالقاهرة" (1948) من إلزاميّة مواصلة الكفاح المسلّح حتّى تحرير كامل المغرب لذا كانت أغلب القيادة الجزائريّة تراهن على غريم بورقيبة والزعيم الدّستوري الآخر صالح بن يوسف رافع راية وحدة النّضال والتّحرير الشّامل وذاك حتّى القضاء على فلول أتباع هذا الأخير بتونس ([6]) . وكان

([4]) راجع مؤلفنا : **المقاومة الشعبيّة في تونس في الخمسينات . انتفاضة المدن – الفلاقة – اليوسفية**، صفاقس، مطبعة التسفير الفني، 2004.

([5]) انظر في ذلك:

– محمد معروف الدفالي، "حزب الشورى والاستقلال من التأسيس إلى الانهيار. 1946-1959"، مجلة **أمل** عدد 10/11- 1997، ص. 65- 94 .

- Jean Ganiage, **Histoire contemporaine du Maghreb de 1830 à nos jours**, Paris, Fayard, 1994, p. 579.

([6]) حول موقف قادة الثورة الجزائرية من بورقيبة انظر :

- Mohamed Harbi, **Les Archives de la révolution algérienne**, les éditions J.A., 1981, p. 271

بورقيبة بدوره على الأقل في السّنوات الأولى من الثورة الجزائرية "لا يخفي احتقاره للعقليّة العسكريّة التي سيطرت على العقل السّياسي للثورة الجزائريّة" ([7]) خاصّة وأنّ برنامج جبهة التّحرير الذي يضع استقلال الجزائر كمرحلة وحيدة وكهدف والمقاومة المسلحة كوسيلة فضلى للتّحرّر يناقض سياسة بورقيبة التي تقوم على المرحليّة والقبول بالحلول الوسطى والتّفاهم مع الخصم "لضمان حظوظ المستقبل" وفي حالة الجزائر وإن كان بورقيبة يقرّ بحقّ الجزائريين في الإستقلال فإنّه يرى أنّ مصلحة وطنهم وموازين القوى القائمة تملئ عليهم القبول بمرحلة انتقاليّة وليس انفصالا ناجزا وكليّا عن فرنسا ([8]).

هذا لا يمنع المؤرّخ من الإقرار بأنّ بورقيبة في تصريحاته السّريّة ([9]) والعلنيّة وفي خطبه الكثيرة وطيلة فترة حرب الجزائر ما فتئ يدعم كفاح الشعب الجزائري ويناصر حقّه في الإستقلال. ودون أن نكثر من الاستشهادات نورد هنا فقرة من خطاب له في 4 أفريل 1957 عندما كانت فرنسا تهدّد تونس بقطع الإعانة عليها لأنها تقف مع المقاومة الجزائرية يقول : "ليكن الأمر واضحا أننّا متضامنون على الدّوام مع الشعب الجزائري ولا نقبل خذلانه في صراعه هذا من أجل الحياة أو الموت لا من أجل قرض ولا من أجل مصلحة أخرى. إنّ موقفنا حدّدناه بوضوح وهو معروف من الشعب الفرنسي ومن حكومته. وقد كنت قلت إن كان الفرنسيون أصدقاءنا فإنّ الجزائريّين هم إخواننا وأتمنّى أن لا أرغم على الإختيار. لقد صرّحت ودون التباس أن لا شيء يجعلنا نتخلّى عن إخواننا الجزائريين ليس فقط لأنّهم إخواننا بل كذلك لأنّه ما دامت هناك حفنة من الإستعماريّين في مأواها في الجزائر فإنّ استقلالنا يبقى دائما مهدّد. إنّنا لا نقبل أيّ ضغوطات وإنّ موقفنا لن يتزعزع" ([10]).

- Mohamed Lebjaoui , **Vérités sur la révolution algérienne**, Paris, Gallimard, 1970, p. 96 et 104 – 105.

([7]) الصّافي سعيد، **بورقيبة. سيرة شبه محرّمة**، بيروت، دار الرّيس، 2000، ص. 234.

([8]) حول تفاصيل هذا الموقف راجع :

- D. Djerbal, « Alliance et mésalliances algéro-tunisiennes », in **L'Armée de Libération du Maghreb 1948 – 1955**, Alger, Fondation Boudiaf, 2004, pp. 25-38.

([9]) انظر مثلا تصريح بورقيبة للبجاوي في لبجاوي، محمد، **حقائق عن الثورة الجزائرية**، م.م، ص. 98.

([10]) **L'Action** du 5 avril 1957.

أمّا مع الملك محمّد الخامس فكانت العلاقة مع الطّرف الجزائري أقلّ حدّة لإعتبارين على الأقل لشخصيّة محمد الخامس الهادئة والرّصينة ([11]) ولأنّ الملك لم يكن مثل بورقيبة في تعامل مباشر مع الشأن الجزائري إذ كانت في الواجهة حكومة المخزن والأحزاب المكوّنة لها أساسا. وقد سجّل الدّارسون لعلاقة محمد الخامس مع القضيّة الجزائرية تعاطفا كبيرا معها ودعما سياسيّا وماديّا متواصلا ولن نفصّل هنا أيضا في بسط هذا التّضامن وسنكتفي بالإتيان على بعض المواقف المعبّرة حقّا على صدق وإيمان محمّد الخامس بحق الجزائر في الحرّيّة. يقول الطّيب الثعالبي أحد قادة الثورة الجزائرية في شهادة له عن ردّ فعل الملك عندما وصلته رسالة من القيادة الجزائرية وقد قارن فيها مؤلّفها حسين آيت أحمد بين الجزائر وفلسطين محذرا أنّ مصير الجزائر سوف يكون مصير فلسطين الضّائعة إن لم يدعمها الحكّام العرب، "إنّ الملك بكى" عند قراءتها وحيا الوفد الجزائري الذي استقبله بكل عطف ووعده بكلّ المساندة والدّعم ([12]) . وكان محمد الخامس عبّر على الموقف ذاته بعد عشرين يوم فقط من استقلال المغرب وذاك في مقابلته لقائد جيش التّحرير المغربي عبد الكريم الخطيب يوم 22 مارس 1956 حيث يروي هذا الأخير أنّه : "خلال الحوار الذي دار بيننا أوضحت له موقفنا وقلت له : يا صاحب الجلالة في غيابكم أنجزنا مع الإخوان الجزائريّين والتّونسيّين ميثاقا مكتوبا لكفاح وتحرير شمال إفريقيا ولكن الآن حصلت بلادنا على الاستقلال، فقال لي: أنا أعاهدك على أن أبقى على عهد هذا الميثاق وأنّي سأقوم بهذا الدور وأؤديه أحسن أداء وفعلا كانت حياة محمد الخامس كلّها مع الجزائر وأذكر هنا أنّه لمّا زاره الدكتور حافظ إبراهيم ([13]) قال له

([11]) حول شخصيّة محمد الخامس انظر المقال البيوغرافي حوله في موسوعة الأفارقة :

- « Mohamed V, un roi consacré par son peuple », in **Les Africains**, Paris, Editions J.A., 1978, Tome X, pp. 211-239.

([12]) شهادة الطّيب الثعالبي ضمن أعمال مؤتمر "**جيش التحرير المغاربي. 1948-1955**". م.م. ص. 185-186.

([13]) الدكتور حافظ إبراهيم مناضل تونسي مستقرّ بإسبانيا قدّم خدمات جليلة للمقاومة في المغرب والجزائر. انظر حول دوره هذا :

- عادل بن يوسف "مقدمة لدراسة مساهمة الحكيم حافظ إبراهيم في النضال ضدّ الاستعمار الفرنسي بشمال إفريقيا" **بالمجلة التاريخية المغاربيّة**، عدد 102-103/2001، ص. 47-65.

كلمة لن أنساها وهي يا دكتور كلّنا في الجزائر".([14]) وفعلا وفّى الملك بما وعد به حيث صدح في خطابه بوجدة في شهر سبتمبر 1956 بمساندته لاستقلال الجزائر قاطعا مع تردد الحكومة المغربيّة ومحفّزا الشّخصيات المغربيّة على الإصداع بمساندتها للشعب الجزائري ([15]).

هذا الموقف الدّاعم للقضية الجزائرية سوف يعلن كذلك رسميّا في مختلف المؤتمرات والهيآت التي حضراها أو كانت تحت إشراف الزعيمين الحبيب بورقيبة أو محمّد الخامس من ذلك مؤتمر وحدة المغرب العربي المنعقد بطنجة بين 27 و 30 أفريل 1958 والذي حضره ممثّلون عن حزب الإستقلال والحزب الدستوري الجديد وجبهة التّحرير الوطني الجزائريّة والذي أعلن في بيانه الختامي عن حق الشعب الجزائري في السّيادة والإستقلال وسجّل أنّه أمام رفض الحكومة الفرنسية اقتراح الوساطة الذي تقدّم به جلالة ملك المغرب ورئيس الجمهورية التونسية تؤكّد الأحزاب المشاركة في المؤتمر عن مساندتها المطلقة للشعب الجزائري واعترافها بجبهة التّحرير كممثل وحيد وشرعي له وتناشد الحكومتين والشعبين في تونس وفي المغرب لتقديم كلّ الدّعم للمقاومة الجزائرية وتطالب الجيش الفرنسي بالتّوقّف الفوري عن استعمال الأراضي التّونسية والمغربية للإعتداء على الشعب الجزائري ([16]) وتجددت المواقف ذاتها بالمؤتمر الثلاثي الذي التأم بتونس ما بين 17 و 20 جوان 1958 وحضره ممثلون عن حكومتي تونس والمغرب وأعضاء القيادة الجزائرية (فرحات عبّاس، كريم بلقاسم، عبد الحفيظ بوصوف...) حيث أكّد المؤتمر مرّة أخرى على مقرّرات مؤتمر طنجة وعلى حق الجزائريين في تقرير مصيرهم وفي الإستقلال ورفض ما أتى في خطاب الرئيس الفرنسي الجنرال ديغول من اقتراح إدماج الجزائريين وأعلن المؤتمرون عن عزمهم القيام بعمل مشترك على المستوى الدبلوماسي للوصول بالقضيّة الجزائرية إلى حلّ سلمي وعادل ([17]).

([14]) شهادة الدّكتور الخطيب بـــ : **الذاكرة الوطنية**، المندوبيّة السّامية لقدماء المقاومين، عدد خاص، 2002، ص 380.

([15]) في تقرير عبد الحفيظ بوصوف وزير العلاقات العامة لزملائه أعضاء الحكومة المؤقتة الجزائرية بتاريخ 1 أكتوبر 1958 بكتاب محمد حربي، **أرشيف الثورة الجزائرية**، م.م. ص. 429-445.

([16]) نصّ بيان مؤتمر طنجة بـــ : M.Harbi et Gilbert Meynier : **le FLN, Documents et Histoire 1954-1962**, Paris, Fayard, 2004, pp. 766-769

([17]) نصّ البيان الختامي لمؤتمر تونس **بالمصدر السابق**، ص. 769-770.

ويقطع النّظر عن الأهداف غير المعلنة للجانبين التونسي والمغربي والتي أشار إليها المؤرخ محمد حربي ([18]) من سعيهما إلى إدماج جبهة التّحرير في الإطار المغاربي وقطعها عن مصر وإرغامها على إعادة النّظر في أهدافها من الحرب وجرّها لمراقبتها الصّارمة لقوّاتها العسكريّة فإن الطرفين التّونسي والمغربي لم يقتصرا على إعلان المواقف واحتضان القيادات السّياسية والعسكرية الجزائرية بل دافعا فعلا عن القضيّة الجزائرية وعملا على تدويلها وطرحها على نظر مجلس الأمن وكسب دعم الدّول له وخاصة الولايات المتّحدة الأمريكية . والتوسّع في هذه النّقطة يتعدّى حدود هذه الورقة ([19]).

على كلّ إنّ التزام محمد الخامس والحبيب بورقيبة بدعم القضيّة الجزائرية لم يبق في المستوى السّياسي بل ارتقى إلى مستوى سند المقاومة المسلحة وتقديم العون المادي للجزائريين في محنتهم.

II- المغرب وتونس قاعدتان خلفيتان للثورة الجزائرية:

يقول محمد لبجاوي : "إنّ المغرب وتونس المستقلتين أصبحتا ليس فقط ملجأ آمنا بل كذلك قاعدة لوجستيكية وسياسيّة لكفاح جبهة التّحرير" ([20]). صحيح إنّ الوجود الجزائري المقاوم بكلّ من تونس والمغرب سبق وصول بورقيبة للحكم (أفريل 1956) وكذلك عودة محمد بن يوسف إلى العرش (16 نوفمبر 1955) وفرضته الجغرافيا والتّاريخ الواحد لشمال إفريقيا وصحيح كذلك إنّ نظامي الإستقلال في البلدين كانا مجبرين على التّعامل مع وضع لم يختاراه لكن الأصحّ كذلك أنّ حاكمي تونس والمغرب أي بورقيبة ومحمد

([18]) M.Harbi, **Le FLN, Mirages et réalités**, Les Editions J.A./STD, Paris, 1985, pp. 210-211.

([19]) لمزيد التوسّع في هذا الوجه من الدّعم الدّبلوماسي والدّولي للقضية الجزائرية يمكن العودة إلى :

-زكي مبارك، **محمد الخامس وعبد الكريم الخطابي**، م.م.

-لطفي الشايبي، "الدّولة التونسية الجديدة والثورة الجزائرية (1954-1958)، نصّ في طور النّشر.

- Amira Aleya Sghaier : « Les Tunisiens et la révolution algérienne », in **Méthodologie de l'histoire des mouvements nationaux au Maghreb**. Zaghouan, FTERSI, 1998, pp. 109-141.

- Samya El Machat, **Les Etats-Unis et la Tunisie. De l'ambiguïté à l'entente. 1945-1959**, Paris, L'Harmattan, 1996.

([20]) لبجاوي محمد، **حقائق عن الثورة الجزائرية**، م.م. ص. 134.

الخامس تعاملا بإيجابية مع المقاومة الجزائرية وتحوّل وطناهما فعلا إلى قاعدة خلفية للثّورة الجزائرية.

يقول الجنرال الفرنسي صلان (Salan) في مذكّراته: "لو لم تكن للثورة (الجزائرية) إمكانية التسليح والتّدريب في تونس لانهارت، إنّ بورقيبة لا يكتفي بمساندتها بل يشجّعها ويدفعها" (21) إنّ في قول صلان هذا كثيرا من الحقيقة عن مكانة تونس ودور بورقيبة في دعم المقاومة الجزائرية وقد وقفنا من جانبنا عند تجلّيات من ذلك في مقالين سابقين (22) نستعيد هنا أهمّ نتائجهما. كان حضور المقاومين الجزائريين بتونس منذ اندلاع حرب التّحرير في 1 نوفمبر 1954 وما فتئ يتعزّز منذ استقلال البلاد سنة 1956 في علاقة مع تطوّر الحرب في الجزائر وانكفاء آلاف الجزائريين نحو الحدود الشرقية أو الغربية لبلادهم وما أصبحت عليه القيادة السياسيّة والعسكريّة للثورة من قدرة على هيكلة جيش التّحرير وإحكام الصلّة بين جيش الدّاخل وجيش الحدود إن كان في تونس أو في المغرب. ناهيك أنّ عدد الجنود المرابطين بتونس مرّ من حوالي ألفين سنة 1957 إلى ما يزيد عن 22 ألف سنة 1962 (23). ولقد كان لحكومة بورقيبة دور أساسي في نجاح مهام هذا الجيش رغم الصعوبات والخلافات أو التّضييقات التي تعرّضت لها وحداته أحيانا بتونس. ولئن مثّلت تونس معبرا أساسيّا لتموين جيش التّحرير الوطني الجزائري بالسّلاح (حوالي 80 % من مجموع الأسلحة الواردة) دون إذن السّلط ورغما عنها قبل مارس 1956 فإنّه بعد الإستقلال سوف تأخذ الدّولة البورقيبية على عاتقها مسؤولية تنظيم وتسهيل تأمين السّلاح للثّورة الجزائرية وضبط ذلك في اتفاقات سرّية مع القيادة الجزائرية وقد كلّف بورقيبة لمتابعة ملف التنسيق مع جبهة التحرير قياديين في الحزب الحرّ الدستوري الجديد

(21) **من مذكّرات الجنرال صلان**، أورده محمد لطفي الشايبي في مقاله : "الدولة التونسيّة الجديدة والثورة الجزائرية 1954-1958"، مقال غير منشور، ص. 14.

(22) «La Tunisie : Base – arrière de la révolution algérienne . 1954-1962 », in **R.H.M.**, n°118, janvier 2005, p.p. 155-160.

و – "جيش التّحرير الوطني الجزائري بتونس" مساهمة في الملتقى الدّولي حول : **"نشأة وتطوّر جيش التّحرير الوطني 54-62"** من تنظيم وزارة المجاهدين، الجزائر، أيام 2 و3 و4 جويلية 2005.

(23) هذه الأرقام أوردها الجنرال الفرنسي فافر (FAIVR) اعتمادا على أرشيف الجيش الفرنسي في دراسة له موجودة على موقع الانترنت :

Général (C.R) Maurice FAIVR, « L'ALN extérieure » sur WWW.STRATSC.ORG, Le site de la stratégie dans l'histoire, 38 pages .

وهم الزّعيم النقابي أحمد التليلي ووزير الدّاخلية الطيّب المهيري وعضو الدّيوان السّياسي عبد الله فرحات حيث تمّ تأمين تسريب السّلاح القادم من طرابلس ومصر عبر تونس لوحدات جيش التّحرير داخل تونس أو في الجزائر وأحيانا في شاحنات الحرس أو الجيش التونسيين تحت عيون القوّات الفرنسية التي لا زالت مرابطة حتى 1958 بتونس كاملة وبقاعدة بنزرت حتى 1963.

إضافة لتأمين تزويد المقاومة الجزائرية بالسّلاح كان لجيش التّحرير الوطني الجزائري بتونس قواعده وله مراكز التّدريب ومدارس التّعليم وورش صناعة الذخيرة والمشافي في مختلف جهات البلاد وخاصة في الناحيّة الغربية منها في مدن كسوق الأربعاء والكاف وتاجروين وقفصة والرّديف والقصرين وحتّى مدينة تونس إضافة طبعا لمركز القيادة بغار الدماء (24). وقد كانت تونس منطلقا لجيش الحدود هذا لإنجاز مهامّه الحربيّة ضدّ الجيش الفرنسي على الحدود أو في داخل الجزائر وقد كانت السّلط التّونسية حامية ومغطّية لعمليات مقاومي الثورة الجزائرية وشالّة لحريّة الحركة للجيش الفرنسي ضدّ المقاومة انطلاقا من تونس لذاك تعرّضت عديد البلدات والمواقع إلى ردود فعل انتقامية من الجيش الفرنسي أشهرها الإعتداء على ساقية سيدي يوسف في 8 فيفري 1958 الذي ذهب ضحيته أكثر من سبعين قتيلا.

ورغم صعوبات خطّي موريس (Maurice) وشال (Challe) فإن جيش الحدود المرابط بتونس ساهم في نجاح الثورة بتأمين السّلاح والمتطوّعين وتوفير الملجإ الآمن للعناصر المنكفئة من الجزائر وخاصة تثبيت قوّات فرنسيّة كبيرة على الحدود وتخفيف الضّغط على الجبهات الدّاخلية والدّخول في معارك كبرى مع القوّات المعاديّة وما كان ذاك ليتّم لولا تفهّم ودعم الدولة التّونسية الناشئة وعلى رأسها الحبيب بورقيبة.

وفي هذا الموضوع يمكن كتابة الأمر ذاته عن دور المغرب كقاعدة خلفيّة للثورة الجزائرية.

(24) لمزيد التفاصيل حول حضور الجيش الجزائري بتونس يمكن العودة لمقالنا المذكور "جيش التحرير الوطني الجزائري بتونس" ضمن أعمال ندوة : "نشأة وتطور جيش التّحرير الوطني" تحت الطبع.

كان دور المغرب لا يقلّ أهميّة عن دور تونس في دعم الكفاح المسلّح في الجزائر حتى وإن كان الوجود الجزائري المقاوم أضخم في تونس منه في المغرب أي حوالي 22 ألف مقاوم في الأولى مقابل 10 آلاف في الثانية سنة 1962 ([25]).

علاوة على تجربة جيش تحرير المغرب العربي الموحّد (1955 – 1957) التي انطلقت في 2 أكتوبر 1955 من الناظور وتطوان لتشمل منطقة الرّيف والرّيف الأوسط حول الدكتور الخطيب والحسين برّادة وسعيد بونعيلات والغالي العراقي وحسن صفي الدين المدعو "حسن لعرج" من الجانب المغربي وأحمد بن بلّة ومحمد بوضياف عن جبهة التّحرير الجزائرية ([26]) وما قدّمه جيش التّحرير المغربي من دعم للمقاومة الجزائرية من تأمين وتسريب للسّلاح أو تدريب المقاتلين وتهريب الجنود الجزائريين الفارّين من الجيش الفرنسي ([27]). وقد برز في هذا النشاط التّضامني المقاوم مقاومون كثيرون منهم القادة نادر بوزار وعبّاس المساعدي وعبد الله الصّنهاجي وبلحاج لعتابي والعقيد بلميلودي والعقيد بن حمّو.

وفي هذا المستوى أيضا من دعم المقاومة المسلّحة الجزائرية كان محمد الخامس حاضرا بصورة مباشرة بمواقفه وبأمواله من البداية إلى النّهاية. عندما استقلّت المغرب قابل القائد العام لجيش التحرير المغربي الدّكتور الخطيب محمد الخامس في 22 مارس 1956 ليعرض عليه مستجدّات الواقع وما على جيش التّحرير من التزامات تجاه الجزائر فردّ الملك: "أنا أعاهدك على أن أبقى على عهد هذا الميثاق" ([28]).

وقد دعّم محمد الخامس بسخاء المجهود الحربي للثورة الجزائرية فها هو أبو داود محمد (منصور) والمسؤول عن قطاع التّسليح بجبهة التّحرير بالغرب الجزائري يشهد أنّه "في ما يخصّ القصر الملكي أنا أشهد كمسؤول عن التموين والتّسليح بأنهم أعطونا كميات

([25]) G. Faivr , **op. cit.** p. 9.

([26]) انظر في الموضوع شهادة الدّكتور عبد الكريم الخطيب بـــ : "**جيش التّحرير المغاربي. 1948-1955**" عن مؤسسة محمد بوضياف، الجزائر، 2004، ص, 193- 198.

([27]) حول هذا الموضوع يمكن الرّجوع إلى شهادة الضابط القيادي في جيش التّحرير المغربي نادر بوزار :

Nadir Bouzar (dit Abdelkader) : **L'Armée de libération nationale marocaine : 1955-1956. Retour sans visa (journal d'un résistant maghrébin)**, Paris, Publisud, 2002, pp. 154-155.

([28]) شهادة الدكتور الخطيب في **الذاكرة الوطنية**، م.م. ص. 167,

كبيرة من الأسلحة وأستطيع أن أتكلّم عن عمليّة واحدة، أنا تسلّمت في غابة تقع شمال الرّباط تسمى دار السّلام خمسة آلاف بندقية منها رشاشات وخمسة ملايين رصاصة وكان الملك الحسن الثاني قد قال بأنّه لا يريد لأيّ رصاصة أن تسقط بالتراب المغربي وإياكم أن يصل الخبر إلى الفرنسيّين" ([29]). ويشهد كذلك القيادي الآخر في جبهة التّحرير محمد لبجاوي أن الملك أعطى أوامره لكل السّلط المغربية لتسهيل عمل المقاومين الجزائريين في الدّاخل وفي الخارج من ذلك أنّ "السّفير المغربي عبد الخالق الطريس وحتى مغادرته إسبانيا في جوان 1957 وضع كل إمكاناته في خدمة جبهة التّحرير" ([30]) ويورد البجاوي في "حقائق عن الثورة الجزائرية" عديد المواقف النبيلة لمحمد الخامس لفائدة الجزائريين منها ما جدّ إثر اختطاف قادة الثورة الجزائرية في 22 أكتوبر 1956 إذ يكتب "إنّ ملك المغرب وبإحساس بالجرح وبالإهانة التي ألحقتها به الحكومة الفرنسية قرّر أن يكثّف إعانته لجبهة التّحرير وبداية من شهر نوفمبر 1956 قدّم للدكتور الخطيب والدكتور حافظ إبراهيم 250 مليونا من الفرنكات بهدف اشتراء 2750 سلاح موزر (Fusils Mauser) مع ذخيرتها وقد وقع فعلا انزالها في فيفري 1957 بطنجة وقدّمت لممثّلي بوصوف وخاصة للشيخ علاّل القادري. وقد أعطى فيما بعد الدكتور حافظ مبلغ 100 ألف دولار لكريم بلقاسم لدعم شبكة شراء الأسلحة بمدريد. وكان الدّكتور الخطيب الذي أصبح منذ 1960 وزير الشؤون الإفريقية قدّم كلّ الدّعم الأخوي والنّاجع جدّا لجبهة التحريرالجزائرية وذاك حتّى استقلال الجزائر وعن طريقه أيضا منح الثورة الأمير الحسن الثاني أسحلة مأخوذة مباشرة من مستودعات الجيش الملكي" ([31]).

وفعلا تحوّلت المغرب بفضل الدّعم الرّسمي وكذلك الشّعبي شأن تونس في الشرق إلى قاعدة خلفيّة لجيش التّحرير الجزائري وبالخصوص لولايات غرب الجزائر وتمركزت القيادة الجزائرية في الناضور وتطوان ثم في وجدة إضافة لحضور السّياسيين في الرّباط وفي كلّ المدن المتواجد فيها جزائريّون، وتطوّر عدد جنود جيش التّحرير الجزائري بالمغرب من حوالي ألفين سنة 1957 إلى ما يقارب العشرة آلاف (9850) سنة 1962 ([32]) وكانت له مراكز تدريب منتشرة على كامل التراب المغربي تقريبا منها مراكز

([29]) شهادة منصور أبوداود بـــ **جيش التّحرير المغاربي**، م.م. ص. 190.

([30]) لبجاوي محمد، م.م. ص. 135.

([31]) ن.م. ص. 137 – 138.

([32]) G. Faivr, **op.cit.** p. 9.

بركان والعريش والخميسات والكبداني (جبل الناظور) وسيغنغان (غرب الناظور) وتطوان والناظور (التكوين على الاتصال) ([33]) ومخازن أسلحة بالدّار البيضاء والناظور وسيدي جابر وسيدي بوبكر والقنيطرة ووجدة ([34]) وورش لصنع الأسلحة بتطوان وسوق الأربعاء وبوزنيقة وبنمارة والصخيرات والمحمّدية ([35]) كذلك كان لجيش التحرير الجزائري بالمغرب مراكز للإستشفاء ومعالجة الجرحى بمختلف القواعد منها مستشفى موريس لوسطو (M.Loustau) بوجدة والقاعدة 15 أو العربي بن مهيدي شمال شرق وجدة ([36]).

ورغم صعوبات التّموين وتقييد حركة مقاومي جيش التّحرير على الحدود جرّاء برّاجي موريس وشال وكذلك التّضييقات أو المراقبة التي فرضتها السّلط المغربية خاصة بعد 1958 على معبر الفقيق بالجنوب ([37]) تكريسا لسيادتها فإن المغرب حافظ على مكانته حتى استقلال الجزائر كقاعدة للثورة الجزائرية وكملجإ للجزائريّين من المقاومين أو ضحايا القمع الإستعماري.

III– التّضامن الرّسمي والشعبي مع الجزائريّين:

لم تقتصر مساندة القضيّة الجزائرية على الصّعيد السّياسي والعسكري بل شملت الجانب الإنساني وساهمت فيه السّلط الرّسمية كما عامّة الشعب ايمانا بواجب التضامن مع إخوة يقاومون الإستعمار وتجمعهم بهم روابط الدّين والتاريخ والقوميّة . لكن لا زال هذا الجانب من التّواصل والتّضامن –إلى حدّ علمنا – لم يدرس ما فيه الكفاية على أهميّته.

ولأنّ موضوع هذه المساهمة حدّدناه في دور الزّعيمين بورقيبة ومحمد الخامس فلن نستفيض إذًا في دور الفاعلين الآخرين في ذاك المد التضامني مع الجزائريين ونكتفي بالتذكير بخطوطه العامة لاعتقادنا أنّ ذاك ما كان ليحدث لولا رعاية وتوجيه السّلط العليا في البلدين.

([33]) ن.م. ص. 18

[34]– ن.م. ص. 7 و Guentari (M), **Organisation politico-administrative et militaire de la révolution algérienne de 1954 à 1962**, Alger, O.P.U., 2000, p. 232.

([35]) القنطاري محمّد، ن.م. ص. 635.

([36]) ن.م. ص. 316.

([37]) انظر مآخذ الجانب الجزائري على السّلط المغربية في تقرير **عبد الحفيظ بوصوف**، السّابق الذكر، ص. 432 – 433.

مثلت مشاركة العشرات إن لم يكن المئات من المغاربة ومن التّونسيّين في حرب التّحرير الجزائرية أسمى مظاهر التّضامن ([38]) واستشهد الكثير منهم على أرض الجزائر إضافة لمساعدة جبهة التّحرير بمدّها بالأخبار والمعلومات على "العدو" والقيام ببعض المهمّات الخاصّة كإيواء وحدات جيش التّحرير واستقبال الجرحى من الجنود ([39]) وكانت تضحيات سكّان الحدود كبيرة تعرّضوا خلالها لحملات انتقاميّة من الجيش الفرنسي من القتل إلى التّشريد.

كما ساهم رجال الثقافة والصّحافة والأدب في التعريف بالقضيّة الجزائرية ونشر أخبارها وخلق رأي عام متعاطف ومتحمّس معها إضافة لدور المنظّمات والجمعيات المختلفة وخاصة النقابات العمّالية.

ودعّم المغاربة والتّونسيون مجهود الثورة في الجزائر بالمال على تواضع التّبرّعات أو الإقتطاع من أجرة الموظفين من ذلك أنّ في المغرب وقع في الأعياد جمع صوف الأضحيات وبيعه ليمنح ثمنه لجبهة التحرير ([40]) إضافة للإعانة الرّسميّة وتسهيل وصول الأموال للقيادة الجزائرية من الخارج ولعلّ سخاء محمد الخامس فاق بكثير هنا جهد بورقيبة ([41]).

ومثّلت رعاية اللاّجئين الجزائريين للبلدين الجارين تونس والمغرب أهمّ جهد إنساني قدّم للشعب الجزائري في حربه التّحريريّة إذ استقبل البلدان خاصّة بين سنتي 1956 و 1958 حوالي نصف مليون من الجزائريين – 250 ألف لتونس ([42]) و200 ألف للمغرب ([43]) هروبا من حملات القمع والقتل التي كانت تقترفها القوّات الإستعمارية بالجزائر.

([38]) هذا الموضوع لم يحظ بالبحث والدّراسة الكافيين وفي ما يخصّ التّونسيّين المتطوّعين في صفوف جيش التّحرير يمكن مراجعة مقالينا المذكورين وفي ما يعني المغاربة يمكن العودة إلى شهادات قدماء المقاومين الهاشمي الطّود ومحمد بن سعيد آيت إدير والطيّب الثعالبي ومنصور أبو داود وعبد الكريم الخطيب وبشير بالقاضي بـــ : "**جيش التّحرير المغاربي – 1948 – 1955**"، المصدر المذكور.

([39]) قنطاري محمد، م.م. ص. 685 و A. Aleya Sghaier : « Les Tunisiens et la révolution algérienne » **op.cit**. pp. 122-133

([40]) شهادة منصور أبو داود بـــ "**جيش التحرير المغاربي**" م.م، ص. 190.

([41]) البجاوي محمد، م.م. ص. 134–138.

([42]) **A.N.T. S.E, S/S : Affaires militaires, C. 440 – B/18, D. 266** : Accueil et secours aux réfugies algériens

([43]) القنطاري، م.م. ص. 690.

وكانت أهمّ مراكز اللاّجئين الجزائريين بتونس بالولايات الحدودية شأن سوق الأربعاء والكاف وقفصة وحتى في العاصمة تونس وبالمغرب سيدي بوبكر وتويصات (بني سنوس) وأولاد نهار) وبوجدة (مراكز معنية، بني بوسعيد وصبرة) وأحفير وبركان (سيدي بوبكر) وغزوات) وفقيق (بشّار، عين الصفرة والبيّاض) ([44]).

إضافة لتسهيل عمل جبهة التّحرير في تأطير اللاّجئين وتقديم الإسعافات والخدمات لهم قامت الدّولتان التّونسيّة والمغربيّة بإخطار المنظمات الدّولية وخاصة الصّليب الأحمر والمفوّضية العليا للاّجئين بجناف وتكوّنت في المغرب لجنة لمتابعة موضوع اللاّجئين يرأسها عبد الرحمان بوعبيد نائب رئيس الحكومة ذاته وفي تونس رأس اللجنة وزير الدّاخلية الطيب المهيري ([45]). وقدّم الهلال الأحمر في كل من البلدين الإعانات والإغاثات المتاحة (ملابس، مؤونة، أدوية) لضحايا الحرب في الجزائر. مع الملاحظ أنّ عدد الأطفال من اللاجئين وقع استقبالهم أو تبنّيهم من عائلات مغربيّة أو تونسيّة وإدراجهم بالمدارس العموميّة.

خاتمـــة:

هكذا رغم الخلافات التي جدّت بين جبهة التّحرير الجزائرية ونظيرتيها حكومة محمد الخامس وحكومة الحبيب بورقيبة وإرادة فرض وجهة نظر هذا الطّرف أو ذاك حول سبل التّحرير أو ضبط الحدود فإنّ تضامن الشعوب المغاربيّة وكفاح كل واحد منها أسهم دون شكّ في تحرّر الآخر من الإستعمار وإنّ إسمي محمد الخامس والحبيب بورقيبة سوف يخلّدهما التاريخ بين عظام المغرب العربي وزعماء حركة التحرّر في العالم.

([44]) **المصدر نفسه**، ص. 690.

([45]) محضر جلسة مؤتمر تونس الثلاثي أيام 17 – 20 جوان 1958، بـــ محمّد حربي، **أرشيف الثورة الجزائرية**، م.م. ص. 415-417.

المرأة في مجابهة الاستعمار في المغرب العربي
ملاحظات أولية (*)

غاية هذه الورقة هي تحسّس مواطن الالتقاء والاختلاف في تدخّل المرأة في كل من تونس والجزائر والمغرب الأقصى في مقاومة الاستعمار في الفترة المعاصرة في محاولة لتخطّي الكتابات النّسويّة (la littérature féministe) والاعجابيّة التي تضخم الحدث لتصنع منه أحيانا "تاريخا" أو تلك المقاربات المجافية السّاهية عن مساهمة المرأة عن وعي أو بدونه فتسقط في ظلمها. ودون أن ندّعي الإلمام بكل تفاصيل تاريخ النساء المغاربيات في الفترة الاستعمارية، فإن المادّة التاريخية المتوفّرة خاصة بالنسبة للمرأة في تونس والجزائر وبصورة أقلّ -لحدّ علمنا- ([1]) بالنسبة لنساء المغرب الأقصى تسمح لنا بعقد المقارنة المقصودة.

وقد حبّذنا التحدّث عن "مساهمة المرأة في مجابهة الاستعمار" عوض قصر الكتابة عن حضورها في حركات التحرر لما نعتقده أن الصيغة الأولى أوسع وأشمل لأن المجابهة يمكن أن تكون ثقافية (إعلامية، مسرحية، أدبيّة...)، أو اجتماعية (نقابية، تضامنية...)، أو جمعوية (جمعيات شبابية، كشفية...) أو سياسية (الانضواء إلى الأحزاب السياسية أو دونها)، وحتى عنيفة (الانخراط في المقاومة المسلحة)... كما يمكن أن تكون مجابهة الاستعمار مباشرة إيجابية أو مقاومة سلبية.

(*) نص المداخلة في ندوة "المرأة وحركات التحرر في المغرب العربي" من تنظيم مؤسسة التميمي في ماي 2005، قيد الطبع.

([1]) تتفاوت الكتابات في موضوع مساهمة المرأة في حركات التحرّر في بلدان المغرب من حيث الموضوعية والجديّة ومن حيث خلفياتها إن كانت من فعل مناضلات نسويات أو من إنجاز باحثين جامعيّين وفي المحصّل أثمر الجهد البحثي في هذا الموضوع رصيدا معتبرا من البحوث من شأنه الإيفاء بالغرض. نورد نماذج منها في إحالات قائمة.

وتأتي هذه المحاولة في ثلاثة عناصر:

I- شروط انخراط المرأة المغاربية في مجابهة الاستعمار: العوائق والمحفّزات.

II- هامشية المرأة في العمل السياسي الوطني.

III- المرأة والمقاومة المسلّحة في بلدان المغرب: حضور متفاوت.

I- شروط انخراط المرأة المغاربية في مجابهة الاستعمار: العوائق والمحفّزات:

يتوجّب التذكير في البدء إلى أن واقع المرأة زمن الاستعمار لم يكن ساكنا بل كان متغيّرا. لذا وجب أن ينظر إليه في حركيّته لأن شروط الفعل التاريخي عند بدايات السيطرة الاستعمارية ليست هي ذاتها في السنوات اللاّحقة بل اعترتها عديد التغيّرات المحفّزة على الفعل التاريخي نتيجة ما أحدثه الاستعمار من اختراق وخلخلة أو تحطيم للبنى القديمة الأصلية إن كانت اقتصادية أو اجتماعية وخاصّة ثقافية وذهنية وإعادة صياغتها أو تشكيلها حسب منطق الهيمنة الاستعمارية ومعالمها إنّ صدمة الاستعمار كانت إيجابية على الوعي العام في المجتمعات المغاربية التي أجبرت على مراجعة ذاتها وحتى على الشكّ في الصورة المطمئنة التي كانت تحملها على نفسها ([2]). وبالتالي خفّت وطأة الثقافة الحابسة للمرأة والمقيّدة لفعلها.

من مميّزات هذه الثقافة السائدة هي طرد الفرد من حيّز الفعل السياسي. إذ كانت "ثقافة المخزن" تقوم على اشتراط الولاء في الرعيّة وتقديم أمارات الطاعة للحاكم من خلال هياكل التأطير والتحكّم في المجتمع، شأن العرش والقبيلة والطريقة والعائلة وتترجم مفردات العلاقة بين الحاكم والمحكوم بالتذلل والهدايا ودفع الضرائب والخدمة العسكرية من قبل المحكومين وبواجب الحماية من قبل الحاكم لكن كانت كثيرا ما تحدث الانشقاقات في هذا النسق الإقطاعي أو شبه الإقطاعي فتجدّ التمرّدات وحتى الثورات الخارجة على الحاكم. وبصورة عامّة كانت الثقافة السياسية السائدة منبنية على الاستكانة والتسليم بالقدر

([2]) يقول عبد العزيز الثعالبي في هذا التأثير: "إن امتزاج التونسيين بالأوربيين (...) كان خير لقاح نشطت به عقولهم" في خطاب ألقاه في شهر جوان 1924 بيافا ونقلته "لسان الشعب" عدد 1924/06/25، ص 2.

والخنوع للحاكم المستبدّ واستشراء "طبائع الاستبداد" على حدّ تعبير عبد الرحمان الكواكبي من "استباحة الكذب والتحيّل والخداع والنفاق والتذلّل" ([1]).

وكانت وضعية المرأة ضمن هذه الثقافة ما قبل الحداثية الأسوأ بالنسبة للمرأة حتّى وإن تمايزت أوضاعها واختلفت حدّة تقييد حريّتها أو تساهل المجتمع معها في اختراق "الفضاء الخارجي" حسب انتمائها إلى الوسط الحضري أو وسط البادية أو حسب عيشها ضمن ثقافة تسود فيها التقاليد والأعراف العربية الإسلامية أو التقاليد والأعراف البربرية (الأمازيغية) إذ يبدو أنّ المرأة في هذا الوسط الأخير كانت أكثر حريّة وتحظى بتسامح أكبر من مجتمع الرجال في خروجها عن وظائفها التقليدية وفضائها الخاص.

كما أن الثقافة السائدة وقيمها الساترية، أي الثقافة العربية الإسلامية المركّبة على الموروثات الثقافية المحلية الضاربة في التاريخ والمرجوجة بالثقافة الاستعمارية الغازية، حتى وإن تمايزت طفيفا بين الوسط الحضري والوسط الريفي أو الوسط "العربي" والوسط "البربري"، فإنها كانت عموما ثقافة بترياركيّة تقوم على سلطة الآباء والذكور وخاصة على النظرة الدونية للمرأة والتي كانت تحصرها في الأدوار المتوارثة للمتعة والإنجاب والقيام بأعباء المنزل والأطفال. أمّا الفضاء العام الذي هو مجال العمل السياسي بامتياز فقد كان عامّة محرّما على المرأة في المغرب العربي بل كان في نظر المجتمع بأسره إقحام المرأة فيه هو مساويا لرميها في "عالم الشرور" و"المخاطر" وتعريض "شرف المرأة" والعائلة للخطر. لذلك حتّى وإن تجرأت بعض النساء على اقتحام الفضاء العام – كما سنذكره لاحقا– فإن ذاك كان مسموحا به بشروط وضمانات خاصّة تطمئن على عدم "السقوط".

ثم أن المرأة المغاربية حتى وإن كانت تتقاسم مع الذكور حالة انتشار الأميّة في المغرب زمن الاستعمار والتي كانت تصل نسبتها إلى 90% من جملة المجتمع، فإن أميّة المرأة كانت أكثر استفحالا ومركّبة. إذ فرص التعلّم لم تكن شحيحة فحسب بل أن الفتاة كانت تحرم حتى من التعليم الديني البدائي إذا استثنينا بعض العائلات الأرستقراطية أو المخزنية أو الطّرقية.

لهذه الشروط والأوضاع كان تدخّل المرأة في مقاومة الاستعمار محدودا وليس غائبا.

([1]) عبد الرحمان الكواكبي، **طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد**، ضمن الأعمال الكاملة، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، الطبعة الأولى، 1995، ص 499.

II- مساهمة المرأة المغاربية في العمل السياسي الوطني:

إن حضور المرأة في الفعل التاريخي وفي العمل السياسي بالذات، تحكمه الشروط العامّة وأخرى خاصة عرّجنا عليها في العنصر الأول. إن ما تميّز به أداء النساء في المغرب العربي في بدايات الفترة الاستعمارية يلتقي بصورة عامّة مع حقيقة سوسيولوجية تشترك فيها نساء البحر الأبيض المتوسط ([4]) وحتى نساء العالم، وهي استبعاد المرأة من حيّز الفعل السياسي الذي كان يحتكره الرجال ويجب أن نترقب الستينات من القرن المنصرم مع انتشار الحركة النسوية (le mouvement féministe) وخطابها التحرري والمساواتي انطلاقا من الولايات المتحدة الأمريكية، فبلدان أوربا وتوابعها والحضور الفاعل للحركات اليسارية والاشتراكية ليصبح الحضور النسائي في الحياة السياسية ليس فقط مطلبا بل حقيقة تاريخية.

وفي ما يخص النساء في المغرب العربي زمن الاستعمار حتى وإن كانت المرأة المسلمة تتحرك ضمن خصوصيات ثقافية واجتماعية مميّزة، فإنها في الواقع كانت تشترك مع نساء الجاليات الأوربية ذاتهنّ في هامشيّة دورهنّ السياسي وحضورهنّ في قيادة التنظيمات السياسية أو الاجتماعية حتى بين التنظيمات ذات الطابع اليساري. ففي تونس مثلا لم نسجل في دراساتنا للتنظيمات اليمينيّة قياديّة واحدة ([5])، والأمر ذاته يمكن أن ينسحب على التنظيمات اليسارية فمثلا بالنسبة للفيدرالية الاشتراكية بتونس لا ترد إلاّ أسماء أربع نساء قياديات فيها ([6])، وكذا الأمر بالنسبة للحزب الشيوعي إذ لم تصل إلى

([4]) انظر في كتاب **النساء والسياسة حول المتوسط**، مساهمة الباحثة إليان ريشارد: "النساء والسياسة في فرنسا المتوسطية"، وكذلك مقال ركال تيرسلان "الإسبانيات والسياسة"، وغيرهما ضمن نفس المؤلف.
Collectif, **Femmes et politique autour de la Méditerranée,** Paris, l'Harmattan, 1980, les articles : Raquel Thiercelin : « les femmes espagnoles et la politique » pp.11-24 ; Eliane Richard : « Femmes et politique dans la France méditerranéenne » pp. 25-38. Olga Patané : « La femme italienne et la politique », pp. 57-69.

([5]) انظر مقالنا: "سينوبسيس أهم التنظيمات السياسية اليمينية الفرنسية بتونس زمن الاستعمار" **بالكراسات التونسية**.
Amira Aleya Sghaïer, « Synopsis des principaux groupements politiques français de droite en Tunisie au temps de la colonisation » in **Les Cahiers de Tunisie**, n° 180, 2002, pp. 9-29.

([6]) Juliette Bessis, **Les Fondateurs, Index biographique des cadres syndicalistes de la Tunisie coloniale (1920-1956)**, Paris, l'Harmattan, 1985 ; Lotfi Chaibi,

قيادة الحزب إلاّ ثلاث مناضلات (نبيلة مجاجي وفلانتين عدّة وشريفة السعداوي) في بداية الخمسينات ([7]).وكانت عامّة النساء يحضرن في الأنشطة الثانوية([8]).

أمّا في إطار العمل الوطني وإن كانت تتفاوت درجة انخراط النساء فيه بين بلدان المغرب الثلاثة، فإن درجة الانخراط كانت كذلك هامشية في العمل السياسي فمثلا الحزب الدستوري الجديد لم يبعث شعبا نسائية إلا بداية من 1950، ولم تبرز إلاّ قلّة من النساء لا يفوت عددهنّ المائة، وكذا الأمر للجزائريات اللواتي كنّ قلّة في نجم شمال افريقيا وفي حركة انتصار الحريات الديمقراطية (MTLD) مثلا، وكذا في جبهة التحرير ولا يختلف الواقع النسائي في المغرب، إذا استثنينا مناضلات الجمعيات النسائية مثل "أخوات الصفاء" (فاس) و"السيدات المغربيات" (الدار البيضاء)، ثمّ أنه لم نسجّل حضورا نسائيا في مراكز القيادة مثلا ضمن الأحزاب الوطنية لا في تونس في الحزبين الدستوريين القديم والجديد، ولا في الجزائر من "نجم شمال إفريقيا" إلى "جبهة التحرير الوطني"، ولا في المغرب ضمن الحركة الوطنية بالمنطقة الخليفية و"حزب الاستقلال" و"حزب الشورى والاستقلال" ولم يسجل إلا اسم السيدة مالكة الفاسي من حزب الاستقلال من ضمن 89 شخصية قيادية بارزة في هذه التنظيمات من 1946 إلى 1950 ([9]).

لكن في أواخر الفترة الاستعمارية، وخاصة في سنوات الحسم في الخمسينات في تونس والمغرب، ومنذ اندلاع حرب التحرير في 1954 في الجزائر، أضحى حضور المرأة المغاربية مألوفا ومطّردا في المشهد النضالي الوطني، لكن من مواقع تابعة وتنفيذية، كحضور الاجتماعات السياسية العامّة ومشاركتهنّ عادة متلحفات بالتصفيق والزغردة والإطلالة مشجعات للمتظاهرين من الشرفات. لكن في السنوات الأخيرة من عمر الاستعمار، يسجّل الحضور النسائي أكثر جرأة كالتظاهر في الطريق وحمل الأعلام الوطنية والمشاركة في إضرابات الجوع تنديدا بالقمع الاستعماري أو المساهمة في شبكات

Socialistes français et nationalistes tunisiens, Histoire d'une rencontre (1945-1956), Tunis, Orbis, 1997.

([7]) Hassine Raouf Hamza, **Communisme et Nationalisme en Tunisie de la « libération » à l'Indépendance, (1943-1956),** Université de Tunis I, 1994, pp. 88-89.

([8]) نفس المصدر، ص 89.

([9]) محمد زاد، "طبيعة آليات اشتغال الأحزاب السياسية الوطنية في مغرب الحماية" في مجلة أمل عدد 10-11 1997، ص 96.

نقل المعلومات والاستخبار عن "العدو" أو نقل التعليمات والمناشير الوطنية. كذلك ساهمت النساء المغاربيات في دعم سجناء الوطن وشهداء الحرية بموازرة المساجين أو ضحايا القمع الاستعماري وعائلاتهم. مع الملاحظ أن النشيطات من هؤلاء النساء كن في غالبهن قريبات بدرجة أو بأخرى بناشطين وطنيين من الذكور. فنشاط العنصر النسائي هنا كان هامًا في إنجاح العمل الوطني وخاصة من خلال المنظمات والأطر-الفوقية التابعة للأحزاب الوطنية كالاتحادات النسائية أو الحركات الكشفية ([10]). فالنساء كن محتضنات في منازلهن للأنشطة الوطنية المحظورة من الاجتماعات السرية إلى إيواء الهاربين من التتبّعات أو كتابة المناشير واللافتات وطبعا حفظ سرّ المقاومة والتعبئة على نشاطات أزواجهن أو الرجال الآخرين من نشطاء العمل الوطني. لذا كانت المرأة المغاربية المتطوّعة في الكفاح الوطني أو الداعمة له تحيى تحت الضغط النفسي الدائم والخوف على ذويها من بطش الاستعمار أن لم تتحول إلى أرملة أو ثكلى. لكن لو كان عدد النساء هؤلاء محدودا في الكفاح السياسي في كامل المغرب، فإنّ عددهنّ كان أقلّ في حمل السلاح ضد المستعمر ولو تفاوتت درجة المساهمة من بلد إلى آخر.

III– المرأة المغاربية في المقاومة المسلحة: حضور متفاوت:

في الواقع إن تاريخ دور المرأة في مقاومة الاستعمار -كما أسلفنا الذكر- مازال في بداياته، إذ يدخل هذا الصنف من التاريخ في مبحث تاريخ المنسيّين أو المهمّشين علاوة إضافة لمعوق بحثي آخر هو ندرة المصادر المكتوبة حول فعل المرأة، وبالذات في مجال المقاومة المسلحة التي كانت أساسا من فعل أميّين رجالا ونساء. ومهما كان الأمر، فإن المصادر والكتابات المتاحة لنا الآن تسمح لنا ببسط مجموعة من الحقائق التاريخية تثبت

([10]) بالنسبة لتونس يمكن مراجعة -Bakalti Souad, **La femme tunisienne au temps de la colonisation, 1881-1956**, Paris, l'Harmattan, 1996-. « Mouvements et organisations féminines de la lutte de libération nationale en Tunisie », in : **Processus et enjeux de la décolonisation en Tunisie (1952-1964)**, ISHMN, 1999, pp. 187-204. – عميرة علية الصغير، "مسار تحرر المرأة في تونس بين مقتضيات الواقع واختلاف الرؤى (1920-1948)" بمجلة **أمل**، الدار البيضاء، عدد 28-29/ 2003، ص 169-325. بالنسبة للجزائر: نصيب نعيمة، "الممارسة السياسية للمرأة الجزائرية: الواقع والآفاق" بمجلة **أمل**، 28-29/ 2003، ص 248-268. -Jamila Amrane, « les combattantes de la guerre de libération nationale en Algérie », **in Histoire des femme au Maghreb**, (collectif), Tunis, CUP, 2000, pp. 43-74. –Gilbert Meynier, **Histoire intérieure du FLN, 1954-1962**, Paris, Fayard, 2002, pp. 223-569. -

لنا من ناحية التفاوت الكبير لمكانة المرأة في المقاومة المسلحة بين بلدان المغرب الثلاث وكذلك من ناحية ثانية تزايد نسق الحضور النسائي في هذا المضرب من العمل المكافح بتقدم التاريخ الاستعماري في المغرب نحو نهايته.

- **فصل التصدّي للاحتلال والتوغّل الإستعماري:**

إن التصدّي للقوات والجيوش الفرنسية الغازية منذ 1830 في الجزائر، أو 1881 في تونس، أو 1912 في مرّاكش، وما تلاها من عمليات عسكرية للتوغّل أو التهدئة والسيطرة على الفضاء وإخضاعه، كان أساسا من فعل الرجال وهذا ما تؤكده جل الكتابات التي تناولت هذه المرحلة من عمر الاستعمار في المغرب. لكن ذلك لا ينفي أن التاريخ سجّل في هذه الفترة حضورا للمرأة المقاومة كعنصر من عناصر القبيلة أو العرش أو العائلة فحسب في مختلف أوجه التّصادم مع القوات الاستعمارية. لذلك فإن الأسماء النسائية التي سجّلها التاريخ هنا نادرة. ففي الجزائر، تذكر لالّة زهرة أخت الأمير عبد القادر في ثورته (1832-1847)، وخاصّة لالّة فاطمة نسومر قائدة ثورة جبال جرجرة القبائلية سنة 1853، حتى أن أحد أعدائها الماريشال روندون (Randon) لقّبها بجان دارك الجزائر (La Jeanne d'Arc d'Algérie) ([11]).

في تونس، لم يسجّل التاريخ أسماء نسائية ساهمت فعلا في المقاومة المسلّحة للاحتلال سنوات 1881-1883. حتى وإن ذكرت نساء كزوجات أو أخوات أو بنات لأعلام في فترة المقاومة الأولى أو التمرّدات اللاّحقة ([12])، فهنّ نساء نظنّ أنهنّ ساهمن كمرافقات أو مساندات فحسب لمقاومين.

الأمر ذاته يمكن أن نقوله لوضع المقاومة للاحتلال في المغرب الأقصى، غير أنه يبدو من خلال الكتابات التي تناولت هذا الموضوع، أن حضور المرأة المغربية وخاصة

([11]) Yahiaoui Messaouda, « Perspective , Femme Algérienne 1830-1962 », in **El Messadir** n°6/2002, p. 23.

([12]) يذكر محمد المرزوقي في مؤلفه "**صراع مع الحماية**" دار الكتاب الشرقية، تونس، 1973، خمسة عشر اسما لنساء كنّ في علاقة مع المقاومة وهنّ: آمنة خماخم، باشية بنت علي بن خليفة، بية بنت محمد الوحيشي، حسناء بنت محمد كمّون، خديجة بنت محمد خماخم، خديجة بنت الطاهر، رفيقة بنت محمد بن عبد الله، رقيّة بنت محمد بن عبد الله، ظريفة بنت علي بن عمّار، عائشة بنت منصور الهوش، فاطمة بنت محمد الوحيشي، كنزة بنت علي بن خليفة، مباركة بنت منصور الهوش، مبروكة بنت محمد بن عبد الله، مريم بنت محمد الوحيشي.

الأمازيغية منها كان أهمّ مما كان عليه في البلدين المغربيين الآخرين. فها هو الجنرال كترو Catroux يصف تصدّي المرأة الأمازيغية لقوات الاحتلال بقوله: "كانت تنقل بشجاعة خارقة لموارد المياه تحت نيران رشاشاتنا وتسقط أغلبهنّ، لكن الباقيات يواصلن مهامهنّ البطولية... وتحمّسن المقاتلين بالزغاريد المدوّية، كما يقمن بتوزيع الذخيرة والمؤونة ويأخذن مكان القتلى لتعويضهم وفي غياب الأسلحة يدحرجن على المهاجمين من قواتنا أحجارا ضخمة تنشر الموت حتى قعر الوادي".[13] لكن عبد الرحمان اليوسفي الذي درس "مؤسسات جمهورية الريف"[14]، وتناول تكوين "الجيش الشعبي" أي جيش عبد الكريم الخطابي أثبت أن كلّ المعبّئين في هذا الجيش كانت أعمارهم ما بين 16 و50 سنة وكلّهم من الذكور. وهذا ما ينسّب الفكرة التي يمكن أن نستنتجها من طبيعة المساهمة النسائية في العمل المسلح، وهي حضور المرأة "البربرية" أكبر من المرأة "العربية" في المجابهة العسكرية. في الواقع، إن الفكرة تنسّب فحسب ولا تزاح تماما. ولعلّ السؤال الأهم هنا لماذا هذه الجرأة أكثر عند المجتمعات "البربرية" في السماح لنسائها في اقتحام مجالات الرجال وخوض غمار الحرب أكثر من "مجتمعات العرب"؟ يبدو أنّ جهات التواجد الأمازيغي كانت أقل تضييقا في ثقافاتها على نسائها مقارنة بالمجتمعات ذات التعرّب والأسلمة أكثر والتي كانت مدنيّة أساسا عكس مجتمعات البربر التي هي ريفية أو جبلية عامّة.

على كل، إن سنوات الحسم مع الاستعمار سوف تؤكد أكثر هذه الحقيقة التاريخية.

*** سنوات الحسم مع الاستعمار :**

تعتبر سنوات الخمسين من القرن الماضي سنوات الحسم مع الاستعمار الفرنسي في المغرب العربي إذ اندلعت المقاومة العنيفة والشعبية في تونس منذ بداية 1952 [15]، وفي

---

(13) Général Catroux, **Achèvement de la pacification du Maroc**, Paris, 1934. أوردته لة صفية العمراني في "الشعر والمقاومة بالجنوب الغربي 1930–1956" ضمن كتاب: **جيش التحرير المغاربي 1948–1955**، الجزائر، نشر مؤسسة محمد بو ضياف، 2004، ص 201-219، ص 205.

(14) عبد الرحمان اليوسفي "مؤسسات جمهورية الريف" بمجلة أمل عدد 1999/8، ص ص 91-102، ص98.

(15) راجع في هذا الموضوع: -عميرة علية الصغير، **المقاومة الشعبية في تونس في الخمسينات، انتفاضة المدن، الفلاقة، اليوسفية**، صفاقس، التسفير الفني، 2004. -عميرة علية الصغير وعدنان

المغرب خاصة منذ عزل السلطان محمد بن يوسف في أوت 1953، وفي الجزائر منذ 1 نوفمبر 1954 [16]. ونظرا لطبيعة الاستعمار في كل من البلدان الثلاثة والخصوصيات المختلفة بكل حركة تحرّر في كل منها إذ كان الطابع العنفي المسلح هو الأساس في الثورة الجزائرية وازدواج العمل السياسي مع المقاومة العنيفة في المغرب وتونس ونظرا كذلك لاختلاف الوزن الديمغرافي والامتداد الجغرافي للبلدان الثلاثة فإن حضور النساء في المقاومة المسلحة كان هو كذلك متباينا من بلد إلى آخر.

في تونس، كانت مساهمة المرأة متواضعة في المقاومة المسلحة في الخمسينات وكذلك قبل ذلك إذا استثنينا اسمين أو ثلاثة شأن مباركة بنت عمر بن عبد الملك وحليمة بنت عمر بن عبودة زوجة عبد الله الغول وقد شاركتا في إحدى معارك انتفاضة المرازيق (1943–1944). إذ في أعمال "الإرهاب الوطني" في المدن (اغتيالات المتعاونين، حرق وتفجير رموز التواجد الاستعماري، قتل عناصر استعمارية...) أو في غيرها، لم نسجل مثلا تورّط أي امرأة في عمليات مثل هذه طيلة الخمسينات ولا يعني ذلك أنه لم توجد بعض النساء اللواتي حملن أسلحة أو خبّأن متفجّرات في منازلهنّ [17]. كذلك الأمر في حركة المقاومة المعروفة بحركة "الفلاّقة"، إن كانت في فصلها الأول (جانفي 1952- ديسمبر 1954) أو في فصلها الثاني (ديسمبر 1955- جويلية 1956)، والتي انخرط فيها بين 1952 و1954 حوالي 3000 مقاوم. وفي فصلها الثاني ما بين 600 و700 مقاوم لم نسجّل أسماء مقاومات صعدن للجبل إلا لثلاث نعود لهنّ لاحقا. منهنّ اثنتان تحصلتا على "بطاقة أمان" (يسميها المقاومون "بطاقة دولاتور" نسبة إلى المقيم العام الجنرال بوايي دولاتور (Boyer de Latour) وهما حسينيّة رمضان عميّد من عصابة الأزهر الشرايطي

المنصر، **المقاومة المسلحة في تونس (1939–1956)**، نشر المعهد الأعلى لتاريخ الحركة الوطنية، 2005.

(16) بالنسبة للمقاومة المسلحة في المغرب الأقصى نشرت المندوبية السامية لقدماء المقاومين وأعضاء جيش التحرير سلسلة من أعمال الندوات غطّت تقريبا جل أنشطة المقاومة المسلّحة الفدائية وأعمال جيش التحرير. أما بالنسبة للجزائر، فإن قائمة الدراسات التي تناولت حرب التحرير طويلة جدا، سوف نحيل على المصدر المعني في حينه.

(17) انظر مثلا: جماعي، **نساء وذاكرة، تونسيات في الحياة العامة 1920–1960**، تونس، مطبعة سيكوم، 1993، ص 46. تذكر أسماء مناضلات شاركن في أعمال من هذا القبيل شأن أم السعد بن حمي، العربية بنت مختار، خديجة طبال، وزهرة الحسومي.

وكذلك رفيقتها الجزائرية موساوي مسعودة والمعروفة بمحجوبة منصور تحت نفس القيادة ([18])، والتي استشهدت حاملة السلاح في الثورة الجزائرية بالأوراس ([19]). دون الثلاث هؤلاء، لا تذكر المصادر المتاحة حاليا ولا كذلك كل الذين درسوا المقاومة المسلّحة في تونس في الخمسينات أسماء نسوة أخريات. هل يعني ذلك أن المرأة لم تشارك في هذه المقاومة؟ طبعا لا. لقد شاركت النسوة خاصة اللواتي كنّ في علاقة قرابة مع المقاومين كزوجات أو أخوات أو بنات في دعم المقاومة اللوجستي، بتحويل الأسلحة وخاصة توفير المؤونة واللباس ونقل المعلومات أو الاستخبار، ولنا في الأمثلة التالية نموذجا من مساهمة المرأة التونسية في حركة المقاومة المسلحة:

- خضراء الزيدية صعدت إلى الجبل مع زوجها ([20]).

-مبروكة بنت محمد زوجة المقاوم حسن الغيلوفي: استقبال المقاومين وإيوائهم وحفظ أسرارهم وتعرّضها للتهديد من القوات الاستعمارية ([21]).

-حسينيّة رمضان عميّد: حملت السلاح مع الأزهر الشرايطي، فجرّت جسرا على وادي المالح بين قفصة وزانوش، تحصلت على "بطاقة دولاتور".

-محجوبة الموساوي: مقاومة وصحافية في عصابة الشرايطي، تجمع المعلومات.

([18]) حول هذه المقاومات معلوماتنا من البشير الغيلوفي ابن المقاوم حسن الغيلوفي (من بني زيد الحامّة) في لقاء معه في 27 مارس 2006 وخاصة من المقاوم والكاتب الشخصي للأزهر الشرايطي طيلة "حرب التحرير" السيد عبيد بن منصور الشرايطي، وذلك في قفصة في لقاء معه في 8 أفريل 2006.

([19]) ولدت موساوي مسعودة بجيجل بالجزائر سنة 1920 وهاجرت مع عائلتها لتونس لتستقر برأس. وعند اندلاع المقاومة المسلحة التحقت بالمقاومة بمجموعة الأزهر الشرايطي وكان دورها إعلامي، أساسا. باندلاع الحرب التحريرية في الجزائر التحقت بالثورة لتستشهد في الأوراس سنة 1957. أفادتنا بهذه المعلومات أختها المناضلة ليلى موساوي في لقاء جمعنا بها بالجزائر العاصمة في 3 جويلية 2005. انظر كذلك حول المقاومة محجوبة كتاب الطبيب في جيش التحرير الجزائري تونس محمد التومي:

Dr. Mohamed Toumi, **Médecin dans les maquis, Guerre de Libération Nationale 1954-1962**, Paris, Sdc, pp. 161-162.

([20]) انظر مداخلة عروسية التركي حول هذه المقاومة ضمن أعمال هذه الندوة.

([21]) شهادة ابنها البشير الغيلوفي، نفس المصدر.

-مريم المنية: من المكناسي زوجة مناضل، مموّلة للمقاومة وتخيط زي المقاومين.

-محجوبة حرم عبد الحفيظ الحاجّي: أبنها المقاوم حسين الحاجّي، من أولاد الحاج سيدي عيش، مموّلة للمقاومة.

-دولة بنت محمد الصالح عميّد: مخبرة تنقل الأخبار تحت غطاء تاجرة متجوّلة.

-تونس حرم العربي الرّاهم السلاّمي: من أولاد سلاّم، مموّلة "للثورة" مع زوجها، من كاف درابي (معتمدية قفصة الشمالية).

-محجوبة الحاج شكري: زوجة عبد الحفيظ الحاجي من سيدي عيش، مموّلة.

-صريّة حرم أحمد اليحياوي: من سقي المظيلة، مموّلة وتأوي وتداوي المقاومين.

-الحاجة زهرة نصيب دُولة: من قصر قفصة، امرأة ثرية تموّل بالمال "الثورة".

-الطاوس حرم الأزهر الشرايطي: تدعم زوجها وجرحت في إحدى المعارك مع زوجها.

-محجوبة الفيلي: الملقّبة بالزعيمة من القصرين من جبل السلّوم، مموّلة. ([22])

ويبدو أن هذه القائمة من أسماء المناضلات اللواتي ساهمن في المقاومة المسلحة بالجنوب الغربي تحت قيادة الأزهر الشرايطي، لم تكن الوحيدة، خاصة وأن عصابات المقاومين كانت تنشط من الجنوب إلى الشمال وخاصة في الجزء الغربي من البلاد وهي كثيرة ويتوجّب استكمال البحث فيها والكشف عن الفاعلين من النساء ضمنها واللّواتي أهملهنّ التاريخ.

أمّا بالنسبة للمغرب الأقصى، وإن كانت دائما، شأن تونس، مساهمة المرأة في المقاومة المسلّحة كداعمة للمقاومة وليست كمحاربة إلاّ النادرات من المقاومات، فإن اللافت للنظر هو العدد الكبير للنّساء المغربيات اللّواتي شاركن في العمل المسلّح ضمن جيش التحرير في الشمال أو في الجنوب، أو كمنخرطات في مختلف منظمات المقاومة السرّية الفدائية بالمدن المغربية من الرباط إلى الدار البيضاء ومراكش، كالمنظمة السرّية"

([22]) أفادنا بهذه المعلومات كاتب الأزهر الشرايطي المقاوم عبيد بن منصور في لقائنا معه بقفصة في 8 أفريل 2006.

و"منظمة طارق بن زياد" و"الهلال الأسود" وغيرها. [23] إذ أحصينا في الجزء الأول فقط من كتاب التراجم للمقاومات المغربيات الذي أصدرته المندوبية السامية لقدماء المقاومين [24]، اسم 151 امرأة شاركن في "ملحمة" المقاومة، من امتشاق السلاح إلى الدعم اللوجستي وبالخصوص حمل أو تخبئة السلاح، وإيواء المقاومين ومداواتهم، وطبخ الطعام وغسل ملابس المجاهدين، وتوزيع المناشير وجمع الأخبار، والمراقبة...

ولأن المجال لا يسمح وليس الغرض أن نورد أسماء هؤلاء المناضلات، نذكر من اشتهر منهن: يامنة حمّو إقبال (انتفاضة الخنيفرة) وفاطمة المالقيّة (أخفت أرملة الشهيد علاّل بن عبد الله) وخديجة البلغمي (زوجة البطل علاّل الذي حاول اغتيال السلطان العميل ابن عرفة) وأكماش لالة وأم الفضلي ماء العينين من جيش التحرير [25].

أمّا في الجزائر، كما أسلفنا الملاحظة، فنظرا لطبيعة "الثورة الجزائرية" وحرب التحرير وعنف الردّ الاستعماري واعتماد جبهة التحرير "الحرب الشعبية"، فإن انخراط المرأة في الكفاح المسلح كان مميّزا مقارنة بوزن مشاركة المرأة في كفاح الشعبين المغربيين الآخرين، إن كان في حجم المشاركة أو في أشكالها. ونحن هنا، ليست غايتنا -بداهة- استحضار الفعل النّسائي في الثورة الجزائرية بل فقط إبراز ملامحه الدّالة وخاصة مميّزاته.

تعطي إحصائيات الدولة الجزائرية رقم 10949 مجاهدة على مجموع 336748 مجاهدا أحصتهم وزارة المجاهدين سنة 1974، [26] وعدد النساء اللواتي التحقن بالمقاومة بالجبال كان 2000 امرأة 5،88% من هنّ كنّ ريفيات. إضافة للمقاومات بالزيّ المدني "المسبّلات" تحت أوامر جبهة التحرير وجيش التحرير الوطني (عناصر ربط، جمع الأموال وأشياء مختلفة، ممرضات، كاتبات، خياطات، داعيات، آويات للمجاهدين،

[23] حول هذه المنظمات الفدائية يمكن مراجعة: المندوبية السامية لقدماء المقاومين وأعضاء جيش التحرير، **ندوة المقاومة المغربية ضد الاستعمار، 1904-1955**، سلا، مطبعة ديدكو، بدون تاريخ، (نظمت الندوة في نوفمبر 1991).

[24] الكتاب بعنوان: **المرأة المغربية في ملحمة الاستقلال والوحدة، تراجم عن حياة المرأة المقاومة**، سلا، مطبعة بني أزناسن، 2002.

[25] المصدر نفسه، ص. 5-6.

[26] Jamila Amrane, « Les combattantes de la guerre de libération nationale en Algérie », in **Histoire des femmes au Maghreb**, **Op. cit**. pp. 48-51.

منظمات للمظاهرات...). أمّا المقاومات في المدن "الفدائيات" فنسبتهنّ كانت 2% من مجموع المناضلات وشاركن في أعمال المقاومة من نقل القنابل وتفجيرها إلى نقل الأخبار والتظاهر... وأضحت أسماء المناضلات الجزائريات منذ بداية الثورة معروفة شأن زهرة الظريف وحسيبة بو علي وجميلة بوحيرد وجميلة بوباشة. [27]

لكن يبدو أنّه رغم العدد الهام من النساء الجزائريات اللواتي التحقن بجبهات القتال فإن أدوارهن فيها بقيت دائما أدوارا تقليدية أو داعمة للرجل مما يترجم على العقلية المحافظة دائما والتقليدية لقيادة الثورة الجزائرية التي كانت تمنح شرف القتال والقيادة للرجال فقط وتحصر المقاومة في الوظائف التقليدية حيث كانت المجاهدات بنسبة 42% كممرضات و44% كطبّاخات وغسّالات في خدمة جيش التحرير [28]. على كل دفعت المقاومات ثمن الدمّ غاليا من أجل تحرير الوطن إذ كانت نسبة الشهيدات 18% منهن [29]. وهي نسبة هامّة لا تضاهيها طبعا نسبة شهيدات الوطن، لا في تونس ولا في المغرب. وإن كنّا نجهل عدد المغربيات اللّواتي استشهدن في ساحات القتال مع العدوّ -ولا نخاله مرتفعا- فإننا نعرف أن في تونس، تكاد تنعدم حالة الاستشهاد من النساء التونسيات في مصادمات مسلحة مع العدو وحتّى العدد القليل المدرج كشهيدات ضمن "**السجل القومي لشهداء الوطن**" [30]، لم يكن مقاومات بل سقطن في عمليات قمع استعماري فحسب (أحداث تازركة، قصف لمواقع الثوار...).

ومهما كان الأمر فإن اقتحام المرأة المغاربية الفضاء العام ومن أجل القضية الوطنية على ضعف ذاك الانخراط في الفعل التاريخي ينمّ على روح وطنية ووعي بمكانة المرأة ودورها رغم عوائق مجتمعها وإرث الثقافة المستبخسة للنساء ولفعلهن.

الخاتمة :

لا ندّعي في هذه الورقة أننا استوفينا مبحث "مساهمة المرأة المغاربية في حركة التحرير"، بل أملنا أننا توفّقنا في استحضار جوانب كانت محجوبة فيه، عرضنا فيها لأهمية هذه المساهمة خاصّة في "الربع ساعة" الأخير من حياة الاستعمار وبيّنا

[27] المصدر نفسه، ص 54-55.

[28] G. Meynier, **op. cit**. p.225.

[29] جميلة عمراني، **نفس مصدر**، ص 50.

[30] الحزب الاشتراكي الدستوري، **السجل القومي لشهداء الوطن**، تونس، دار العمل، 1978.

أن اقتحام النساء في المغرب للعمل السياسي أو العسكري التحرّري كان رهين شروط "سماح" الرجال للنساء بالفعل التاريخي، وتحت مراقبتهم وقيادتهم. وهو حتما ما كان ينبئ بما سوف تكون عليه التركيبات السياسية والاجتماعية لدول الاستقلال ومكانة المرأة فيها.

ملحق 1

لجنة تحرير المغرب العربي

الوفد التونسي

32 شارع عبد الخالق ثروت

القاهرة في 1955/7/12

بيان للأستاذ صالح بن يوسف

الأمين العام للحزب الحر الدستوري التونسي

حول المصادقة على الاتفاقيات التونسية – الفرنسية

وأخيرا صادقت الجمعية الوطنية الفرنسية على الاتفاقيات التونسية الفرنسية بأغلبية لم يعهد لها نظير في تاريخ الجمهورية الرابعة حتى في بعض المناقشات التي أصبحت تاريخية وكانت تتناول مستقبل فرنسا ومصيرها.

ذلك أنّ حكومة المسيو إدجار فور استطاعت أن تحصل من المفاوضين التونسيين على تنازلات فادحة جعلت الحكم الذاتي المعلن عنه من قبل فرنسا خاليا من مقوّماته الأساسية وأدخلت البلاد في نظام وحدة فرنسية – تونسية، يؤمل المستعمرون الذين رضوا في آخر لحظة بالاتفاقيات أن تفشل إزاءها كل حركة وطنية تستهدف استقلال بلادنا استقلالا كاملا.

إنّ فرنسا ستظل لمدة غير محددة تتحكم في مصيرنا، إذ تعترف لها الاتفاقيات بحق إدارة شؤوننا الخارجية وتولي شئون الدفاع بصورة مطلقة، والتصرّف في بلادنا تصرّفا مطلقا كلما دعا إلى ذلك قيام فرنسا بمسئولياتها الدولية أو الخاصة. أمّا الأمن وهو من المقومات الأساسية لسيادة أية دولة فإنّه سيظل لمدّة طويلة خارجا عن نفوذ الحكومة، وسوف لا يتم توحيد القضاء إلاّ بعد مدّة طويلة مجحفة.

وفي الميدان الاقتصادي والمالي فإنّ الاتفاقيات تقر بصورة نهائية جميع ما اغتصبه الاستعمار الفرنسي من الثروة الوطنية، سواء بالنسبة للأراضي الزراعية أو المناجم أو غيرها.

وستكون نهضة الاقتصاد التونسي بصفة دائمة تحت رحمة رأس المال الفرنسي وبذلك يصبح من العبث أن يتغنى بعض التونسيين بقرب خلاصهم من السيطرة الاقتصادية الأجنبية.

عن المؤسستين الرئيسيتين للنظام المقبل الذي سمي، مخادعة، بالحكم الذاتي هما "حكومة صورية" وبرلمان عديم الصلاحيات سيصبحان وكلاء يديرون النظام الاستعماري الذي فرض على تونس منذ 74 عاما.

والآن وقد تمت المصادقة على الاتفاقيات، ونشرت نصوصها، لن يستطيع أحد أن يقنع الشعب التونسي بأنّها تعد مرحلة جريئة نحو استقلالنا التام، والحقيقة إنّها عبارة عن إضفاء الصبغة الشرعية على نظام استعماري أوشك على الانهيار.

وخلافا لما سبق أن أكّده الرئيس الحبيب بورقيبة، فإنّ البرلمان الفرنسي عندما صادق على الاتفاقيات بأغلبية تقرب من الإجماع إنّما عزّز بذلك السيطرة الاستعمارية الفرنسية على بلادنا.

وأنّي إذ أصر على معارضتي لهذه الاتفاقيات والتشهير بها على رؤوس الملأ، ليس ذلك توقعا لسوء تطبيقها من جانب الفرنسيّين، بل لأنّي أعتبرها في ذاتها خطرا يهدّد كيان الأمّة التونسية، قد يكون من الصعب درؤه أو تلافيه.

المصدر: الأرشيف الوطني، السلسلة .F ، ص 1، وثيقة 112.

• • •

ملحـــــــق 2

نص الخطاب الذي ألقاه الأستاذ صالح بن يوسف الأمين العام للحزب الحر الدستوري التونسي يوم 1956/1/1. بمناسبة المؤتمر التأسيسي لجامعة تونس والأحواز.

بسم الله الرّحمان الرحيم والصلاة والسلام على خير المرسلين.

إخواني – إنّي اعتبر هذا الاجتماع بالدستوريّين العاملين الذين انقطعت عنهم سنوات عديدة فرصة سعيدة تذكّرني بالمرحلة التي كنّا نكوّن فيها الإطارات الدستورية العاملة

وإنّي لسعيد باتصالي بكم في هذا المؤتمر التأسيسي وفي هذه الظروف التي أسمّيها بدون مبالغة ظروف فاصلة حاسمة لأنّنا اليوم وصلنا بفضل هاته الحركة بعد أن لفظتم لفظ النواة من صفوفكم من كان يقود هذا الحزب إلى المحك التاريخي والامتحان الذي لا يجعل مجالا للحكم على الأشخاص ونواياهم وسرائرهم وحتى على عقائدهم لقد انبعث هاته الفرصة إلى الدستوريّين والشعب للحكم على من كان يؤمن بما يدعو إليه الناس والمواطنين ومن كان لا يؤمن أنّ هاته الظروف أثبتت منذ رجوعي من الشرق من هو الذي كان صادقا في أداء الرسالة التي التزمنا بتأديتها وتسليمها إلى من يأتي بعدنا.

المفاوضات الأولى:

لقد شركنا في الوزارة سنة 1950 على أنّنا لم نعتبرها غاية في ذاتها ولم تقف المفاوضات في ذلك الحين غلاً لأنّنا أردنا أن نخرج ببلادنا إلى ميدان أوسع بدون أن نرتبط مع فرنسا بمعاهدات أو اتفاقيات وفعلا قبلنا إصلاحات فبراير التي كانت في نطاق أوامر عليّة قبلناها على أن نتابع السير حتى الاستقلال الداخلي الذي وعدنا به م. شومان وتابعنا السير فعلا حتى أجابت فرنسا بمذكّرة 15 ديسمبر التي أقرّت الحقوق السياسية لفرنسيي تونس وكانت هاته المذكّرة بالنسبة لنا مستندا للخروج بقضيتنا إلى الميدان الخارجي.

يقول الحبيب بورقيبة بأنّنا دخلنا الوزارة وقبلنا إصلاحات بسيطة ويمر مرّ السحاب عن الغايات التي كنا نرمي إليها في مشاركتنا في الوزارة وهي إيجاد مستند للخروج بالقضيّة التونسيّة من الميدان الداخلي إلى الميدان الخارجي ونحن مازلنا نذكر ما قاله م. شومان عندما طلب منا اعتبار مذكّرته قطعا للمفاوضات وقال أنّه وقع تأويلها من طرف زعماء تونس والصحافة التونسية ولكن رغم هذا لم ترجع إلى المفاوضات لأنّنا لم ندخل الوزارة ولم نقبل الإصلاحات لنفسها بل قبلناها كوسيلة إلى أن نجد نقطة الارتكاز للخروج بالخلاف من دائرة الكاي دورساي إلى المحاكم والمجالس الدولية وقد صرّحت لوزير الخارجيّة في آخر جلسة معه بهذا المعنى وسعى هو من جانبه لإفهامنا بأنّ مذكّرة 15 ديسمبر وقع تأويلها من طرفنا نحن التونسيّين.

المفاوضات الأخيرة.

اجتمعت مع السادة الباهي الأدغم ومحمّد بدره وجلّولي فارس وعلي البلهوان والطيب المهيري في 3 أوت سنة 1954 وكان هذا الاجتماع يشبه اجتماع يوليو سنة 1950 وكان

اتفقنا بأنّ هاته المشاركة يجب ألاّ تكون غاية بل وسيلة لتحقيق الاستقلال الداخلي وكيف يجب أن يكون مرحلة حقيقية إلى الاستقلال التام وقد صرّحت في 5 جانفي سنة 1955 وحدّدت أركان الاستقلال الداخلي وكيف يجب أن يكون غير مقيّد حتى نستطيع أن نسير بسرعة نحو الاستقلال التام ولم يكن هذا ما جادت به قريحتي بل هو ما وقع الاتّفاق عليه على أن يتم في مدّة قصيرة جدا لا تتعدّى الأسابيع.

لقد كنت على اتصال مع بورقيبة هاتفيا حتّى قبل 31 جويلية وقد هتف لي صبيحة 31 جويلية قائلا أن منداس فرانس سيلقي اليوم خطابا وصارحني بأنّ له مذاكرات مع منداس فرانس قديمة عن طريق المصمودي وأكّد لي بأنّ هاته المذاكرات أن علمت أساسها لا ترضيني وقال لي في نهاية الجدال لا بدّ أن نتفق.

لقد وقعت تدخّلات من طرف الدول الإفريقية والآسيوية لدى فرنسا لحل الأزمة القائمة في البلاد التونسية على أن يكون هذا الحل على أساس الاستقلال التام وقد كنت أعلم أسرار المفاهمات السرية الواقعة بين فرنسا والدول الآسيوية حيث وعدتهم فرنسا بإعطاء الاستقلال التام ويقع حل القضية التونسية حلّ مرضيا بالنسبة للشعب التونسي.

لقد كنت غير راض على هذا التسرّع الذي وقع به القبول في الدخول في الوزارة ثم في المفاوضات بدون أن يقع تحديد النقط التي دخلوا من أجلها وتبديل الوزارة في الحين كما وقع بالنسبة للقضية المغربية وكان هذا ممكنا لأنّ تصريح منداس فرانس يسمح لنا بذلك.

دخلوا في المفاوضات وكنت على احتراز تام كما تعلمون حتى صرّح الحبيب بورقيبة تصريحات مسجّلة في جريدة لوموند حدد فيها ما ستأتي به الاتفاقيات وقد صرّح بأنّ الأمن سيبقى بيد مدير فرنسي فعلمت أنّ هناك محادثات سرّية تجري في كواليس الكاي دورساي بين بورقيبة ومنداس ورجعت من آسيا إلى جنيف لأنّي استغربت هاته التصريحات المنافية لما اتفقنا عليه في اجتماع 3 أغسطس وتقابلت مع المنجي سليم وصرّح لي بأنّ هاته المفاوضات ستكون كالمفاوضات التي أجريناها مع فرنسا في سنة 1951 يعني أن تكون وسيلة إمّا إلى الحصول على استقلالنا أو جعلها وسيلة إلى مواصلة الكفاح حتّى الاستقلال التام.

وقد علّقت الصحف العالمية في اليوم الأوّل والثاني من شهر أوت 1954 بأنّ المفاوضات التي ستفتح مع التونسيّين ستكون على أساس إعطاء الضمانات للفرنسيّين فقط

بدون أن يحدّ هذا من استقلال البلاد التونسية وتصريحات منداس فرانس تثبت هذا حيث قال من الطبيعي أن يكون هناك دفاع موحّد وتكون هناك سيادة تونسية منسجمة ولم يقل بأنّ الدفاع سيبقى لفرنسا وحدها فقبلت مبدأ هذا التصريح مع الضمانات الأخرى التي عندي وهي تطمينات منداس فرانس إلى الدول الإفريقية والأسيوية بأنه سيقع حلّ قضية تونس على غرار مشكلة الهند الصينية.

لقد طالبت بورقيبة أثناء اتّصالي معه هاتفيا بأن تشكّل حكومة تونسيّة منسجمة قبل الدخول في المفاوضات ولكن امتنع وشكّل الحكومة على غرار حكومة مزالي وعرفت أننا سنكون ضعافا في هاته المفاوضات وقلت في نفسي هل أجاهر يا ترى وأعلن عن رأيي من الآن لكن علمت أنّه سينشأ عنه اضطراب وقلت سأحاول أن أضبط أسس المفاوضات وأحاول التصليح اجتنابا للمصادمات كما قلت لأنّ الشعب قد سار في تيّار معين وأصبح يهتف لمنداس ولكن مع هذا أخذت الاحتياطات وصرحت بأنّه يجب أن تكون المفاوضات على أساس الاستقلال الداخلي الذي يفتح لنا الطريق نحو الاستقلال التام وتكون المفاوضات تحدّد الآجال فقط مع تعيين الضمانات لحياة الفرنسيّين بتونس.

سرنا في المفاوضات حتى أتت مشكلة الثوّار وكنت معارضا في تسليم السلاح ومعي بورقيبة الذي ألقى تصريحا دوّت له أركان العالم يقول فيه بأنّه لا يمكن أن يسلّم الثوّار أسلحتهم ولكن ما راعني إلاّ وراديو سويسرا ينقل لي تصريحا مضادا للتصريح الأوّل يقول فيه بأنّ الثوّار سيسلمون أسلحتهم وأخذت الهاتف وخاطبت بورقيبة في الأمر فقال أنها فرصة أعطيناها لإنجاح المفاوضات وناقشته في الأمر ولكن بدون جدوى ففكرت في الإدلاء بتصريح أعارض فيه تسليم السلاح فعلمت أنّه سيقع انقسام في صفوف الثوّار فتحاشيت وقوع هذا ولكنّني كنت أراسل الديوان السياسي وآمره بأن يطلع العدد الدستورية على رأيي ويجيبني وذلك عند اتصالي بهم وخاصّة بالطيّب المهيري الذي أكّد أنّه سيعمل جهده لإفهامهم فكرة الكاتب العام وعند مقابلتي له مرّة أخرى قال أنّنا أطلعنا الدستوريين على رأيك وبينا لهم ما ستكون عليه الاتفاقيات ويؤكّد لي بدوره بأنّه لا يمكن أن نسلم في حقوقنا الأساسية كالأمن والخارجية والتمثيل الدبلوماسي وفي 10 نوفمبر 54 و24 نوفمبر 54 وجّهت رسائل إلى الديوان السياسي قلت فيها إذا وافقتم على تسليم السلاح فهذا يعد منكم خيانة وإذا أقررتم معاهدة باردو وفي الاتفاقيات يعد منكم خيانة وعارا وإذا سلمتم في حقوقنا في الأمن والتمثيل الدبلوماسي والخارجية فهذا عار وخيانة أمام العالم وأمام الشعب التونسي بصفة خاصة، وقد صرّح لي المنجي سليم عقب هاته الرسائل يطمئنني ويقول

بأنّنا لا يمكن أن نقر معاهدة باردو وفي الاتفاقيات أو التنازل عن حقوقنا في الأمن والخارجية.

الاتفاقيات:

لم يتم ذلك مع الأسف وأقرت الاتفاقيات معاهدة باردو التي وقع إمضاؤها بحذ السيف وأصبحت هاته المعاهدة المفروضة على الصادق باي شرعية وأصبح احتلالنا من طرف فرنسا شرعيا في حين أنّنا طعنا فيها وقاومناها مدّة 74 سنة وتحدثنا عن الرسائل التي كان الصادق باي يطلب فيها النجدة من الدول الكبرى في الفترة التي سبقت الاحتلال وأخذت بوادر في المناوشات قرب الحدود.

وعلى كل إنّي عملت ما في وسعي لإفهام الدستوريّين على ما يجب أن يكون عليه الاستقلال الداخلي ومدلولاته ولكن كانت توصياتي وتصريحاتي لا تنشر ولا تبرز للناس إلاّ القليل النادر وكان يوجد ضغط على الصحافة في عدم نشر تصريحاتي خاصة كل التصريحات التي حدّدنا فيها مدلولات الاستقلال الداخلي ولكن الغريب أنّي لم أفهم ما هو الذي حدا بالدستوريّين إلى عدم فهم تصريحاتي وإلى رضاهم بأعمال الديوان السياسي.

إنّي عندما كنت بجنيف اتّصل بالمنجي سليم كان يقول بأنّ الاتفاقيات ستكون مرضية وكنّا في ذلك الحين نتبادل الثقة وهذه الثقة هي التي أوصلتنا إلى هاته الحالة. وكنت أتدرج في تقوية اللهجة في تصريحاتي خوف فوات الوقت وكانوا يقولون لكم من جهتهم بأنّه تكتيك سياسي ولم يتفطن الدستوريون لخطر الاتفاقيات التي ثبت عندي بأنّه وقع الاتفاق على قواعدها مع النائب الاشتراكي م. سافاري في جزيرة جالطة ولم يبرز هذا الاتفاق إلاّ بعد تسجيل الاتفاقيات حيث سجلوا باسم الشعب معرّة وباليتهم استغلّوا إمكانيات تصريح 31 جويلية نفسه ووقفوا عنده ولكن كانت الأمور شكلية وكان أسبوع حاسم ووقع الإسراع بتشكيل حكومة وثبت بأنّ هناك اتّصالات أخرى مع بورقيبة ومنداس على طريق المصمودي ووقع تحديد كافة النقط.

وقد طلبت من الطيب المهيري بأن يستلم من المنجي سليم نصوص الاتفاقيات ولو بالقوة أثناء الفترة التي بين وزارة منداس وفور وتنسخ منها عدّة نسخ وتسلم إلى المسؤولين الدستوريين وعلى المنضمات القومية مع تبيين رأيي فيها وصرحت له بأنّي سأقاومها في صورة قبولها وأخوّن من قبلها.

وسعيت في تسلّم جواز سفر للرجوع إلى تونس ولكن بدون جدوى بدعوى أنّ دخولي سيكون خطرا على المفاوضات وقالوا أنّنا وعدناك بأنّنا لا نتجاوز رأيك وأنّنا على اتّصال تام معك.

وعند رجوع المنجي من تونس في فترة تكوين وزارة م. فور أعلمني بأنّه أطلع المسؤولين الدستوريّين عن رأيي وأكدوا ثقتهم في المتفاوضين وأنّهم يرون أن نأخذ حلا وسطا بين الرأيين، وثبت بأنّ التطمينات التي يعطونها إليّ كانت شكلية لأنّ كل شيء وقع التفاهم فيه بقي لنا اليوم أن أبيّن الظرف الحالي.

الظرف الحالي:

كنت بالشرق كما تعلمون وبدأت المحاولات من طرف الدستوريين بعد ما تم كل شيء وكانوا يقولون بانّ حالة الحزب أصبحت في خطر وأن التطاحن والخلافات قد انتشرت في صفوف الحزب ويطلبون مني الرجوع لتلافي هاته الحالة على أنّ الأمر الذي يهمني قبل كل شيء هو موقف الشعب من هاته المعرة الكبرى لأنّ الحزب في نظري وسيلة لتحقيق الهدف ولا يمكن أن نرضى بما يعتبر هزيمة في سبيل إبقاء الوحدة والتمسك بالحزب.

وصرحت بأنه لا يمكنني أن أسكت وأقر بأمر يقولون أنّه واقع وقد تم فعلا إلا أن أعتبره خيانة حيث نرضى أن نسجل كدستوريين هذا العار على الشعب التونسي في سبيل الاحتفاظ بالوسيلة أي الحزب ونقبل وضعا لم يقبله أي وطني في الدنيا ولا أي منظمة في العالم.

المصدر: مركز التوثيق الوطني (B.I.15)

أولا : المصادر:

1- الأرشيفات :

وقع استغلال كل المتاح من المصادر الأرشيفية خاصة الفرنسية منها : أرشيف المصلحة التاريخية لجيش البر (SHAT) والأرشيف الوطني لما وراء البحار (ANOM) بأكس أون بروفنس، وأرشيف الإقامة العامة بتونس (نانت) وأرشيف وزارة الخارجية الفرنسية (QO). وفي تونس الأرشيف الوطني ووثائق مركز التوثيق القومي. ويجد القارئ تفاصيل الوثائق ومصادرها في ثنايا فصول الكتاب.

2- الشهادات:

استغلت شهادات الفاعلين التالين إن كانت صوتية أو مكتوبة، ويجد القارئ الإحالة لمصدرها ضمن الكتاب :

إبراهيم عبد الله	البشير بن نصر اليزيدي	عبادة بن عثمان الشرايطي
الأمير الشاذلي باي	البشير زرق العيون	تميم لحمادي
حسين التريكي	عبد الوهاب السندي	البشير بالقاضي
الساسي لسود	الحاج علي قعيب (الكبران)	بلقاسم قرف
عبد الحميد الفقيه	الحاج عمر النابلي	أحمد صوة
عبد الستار الهاني	الطاهر لسود	محمد الصالح البراطلي
عبد الله العبعاب	الأزهر القروي الشابي	عبيد بن منصور الشرايطي
علي المعاوي	الساسي بويحي	سلامة بن صالح سلامة
عمر شاشية	حسن بن عبد العزيز	علي بن سالم
محمد الصالح كعفار	أحمد المستيري	حمادي غرس
محمد الصياح	العربي بن أحمد العكرمي	ربح ابنة الأزهر الشرايطي

3-الصحف:

الإرادة، لسان الحزب الدستوري القديم (1950).

الأسبوع، أسبوعية (1955).

الاستقلال، ناطقة باسم الحزب الدستوري القديم (1955).

إفريقيا، (1925)

باري براس، (1954).

البتي متان (Le Petit Matin) (1954).

البلاغ، صحيفة أسبوعية موالية لصالح بن يوسف (1955-1956).

الرائد الرسمي التونسي، (1956).

الزّهرة، يومية 1925، 1948.

الصباح، يومية خلال سنوات مختلفة 1951، (1954 -1956)، 1963.

صوت التّونسي (La voix du Tunisien)، 1930.

العمل، لسان حال الحزب الدستوري الجديد 1956/1/4.

الكفاح الاجتماعي(Le Combat Social) 1925.

لا براس (La Presse) (1954).

لا ديبش تونزيان (La Dépêche tunisienne)، قريبة من الإقامة العامة (1937).

لافوا دي تينزيان (La Voix du Tunisien)، أسبوعيّة ثم يومية، 1930-1931.

لاكسيون (L'Action)، يومية ناطقة باسم الحزب الحر الدستوري الجديد، 1957.

لسان الشعب، سنوات مختلفة 1925، 1930.

لوبتي ماتان (Le Petit Matin) 1955-1956.

لومند (Le Monde)، (1955).

اليقظة، (1955).

ثانيا- المراجع :

أ- بالعربية :

• الكتب والمقالات :

- إدريس، الرشيد، **ذكريات عن مكتب المغرب العربي في القاهرة**، الدار العربية للكتاب، تونس، 1981.

- إدريس، الرشيد، **في طريق الجمهورية، مذكرات**، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 2001.

- إدريس، محمد مسعود، "المقاومة المسلحة بالجنوب الغربي للبلاد التونسية، 1952 – 1954. إستنتاجات أولية من خلال بعض الإحصائيات"، بأعمال الندوة حول: **الجنوب التونسي من الاحتلال إلى الاستقلال (1881 – 1956)**، نشر المعهد الأعلى لتاريخ الحركة الوطنية، تونس 2005.

- الأدغم، الباهي، **الباهي الأدغم مراسلات 1952-1955**، دار سراس للنشر، تونس 1990.

- أعمال الملتقى الذي نظمته مؤسسة محمد بوضياف حول "**جيش التحرير المغاربي 1948-1955**"، نشر المؤسسة، الجزائر، 2004

- أعمال ندوة : "**المغرب وافريقيا بعد الاستقلال**" التي نظمها معهد الدراسات الإفريقية، نشر معهد الدراسات الإفريقية، الرّباط، 1996.

- البكوش، سمير، "صدى القضيّة الفلسطينية بتونس وصراع القوى السّياسية حولها بين 1947 – 1948 " بمجلة **روافد**، عدد 2001/6، ص 31–60.

- بن مصطفى، محمد صالح، "دور صحفية البلاغ في تغطية الصراع البورقيبي اليوسفي في **القضاء والتشريع في تونس البورقيبية والبلاد العربية**، نشر فنرسي، زغوان ، 2004 ، ص 247-281.

- بن يوسف، عادل، "النخبة التونسية والحركة الوطنية الجزائرية (1927–1962)" **بالمجلّة التاريخية المغاربيّة**، عدد 2003/109، ص.9–32.

- بن يوسف، عادل، "مقدمة لدراسة مساهمة الحكيم حافظ إبراهيم في النّضال ضد الاستعمار الفرنسي بشمال إفريقيا"، **المجلّة التاريخية المغاربية**، عدد 102–103، مارس 2001.

- بن يوسف، عادل، **النخبة العصرية التونسية ، طلبة الجامعات الفرنسية : 1880-1956** ، نشر كلية الآداب بسوسة، سوسة، دار الميزان للنشر، 2006.

- بناني، عثمان، "محمد بن عبد الكريم الخطابي ومسألة استقلال المغرب" بمجلة **أمل** عدد 8، 1999، ص 145 – 154.

- بورقيبة والبورقيبيون وبناء الدولة التونسية، زغوان، فرنسي، 2001.

- بورقيبة، الحبيب، **تصريحات وأحاديث صحفيّة**، تونس، نشر وزارة الإعلام، 1963.

- بورقيبة، الحبيب، **حياتي**، آرائي، **جهادي**، تونس، منشورات كتابة الدولة للإعلام، 1978.

- بورقيبة، الحبيب، **خطب** الجزء 4 والجزء 8، نشر كتابة الدولة للإعلام، تونس، 1977.

- بورقيبة، الحبيب، **محاضرات في تاريخ الحركة الوطنية**، نشر كتابة الدولة للأخبار، 1974.

- بوعيّاد، حسن، **الحركة الوطنيّة والظهير البربري، لون آخر من نشاط الحركة الوطنية في الخارج (1930)**، الدار البيضاء، دار الطّباعة الحديثة، 1979.

- بيضة، جمعة، "الحركة الوطنية المغربيّة وتحرّر البلاد التّونسيّة" (بالفرنسيّة) ضمن أعمال الملتقى الدّولي التاسع: **تصفية الاستعمار بتونس، الأطوار والأبعاد (1952-1964)**، نشر المعهد الأعلى لتاريخ الحركة الوطنية، 1999، ص 137-145.

- التجكاني، المهدي المومني، **دار بريشة أو قصة مختطف**، الدار البيضاء، 1987.

- التليلي، أحمد، **في سبيل الديمقراطية**، تونس مطبعة قرطاج، 1991.

- التميمي، عبد الجليل، **كتابات ومذكرات المناضل يوسف الرويسي السياسية مع وثائق جديدة تنشر لأول مرة**، منشورات مؤسسة التميمي، زغوان 1995.

- التيمومي، الهادي، **تونس 1956-1987**، صفاقس، دار محمد علي للنشر، 2006.

- التيمومي، الهادي، **نقابات الأعراف التّونسيّين (1932-1955)**، صفاقس، دار محمد علي للنشر، 1983.

- ثامر، الحبيب، **هذه تونس**، بيروت، دار الغرب الاسلامي، 1988.

- الجابري، محمد صالح، **العلاقات الثقافية بين تونس والجزائر**، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1990.

- جماعي، **جيش التحرير المغاربي 1948-1955**، نشر مؤسسة محمد بوضياف، الجزائر، 2004.

- جماعي، **نساء وذاكرة، تونسيات في الحياة العامّة 1920-1960**، تونس، مطبعة مدياكوم، 1993

- جماعي، **نهاية حكم بورقيبة والقيادات السياسيّة العربيّة بين الصعود والانحدار**، منشورات مؤسسة التميمي، تونس، 2005.

- الحزب الاشتراكي الدستوري، **السجل القومي لشهداء الوطن**، تونس، دار العمل، 1978.

- الحزب الحر الدستوري التونسي، **المؤتمر الوطني بصفاقس من 15 إلى 19 نوفمبر 1955**، تونس، د.ت.

- خليدي، محمّد وخبّاش، حميد، **جهاد من أجل التّحرّر: الحكيم عبد الكريم الخطيب- الحكيم حافظ إبراهيم**، الرّباط، منشورات إفريقيا، 1999.

- الدغالي، محمد معروف، "حزب الشورى والاستقلال من التأسيس إلى الانهيار، 1946-1959"، مجلة **أمل** عدد 10/11- 1997، ص. 65- 94.

- الذيب، فتحي **عبد الناصر والثورة الجزائرية**، القاهرة، 1980.

- الزغل، حامد، **جيل الثورة، ذكريات مناضل**، تونس، سيراس 2001.

- سعيد، الصافي، **بورقيبة. سيرة شبه محرّمة**، دار الرّيس، بيروت، 2000.

- السّوفي، عمّار، **بني خداش وجيرانها** عبر الحركات النّضالية (من الحركة التمرّدية إلى المقاومة اليوسفيّة)، صلامبو، مطبعة الياسمنيّة، 2001.

- السوفي، عمار، **عواصف الاستقلال، رؤية في الخلاف اليوسفي البورقيبي**، صلامبو، مطبعة الياسمنية، 2006.

- الشابي، المنصف، **صالح بن يوسف، حياة كفاح**، دار الأقواس للنشر، تونس، 1990.

- الشايبي، لطفي، "الدولة التونسية الجديدة والثورة الجزائرية. 1954-1958" مداخلة في الذكرى **40 لاستقلال الجزائر**، الجزائر، 2002، تحت الطّبع.

- ضيف الله، محمد، **المدرج والكرسي**، صفاقس، مكتبة علاء الدين، 2003.

- ضيف الله، محمّد، "المحاكمات السياسية في تونس في عهد بورقيبة (1956-1987)" ضمن **القضاء والتشريع في تونس البورقيبيّة والبلاد العربيّة**، مؤسّسة التميمي، زغوان، 2004، ص 159-178.

- طوبال، إبراهيم، **البديل الثوري في تونس**، بيروت، دار الكلمة، 1979.

- عبد الله، الطاهر، **الحركة الوطنية التونسية، رؤية شعبية قومية جديدة**، سوسة، دار المعارف للطباعة والنشر، 1980.

- عبيد، خالد، "الخلاف البورقيبي الثامري بمصر وتداعياته : نحو الرّؤية البورقيبية لتاريخ البورقيبي 1947-1950" **بالمجلة التاريخية المغاربية** عدد 97-98/2000، ص.105-152.

- عبيد، خالد، "مكاشفات أحمد صوة (الشرقيون... اليوسفية) 1953-1958" **بالمجلة التاريخية المغاربية**، عدد 2001/104، ص 409-442.

- العزيز، محمد حمادي، **جيوش تحرير المغرب العربي**، نشر المندوبية السامية لقدماء المقاومين وأعضاء جيش التحرير، الرباط، 2004.

- العكرمي، العربي بن أحمد، **من ذاكرة مجاهد**، تونس، دار الأقواس للنشر، 1997.

- العلاني، عبد الحميد، **لم ينامو على الذلّ**، تونس، شركة فنون الرسم والنشر والصحافة، 2006.

- علية الصغير، عميرة والمنصر، عدنان، **المقاومة المسلّحة في تونس (1939-1956)**، نشر المعهد الأعلى لتاريخ الحركة الوطنيّة، 2005.

- علية الصغير، عميرة، "جيش التّحرير الوطني التونسي : حقيقته ومصيره" بـ : **جيش التحرير المغاربي، 1948-1955**، مؤسسة محمد بوضياف، الجزائر، 2004، ص.83-112.

- علية الصغير، عميرة، **المقاومة الشعبية في تونس في الخمسينات. انتفاضة المدن – الفلاّقة – اليوسفيّة**، صفاقس، مطبعة التسفير الفني، 2004.

- عليّة الصغير، عميرة، "مسار تحرر المرأة في تونس بين مقتضيات الواقع واختلاف الرؤى (1920-1948)" بمجلة **أمل**، الدار البيضاء، عدد 28-29/ 2003، ص 169-325.

- عليّة الصغيّر، عميرة، "صورة المعارض في الخطاب البورقيبي: الوجه والقفا" في: **حول السّلطة وآليات الحكم في عصر بورقيبة بتونس والبلاد العربيّة**، مؤسّسة التميمي، زغوان، 2003، ص 151-161.

- العمراني، للة صفية، "الشعر والمقاومة بالجنوب الغربي 1930-1956" ضمن كتاب: **جيش التحرير المغاربي 1948-1955**، الجزائر، نشر مؤسسة محمد بو ضياف، 2004، ص 201-219.

- قرار، الحبيب، **لتحيي تونس**، مطبعة بوسلامة، تونس 1996.

- الكافي، علي، **مذكرات. من المناضل السياسي إلى القائد العسكري، الجزائر**، دار القصبة، 1999.

- كتابة الدولة للشؤون الخارجية، **كتاب أبيض في الخلاف بين الجمهورية التونسية والجمهورية العربية المتّحدة**، 1958.

- الكواكبي، عبد الرحمان، **طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد**، ضمن الأعمال الكاملة، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، الطبعة الأولى، 1995.

- اللّواتي، حمادي، **أبناء جزيرة جربة في الحركة الوطنية (1881-1961)**، تونس، الشركة التونسية لفنون الرّسم، 2005.

- ليسير (فتحي)، **من الصعلكة الشريفة إلى البطولة الوطنية**، صفاقس، ميدياكوم، 1999.

- مؤسسة محمد بوضياف، **جيش التحرير المغاربي (1948 – 1955)**، الجزائر، 2004 ، 246 صفحة بالعربية و80 صفحة بالفرنسية.

- ماجد، جعفر، "الثورة الجزائرية في الشعر التونسي"، **مجلة سيراس**، تونس، 1979، ص 45-58.

- مبارك، زكي، "اغتيال فرحات حشاد. ردود الفعل والتبعات في المغرب" بـ **فرحات حشاد. الحركة العمّاليّة والنّضال الوطني**، نشر فترسي، زغوان، 2002، ص 109-117.

- مبارك، زكي، "محمد بن عبد الكريم الخطّابي وحركة التحرّر المغاربية (1947-1956)" بأعمال ندوة: **تصفية الاستعمار بتونس: الأطوار والأبعاد (1952-1966)**، نشر معهد الحركة الوطنية، 1999.

- مبارك، زكي، **محمد الخامس وابن عبد الكريم الخطّابي وإشكالية استقلال المغرب**، الرّباط، منشورات فيديبرانت، 2003.

- المدني، أحمد توفيق، **حياة كفاح، مذكّرات (1905-1925)**، الجزائـر، 1976.

- المدني، أحمد توفيق، **حياة كفاح**، الجزء الثالث، الجزائر، الشركة الوطنيّة للنشر والتوزيع، 1982.

- المرزوقي، محمد، **صراع مع الحماية**، دار الكتاب الشرقية، تونس، 1973.

- المعاوي، علي، **ذكريات وخواطر** ، نشر المعهد الأعلى لتاريخ الحركة الوطنية، المطبعة الرسمية، 2007.

- المندوبية السامية لقدماء المقاومين وأعضاء جيش التحرير، **ندوة المقاومة المغربية ضد الاستعمار، 1904-1955**، سلا، مطبعة ديتكو، بدون تاريخ، (نظمت الندوة في نوفمبر 1991).

- المندوبية السّامية لقدماء المقاومين وأعضاء جيش التحرير، **المقاومة بإقليم خريبكة (1912-1956)** ، الرّباط، 1993.

- المندوبية السّامية لقدماء المقاومين وأعضاء جيش التحرير، **المقاومة في المغرب الشرقي**، الرّباط، 1994.

- المندوبية السّامية لقدماء المقاومين وأعضاء جيش التحرير، **المقاومة المسلّحة والحركة الوطنية بالمنطقة الوسطى الشمالية ما بين 1911-1956**، الرباط، 1997.

- المندوبية السّامية لقدماء المقاومين وأعضاء جيش التحرير، **تاريخ المقاومة المسلّحة والحركة الوطنية في المنطقة الوسطى الجنوبيّة (1908-1955)**، الرّباط، 1992.

- المندوبية السّامية لقدماء المقاومين وأعضاء جيش التحرير، **فكالة وتاريخ المقاومة بالمغرب**، الرّباط، 1995.

- المنتوبية السامية لقدماء المقاومين وأعضاء جيش التحرير، **ندوة المقاومة المغربية ضد الاستعمار (1904-1955)**، الرّباط، 1991.

- المنصر، عدنان، **دولة بورقيبة**، منشورات كلّية الآداب والعلوم الإنسانية بسوسة، مطبعة التسفير الفني بصفاقس، 2004.

- المولهي، محمّد، الحبيب **الوطن والصّمود**، لبنان، دار الغرب الإسلامي، 1991.

- نصيب، نعيمة، "الممارسة السياسية للمرأة الجزائرية: الواقع والآفاق" بمجلة **أمل**، 28-29/ 2003، ص 248-268.

- واردة، منجي، "جذور الحركة اليوسفيّة" **بالمجلّة التاريخيّة المغاربية**، عدد 71-72، ماي، 1993، ص 479 - 563.

- اليوسفي، عبد الرحمان، "مؤسسات جمهورية الريف" بمجلّة **أمل** عدد 8/1999، ص 91-102.

* **الأطروحات المخطوطة:**

- التركي، عروسية، **المقاومة المسلحة في جهة الأعراض من 1952 إلى 1954**، ش.ك.ب.، كلية العلوم الإنسانية تونس، 1985.

- التركي، عروسية، **الحركة اليوسفية بتونس (1955-1956)**، مكتبة علاء الدين، صفاقس، 2011.

- الخميري، محسن، **الحركة اليوسفية : مجالها وحدودها (1955-1961)**، رسالة الدراسات المعمقة في التاريخ، كلية الآداب بمنوبة، 2004.

- الزواري، محمد، **الحركة اليوسفيّة بجهة صفاقس (1955-1956)**، ش.د.م، كلية 9 أفريل، تونس، 2003.

- السويح علي، **الوطنيون التونسيون ومصر، 1952-1956**، ش ب م، كلّية العلوم الإنسانية والإجتماعية بتونس، 1996.

- الشيحي، مبروك، **حرب الرّيف وانعكاساتها بتونس. 1921-1926**، الجامعة التّونسيّة، 1982.

- عبيد، خالد، **مكتب المغرب العربي بالقاهرة 1947-1949**، ش ك ب ، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية بتونس، 1989.

- العثملي، عبد الرزاق، **فلاقة زرمديـــن (1943 - 1948)** ش.ك.ب، كليـــة الآداب بسوســــة، 2001.

- العريبي، عبد القادر، **تونس وعلاقاتها مع بلدان المغرب العربي (1947-1980)**، أطروحة دكتوراه في التاريخ، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، تونس، 1999.

- المحضي، منيرة **المسألة التونسية من 31 جويلية 1954 إلى 20 مارس 1956**، ش ك ب، كلية 9 أفريل 1985.

- المطوي، مختار، **المسألة التونسية من خلال جريدة "الاستقلال"** ش ك ب، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية تونس، 1986.

- ناصري، محمد المختار، **الحركة الوطنية بين البورقيبية واليوسفيّة، 1934-1969**، ش.ك. كلية 9 أفريل، تونس، 1991.

- الناصري، محمد المختار، **المقاومة التونسية المسلّحة وإشكالياتها: 1952-1956**، أطروحة دكتوراه، كلّية العلوم الإنسانية والاجتماعية بتونس، 2002.

- الهلالي، عبد الحميد، **تاريخ جهة جندوبة (1881-1956). علاقة الحركة الوطنية بالأرياف**، أطروحة دكتوراه، كلّية العلوم الانسانية والاجتماعية بتونس، 2000.

ب- بغير العربية :

- Achour, Habib, **Ma vie politique et syndicale. Enthousiasme et déceptions**, Editions Alif, Tunis, 1989.

- Al Dib, Fathi, **Abdel Nasser et la Révolution algérienne**, Paris, L'Harmattan (traduit de l'arabe) 1985.

- Aleya Sghaier, Amira, « *La Tunisie base arrière de la révolution algérienne 1954-1962* », in **RHM** n° 118, 2005.

- Aleya Sghaier, Amira, « Les groupement politiques français de droite et la décolonisation (1954-1956) », in **Processus et enjeux de la décolonisation en Tunisie (1952-1964)**, pub . de l'ISHMN, Tunis, 1999, pp. 205-231

- Aleya Sghaier, Amira, « Les Tunisiens et la révolution algérienne », in **Méthodologie de l'histoire des mouvements nationaux au Maghreb**, Zaghouan, FTERSI, 1998, pp. 109-141.

- Aleya Sghaier, Amira, « Synopsis des principaux groupements politiques français de droite en Tunisie au temps de la colonisation » in **Les Cahiers de Tunisie**, n° 180, 2002, pp. 9-29.

- Aleya Sghaier, Amira, « Trafic d'armes en Tunisie : 1942 -1962 », **IBLA**, 66 année, 2003-2. pp. 109-141.

- Amrane, Jamila, « les combattantes de la guerre de libération nationale en Algérie », in **Histoire des femme au Maghreb**, (collectif), Tunis, CUP, 2000, pp. 43-74.

- Art. « Mohamed V, un roi consacré par son peuple », in **Les Africains**, Paris, Editions J.A., 1978, Tome X, pp. 211-239.

- Azzouz, Azzedine, **L'histoire ne pardonne pas, Tunisie 1938-1939**, Paris / Tunis, L'Harmattan/ Dar Ashraf, 1988.

- Baida, Jamaâ, « Le mouvement national marocain et la décolonisation de la Tunisie », in **Processus et enjeux, de la décolonisation en Tunisie (1952-1964)**, I.S.H.M.N. Tunis, 1999, pp. 137-145.

- Bakalti, Souad, **La femme tunisienne au temps de la colonisation, 1881-1956**, Paris, l'Harmattan, 1996.

- Ben Hamida, Abdessalem, **Le syndicalisme tunisien de la deuxième guerre mondiale à l'autonomie interne**, Pub. de l'université de Tunis I, 1989.

- Bersot Louis, **Le youssefisme**, mémoire dactylographié au CHEAM à Paris, 1958.

- Bessis, Juliette, « La crise de l'autonomie et de l'indépendance tunisienne, classe politique et pays réel », in **Cahier du Mouvement Social**, n°3, Paris, les Editions ouvrières, 1978, pp. 265-292.

- Bessis, Juliette, **Les Fondateurs, Index biographique des cadres syndicalistes de la Tunisie coloniale (1920-1956)**, Paris, l'Harmattan, 1985

- Bomberger, Serge, **les Rebelles algériens**, Paris, Plon, 1958.

- Bourguiba, Habib, **La Tunisie et la France**, Tunis, M.T.E., 1954.

- Bouzar, Nadir (dit Abdelkader) : **L'Armée de libération nationale marocaine : 1955-1956. Retour sans visa (journal d'un résistant maghrébin)**, Paris, Publisud, 2002.

- Chaïbi, Lotfi, **Socialistes français et nationalistes tunisiens, Histoire d'une rencontre (1945-1956)**, Tunis, Orbis, 1997.

- Chaïbi (M. L.), « Préliminaires à l'étude de la résistance armée nationaliste dans la région de l'Aradh (1952-1954) », in **Rawafid**, n°2, 1996, pp. 85-150.

- Cherif, Mohamed, « La guerre du Rif et la Tunisie » in Actes du colloque international sur : **Abdelkrim et la république du rif**, Paris, Maspero, 1976, pp.456-471.

- Collectif, **Femmes et politique autour de la Méditerranée**, Paris, l'Harmattan, 1980, les articles : Raquel Thiercelin : « les femmes espagnoles et la politique » pp.11-24 ; Richard, Eliane, « Femmes et politique dans la France méditerranéenne » pp. 25-38. Olga Patané : « La femme italienne et la politique », pp. 57-69.

- Coret, Alain, **La lutte contre l'opposition politique en Tunisie, 1955-1958**, mémoire, Fac. de Droit, Paris, 1958.

- De Cock, Laurence « La France et Bourguiba : 1945-1956 » in Actes du VIIIè colloque sur : **Histoire orale et relations tuniso-françaises de 1945 à 1962, la parole aux témoins**, pub. De l'ISHMN, 1998, pp. 75-85.

- Djerbal, Daho, « Alliance et mésalliances algéro-tunisiennes », in **L'Armée de Libération du Maghreb 1948 – 1955**, Alger, Fondation Boudiaf, 2004, pp. 25 - 38.

- El Abed, Khémais, **Mohamed Ali Hammi et la France**, Tunis, C.P.U, 2004.

- El Machat, Samya, **Les Etats-Unis et la Tunisie. De l'ambiguité à l'entente, 1945-1959**, Paris, L'Harmattan, 1996.

- El Mechat, Samya , **Tunisie, les chemins vers l'indépendance (1945-1956)**, Paris, l'Harmattan , 1992.

- Elsenhans, Hartmut, **La Guerre d'Algérie, 1954-1962. La transition d'une France à l'autre, le passage de la IVe à la Ve République**, Paris, Publisud, 2000.

- Faurie Pierre, **Du fellaghisme au youssefisme** , exposé au CHEAM à Paris, 1958.

- Ganiage, Jean, **Histoire contemporaine du Maghreb de 1830 à nos jours**, Paris, Fayard, 1994.

- Général Catroux, **Achèvement de la pacification du Maroc**, Paris, 1934.

- Guentari, M., **Organisation Politico-Adminstrative et militaire de la révolution algérienne de 1954 à 1962**, Alger, O.P.U., 2000, Tome1.

- Hamed Touati (M.) "Quelques biographies de militants à travers l'immigration maghrébine en France dans l'entre- deux- guerres", in **Mélanges Charles-Robert Ageron**, Zaghouan, F.T.E.R.S.I., 1996, pp. 323-368.

- Hamza, Hassine Raouf, **Communisme et Nationalisme en Tunisie de la « libération » à l'Indépendance, (1943-1956)**, Université de Tunis I, 1994.

- Hamza (H. R.) « Espace séditieux et insurrections armées dans la Tunisie coloniale », in **Rawafid**, n° 2, 1996, pp. 27-59.

- Harbi, Mohamed et Meynier, Gilbert, **Le FLN, Documents et Histoire 1954-1962**, Paris, Fayard, 2004.

- Harbi, Mohamed, **Le F. L. N., Mirage et Réalité**, Paris, Les Editions J.A./S.T.D., 1985.

- Harbi, Mohamed, **Les archives de la révolution algérienne**, les éditions J.A., 1981.

- Henri Le Mire, **Histoire militaire de la guerre d'Algérie**, Paris, Albin Michel, 1982, pp.195-201

- Julien, Charles-André, **Et la Tunisie devint indépendante (1951-1957)**, Paris, Les Editions J.A. / S.T.D., 1985.

- Khlifi, Omar, **L'assassinat de Salah Ben Youssef**, Tunis, M.C. Editions, 2005.

- Kraiem, Mustapha, **Etat et Société dans la Tunisie bourguibienne**, MIP, Tunis, 2011.

- Kraiem, Mustapha, **Le Parti communiste tunisien pendant la période coloniale**, Tunis, Pub. de l'ISHMN, 1997.

- Lacouture, Jean, **Cinq hommes et la France**, Editions du Seuil, Paris, 1961.

- Lebjaoui, Mohamed, **Vérités sur la révolution algérienne**, Paris, Gallimard, 1970.

- Mahjoubi, Ali, **Les origines du mouvement national en Tunisie, 1904-1934**, Pub. de l'université de Tunis, 1982.

- Meynier, Gilbert, **Histoire intérieure du FLN, 1954-1962**, Paris, Fayard, 2002.

- Nezzar, Khaled, **Récits de combats, guerre de libération nationale, 1958-1962**, Alger, Chihab Editions, 2000.

- Oualdi M'Hamed, **L'orage des indépendances. Salah Ben Youssef et les youssefistes en 1955-1956**, mémoire d'Histoire, Univ. Paris I , 1998-1999 .

- Rouanet, Pierre, **Mendès France au pouvoir, 1954-1955**, Paris, Laffont, 1966.

- Rudebeck (L.), **Party and people. A study of political change**, C.Hurstand Company, London, 1969, p.33.

- Sayah Mohamed, Le **nouvel état aux prises avec le complot youssefiste, 1956-1958**, Tunis, Dar El Amal, Tome 1 (1982), Tome 2 (1983), Tome 3 (1983) (série HMNT)

- Sayah, Mohamed, **La République délivrée**, tome 2 ; 1959-1964, Tunis, Dal El Amal, 1986.

- Souyris, Cne A. « *le Mouvement fellaga tunisien. Expression d'une révolution sociale* » in **Rawafid**, n°2/1996. pp. 155-171.

- Toumi, Mohamed, **Médecin dans les maquis, Guerre de Libération Nationale 1954-1962**, Paris, s.d.

- Yahiaoui, Messaouda, « Perspective , Femme Algérienne 1830-1962 », in **El Messadir** n°6/2002.

-أ-

-ب-

-ت-

-ث-

-ج-

-ح-

-ص-

-ط-

-ظ-

-ع-

-غ-

-ف-

-ق-

-ك-

-ل-

-م-

-ن-

-هـ-

-أ-

-ب-

-ت-



المغاربية لطباعة وإشهار الكتاب
هاتف : 683 837 70 – فاكس : 975 838 70
البريد الالكتروني : mip@gnet.tn



درس التعليم العالي بجامعة قرونوبل بفرنسا والجامعة التونسيّة

متحصل على الدكتوراه والتأهيل الجامعي في التاريخ المعاصر

حاليا أستاذ تعليم عال بالمعهد العالي لتاريخ الحركة الوطنيّة.

رئيس وحدة البحوث التاريخية بالمعهد وعضو هيئة مجلة روافد



مجال إختصاصه الجاليات الأروبيّة بتونس والحركة الوطنيّة في الخمسينات

صدرت له عديد الدراسات في الاختصاص والكتب التالية :

* المقاومة المسلحة في تونس (1881-1939) بالاشتراك مع عدنان المنصر

* المقاومة المسلحة في تونس (1939-1956) بالاشتراك مع عدنان المنصر

* المقاومة الشعبية في تونس في الخمسينات

* La droite fran[illegible] en [illegible] entre 1934-1946

* موجز تاريخ ال[illegible] (بالإشتراك)

* في التحرّر الاجتما[illegible] في تونس

* الحاكم بأمره بورقيبة الأول

من فصول الكتاب :

* اليوسفيون 1954-1963

* معارك اليوسفيين في الجنوب

* الطيّب الزلاّق

* الأزهر الشرايطي

* التونسيّون والقضية المغربيّة

* الخطّابي في عيون التونسيّين

* جيش التحرير الجزائري في تونس

* بورقيبة ومحمد الخامس والقضيّة الجزائريّة

* المرأة والمقاومة المسلّحة في المغرب العربي



الثمن : 15.000 دت

ر.د.م.ك.: 978-9973-61-735-4